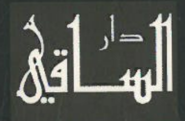
الجهادِيّون في لبنان

من "قوات الفجر" إلى "فتح الإسلام"



فداء عيتاني



صورة الغلاف: مروان طحطح

فداء عيتاني

الجهاديّون في لبنان

من "قوات الفجر" إلى "فتح الإسلام"



دار الساقي

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-027-9

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ – ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

المحتويات

شكر

لا بد ابتداءً من توجيه الشكر إلى العشرات من علماء الدين المسلمين، من مختلف المذاهب، الذين أمضوا ساعات طويلة معي تحت وقع أسئلتي التي لا تنتهي وأقدّر لهم صداقتهم التي محضوني إيّاها على ما بيننا من اختلاف في الرأي والفكر. كما أشكر ذلك العدد الكبير من الجهاديين الذين وافقوا على لقائي وأجابوا بصراحة عن أسئلتي وأكسبوني معرفة معقولة في مجال ما كنت أعرف عنه إلا ما تداولته وسائل الإعلام مُبتَسَراً.

وينبغي أيضاً شكر الزملاء في جريدة «الأخبار» البيروتية الذين تحمّلوا غيابي المتكرر، ومغامراتي غير المحسوبة التي ورّطت المؤسسة في مساءلات ومواقف كانت بغنى عنها، ولم تستفد منها المؤسسة إلا في تقديم خدمة للقارئ، وإن كان هذا هو هدف الصحف عامة، إلا أنه أمر مستغرب أن تصل خدمة القارئ إلى حدّ إقدام البعض على توريط المؤسسة بشبهات أمنية واتهامات سياسية لا تمتّ إلى الواقع بصِلة.

ولا يفوتني التنويه ببعض الزملاء الصحافيين المكدّين في مؤسّسات، يفترض أنها ليبرالية، على دعوتهم للزجّ بي في السجن فوراً، ومحاكمتي عسكرياً، على ما علمت وكتبت في حين كانت معارك مخيم نهر البارد (٢٠ أيار/مايو - ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧) جارية على قدم وساق، ولم يفهم المواطنون اللبنانيون مما يجري وقتها أكثر مما أوردته بيانات قيادة الجيش المقتضبة. ولولا دعوة هؤلاء الزملاء إلى إلقائي في السجن لما اتجهت إلى محاولة فهم «التاريخ المكتوم

للجهاديين كما يرونه» وكما كتبت بعضه على حلقات في جريدة «الأخبار»، ولما أصبح هذا الكتاب واقعاً.

وأخصّ بالشكر فؤاد (وهو اسم مستعار) على الساعات الطويلة التي أمضاها معي محاولاً شرح تاريخ الجهاديين، وكيفية التعامل مع الملفّ برمّته من وجهة سياسية، وليس من وجهة أمنية. وأرشدني إلى أفضل السبل لتجنّب تقديم صورة نمطية مشابهة لما يكتبه الغرب عنا. وقد كان فؤاد هو عينيّ اللتين رأيت بهما الواقع الإسلامي الحركي والجهادي والسلفي، ومنه استمددت العديد من عناوين التقارير التي نشرتها طوال أكثر من عام في جريدة «الأخبار». ومع الشكر لفؤاد فأنا مدين له باعتذار، على نشري معلومة سبق أن طالبني بعدم نشرها، إلا أن الذاكرة من جهة والضرورة المهنية من جهة ثانية، وإغراء إطلاع القرّاء على خلفيات الأحداث من ناحية ثالثة، دفعتني إلى خيانة ثقته بطريقة غير متعمدة، علماً أنني مدين له أيضاً بالمعلومات التي نشرتها والتي أوضحت فيها خطورة ما يجري في الشمال اللبناني قبل شهر كامل من انفجار الوضع على الأرض. وإذا كان لا بدّ من إهداء الكتاب فهو يُهدى إليه دون تردّد.

وبعدُ فإن هذا الكتاب هو ثمرة بحث استمر لأكثر من عام حول الملفّ نفسه: الجهاديون والجهاد في لبنان، ونتيجة لقاءات مع العشرات من علماء الدين ومع كوادر جهادية سابقة أو حاليّة. مع الإشارة أخيراً إلى أن جريدة «الأخبار» كانت قد نشرت ملفّات تضمّنت ملخّصاً للبحث المفصّل الذي نضعه بين أيدي القرّاء في هذا الكتاب.

فداء

«عندما التقيت داخل السجن في سوريا القادة الإسلاميين وأخبرتهم عن تجربتي قالوا: هذا الشاب كثير الكذب، ولكن يا سبحان الله... أخباره مسلّية».

معتقل سابق في السجون السورية

«كلام مضحك والله، فيه من التأليف الكثير الكثير. حقاً الكاتب خياله خصب جداً».

تعليق قارئ على ملفّ «التاريخ المكتوم للجهاديين كما يرونه» المنشور في جريدة «الأخبار».

خاتمة الفرار الكبير

صباح الثاني من أيلول/ سبتمبر العام ٢٠٠٧ وردت إلى هاتفي الخلوي رسالة مقتضبة تقول: «انتهت اللعبة». وكنت ما أزال أطالع الصحف الصباحية وأتابع محطة الأخبار الفضائية «الجزيرة»، فاعتقدت بأن في الأمر خطأ. ثم تبيّنت أن الرقم لأحد علماء الدين الشماليين الذين يعتبرهم السلفيون من رجالاتهم ودعاتهم في البلاد، وإن كان هو نفسه ينفي الأمر. وكانت تحوم حوله شائعات عن قيامه بإخفاء نبيل رحيم المطلوب من المملكة العربية السعودية والذي نجح في الفرار منها إلى لبنان وظهر في مدينة طرابلس ثمّ اختفى عاماً كاملاً قبل أن يتمّ القبض عليه. وكنت قد التقيت عالم الدين السلفي منذ أيام قليلة في الشمال، إلا أننا لم نبحث في شؤون أية ألاعيب يمكن أن تبدأ أو تنتهي.

لا بد أن في الأمر خطأ. ويمرّ نهار الثاني من أيلول/ سبتمبر هادئاً قبل انتصاف النهار، وقرابة الظهيرة تشتعل أجهزة الهاتف بالمعلومات المتناقلة على عجل والمتضاربة: محاولة فرار لفتح الإسلام[1] تفشل بالكامل، والجيش اللبناني يقضي على كل المتسلّلين، وشاكر العبسي[2] (أبو حسين) الزعيم المفترض

---

(١) تنظيم فتح الإسلام يعتبر أحد أجنحة تنظيم القاعدة؛ خاض حرباً ضد الجيش اللبناني لمدة ثلاثة أشهر في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين وهو ثاني أكبر مخيم فلسطيني في لبنان، ويقع على مسافة ١٢ كيلومتراً شمال مدينة طرابلس.

(٢) شاكر يوسف حسن العبسي (ملقب بأبو حسين وأبو يوسف والحجّي أبو حسين وأبو يوسف الفلسطيني ومحمد نمر حسونة ومحمد نمر يحيى حسّونة)، ولد في مخيم عين السلطان القريب =

للتنظيم المتشدّد يلقى حتفه وكذلك كل القيادات المعروفة: شاهين شاهين، القيادي الغامض في فتح الإسلام والذي يتردد بأنه فلسطيني، بينما تشير الحوارات الهاتفية التي كنت أجريها معه إلى غير ذلك، ومحمد صالح الدواوي (أبو سليم طه) الناطق الإعلامي باسم التنظيم والذي يقال بأنه سوري - لاحقاً أُعلن عن القبض عليه في ١٥ أيلول/سبتمبر). وكانت المعلومات الأولية تفيد بأن الجميع قتلوا في تلك الليلة.

أتذكر ما كان يردده على مسمعي شاهين شاهين، الرجل الأقوى في تنظيم فتح الإسلام، حين كنت أتصل به في الأسابيع الأولى من المعارك في نهر البارد: «هل تعتقد أن فتح الإسلام هي عبارة عن خمسمئة مقاتل محاصرين في نهر البارد؟» كان يقول الشاب دائماً، ويبدي قناعته بأن هذه الحرب مجرّد محطة في حياة تنظيمهم الحديث وأنه جزء مما هو أكبر وأعمق، ومن مشروع يصارع في كل مكان المشروع الأميركي.

لم أملك الجرأة على الاتصال بعالم الدين الذي أنبأني في رسالته صباحاً عن «نهاية اللعبة»، ولا على سؤاله متى وأين تبدأ اللعبة الأخرى؟ زد على ذلك أن الموادّ المتراكمة في أجهزة الكومبيوتر التي أستخدمها تحتاج إلى علاج سريع، فالحدث سبقني: ففي حين كان الجميع ينتظر أن تتواصل مفاوضات مملّة ما بين فتح الإسلام والجيش اللبناني، تستمر لأسبوعين آخرين على أقل تقدير يستنزف الجيش خلالهما قوى فتح الإسلام نهائياً، عمد المقاتلون الأشدّاء إلى ابتكار حلّ لأزمتهم، وخادعوا الجيش بحيلة التفاوض على إخلاء الجرحى بعد إخراج النساء من مخيّم نهر البارد الذي تمّت محاصرته منذ ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٧، عندما بدأت الاشتباكات في شارع المئتين في منطقة الزاهرية في طرابلس، وحتى لحظة التسلل الكبير فجر الثاني من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧.

= من أريحا عام ١٩٥٥. هو ضابط من «فتح الانتفاضة» قضى عقوبة سجن ثلاثة أعوام في سوريا وخرج من السجن في العام ٢٠٠٦، وسبق أيضاً أن اتهم في الأردن بالمشاركة في عملية اغتيال ديبلوماسي أميركي، ونجح في الفرار من الأردن، وفجأة ظهر في لبنان عام ٢٠٠٧ إعلامياً بصفته قائد «فتح الإسلام» التي توصف بأنها انشقاق عن حركة فتح الانتفاضة المقرّبة من النظام السوري.

ومع مرور الوقت في ذاك النهار بدأت تنكشف صورة أخرى لما حدث، وتراكمت المعلومات حول حقيقة ما جرى: عملية الفرار التي نفّذها مقاتلو «فتح الإسلام» لا تصنّف ضمن الفشل العسكري الكامل، ولها تفاصيل وتبريرات كثيرة، كما تحمل دلالات عِدّة.

ومع تراكم المعلومات كان يتراكم أيضاً صدى الأسئلة التي سبق أن عملت عليها قبل شهرين من نهاية المعركة في المخيّم الواقع شمالي لبنان، والتي كنت أجمع خلالها المعلومات لتقديمها إلى القارئ لحظة يخرج فيها من الهاجس الأمني الملوّث بالدماء والمتمثل بالمعارك الدائرة بين الجيش والإسلاميين في مخيّم تمّ تحويله إلى ساحة حرب: من أين أتى هؤلاء؟ ما الذي أتى بهم إلى لبنان؟ ماذا يريدون؟ وماذا بعد نهر البارد؟ وقبل كل شيء من هم هؤلاء المقاتلون الأشدّاء؟ هل هم مقاتلون ورّطتهم المخابرات السورية في لبنان للتخريب على «ثورة الأرز» وهناءة العيش كما يتهمهم سياسيون لبنانيون من أركان السلطة وقوى ١٤ آذار/مارس المنتفضين على الوصاية السورية في لبنان؟ أم هم من مقاتلي القاعدة الذين ضاقت بهم السُّبل وأتى بهم حظّهم العاثر إلى لبنان فوقعوا ضحايا للتقاذف السياسي المحلّي وانتهى بهم الأمر إلى مجزرة مورست خلالها أصناف من التنكيل السياسي والمادي بهم؟

كل المعلومات الواردة في النصّ التالي تمّ تجميعها مباشرة من مصادرها، وتمّ التدقيق فيها ومقاطعتها بعضها ببعض، واستُقيت من مجموعة كبيرة من علماء الدين الإسلاميين، ومن جهاديين سابقين وحاليّين، ومن مجموعات جهادية ممثلة بقيادييها، ومن قياديين مقاتلين من «فتح الإسلام» خلال معارك نهر البارد وفي أعقابها، وكذلك من بعض الضبّاط الأمنيين الذين تحدثوا خارج صفاتهم الرسمية. وغنيّ عن البيان أن التحفّظ عن ذكر المصادر من بديهيات المرحلة التي تعيشها البلاد حالياً، وسبك المعلومات في قالب سردي هو نتيجة تقاطع كل المعلومات التي وفّرت على مدى أكثر من عام من البحث مرجعيةً كاملة لما حصل على مستوى ملفّ المجموعات الجهادية في لبنان. وقبل أن يبدأ فصل جديد أو رواية جديدة للجهاديين في لبنان، ينتهي فصل أوّل كالآتي:

الأول من أيلول/ سبتمبر العام ٢٠٠٧، عند الساعة الثانية عشرة ليلاً كان يمكن ملاحظة حالة استرخاء أمنية عامة في شمال لبنان، بعد أن استهلكت الأسابيع الأولى لمعارك نهر البارد والحصار المفروض على عناصر فتح الإسلام داخل المخيم تدابير مشدّدة وحملات دهم واعتقال لخلايا متعددة في مناطق شمالية عدّة، ولكن الأسابيع الأخيرة بدت أكثر هدوءاً، وصار بالإمكان سماع عبارة «لا جديد» تتردّد على ألسنة مَن كان إلى زمن قصير يزوّدك بالمعلومات الحديثة يومياً.

الأول من أيلول/ سبتمبر ليلاً، لا جديد في أي من المناطق الشمالية، وكل المعطيات تشير إلى حركة تفاوض بطيئة تخاض عبر الهواتف المتبقية بين أيدي قياديي فتح الإسلام، إذ يتصل بهم بين الحين والآخر بعض رجال رابطة علماء فلسطين بتكليف مباشر من مخابرات الجيش اللبناني. وأشهر الوسطاء كان الشيخ محمّد الحاج الذي تعرّض لإطلاق نار مفتعل بينما كان ينسحب من المخيّم فأصيب في ظهره بينما كان في سيارة الصليب الأحمر التي يستقلّها مفاوض آخر متنكراً بثياب الصليب الأحمر، لم يتمّ التعرّض له لحسن حظه، إذ لم تتعرّف إليه العناصر التي افتعلت الإشكال وأطلقت النار.

كانت عمليات التفاوض والدخول إلى مخيّم نهر البارد والخروج منه تتمّ بعلم وتنسيق من مخابرات الجيش اللبناني، التي أشرفت سرّاً وعلناً على المفاوضات كما تابعت أيضاً خفية وعلانية المفاوضين وسكناتهم وحركاتهم، وراقبت هواتفهم. وسبق للجيش اللبناني إحراق خطوط الهاتف الخلوي التي يملكها قياديو فتح الإسلام لمنع تواصلهم بشكل حرّ مع الإعلاميين ومع شخصيات سياسية ودينية. وأبقى على خطوط نادرة تسمح بالتواصل لمن يوافق الجيش على قيامه بالاتصال بقيادة فتح الإسلام، وأعلن على الملأ أن الهواتف التي بحوزة فتح الإسلام تم إحراقها.

فجر الثاني من أيلول/ سبتمبر، تعرّضت بغتة عدّة نقاط للجيش اللبناني في محيط مخيم نهر البارد إلى أحداث أمنية، ولا شيء في الأفق كان يبّشر بحصول أية تطورات من خارج المخيّم المحاصر، والدوريات الأمنية والانتشار الأمني في

طرابلس في حالة من الاسترخاء تتناسب مع تراجع التهديدات داخل المدينة.

بُعيد الثانية فجراً بدأ إطلاق النار يأتي من عدّة نقاط بشكل مفاجئ: المحمّرة، العبدة، بحنين، واستقلّت المجموعات القادمة من خارج المخيّم عدّة آليّات قبل أن تنجح في التواري مخلفة قتلى وجرحى. وفي الثالثة والدقيقة الخامسة بدأت غرفة العمليات في الشمال التي تشرف على سير المعارك تدرك أن ما يحصل أكبر من مجرّد اعتداءات أمنية، إذ ثمة هجمات من داخل المخيّم ومن خارجه، وضغط ناري على نقاط محدّدة في مواقع شمالي المخيّم خاصة. وكان العشرات من مقاتلي فتح الإسلام يغادرون المخيّم عبر مجرى نهر البارد ومن ممرات أخرى، ويتفرقون مجموعات صغيرة تنتشر في اتجاهات مختلفة ملتفّة على قوات الجيش اللبناني، وتتحرك بعد تجاوزها الطريق الدولي بحرية نسبية تسمح لها بالتوجه نحو عكار، أو الضنّية، وتختفي في طريقها نحو منطقة عيون السمك المتشعبة، أو تتجه نحو عاصمة الشمال طرابلس نفسها، أو نحو مخيّم البداوي المنكوب هو أيضاً بعدد اللاجئين الذين هربوا من نيران معارك البارد والقصف العنيف الذي تعرّض له.

وكان مع كل مجموعة من المجموعات الفارّة عنصر لبناني أو فلسطيني أو من «قُدامى» فتح الإسلام، أي من أولئك الذين تمكنوا في مراحل سابقة من العام ٢٠٠٦ من تجاوز حدود المخيّم واستكشاف الطرق والمعابر والطرق الزراعية المختصرة، والمسالك البرّية. وانطلقت المجموعات مزوّدة بأسلحة خفيفة سرعان ما تخلّصت منها، وأبقت على مسدساتها وبعض القنابل اليدوية، وسلك معظمها طرقاً تعتبر ساقطة بالتعبير العسكري، ومكشوفة، مستعيناً باشتباكات وهمية شاغلت الجيش في النقاط الشمالية من المخيّم. وقد تمكّن أكثر من ١٥٠ مسلّحاً من المشاركة في عملية الفرار الكبير هذه.

وعند ساعات الفجر الأولى، كانت قوات الجيش قد بدأت باستدراك ما يحصل، واكتشفت أن أكثر الذين كانوا يؤمّنون تغطية المنسحبين هم من الجرحى الذين ما لبثوا أن قتلوا في الاشتباكات العنيفة التي حصلت خلال الساعات التالية، خصوصاً مع اشتداد ضغط الجيش على قلّة من المحاربين الباقين والمنهكين في

المخيّم الممزّق أشلاء، والمدمّر تدميراً كاملاً بعد مئة وستة أيام من القصف المدفعي والجوّي العنيف والمتواصل.

كانت المعلومات الأوّلية وأقوال شهود العيان الذين تم التحدث معهم مباشرة بعد ساعات من الإعلان عن عملية الهروب الكبير تفيد بأن عمليات مشاغلة خلفية حصلت ضد قوات الجيش اللبناني وأدّت إلى مقتل أحد الضباط. وعمد المهاجمون من خلف قوات الجيش اللبناني إلى إطلاق النار على مواقع الجيش حول المخيّم، قبل الفرار في اتجاه عكار والمنية(٣). وتمكن الجيش من قتل أربعة منهم وأسر خامس تردّد أنه يدعى عبد الله الأحمد ويحمل الجنسية اليمنية. وسرعان ما اندلعت معارك عنيفة من داخل المخيّم، ترافقت مع محاولة من بقي من العناصر في المخيّم الفرار إلى خارجه.

وبدأ الجيش عملية تعقّب لمن تمكنوا من الفرار، وضرب طوقاً أمنياً واسعاً، ونفّذ عملية تمشيط مستعيناً بالمروحيات العسكرية والزوارق البحرية. وشملت الإجراءات القرى والبلدات المجاورة، وصولاً إلى طرابلس، وامتدت لتشمل معظم أنحاء الشمال، وصولاً إلى بيروت والجنوب والبقاع، واستُخدمت فيها الطوّافات الحربية، والزوارق التابعة للبحرية اللبنانية، وأغلقت الطرق الرئيسية في المنطقة، وخصوصاً طريق المنية - العبدة الدولي.

آنذاك أوضحت أوساط عسكرية غير رسمية أن «المسلّحين أقدموا على هجومهم بوصفه «الطلقة الأخيرة»، في محاولة للفرار، وأن عدد القتلى في صفوف المسلّحين بلغ عصر يوم الاثنين في الثاني من أيلول/ سبتمبر ٣٤ قتيلاً (وهو الرقم الذي سيرتفع مع تقدّم الساعات والأيام)، ومن بينهم القائد المفترض للتنظيم شاكر العبسي». وشارك مواطنون سنّة من سكان القرى والبلدات المحيطة بالمخيّم في عمليات رصد ومطاردة وقتل عناصر فتح الإسلام الفارّين في الأيام العشرة الأولى على انتهاء المعارك.

---

(٣) مناطق في شمال وجنوب مخيم نهر البارد للاّجئين الفلسطينيين.

وأفادت أوساط متابعة لجهود الوساطة الأخيرة التي كانت تقوم بها «رابطة علماء فلسطين» لإجلاء الجرحى من المسلّحين، أن رفض الجيش هذا الأمر، إلا عبر سلّة كاملة تتضمّن تسليم المسلّحين أنفسهم، كان الدافع الأساس لقيام المسلحين بخطوتهم. إلا أن الحقيقة خلاف ذلك، وهو ما سيلاحظه الكثير من المتابعين للملف عن كثب، وبعض الوسطاء السابقين.

وأعلنت مصادر عسكرية غير رسمية أن مجموعات فتح الإسلام لم تتمكّن من تأمين فرارها، وقُضيَ على أكثر عناصرها، وأن من تسلّلوا من المخيّم هم عشرة أو خمسة عشر مقاتلاً لا أكثر. وأفادت زوجة الزعيم المفترض لفتح الإسلام أنها تعرّفت على جثة زوجها، بعلامة محدّدة في جسده ومن الحزام الذي يضعه وفيه جَيب سرّي يحتوي على حِرز من الآيات القرآنية. وأظهرت الفحوصات الجينية الأولى والثانية مقارنة بعيّنات من ابنة العبسي ومن أخيه المقيم في الأردن عدم صحة تأكيدات القوى الأمنية وزوجة الرجل وابنته وأعضاء رابطة علماء فلسطين الذين التقوه قبل عملية الفرار الكبير.

إلا أن شاكر العبسي كان قد أصبح بعيداً، وبدأت التكهّنات بتحوّله إلى أُسامة بن لادن آخر مع حفظ الاختلافات في الأحجام والأدوار. في حين كان العديد من رجالات أهل السنّة يشعرون بارتياح كبير لانتهاء المعارك، ويخفون سرورهم بالمعلومات التي تفيد القضاء بشكل كامل على من كان في المخيّم. وهو الارتياح نفسه الذي تجلّى لدى أقطاب وسياسيين لبنانيين، أطلقوا، وهم في غمرة الفرح الغامر، العنان لألسنتهم بالثناء والتمجيد للجيش اللبناني الذي «تمكّن من القضاء على الإرهابيين»، وأنجز انتصاراً ذهب بعضهم إلى مقارنته بالانتصار في حرب تموز/ يوليو العام ٢٠٠٦.

في ساعات الفرح الغامر هذا بانتهاء ما كان من أمر مقاتلي وقياديي فتح الإسلام في مخيّم نهر البارد، كانت مجموعات من هذا التنظيم تتجوّل في مواقع قريبة من أماكن الاحتفالات الأهلية، ومن آليّات الجيش المنسحبة، بينما تجمعت لدى الدوائر المختصة في قيادة الجيش معلومات تفيد بأن حملة مطاردة للعناصر الفارّة ضرورية، وملحّة، ويجب الشروع فيها فوراً. وتمّ تعزيز حملات المطاردة

التي لم تتوقف منذ الصباح الباكر بعد اكتشاف محاولة الفرار. وهو ما سيستمر لأسابيع طويلة، قبل أن تتكشف حقيقة أن من فرّوا من المخيّم المحاصر لم يكونوا مجموعة صغيرة، وأن مَن وقعوا في قبضة الجيش من الفارّين في الأيام التالية هم فقط مَن عجز دليلهم عن إرشادهم إلى المسالك، أو الذين لم يتمكنوا من التحرك بسرعة خلف دليلهم ما أبعدهم عنه وأدّى إلى ضياعهم لأيام وأسابيع في دائرة مغلقة مكوّنة من بضعة كيلومترات لا يتمكنون من الخروج منها، أو مَن اتخذ قراراً متسرّعاً بضرورة افتراق المجموعة لزيادة فرص نجاة أفرادها، أو مَن فضّل اللجوء إلى سكان لبنانيين يعرف تأييدهم الضمني لحركة فتح الإسلام وجهادها.

كما وقع في الأسر من تمكّنت مخابرات الجيش من رصد اتصالاته قبل مغادرته المخيّم بلبنانيين خارجه. ولكنّ مَن بقوا من عناصر فتح الإسلام فارّين تجاوز عددهم التسعين مقاتلاً منتشرين ومختفين في العديد من الأماكن، التي لم تتمكن مخابرات الجيش اللبناني من تحديدها. وصدر بيان عن قيادة الجيش بعد أربعة أسابيع من تاريخ الفرار يفيد بأن شاكر العبسي «تائه في مكان ما في لبنان بين الجنوب والشمال». علماً أنه وقع في الأسر عدد من شخصيات فتح الإسلام سنعود إلى الحديث عنها لاحقاً.

وكان أكثر رجالات أهل السنّة في الحكم اللبناني المقسّم إلى طوائف ومذاهب قد استبشروا خيراً بالتخلّص من كل عناصر فتح الإسلام، ومنهم مستشارون وقياديون وعلماء دين سبق لهم أن اتصلوا بقياديي فتح الإسلام المعلنين، ووقفوا لحظة سقوط المخيّم الذي أُخلي على عجل ليعرفوا حقيقة ما جرى مع من سبق أن استبشروا خيراً بمجيئهم، وساندوهم، واتصلوا بهم. وكان همّ هؤلاء المستشارين والقياديين والعلماء معرفة مصير قادة فتح الإسلام، مفضّلين الموت لعدوّهم - صديقهم السابق- ومتمنّين ألاّ يقع أحد من قيادة التنظيم المقاتل سالماً بيد الجيش اللبناني.

في اليوم التالي ارتفع عدد القتلى المعلَن من فتح الإسلام إلى ٤٠ قتيلاً، وراح العدد يتصاعد بشكل غامض مع الأيام التاليات، وبلغ بعد ٤٨ ساعة من

بداية النهاية[٤] ٦٠ جثة نُقلت إلى المستشفيات وتنسب إلى مقاتلي فتح الإسلام. ولم يلقَ ارتفاع عدد القتلى ومواصلة مطاردة مجموعات فتح الإسلام وعناصرها في المناطق المحيطة بالمخيّم كبيرَ اهتمام من وسائل الإعلام، التي كانت تحاول في سياق توضيحي أن تشير إلى العثور أو عدم العثور على جثث قادة فتح الإسلام بين الجثث، وهو ما سيتبيّن لاحقاً عدم صحّته.

ثم تراجعت التصريحات حول النصر المطلق على فتح الإسلام، وأخذت منحى أكثر تواضعاً، وأصبحت تدور حول تمكّن الجيش من القضاء على البنية الرئيسية لفتح الإسلام ومعظم إمكاناتها. بينما تواصلت أنباء المطاردات في الشمال ومناطق لبنانية أخرى، وصارت ترد في الصفحات الأمنية للصحف اللبنانية.

وقد فوجئ المحقّقون مع المعتقلين من فتح الإسلام باكتشافهم أن هؤلاء الشبّان مرتبطون بتنظيم القاعدة، بينما كان التجاذب السياسي في لبنان يضعهم إما في خانة عملاء سوريا، وإما في خانة «محاولة تشكيل جيش احتياطي للسنّة» بتنسيق من الأمير السعودي بندر بن سلطان وتمويله وإرشاده.

كما اكتشف المحقّقون أن أكثر عناصر التنظيم هم من العرب، ويشكّل السعوديون النسبة الكبرى من المعتقلين، بعد اللبنانيين والفلسطينيين. وهو ما أظهرته في ما بعد لوائح الادّعاء على أعضاء تنظيم فتح الإسلام، إذ تمّت إحالة ٤٣ ممّن يحملون الجنسية السعودية أمام قاضي التحقيق العدلي في العشرين من آب/ أغسطس وخلال سير المعارك، ثم وصل العدد الإجمالي للمحالين أمام الادّعاء العام إلى ٥٢[٥]، يضاف إليهم معتقلون سعوديون لم تحسم براءتهم من اشتراكهم في تنظيم فتح الإسلام. وهو عدد كبير إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الرقم الذي أعلنه وزير الدفاع الياس المرّ في مؤتمر صحافي عقده في الرابع من أيلول/ سبتمبر، أي بعد ٤٨ ساعة على انتهاء المعارك، وأشار فيه إلى أن عدد المعتقلين

(٤) في الثاني من أيلول/ سبتمبر العام ٢٠٠٧ انتهت العمليات العسكرية وفي الرابع منه أعلن أن عدد قتلى فتح الإسلام بلغ الستين.

(٥) بعض هؤلاء تم الادّعاء عليهم حضورياً، والبعض الآخر غيابياً وصنّفوا كفارّين من العدالة.

٢٠٢. وتبيّن عملياً من خلال الاعترافات المتراكمة أمام محققي مخابرات الجيش اللبناني أن هذه العناصر تنتمي إلى تنظيم القاعدة، وقد أتت من دول عربية عدّة لتلقّي التدريبات العسكرية التي تؤهّلها للعمل العسكري في العراق أو فلسطين. وهو ما أكّده مدير المخابرات العميد الركن جورج خوري، الذي شارك في المؤتمر الصحافي لوزير الدفاع، قائلاً إن: «تنظيم فتح الإسلام كما أكدت كل التحقيقات ينتمي إلى تنظيم القاعدة وهو على علاقة واتصال دائم بها، وقد تبيّن ذلك من كل التحقيقات التي حصلت سابقاً ومن خلال الموقوفين ومن الاتصالات التي حصلت بخلايا القاعدة الموجودة خارج لبنان. ومن خلال توقيف الأشخاص واعترافاتهم الكاملة، تبيّن أن فتح الإسلام يرتبط كلياً بالقاعدة».

وفي وقت لاحق أسرّ أحد جنرالات الجيش المتابعين للملفّ إلى أحد علماء الدين من الشمال بأن عدد المقاتلين السعوديين في فتح الإسلام بلغ ١٣٠ عنصراً.

وفي المؤتمر نفسه الذي عقده وزير الدفاع وحضره أيضاً مدير العمليات في الجيش اللبناني العميد الركن فرنسوا الحاج[٦]، بدت المعلومات الرسمية في غاية الارتباك، إذ يقول المرّ: «بلغ عدد القتلى الإرهابيين منذ بداية المعارك ٢٢٢ إرهابياً، وبلغ عدد الموقوفين ٢٠٢ إرهابي، إضافة إلى عدد غير محدد بعد من القتلى الإرهابيين طمرهم رفاقهم في مقابر جماعية خلافاً لكل دين وشرع وإنسانية».

وبحسب كلام وزير الدفاع يصل مجموع المقاتلين من تنظيم فتح الإسلام إلى ٤٤٢ على الأقلّ، إضافة إلى من فرّ ومن دفنه رفاقه، بينما يقول مدير العمليات في الجيش اللبناني: «في تاريخ ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٠٦، حصل اشتباك بين اللجنة الأمنية في (مخيّم) البدّاوي وبعض عناصر شاكر العبسي، وأقدمت هذه اللجنة المذكورة على طرد هذه العناصر وقد أوقف الجيش في حينه اثنين أحيلا على القضاء، وعلى الأثر في اليوم الثاني أعلن شاكر العبسي ولادة تنظيم «فتح الإسلام»، وراح يستقدم مناصرين من جنسيات عربية وأجنبية مختلفة

(٦) تعرّض فرنسوا الحاج لتفجير سيارة مفخّخة أودت بحياته في ١٢ كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٧.

بحيث بلغ عددهم التقريبي زهاء ٣٠٠ عنصر خضعوا لدورات عسكرية مكثفة داخل مراكز هذا التنظيم وكانت تظهر عليهم علامات التطرّف الديني». ويُفقد مع تصريح الحاج أكثر من ١٤٢ مقاتلاً إضافة إلى الفارّين والمطمورة جثثهم. وبخلاف هذه المعلومات الرسمية أشارت معلومات من مصادر متعدّدة إلى أن عدد عناصر فتح الإسلام يتجاوز ما أعلنه الجيش، وما كان يردّده شاهين شاهين، ويقدّر بنحو ٦٠٠ مقاتل داخل المخيّم وحده.

وفيما كان الوزير يتحدّث في مؤتمره الصحافي كان العديد من جرحى فتح الإسلام لا يزالون ينتظرون مصيرهم في مخابئ وملاجئ داخل مخيّم نهر البارد، لم يصل إليها الجيش بعد، أو لم يدخلها لإخلاء الجرحى نظراً إلى تخوّف قيادة العمليات في الشمال من أعمال التفخيخ التي اشتهرت بها فتح الإسلام خلال المعارك. أمّا عدد العناصر النائمة من التنظيم فيتجاوز المئة، بحسب أكثر التقديرات تفاؤلاً، وهي تنتشر في أكثر من بقعة في لبنان، وصولاً إلى بيروت وصيدا وغيرهما من المناطق ذات الغالبية السنّية.

وبعد مئة وستة أيام من القتال، كان الجيش اللبناني قد نعى ما يقارب ١٧٠ جندياً وضابطاً، وتحفّظ عن تقديم رقم الجرحى الذي وصل إلى أكثر من ٣٧٠٠ بين ضابط وجندي، وبمختلف الجراح، من البسيطة والسطحية إلى الخطرة[٧]، ومنها حوالى ٣٠٠ إصابة أعطال دائمة وشلل.

وفي غضون ذلك كانت القوى السياسية من الطرفين المعارض والموالي تحاول تثمير العمليات العسكرية لمصلحتها السياسية، إلا أن الكشف الواضح عن ارتباط فتح الإسلام بتنظيم القاعدة قلّص من القدرة على الاستثمار السياسي لهذه المعركة الطاحنة التي أدّت إلى مئات القتلى وإلى تدمير المخيّم الفلسطيني تدميراً كاملاً. وتبيّن أن سوريا نفسها، المتهمة دائماً بالوقوف خلف فتح الإسلام، شهدت مجموعة اعتقالات لمن ساعد وسهّل لفتح الإسلام العبور إلى لبنان،

(٧) تقاطعت المعلومات التي أدلى بها عدد من الضبّاط في الجيش بشكل غير رسمي إلى الكاتب وبناء على برقيات الجيش الداخلية على أن العدد فاق ٣٧٠٠ جريح بمختلف درجات الإصابة نتيجة المعارك مع فتح الإسلام.

والانقلاب على فتح الانتفاضة. كما اتّضح أن كل المحاولات الرامية إلى الزجّ بمجموعة الضنّية[٨] وبأسماء أعضائها في سياق الحديث عن فتح الإسلام لا علاقة لها بالواقع، ما عدا بلال المحمود المعروف بأبي جندل الذي قتلته عناصر فرع المعلومات التابع لقوى الأمن الداخلي في أحد أحياء طرابلس، حيث، بحسب تحقيق خاص وشهود عيان، توقفت سيارة تابعة لقوى أمنية أمام الرجل الذي كان قد أنهى صلاته ويتناول العصير في الشارع، وأطلقوا عليه النار من مسدّساتهم، ثم تركوه أرضاً وغادروا المكان ليتوقفوا بعد مئات الأمتار ويطلقوا عدّة طلقات على سيارتهم نفسها، وليقدّموا بعد ذلك تقريراً رسمياً يفيد بتعرّضهم لإطلاق النار من قبل المحمود قبل اضطرارهم إلى إردائه في الشارع.

جرت نقاشات طويلة مع قياديين في فتح الإسلام، ومع شاهين شاهين خاصة، وكان محاورهم يطلب كشف حقيقة فتح الإسلام ومن أتى بها إلى لبنان، ومن طلب منها المساعدة، ومن ورّطها في صراع تناحري مع الجيش اللبناني، إلا أن الشاب القابع في مخيّم محاصر كان يجيب محاوره بأن كل شيء محفوظ، والحقيقة ستظهر حين يشكّل ظهورها فائدة لما تخدمه فتح الإسلام من أفكار وخلفيّات جهادية. وحين كان بعض المعنيين بالملفّ يبحثون عن معلومات إضافية تفكك ألغاز فتح الإسلام كانوا يتلقون من ضبّاط رئيسيين في مخابرات الجيش اللبناني نصائح بترك الأمور تأخذ مسارها الخاص. بل كان يطلب منهم ومِن كل مَن يبحث جدّياً مع قيادة الجيش أو في الميدان عن فتح الإسلام وتفاصيل ظهورها واندثارها، الكفّ عن البحث وترك الأمور ليبتّها القضاء اللبناني. ويُقرَن هذا النصح بستار سميك من التعمية حول المعلومات وحول ما حصل في مخيّم نهر البارد وفي ليلة الفرار الكبير.

ويتحدّث أحد الذين تابعوا الملفّ متابعة دقيقة عن مرحلة ما قبل إخراج النساء من المخيّم، مشيراً إلى اتصالات جرت بعدد من المفاوضين السابقين ما

---

(٨) هي مجموعة حاولت في العام ١٩٩٩ العمل ضمن المقاومة وكانت على صلة بتنظيم سلفي دولي هو «الجبهة العالمية للجهاد»، وتم القضاء عليها من قِبل الجيش اللبناني في اليوم الأول من العام ٢٠٠٠. وسيتم التطرّق إليها بشكل موسّع في فصل خاص.

بين الجيش وفتح الإسلام، وطُلب منهم إعادة فتح الخطوط مع التنظيم بغية إجراء مفاوضات إضافية مع المجموعة. وكانت المعلومات التي تتوافر للأجهزة الأمنية تفيد، بحسب المتابعين أنفسهم، بأن الخلاف بين اتجاهين في فتح الإسلام بلغ ذروته داخل المخيّم.

كان شاهين شاهين[٩]، الرجل الأقوى في التنظيم، يعلن أنه تمّ توريطه وتوريط تنظيمه الأمّ (القاعدة) في معركة لا علاقة لهم بها، وكان يتصرّف دائماً على قاعدة عدم التضحية برجاله. وحين التقى قبل أكثر من شهر ونصف أحد الوسطاء، وكان مصاباً في ساقه، بدا على محيّاه التعب والإرهاق وأعلن صراحة: «لقد تم توريط القاعدة في معركة ليست لها». إلا أن الرجل الذي أعلن الجيش أنه تمّ القضاء عليه لم يصل إلى حدّ إعلان الانسحاب من المخيّم ومن المعركة الدائرة فيه. وما قاله شاهين شاهين لذلك الوسيط، أعلنه لاحقاً الداعية فتحي يكن[١٠]، ومفاده أن هؤلاء المقاتلين ينتمون إلى القاعدة. وكلّف هذا التصريح النائب السابق يكن سلسلة من الشتائم ليس أقصاها ما وجّهه إليه علناً وعبر وسائل الإعلام النائب أكرم شهيّب واصفاً إيّاه بـ«الداهية فتحي يكن».

وخلال اللقاءات التي جمعت شاهين مع أحد المفاوضين كان يوحي بأن شاكر العبسي «غير متوفّر» تاركاً للمفاوض التكهّن بمصير العبسي وفريقه من المقاتلين، هل هم تحت الإقامة الجبرية في مخيّم محاصر أم هم في عداد الأموات، أم تمّ إقصاؤهم عن القيادة؟ حينها كان شاهين يتحدث ضمناً عن صراع قائم بينه وبين العبسي.

---

(٩) شاهين شاهين، أو شاهين الشامي، ويلقّب بأبو سلمة، ثمة خلاف حول نسبته وأصله ففي حين تقول روايات إنه من فلسطينيي المخيم، يقول البعض إنه سوري الجنسية، وتورده لوائح الادعاء القضائية اللبنانية بصفته مجهول التابعية. ولكن شاهين كان يؤكد للكاتب هاتفياً أنه من الحجاز وكان خلال المخابرات الهاتفية يستخدم تعابير عراقية، مما يشير إلى إمكانية مشاركته في الأعمال العسكرية في العراق.

(١٠) نائب سابق ورئيس جبهة العمل الإسلامي. لعب دوراً، عبر أحد موفديه، في وساطة طويلة بين الجيش اللبناني وفتح الإسلام.

وطرح شاهين يومها فكرة الـ٤٨ ساعة الشهيرة، وهي هدنة لمدة يومين على أن يتم خلالها تسريب كل المقاتلين العرب إلى خارج المخيّم، ويدخل الجيش منتصراً إلى مخيم شبه خال، إلا أن قيادة الجيش لم توافق على هذا الطرح. واستمرت المعركة تأكل القتلى والجرحى والمنازل.

فجأةً، يُطلب من مفاوض سابق التدخّل في عملية إخلاء النساء للوصول إلى حلّ لهذه النقطة بمفردها، إلا أن المفاوض، على ما يروي المصدر الذي تابع الملفّ من بداياته، انسحب من التفاوض مشيراً إلى أنه لن يتدخل إن كان التفاوض لإخلاء جزئيّ وخارج دائرة حلّ سياسي كامل للمخيّم.

بعد ذلك تتصل المراجع الأمنية بمن كان موضوعاً في دائرة الاتهام قبل فترة وجيزة، وهو إحدى الشخصيات السلفية المعروفة في الشمال، وكانت تُتهم بأنها هي خلف مَن حرّض على التعاون مع فتح الإسلام، إلا أن القيادة الأمنية تجد فيه لحظتها صِلة وصلٍ مقبولة. وحتى ذلك الحين كان الجيش يحرق كل رقم خلوي في المخيّم يُعرف من أكثر من جهة، حاصراً أي اتصال مع المخيّم بجانب تحدّده قيادة الجيش مباشرة. وحاول أحد المفاوضين السابقين الاتصال على رقم خلوي بشاهين شاهين، فتمّ حرق الرقم بعد ساعات من الاتصال.

أدّى التفاوض الذي تمّ حينذاك إلى إخراج النساء والأطفال. وقبل هذه المفاوضات أعلنت قيادة الجيش مقتل شاهين شاهين، وعرضت صوراً لم يتمّ التأكد مما إذا كانت عائدة إلى الشخص المعني، لكنّ ما تسرّب من معلومات من داخل المخيّم أفاد بأن العبسي تمكن من السيطرة على كل مجموعات فتح الإسلام، وبعد أن كان يعدّ واجهة لتنظيم معقّد ومتعدد الرؤوس أصبح هو القيادي الميداني، وخاصة بعد مقتل شهاب قدّور بطريقة ملتبسة وغامضة في طرابلس.

كانت جثّة شاهين غير واضحة الملامح، والقلّة الذين رأوه رفضوا لأسباب سياسية التعرّف إلى جثته أو جثة غيره من القياديين في فتح الإسلام، وأبلغوا من طلب منهم من الأجهزة الأمنية موقفهم هذا.

وبعد خروج النساء[١١]، أعلن قائد الجيش العماد ميشال سليمان اقتراب مهلة انتهاء المعارك. وكانت المفاوضات تجري تحت الطاولة لكنها لم تصل إلى نتائج واضحة، وقد خفّت حدّة الاشتباكات. وحين كان رئيس الأركان يعرض في المؤتمر الصحافي المراحل العسكرية التي تمّ خلالها حصر من بقي من عناصر فتح الإسلام في بقعة واحدة هي شمال غرب المخيّم القديم، غفل عن التنبيه إلى أن عملية الفرار جرت في الجزء الجنوبي من المخيم عبر مجرى نهر البارد، حيث أظهرت شاشات التلفزة صور جنود الجيش اللبناني وهم يمشّطون ويبحثون بين أوحال النهر عن عناصر مختبئة من تنظيم فتح الإسلام.

خلال الساعات التي سبقت عملية الفرار، كانت الأعمال الحربية قليلة في المخيّم، وفجأة خرج المقاتلون من مجرى النهر بشكل أساسي[١٢]، وقُتل على الأقلّ أربعون منهم خلال ساعات قليلة، كأن الفارّين وقعوا في كمين، وتمكن العشرات منهم من الفرار في اتجاهات مختلفة. ثمّة شيء قد حصل. ثمّة اتفاق لم يُبرم وفرار لم يُستكمل، وعملية إنهاء للتنظيم مع غياب المسؤولين فيه عن الصورة.

كان شاهين شاهين يحاول الاستسلام قبل مقتله، بحسب المصدر نفسه الذي يسرد تفاصيل العمليات، وحين كان الصحافيون يتصلون بشاهين كان يشير دائماً إلى أن قوات فتح الإسلام تُخلي أحياناً مواقع ضغط عليها الجيش بقوة، لا لعدم القدرة على الدفاع عنها بل لتخفيف حجم العمليات وتكاليفها البشرية على الجيش اللبناني. وحين وصل شاهين إلى قرار عدم التضحية بالمقاتلين الذين يتبعونه قُتل، بحسب المصدر على يد من أصبح زعيم فتح الإسلام دون منازع، شاكر العبسي. إلا أن لشاهين قصّة أخرى سترِدُ لاحقاً.

«إن لبنان ليس جمهورية أفلاطون» قال مرجع عسكري كبير أمام أحد علماء الدين الشماليين رافضاً الكشف عن كل التحقيقات، بينما كان الضابط الأمني

(١١) تمّ إخراج نساء مقاتلي فتح الإسلام وأطفالهم من مخيّم نهر البارد المحاصر في ٢٤ آب/أغسطس العام ٢٠٠٧.

(١٢) يقع مخيّم نهر البارد شمال مجرى النهر مباشرة.

يتصل بمن يُسدي إليهم النصائح بضرورة عدم الحفر لاكتشاف الحقائق ويسألهم: «هل نال حديث قيادة الأركان إعجابكم؟» في إشارة ضمنية إلى عدم استعجال الحصول على معلومات بشأن ما جرى.

وخلال لقاء بين أحد المفاوضين السابقين مع فتح الإسلام وأحد كبار ضباط الشمال في الجيش، سأل الضابط محدّثه إن كان يعتقد أن التأزّم السياسي في لبنان يسمح بإعلان أجوبة عن الأسئلة التي يثيرها الملفّ برمّته: «هل يتحمّل الوضع القول إن هناك طرفاً لبنانياً سهّل؟ أو حتى أن سوريا لها أية علاقة؟ أو أن فتح الإسلام موّلتها جهة خليجية؟ أو أن الصراع داخل البيت السعودي انعكس في لبنان بأشكال عدّة؟»

إن صدى كلمات شاهين شاهين يتردّد حتى بعد مقتله المفترض: «هل تعتقد أن فتح الإسلام هي عبارة عن خمسمئة مقاتل محاصرين في نهر البارد؟»، بينما يشير كل ما يحيط بنا إلى أن مواسم الصراعات الكونية بين القوى الجهادية والقوى الغربية لن تنتهي قريباً، بل على العكس، وأن لبنان ليس جزيرة معزولة أو جبلاً منيعاً على الكون من حوله، وما يجري فيه جزء صغير ممّا يجري في محيط المنطقة الكبير، وفتح الإسلام ليست بضعة مقاتلين قتلوا ولا أفكاراً انتهت مع موت حامليها، ولا عبارة عن ردّة فعل آنيّة، وما سيلي سيكون أكبر؟!

يتردد صدى كلمات شاهين، وهو أحد القلّة الذين يعرفون تفاصيل زيارة أحد أبناء أسامة بن لادن إلى لبنان، وتجوّله بين مخيّم اللاجئين الفلسطينيين في عين الحلوة في الجنوب ومخيّم نهر البارد في الشمال، وأماكن أخرى. كان شاهين على دراية بما يحصل، وقد مات افتراضياً، إلا أنه لم يأخذ كل أسراره معه، بل ترك العديد منها على أسطوانات مُدمجة، محفوظة في أماكن سرّية في لبنان، وبين أيدٍ أمينة لما مثّلته فتح الإسلام في لحظة من اللحظات اللبنانية المجنونة، ومن ساعات الصراع الكوني الذي تخوضه القاعدة في أرجاء المعمورة. وحين كان يُطلب من شاهين في وقت متأخّر من أحد أيام المعارك في المخيّم تصوير بعض المواقع وإرسال الصور مع مفاوض سيدخل بشكل غير متوقّع إلى المخيّم في الصباح الباكر، كان الشاب يردّ على مُهاتفه ممازحاً ويدعوه

لزيارة المخيّم وشرب الشاي والتصوير، قبل أن ينتقل إلى الجِدّ قائلاً: «سأرسلها مع المفاوض غداً صباحاً». إلا أن المفاوض الذي سيلتقي شاهين لا يحصل على الصور، وتتردّد أنباء عن مقتل شاهين بطريقة غامضة، ويكتفي المفاوض بالقول عمّا كان من نهاية فتح الإسلام: «فيلم أميركي»، ويصمت.

تنتهي المعارك لتفتح باباً لنقاش لا بدّ منه، ولأسئلة لا بدّ من البحث عن أجوبتها: من أين أتى هؤلاء وإلى أين سيذهبون، وكيف وجدوا تربة خصبة لزرعهم وحصادهم في لبنان؟ ما هي جذورهم في لبنان، وأين التيارات الإسلامية اللبنانية منهم؟ وأين هم الجهاديون اليوم؟ وماذا يريد تنظيم القاعدة من لبنان وفي لبنان؟ وكيف يمكن لتنظيم هو الأعنف والأكثر دموية ويعيش صراعاً لا ينتهي مع الأميركيين والغربيين عموماً أن يعتبر أنه «تمّ توريطه في الصراع في لبنان».

تقفل الجهات الرسمية ملفّ فتح الإسلام عبر تحويله إلى المحكمة المختصّة، ولا تتشكّل لجنة تحقيق، ولا يُبدي أي طرف حماسة كبيرة للخوض في الموضوع أو المطالبة به، ما عدا بعض الجهات والشخصيات السياسية التي تحاول توظيف هذا المطلب في إطار اتهام الحكومة اللبنانية برئاسة فؤاد السنيورة، وإحراج تيّار المستقبل السنّي. لا تتشكّل لجنة تحقيق لمعرفة لماذا مات أكثر من ٤٥ مواطناً فلسطينياً مدنياً، وأكثر من ١٧٠ جندياً لبنانياً، وأكثر من ٢٠٠ من المقاتلين العرب واللبنانيين، ولماذا تمّ تدمير مخيّم كامل كان يعيش فيه أربعون ألفاً من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

ينطوي ملفّ فتح الإسلام، ككل الملفّات الحسّاسة في لبنان، ولكن ليعود وينفجر لاحقاً، كما يسهل التوقّع! وفي هذه الأثناء تبدأ حكاية التاريخ المكتوم للجهاديين في لبنان التي تكشف أن ما حصل ليس حالة معزولة، ولا محاولة «مخبرية» أجراها تنظيم القاعدة وانتهت إلى الفشل.

بحثاً عن الأسباب البعيدة

عند محاولة عكس صورة النزاع الذي كان قائماً بين الجيش اللبناني وفتح الإسلام في الإعلام، كانت الردود والاتصالات شبه الرسمية تصل تباعاً مستنكرة ما كانت تنشره صحيفة «الأخبار» خلال الأسابيع الأولى من المعارك في نهر البارد. وتصل الأمور إلى طريق مسدود حين تبدأ مطالبات بعض الجهات السياسية بالظهور، معلنة ضرورة محاكمة الصحيفة ومن يكتب فيها. فيصبح السؤال الجدّي ليس حول ما يجري في شمالي لبنان، بل حول سبب عدم فهم واستيعاب شرائح واسعة من اللبنانيين ما كان يجري، وخلفياته الماضيات. ومحاولات الإسلام السياسي والجهاديين الدائمة للعب دور في وجه فراغ سياسي هائل.

أحد القادة الميدانيين الجهاديين السابقين، وقد أمضى أعواماً طويلة في السجون وفي قيادة الشارع الجهادي، يقول بأسى: «لا يمكن لأحد أن يربّي الإسلاميين، يمكن فقط التحاور معهم، ولكن لا يمكن إطلاق النار عليهم والانتصار لزمن طويل». وهو يشير إلى محاولات الأمن اللبناني تطويق ردّات الفعل في الشارع الإسلامي عبر مجموعة من الاعتقالات الاحترازية والتدابير الزجرية، ويرى بأن الجهاديين يمكنهم «تربية الجميع، من السلطة إلى ممثلي السنّة فيها، ولكن العكس ليس صحيحاً».

يرى الرجل نفسه أن القصور في فهم آليّات حركة القوى الإسلامية يعود إلى اعتبار التطرّف الإسلامي والاتجاهات الجهادية الحديثة نابعة من ردّات الفعل على الواقع، الذي عادة ما يُلخّص بمجموعة عناوين كالتخلّف والفقر، وهي العناوين

التي يتم تقديم مساعدات دولية وإرسال منظمات غير حكومية لمراقبة معاييرها وتطوّرها. ويضيف القيادي الجهادي السابق: «لا يمكن فهم الجهاديين بالاعتماد على مقولات جاهزة مشابهة».

ويتناسى أكثر اللبنانيين أنه في حين كان بشير الجميّل[١] يصافح الإسرائيليين ويفاوضهم في بيروت ونهاريا وتل أبيب، ويستقبل أرييل شارون[٢] ويودّعه عبر مهبط المروحيات الشهير في الزوق شمال بيروت، كان الإسلاميون في لبنان يتحضّرون لبداية موسم جديد. هذه المرة سيكون العنوان هو الجهاد، فالخطوط القومية والماركسية قد وصلت إلى مداها وبدأت مراحل تراجعها، وها قد خرج من بين الجهاديين في مصر من نفّذ عملية اغتيال الرئيس المصري أنور السادات في السادس من تشرين الأول/ أكتوبر العام ١٩٨١، ومنذ أعوام قليلة انتصرت ثورة الشباب الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، التي كان أحد طموحاتها تصدير الإسلام الثوري.

كان الحدّ بين السنّة والشيعة قابلاً للنقاش آنذاك، وكانت علامات الإسلام السياسي قد بدأت بالظهور بعد أعوام طويلة من الإسلام التربوي، ومن التخبّط الذي عرفته المنظمات الإسلامية التقليدية مثل حركة الإخوان المسلمين (على رغم اعتبارها أن سيّد قُطب وحسن البنّا قد رسما طريقاً ومنهجاً واضحين). ومع الإسلام السياسي كان يتراكم إرث عهود طويلة من الاضطهاد ومن الاستنتاجات بأن الزبد هو الدعوة السلمية وأن ما يبقى في الأرض هو الكفاح المسلّح، أو أن أوان نداء «حي على الجهاد» قد حان.

يرفض العقل التصديق ربّما، ولكنهم لم يهبطوا من السماء ولا أتوا من بلاد بعيدة، ولا تمّ استيرادهم أو خرجوا من مخيّمات اللاجئين، وليسوا هم أنفسهم

(١) بشير الجميّل (١٩٤٧- ١٩٨٢) مؤسّس القوات اللبنانية المسيحية اليمينية وابن مؤسّس حزب الكتائب اللبنانية بيار الجميل. انتُخب رئيساً للجمهورية بعد اجتياح الجيش الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢، ولكنه قتل قبل أن يتسلّم مهامّه.

(٢) من مواليد العام ١٩٢٨، وزير الدفاع الإسرائيلي خلال عملية اجتياح لبنان، وارتبط اسمه بشكل خاص بمذبحة صبرا وشاتيلا عقب مقتل بشير الجميّل.

الذين أحرقوا المدينة والبلاد في حرب أهلية تحت شعار ثورة ضد النظام الطائفي[٣]، ولا هم من أقام حواجز ذبحت حاملي هويّات بديانات نصرانية أو مذاهب إسلامية مختلفة. ومن باتوا اليوم يعرّفون كمجاهدين أو إرهابيين كانوا إلى الأمس القريب أطفالاً أو مشاركين في نهايات مراحل الحرب الأهلية، إلا أنهم كانوا هم المهمّشين، وكانوا من يدفع ثمن التسويات الكبيرة والصغيرة في هذه البلاد الملعونة بالمذهبية.

بدأت تلاوين الفكر الجهادي الإسلامي بالظهور مع بداية انهيار الإمبراطورية العثمانية بُعيد الحرب العالمية الأولى، إلا أنها انتظرت أعواماً طويلة قبل أن تتبلور، خصوصاً أن حركة إسلامية حاولت قيادة المقاومة في فلسطين، وفشلت بعد تجربة كبيرة ما بين عامَي ١٩٣٦ و١٩٣٩، وتعرّضت لضربات بريطانية وعربية كبيرة، فضلاً عن وسمِها بالتحالف مع النازية. ولكن بقي من ذاك الزمن الجرح المفتوح، الذي هو بلا شك أقوى دواعي الجهاد: الجرح الفلسطيني، الذي سيستمر يتقيّح ويشكّل أكبر عوامل دفع الإسلاميين إلى الذهاب «نحو قبلة الكفاح المسلّح، وإلى النظر نحو القدس كمصدر إلهام ونقطة مركزية في صراع يخوضونه اليوم دفاعاً عن وجودهم وعن دورهم في المقاومة معاً» كم يقول أحد القادة الجهاديين السابقين.

بعد نصف قرن تقريباً من سقوط القدس، وحين انتصر مشروع إسرائيل في ضرب منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، وانتصر مشروع المسيحيين الراديكاليين بالانقلاب على السلطة والإمساك بزمامها سواء عبر الانتخابات أو بالعنف، وفرض بشير الجميّل رئيساً للبنان وزعيماً ومنقذاً، بدأت ملامح الإسلام السياسي في التقدم. وكل مصافحة بين وارث بيار الجميّل، مؤسس حزب الكتائب اللبنانية، ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن في العام ١٩٨٢ وما قبله كانت تهب الحياة لجسد الحركة الإسلامية الجهادية في لبنان، وكانت تزيد من مشاعر المهانة والذلّة

(٣) وهو ما قام به تحالف اليسار والفلسطينيين والأحزاب الناصرية والطائفية في لبنان في الحرب الأهلية بين العام ١٩٧٥ والعام ١٩٩١.

التي عمّت الأوساط الإسلامية. وكبتت مجزرة صبرا وشاتيلا مشاعر الثأر من مشروع لا يرى غضاضة في ذبح المسلمين المدنيين، ومن قوى تركت خلفها الناس يذبحون كالنعاج في مجزرة لا يزال اللاوعي الإسلامي يستحضرها لإظهار مشروع عدوّه الأميركي الإسرائيلي والسائرين في ركابه محلّياً.

كل خسارة كان يُمنى بها اليسار اللبناني كانت تفتح المزيد من الآفاق أمام الجهاديين. وكل مرّة فشل فيها اليسار والقوميون العرب في طرح المزيد من الحلول السياسية الإبداعية للأزمات التي يتخبّط فيها لبنان خاصة والمنطقة العربية عامة كان الإسلاميون يردّدون «الإسلام هو الحلّ».

وقد تنوّعت الاجتهادات بين الجهاد كفرض عين، أي واجب ومُلزم لكلّ مسلم يرى في نفسه القدرة على الجهاد، وبين الجهاد كجهاد دفع، والذي يعني الدفاع عن النفس والمال والعرض. وثمّة مَن يرى أن المجاهدين في لبنان الذين حملوا السلاح من الماضي البعيد إلى اليوم لم يكونوا يمارسون جهاداً بالمعنى التعريفي الدقيق، فنظرة حزب التحرير الإسلامي على سبيل المثال تتلخص بأن البعض كان يمارس جهاد الدفع، وأن بعض التنظيمات المسلّحة كان يمارس الدفاع المشروع عن النفس دون أن يرقى إلى مستوى الجهاد، علماً أن حزب التحرير يربط بين الجهاد وإقامة دولة الخلافة الإسلامية في بلاد المسلمين، وبين أولي الأمر الذين يفترض بهم أن يصلوا إلى السلطة ويحضّروا المسلمين قبل دفعهم إلى الجهاد.

وشكّلت حركة التوحيد الإسلامي في الشمال مركز استقطاب لمن يعتبرون القتال ضد الاحتلال، كما الاستعداد للقتال والدفاع عن مناطق النفوذ، نوعاً من الجهاد يقوم به المؤمنون، ولو اقتصر على مواجهة سياسية غير عنفية، تقوم بها الحركة لحالة سلطة أمين الجميّل في العام ١٩٨٣ خاصة، قبل أن يتحوّل الوضع برمّته إلى كارثة ومواجهة بين الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات والحركة من ناحية والجيش السوري والأحزاب الوطنية وبعض فصائل المقاومة الفلسطينية من ناحية ثانية. ومع ذلك أمكن لحركة التوحيد أن تفرض تحوّلاً في التفكير الإسلامي والممارسة السياسية الإسلامية، وسيطبع هذا التحوّل كل المراحل اللاحقة.

في ذاك الزمن بدأ حزب الله يحقّق نجاحات في أعمال المقاومة، وفرض التنافس غير المعلن ومن طرف واحد على كل مسلم يعتقد في نفسه قدرة على الجهاد ضد إسرائيل. وأضيفت إلى مشكلات المجاهدين الإسلاميين مشكلة اللحاق والالتحاق بدورهم في مقاومة الاحتلال وهو ما تصدّت له جزئياً قوات الفجر التابعة للجماعة الإسلامية والتي أطلقها جمال حبّال(٤) عقب سقوط صيدا صيف العام ١٩٨٢.

وتميّز الجهاديون اللبنانيون خلال العقود الماضية بأمرين، أولهما عدم توافر العديد من العوامل الدافعة بشكل مباشر إلى اللجوء إلى العنف، ما عدا الاضطهاد الذي تعرّضت له هذه القوى وإن كان لا يقارن بما حصل في العديد من الدول العربية المجاورة والأفريقية، كمصر والجزائر وليبيا وتونس والمغرب، إلا أن العنف المباشر الذي يتعرّض له الإسلاميون لا يزال حتى اليوم الدافع الأوّل إلى ردّات فعل عنفية تتخذ من هذه المنطقة أو تلك ملجأً أو ملاذاً وأرضاً «للجهاد»، أو تسمح بتدخّل قوى إسلامية كبيرة وخارجية لمساندة إخوتها في الدين ونُصرتهم.

والعامل الثاني هو انعكاس صورة لبنان في هؤلاء الجهاديين، فكما أن الأطراف السياسية والطائفية اللبنانية تلجأ إلى اكتساب شرعيتها من الخارج وتستند إليه في حكم نفسها والتحكّم بالبلاد، كذلك القوى الإسلامية أيضاً تلجأ إلى النماذج والتجارب والأسانيد الخارجية، كما ترحّب بمجيء دعاتها من خارج حدودها، علماً أن الإسلام نفسه لا يعترف بكيانات خارج شرعه، ولا تعني الكثير من المسلمين الحدود الدولية والإقليمية، اللّهم إلا في إطار مساقط رأس سُمّيت بهذا الاسم أو ذاك، «إلا أن الحاكمية أمر آخر، والأرض يرثها المؤمنون، ولهم في بلاد الإسلام والمسلمين خير حجّة على كل الكيانات التي تطلق هنا أو هناك» على حد تعبير أحد الدعاة الجهاديين. وإذا كان العديد من حلفاء حزب الله من

(٤) قيادي عسكري ميداني في الجماعة الإسلامية، أطلق قوات الفجر العسكرية التي نفّذت عمليات ضد الاحتلال الإسرائيلي في صيدا، وقُتل أثناء تنفيذ إحدى العمليات القتالية. وسيرد تفصيل سيرته وعمله لاحقاً.

القوى الإسلامية ذاقوا حلاوة «التبرّك بهم» لمجرّد كونهم من شعب المقاومة، فإن أكثر القوى الإسلامية اليوم باتت ترفض أي لقاء مع حزب الله أو أية قوة شيعية أو سورية، حتى تثبت لنفسها وللخارج بأنها «أصيلة»، ربّما كأصالة المقاومة في العراق التي تاهت بين مقاتلة الاحتلال «الصليبي واليهودي» (بحسب شعار الجبهة الإسلامية العالمية) وبين قتال الشيعة «الرافضة».

إلا أن ما يمكن التأكيد عليه من اختلاف بين الجهاديين اللبنانيين وبلدهم نفسه هو أنهم يعتبرون أنفسهم أكبر من أن يُحشروا في السياسة المحلّية، فلا أحد منهم يرى في نفسه أقلّ من واحد من مليار ونصف مليار مسلم تقريباً يتوزّعون حول العالم ويمتلكون من الأرض ما يمتدّ من أقصى جنوب أفريقيا إلى أقصى آسيا وإلى الصين. والإسلاميون في لبنان، كما في كل العالم، لا يمكن صرفهم في السياسة اليومية اللبنانية بين الطوائف، وإن كانوا يتقاطعون مع هذا الطرف أو تلك القوة فإنهم عصيّون على التطويع، وهم في النهاية من مملكة أخرى، مملكة جنّات الخلد، ولا تشكّل لهم الأرض إلا معبراً إلى تلك الحياة.

كما يختلف الجهاديون عن مواطنيهم اللبنانيين الآخرين بأنهم أصحاب قضايا لم تحلّ، وهي تبدأ بتحرير فلسطين والقدس من الاحتلال الإسرائيلي، وتمتد إلى تحرير بلاد المسلمين من دنس الوجود الأجنبي عليها. ويتابع بعضهم تطلّعاته إلى إقامة دولة خلافة إسلامية تحكم بما أنزل الله من كتاب وما سنّه النبي للمسلمين، وتوحّد المسلمين حيث يعيشون، وتعيد إليهم أراضيهم السليبة من أفريقيا إلى أقاصي آسيا وأوروبا والأندلس خاصة التي لا تزال تراود المؤمنين في إغواء لا ينقطع وحنين لزمن مضى كانوا خلاله يصلّون في مسجد الحمراء.

الجهاد الجهاد

يتردد أحد علماء الدين الشبّان، من الذين خاضوا تجارب السجون والمعتقلات اللبنانية وأمضوا أعواماً من شبابهم خلف القضبان، في الحديث، ويعتبر أن مجالسة الصحافي خطأ. ويتصرّف بعدائية تظهر مدى خشيته مما سيكون نتيجة لجلساته مع صحافي. كان يجلس بثيابه البيضاء على الكنبة الوثيرة في أحد

المراكز الأهلية في بيروت، وهو يتحدث بحذر عن ماضيه وعن أفكاره، هو الذي تعرّض لإغراءات لا تُصدّق بغية الوشاية بجهة سياسية، والنطق أمام المحاكم بأنها كانت خلف عملية اتّهم بها، إلا أن الرجل رفض، وسُجن متخلّياً عن الإغراءات والثراء والحرية، وهو لا يرى في نفسه أكثر من مجاهد، وطبعاً ليس أقلّ من ذلك.

يُعرّف رجل الدين الشابّ الجهاد بأنه «كل عمل عسكري يقوم به إسلاميون بغرض خدمة مفاهيمهم، وهو بالتالي يشمل كل الأطراف التي تعرّف عن نفسها بأنها قوى إسلامية»، بينما يعتبر عالم آخر أن هناك «بعض الجهاديين في لبنان والعالم، وليس بالضرورة أن يكونوا كلّهم أو حتى جُلّهم يمارسون الجهاد أو ينتمون إلى قوى أو فكر جهادي». ويرى الشيخ أسامة شهاب أحد أئمّة السلفية في لبنان أن «الجهاد - ومفهومه واضح - هو لإعلاء كلمة الله، بغضّ النظر عن الزمان والمكان، وأينما توافرت الظروف يجب على المؤمن القتال لهذا الهدف» أي إعلاء كلمة الله.

ويقول الشيخ ماهر حمّود، إمام مسجد القدس في صيدا، إن من الصعب التأريخ الدقيق للجهاد في الفكر الإسلامي كون «الفكر الإسلامي يحمل بشكل مباشر فكراً جهادياً، فلا يمكن لشاب يقرأ سورة في القرآن كسورة الحجّ وهي تتحدث عن الحجّ إلا أن يصل إلى نهايتها وفيها دعوة إلى الجهاد، أو سورة البقرة وفيها عن بني إسرائيل، وتتضمن أيضاً الجهاد، والمواضيع في القرآن موزّعة بشكل غير منهجي، ومنثورة فيه نثراً، ولا يمكن لأستاذ في مسجد أن يقول اقرأ هذه الصفحة دون تلك، وكذلك السيرة النبوية، فلا يمكن الفصل فيها بين الدعوة والنقاش مع المشركين عن الجهاد وكذلك التاريخ الإسلامي والفقه. وحيثما وُجد الفكر الإسلامي وجد الفكر الجهادي بالتأكيد، وهذه جدلية يومية داخل الحركات الإسلامية حول من يستعمل العنف أكثر من الآخر». وبالتالي فإن كل مؤمن يمتلك قدراً من الفكر الجهادي، سواء أكان صوفياً أم وهّابياً، ويختلف القدر والتطبيق فقط.

وعلى مدى العقود القليلة الماضية كان النقاش بين القوى الإسلامية يتركز

حول المدى والوقت للجهاد، ولاستخدام العمل العسكري في التغيير، وهل العنف هو الطريق نحو الحاكمية، ونحو دولة الخلافة وتحرير بلاد المسلمين، أم أن الخلافة هي نقطة الانطلاق؟ أم أن تغيير الأنظمة أولوية تسبق تحرير البلاد؟ وهل تسبق تربية الأمّة تربية إسلامية عملية تثويرها ودفعها إلى الجهاد ضدّ أعدائها ومحتلّي أرضها؟ وبعد أزمة الجزائر التي أطيح خلالها بنتائج الانتخابات النيابية وبالذين فازوا فيها من الإسلاميين معاً، تعرّض النهج الإسلامي المعتدل والهادئ إلى أقصى ضربة، خصوصاً أن أزمة الجزائر ترافقت وأصداء انتصار المجاهدين في أفغانستان الذين تمكنوا خلال أعوام قليلة نسبياً من تحقيق ما لم ينجح في تحقيقه التربويّون من الإسلاميين خلال عقود طويلة. وعلى هذه الخلفية يستقبل أحد المنتمين إلى المجموعات التكفيرية في سجن مصري أحد نوّاب الأمّة الذي دخل السجن زميلاً له بالقول «وماذا نفعتك أعوام طويلة من الكلام؟».

غرف السجون المصرية المعروفة بالقاووش سبق أن دخلها سيّد قُطب[٥] قبل إعدامه. وهو يعتبر أهم المؤسّسين للفكر الجهادي الحديث، ويفقه الجهاد بصفته الطريق نحو تحقيق حاكمية الله، وإنهاء حكم الجاهلية، وهو طريق لا بدّ من سلوكه. ويصرّ سيّد قُطب على أن هذه المُثل مطلوب تجسيدها واقعاً. ومن أقواله الواردة في كتابه «في ظلال القرآن»:

«إن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدد، وأحزاباً أخرى كلّها للشيطان والطاغوت. إن هناك داراً واحدة هي دار الإسلام التي تقوم فيها الدولة المسلمة فتهيمن عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده، ويتولّى فيها المسلمون بعضهم بعضاً. وما عداها

---

(٥) سيّد قُطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦). كاتب وأديب ومنظّر إسلامي يعتبر من أكثر الشخصيات تأثيراً في الحركات الإسلامية التي وجدت في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وهو من قادة حركة الإخوان المسلمين، وله العديد من المؤلّفات والكتابات حول الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي. ألقت الشرطة المصرية القبض على شقيقه «محمد قطب» فأرسل سيّد رسالة احتجاج إلى المباحث العامة في ٩ آب/أغسطس ١٩٦٥. وأدّت تلك الرسالة إلى إلقاء القبض على سيّد والكثير من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين وحُكم عليه بالإعدام مع ٧ آخرين وتم تنفيذ الحكم فجر الاثنين ٢٩ آب/أغسطس ١٩٦٦، وجرى الإعدام في مكان عام.

دار حرب علاقة المسلم بها إما القتال أو المهادنة على عهد أمان، ولكنها ليست دار إسلام ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين».

«إن المتسلّطين على رقاب العباد لا تُجدي معهم وسيلة البيان والتبليغ في معظم الأحوال، وبالحركة بجانب البيان يتحقق التكافؤ مع الواقع. ومن ثم لم يكن بدّ من أن تتخذ الحركة إلى جانب البيان لنواجه الواقع البشري بكل جوانبه وبوسائل متكافئة لكلّ جوانبه..... وهما معاً الحركة والبيان يواجهان الواقع البشري بجملته بوسائل مكافئة لكلّ مكوّناته، وهما معاً لا بدّ منهما لحركة التحرير للإنسان فى الأرض، الإنسان كلّه في الأرض كلّها. هذه نقطة مهمّة لا بدّ من تقريرها مرة أخرى. فهذا الدين يريد أن يردّ العالمين إلى ربّهم» (ص: ١٢٢).

«إن إعلان ربوبيّة الله وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرّد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر في أية صورة من الصور» (ص: ١٢٣)

«والذي يدرك طبيعة هذا الدين يدرك معها حتميّة الانطلاق الحركي الإسلامي في صورة الجهاد بالسيف إلى جانب الجهاد بالبيان».

«وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقلّ، منفصل عن المجتمع الجاهلي...والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة يصبحون ألفاً».

«إن الإرهاب يبدأ فكراً». كما يقول سيّد قُطب. ومفهوم الإرهاب ليس سلبياً لدى الجهاديين، فالقرآن نفسه يطالب المؤمنين بإرهاب عدوّ الله وعدوّهم: بحسب ما يرد في القرآن: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾ [سورة الأنفال، الآية ٦٠].

وثمّة تعريف مفصّل للجهاد يقدّمه الشيخ عبد العزيز بن باز[٦] (١٩١٢ - ١٩٩٩)، أحد أهمّ مراجع السلفية السعوديين، ويرد في موقعه الإلكتروني وهو التالي: الجهاد جهادان: جهاد طلب، وجهاد دفاع، والمقصود منهما جميعاً هو تبليغ دين الله ودعوة الناس إليه، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإعلاء دين الله في أرضه، وأن يكون الدين كلّه لله وحده، كما قال عزّ وجلّ في كتابه الكريم في سورة البقرة: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[الآية ١٩١]، وقال في سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الآية ٣٩]، وقال عزّ وجلّ في سورة التوبة: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الآية ٥].

وقال النبيّ محمّد: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام وحسابهم على الله عزّ وجلّ» متفق على صحّته من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن

(٦) (هو الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن باز. وُلد في ذي الحجّة سنة ١٣٣٠هـ (٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١١) في مدينة الرياض وكان بصيراً ثم أصابه مرض في عينيه عام ١٣٤٦هـ وضعف بصره ثم فقده عام ١٣٥٠هـ. توفّي في ١٤ أيار/مايو ١٩٩٩). يعتبر ابن باز من علماء الدين البارزين في المملكة العربية السعودية. وينتقده البعض لإصداره فتاوى يرون أنها لا تتناسب مع هذا العصر و متطلباته مثل تحريمه لقيادة المرأة للسيارة، أو بسبب إجازته الاستعانة بالكافر لمواجهة المعتدي المسلم التي صدرت في عام ١٩٩١ بخصوص الحرب على العراق. كما انتُقد حول كتيّبه: رسالة الأدلّة النقلية والحسّية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب، الذي قال فيه بثبوت الأرض و دوران الشمس حولها. و أحدث ذلك الكتاب ضجّة عند صدوره. و كثر عدد الذين قاموا بالردّ عليه. وفي ما بعد تم التراجع عن هذا الكتيّب.

لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله»، وفي صحيح مسلم عنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به».

(...) وفي هذه الآيات الكريمات الدلالة الظاهرة على وجوب جهاد الكفّار والمشركين، وقتالهم بعد البلاغ والدعوة إلى الإسلام، وإصرارهم على الكفر، حتى يعبدوا الله وحده ويؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلّم ويتبعوا ما جاء به، وأنه لا تحرم دماؤهم وأموالهم إلا بذلك، وهي تعمّ جهاد الطلب، وجهاد الدفاع، ولا يُستثنى من ذلك إلا من التزم بالجزية بشروطها إذا كان من أهلها؛ عملاً بقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية ٢٩].

وقد كان الجهاد في الإسلام على أطوار ثلاثة:

الطور الأول: الإذن للمسلمين في ذلك من غير إلزام لهم، كما في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [سورة الحجّ، الآية ٣٩].

الطور الثاني: الأمر بقتال من قاتل المسلمين والكفّ عمّن كفّ عنهم، وفي هذا النوع نزل قوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٦]، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [سورة الكهف، الآية ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة الآية ١٩٠] (...)

الطور الثالث: جهاد المشركين مطلقاً وغزوهم في بلادهم حتى لا يكون فتنة، ويكون الدين كلّه لله؛ ليعمّ الخير أهلَ الأرض، وتتسع رقعة الإسلام، ويزول من طريق الدعوة دعاة الكفر والإلحاد، وينعم العباد بحكم الشريعة العادل، وتعاليمها السمحة، وليخرجوا بهذا الدين القويم من ضيق الدنيا إلى سعة

الإسلام، ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق سبحانه، ومن ظلم الجبابرة إلى عدل الشريعة وأحكامها الرشيدة، وهذا هو الذي استقر عليه أمر الإسلام، وتوفّي عليه نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأنزل الله فيه قوله عزّ وجلّ في سورة براءة، وهي من آخر ما نزل: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية ٥]، وقوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٣٩]، والأحاديث السابقة كلّها تدلّ على هذا القول وتشهد له بالصحة.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الطور الثاني وهو: القتال لمن قاتل المسلمين والكفّ عمّن كفّ عنهم قد نُسخ؛ لأنه كان في حال ضعف المسلمين فلمّا قوّاهم الله وكثر عددهم وعدّتهم أمروا بقتال من قاتلهم ومن لم يقاتلهم، حتى يكون الدين كلّه لله وحده أو يؤدّوا الجزية إن كانوا من أهلها. وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن الطور الثاني لم يُنسخ بل هو باقٍ يُعمل به عند الحاجة إليه، فإذا قوي المسلمون واستطاعوا بدء عدوّهم بالقتال وجهاده في سبيل الله (...) أما إذا لم يستطيعوا ذلك فإنهم يقاتلون من قاتلهم واعتدى عليهم، ويكفّون عمّن كفّ عنهم عملاً بآية النساء وما ورد في معناها، وهذا القول أصحّ وأولى من القول بالنسخ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تَيمية رحمه الله، وبهذا يعلم كلّ من له أدنى بصيرة أن قول من قال من كُتَّاب العصر وغيرهم أن الجهاد شُرّع للدفاع فقط قول غير صحيح(...)».

انهارت السلطنة وضاعت فلسطين

من صوت الناعورة التي تسقي الحقول والمزروعات، وتجمّعات سكانية متفرّقة ومعاهد تعليمية بدائية تحتمي بظلّ الشجر من الشمس، وصل الانتداب، وعرف الأهالي بانهيار السلطنة العثمانية، فتخلّصوا من الخدمة العسكرية ومن الضرائب، ولكنهم فقدوا الدولة التي ترعاهم، ومن فلسطين وصلت أنباء كارثة أخرى وشيكة: اليهود هنا يشترون الأراضي...

ترنّح الشارع الإسلامي، وانهارت آماله بعد سقوط السلطنة العثمانية،

فالإمبراطورية العثمانية على عِلَلها كانت قد بدأت بإدخال التحديث إلى المناطق التي تحكمها، وهي في نهاية الأمر بالنسبة إلى المسلمين جميعاً دولة الخلافة الإسلامية، التي لم يكن ينازعها على هذا اللقب أيّ دولة أخرى. وتعامل المسلمون مع محاولات الانفكاك عن السلطنة بصفتها خيانة ونزعات انفصالية غير مشروعة، ولم تخرج المملكة العربية السعودية في ذلك الزمن برموزها عن كونها عاصية على دولة الخلافة العثمانية. ولم يأتِ تعبير حزب التحرير بتسمية انهيار السلطنة العثمانية بـ«النكبة» من فراغ، بل استند إلى رؤية إسلامية في اعتبار أن انهيار دولة الخلافة أتى في زمن الشتات للمسلمين وزمن الهزائم المتتالية. وفي كل حرب كونية دفع المسلمون ثمناً باهظاً، ففي نهاية الحرب الأولى فقدوا السلطنة ودولة الخلافة، وفي نهاية الحرب الثانية تمّ تقسيم دولهم وأنشئت بينهم دولة إسرائيل من بقايا المقاتلين اليهود في جيوش الحلفاء في الحرب الثانية.

وعرفت المملكة العربية السعودية مساراً آخر مختلفاً مع محمد بن عبد الوهّاب[7] (١٧٠٣-١٧٩١) الذي اشتقّ مذهباً حديثاً أقامه على ما أتى به السلف

(٧) محمد بن عبدالوهاب (١٧٠٣م - ١٧٩١م) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي، عالم دين سنّي من نجد، تنسب إليه الحركة الوهابية. وهو من مواليد قرية العيينة بنجد عام ١١١٥هـ. اشتهر أمره بعد عام ١١٥٠هـ (١٧٣٨ م) بنجد وقراها. ويرى البعض أنه تابع ابن تيمية. وقد سمّي أتباعه بالوهابية من قبل خصومه، أما أتباعه فيسمون أنفسهم بالسلفيين، أي أتباع السلف الصالح من المسلمين الأوائل، كما كانوا يسمون أنفسهم بـ«الموحدين» في حياته. وألمّ بالكثير من العلوم الشرعية قبل انتقاله إلى قرية الدرعية، وبعدها بدأ نشر المنهج السلفي فلم يجد تأييداً في بادئ الأمر بل جوبه من قبل بعض المشايخ وتعرض لمحاولات اغتيال، وراسل العديد من العلماء منهم مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا. بعدها تعرّض لتضييق شديد ولجأ إلى أمير الدرعية محمد بن سعود الذي اقتنع بمذهبه، وعقد معه تحالفاً عام ١١٥٧هـ (١٧٤٤م). أهم ما شغله مسألة التوحيد الذي هو عماد الإسلام، والذي تبلور في عبارة «لا إله إلا الله» التي تحوّلت شعار العلم الرسمي للمملكة العربية السعودية. وقد رأى أن هذا التوحيد قد ضاع أو دخله كثير من الفساد مما يشبه الشرك. وأكد أن الله وحده هو مشرّع العقائد.
وكان يرى وجوب العودة بالإسلام إلى بساطته الأولى، وأن ضعف المسلمين ليس له سبب إلا فساد العقيدة، وأنه لا بدّ له من الاستعانة بقوة مادية لمحاربة البدع والدفاع عن الدين الصحيح، فاتفق مع الأمير ابن سعود على نشر الدعوة باللسان والسيف معاً. ومن أشهر كتبه كتاب التوحيد. =

الصالح، مستعيناً على عصره بأفكار شيخ الإسلام ابن تيميّة[8] ومؤيّداً من محمد بن سعود[9]، وشهدت أرض الحجاز حينها صراعاً دموياً من أجل الحكم امتدّ من الكوت (الكويت حالياً) إلى دوحة قطر.

انهارت السلطنة إذاً مع نهاية الحرب العظمى ومعها الخلافة، وبقي المسلمون ضائعين بعد أول حدث من نوعه منذ إنشاء الدولة الإسلامية قبل نحو ١٣٠٠ سنة. وكان هذا الانهيار هو ما منع العديد من دولهم في ما بعد من دخول الحداثة التي كانت السلطنة قد شرعت في إدخالها رويداً رويداً إلى الأطراف - على عكس الدعاية الغربية التي تحتكر لنفسها دخول الحداثة والتطور التقني وشقّ الطرق وغيرها.

وبعد نهاية الحرب الأولى أصبح أمر بلاد الشام متروكاً للنزاع بين القبائل والبدو القادمين من الصحراء وبين الإفرنجة من جيوش فرنسية وبريطانية مستعمرة.

= توفي عام ١٧٩١م في عهد ثاني أئمة الدولة السعودية، عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وسار عدد من ذرّيته - الذين يسمون الآن بـ«آل الشيخ» - على نهجه فتولوا القضاء والإفتاء وتأليف المصنفات والرسائل تبعاً لما يسمّى بالمذهب السلفي.

(٨) ابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، تقي الدين أبو العباس (الملقب بشيخ الإسلام) هو أحد علماء المسلمين. ولد عام ٦٦١هـ (١٢٦٢م) في حرّان وهي بلدة تقع في الشمال الشرقي من بلاد الشام في جزيرة ابن عمرو بين دجلة والفرات. وحين استولى المغول على بلاد حرّان وجاروا على أهلها انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) فنشأ فيها وتلقى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنُسب إليها وعُرف بها. وقدم مع والده إلى دمشق وهو صغير. قرأ الحديث والتفسير واللغة وشرع في التأليف من ذلك الحين. بَعُدَ صيته في تفسير القرآن وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل وكان من مذهبه التوفيق بين المعقول والمنقول. دخل السجن في شعبان سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) ومكث في السجن إلى أن توفي في ٢٦ من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٨م)، حيث مرض بضعة وعشرين يوماً ولم يعلم أكثر الناس بمرضه وفوجئوا بموته. ذكر خبر وفاته مؤذن القلعة على منارة الجامع وتكلم به الحرس على الأبراج فتسامع الناس بذلك واجتمعوا حول القلعة حتى أهل الغوطة والمرج وفتح باب القلعة فامتلأت بالرجال، وكانت جنازة عظيمة جداً وأقلّ ما قيل في عدد مشيعيه خمسون ألفاً، ودفن في دمشق.

(٩) الإمام محمد بن سعود هو مؤسس الدولة السعودية الأولى. تولى الإمارة بعد وفاة أبيه وقد تزامنت ولايته مع ظهور الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ولد ١١٠٨هـ (١٦٩٧م) وتوفي العام ١١٧٩هـ (١٧٦٥م).

وقد تُرك المسلمون في بلاد الشام لمصيرهم، واستيقظوا فجأة ليجدوا أنفسهم دون وليّ أمر يقود خطاهم، وكان بديله هو الاحتلال الفرنسي في لبنان، وفي فلسطين كان المشهد يقود إلى كارثة، فما رفضه السلطان عبد الحميد الثاني[10] (١٨٤٢ - ١٩١٨) من بيع أراض إلى اليهود أصبح حدثاً يومياً، ومحاولات الثورة في فلسطين التي يقودها الحاجّ محمّد أمين الحُسَيني مفتي القدس[11] (١٨٩٥ - ١٩٧٤) تُنازع وحيدة، فالدعوة إلى الجهاد التي كان يطلقها الحاج كانت غريبة عن أذهان المسلمين في البلد المجاور لبنان، حيث كانت الدعوة تتم عادة عبر التجنيد في إطار جيش السلطنة، وهو ما اعتاد عليه أهل السنّة من مئات السنين، بل منذ أكثر من ألف عام، وكانت التعبئة للجهاد حِكراً على أولياء الأمر، وأما الدعوات الفردية فإنما هي بِدع ومعصية وخروج عن الدين بنظرهم.

---

(١٠) عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، وآخر من امتلك سلطة فعلية منهم. ولد في ٢١ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٢ م وتولّى الحكم عام ١٨٧٦ م. تآمر عليه اليهود - كما أشار د. حسّان حلاّق في كتاب عن دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، لأنه رفض التنازل لهم عن شبر واحد من أرض فلسطين فأبعد عن العرش عام ١٩٠٩ م بتهمة الرجعية، وأقام تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في ١٠ شباط/ فبراير ١٩١٨ م. أظهر السلطان عبد الحميد روحاً إصلاحية وعهد بمنصب الصدر الأعظم الى مدحت باشا أحد زعماء الإصلاح فأمر بإعلان الدستور وبداية العمل به. وقد كان الدستور مقتبساً من دساتير دول أوروبية مثل: بلجيكا وفرنسا وغيرها. واشتمل على ١١٩ مادة تضمّنت حقوقاً يتمتع بها السلطان، وهي الحقوق الدستورية لأي ملك دستوري، كما نصّ الدستور على تشكيل مجلس نواب منتخب دعي بهيئة المبعوثان.

(١١) الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس والديار المقدسية. وُلد في القدس عام ١٨٩٥ من أم شركسية وأب عربي وتوفي في بيروت عام ١٩٧٤. رفض الخضوع للأمر الواقع القاضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود. حكمت المحكمة البريطانية في القدس على الحسيني حكماً غيابياً بالسجن لمدة ١٠ سنوات لاتّهامه بالتحريض على الثورة العربية في العام ١٩٢٠. في العام ١٩٣٦ تضافرت الجهود العربية وقام الفلسطينيون بتأسيس «اللجنة العربية العليا» وتنصيب الحسيني رئيساً لها. وطلبت اللجنة من الفلسطينيين إعلان الإضراب العام والامتناع عن دفع الضرائب إلى المفوضية البريطانية، ومطالبتها بوقف الهجرة اليهودية لفلسطين والاستقلال الوطني الفلسطيني. وأدّى الإضراب العربي إلى توتّر العلاقات بين الإدارة البريطانية والفلسطينيين وتخللت الأعوام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ موجة من الانتفاضات العربية، فقامت الإدارة البريطانية بحلّ اللجنة العربية العليا وتنحية الحسيني من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى.

ويرى الشيخ إبراهيم الصالح الذي لعب في الماضي القريب دوراً في حركة التوحيد الإسلامي، والذي درس التاريخ، أن بداية الجهاد في لبنان كانت مع المرحلة الناصرية، وإن كانت جهادية غير دينية بالكامل فإنها حملت ملامح الجهاد الإسلامي. بينما يذهب الباحث الشاب محمد مصطفى علّوش إلى محاولة تلمّس بذور سابقة على هذه المرحلة، وخاصة تلك التي أتت من مصر مع عودة محمد رشيد رضا[(١٢)] (١٨٦٥ - ١٩٣٥) إلى بلده الأم لبنان.

ولا يعتبر الفكر السلفي طارئاً في لبنان، إذ يعود إلى ما قبل إنشاء لبنان الكبير، أيام الخديوي عباس[(١٣)] (١٨٧٤ - ١٩٤٤)، ومحمّد عبده[(١٤)] (١٨٤٩ -

(١٢) محمد رشيد بن علي رضا. وُلد في العام ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥م وتوفّي في العام ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥ م. من قرية «القلمون» التي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن طرابلس الشام نحو ثلاثة أميال. حفظ القرآن وتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب، ثم انتقل إلى طرابلس، ودخل المدرسة الرشيدية الابتدائية، ثم المدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس وكانت من أرقى المدارس الإسلامية في المنطقة. وحين أُغلقت المدرسة توثقت صلة رشيد رضا بالشيخ حسين الجسر، أحد أشهر علماء الشام ومؤسس المدرسة الوطنية الإسلامية، الذي أجازه سنة ١٨٩٧م بتدريس العلوم الشرعية والعقلية والعربية. وفي الوقت نفسه درس محمد رشيد رضا الحديث على يد الشيخ محمود نشّابة وأجازه أيضاً برواية الحديث، كما واظب على حضور دروس نفر من علماء طرابلس، ومنهم: الشيخ عبد الغني الرافعي، ومحمد القاوجي، ومحمد الحسيني، وغيرهم. ويعتبر محمد رشيد رضا مفكراً إسلامياً من أشهر روّاد الإصلاح الإسلامي الذين ظهروا في مطلع القرن الرابع عشر الهجري. وبالإضافة إلى ذلك، كان صحافياً لامعاً وكاتباً وأديباً لغوياً مرموقاً. وهو أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده، وأسّس مجلة المنار على نمط مجلة «العروة الوثقى» التي أنشأها معلّمه.

(١٣) الخديوي عبّاس حلمي الثاني (١٨٧٤ - ١٩٤٤) ابن الخديوي محمد توفيق بن إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، وهو آخر خديوي لمصر وحكم من ٨ كانون الثاني/ يناير ١٨٩٢ وعزل في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩١٤. هو أكبر أولاد الخديوي توفيق. وقد حاول أن ينتهج سياسة إصلاحية ويتقرب إلى المصريين ويقاوم الاحتلال البريطاني فانتهز الإنجليز فرصة بوادر نشوب الحرب العالمية الأولى وكان آنذاك خارج مصر، فخلعوه من الحكم وطلبوا منه عدم العودة ونصّبوا عمّه حسين كامل سلطاناً على مصر بدلاً منه. وفرضوا على مصر الحماية رسمياً.

(١٤) محمد عبده بن حسن خير الله. وُلد سنة ١٨٤٩ في قرية محلة نصر في محافظة البحيرة من أبوين مصريين. في سنة ١٨٦٦ التحق بالجامع الأزهر، وفي سنة ١٨٧٧ حصل على الشهادة العالمية، وفي سنة ١٨٧٩ عمل مدرساً للتاريخ في مدرسة دار العلوم. في سنة ١٨٨٢ اشترك في ثورة أحمد عرابي ضد الإنجليز، وبعد فشل الثورة حكم عليه بالسجن ثم بالنفي إلى بيروت لمدة ثلاث سنوات. سافر بدعوة من أستاذه جمال الدين الأفغاني إلى باريس سنة ١٨٨٤، وأسّس مجلة =

١٩٠٥)، الذي تأثّر به الشاب محمد رشيد رضا الذاهب من القلمون في الشمال اللبناني إلى مصر للدراسة، أيام كان الاستقطاب الأزهري المصري في أوجه وكانت الأشعرية هي المذهب السنّي شبه الأوحد في لبنان.

وانعكس انفتاح محمد عبده واحتكاكه بالثقافات الوافدة في فكر تلميذه محمد رشيد رضا، الذي احتكّ أيضاً بالمدرسة السلفية الوهّابية في بلاد الحجاز وعاد إلى لبنان ليكون السلفيّ الأول في بلاد الشام جامعاً ما بين الفكر الوهّابي والفكر التنويري. وكان قد أنشأ مجلة «المنار» في مصر (على نمط مجلة «العروة الوثقى» التي أسّسها محمد عبده)، وحين عاد إلى لبنان أصدر مجلة «تفسير المنار» وهي تحديث لطبعات المنار التي أصدرها في مصر.

وقد تعامل محمد رشيد رضا بعد عودته إلى لبنان مع كتّاب وشعراء وأدباء مسلمين في الشمال خاصة وترك فيهم بصمات من فكره، إلا أن هذه البصمات لم تصل إلى حدّ تشكيل فكر واضح على المستوى السلفي الإسلامي، بل أبقت على اعتدال المعتدلين من الكتّاب والمفكرين الإسلاميين.

إلا أن الفكر السلفي الوهّابي الذي يناهض فكرة «الحاكمية لله» (أي الحكم بشريعة الله من كتاب وسنّة فقط وكل حكم آخر هو حكم جاهلي) التي كانت تتبنّاها حركة الإخوان المسلمين في العالم، والذي يقول بـ«طاعة أولي الأمر»

= العروة الوثقى. وفي سنة ١٨٨٥ غادر باريس إلى بيروت، وفي العام نفسه أسّس جمعية سرّية باسم العروة الوثقى، قيل إنها ذات صلة بالمحافل الماسونية العالمية بهدف التقريب بين الأديان. وفي سنة ١٨٨٦ اشتغل بالتدريس في المدرسة السلطانية. وفي بيروت تزوّج من زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى. وفي سنة ١٨٨٩ عاد محمد عبده إلى مصر بعفو من الخديوي توفيق، ووساطة تلميذه سعد زغلول وإلحاح نازلي فاضل على اللورد كرومر كي يعفو عنه ويأمر الخديوي توفيق أن يصدر العفو وهو ما كان، وقد اشترط عليه كرومر ألا يعمل بالسياسة فقبل. وفي سنة ١٨٨٩ عيّن قاضياً بمحكمة بنها ثم انتقل إلى محكمة الزقازيق ثم محكمة عابدين ثم ارتقى إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف عام ١٨٩١. وفي العام ١٨٩٩ عيّن في منصب المفتي، وتبعاً لذلك أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى. وفي العام ١٨٩٠ عيّن عضواً في مجلس شورى القوانين. وفي سنة ١٩٠٠ أسّس جمعية إحياء العلوم العربية لنشر المخطوطات. وزار العديد من الدول الأوروبية والعربية. توفي في العام ١٩٠٥ بالإسكندرية بعد معاناة من مرض السرطان عن سبع وخمسين سنة، ودفن في القاهرة.

(استناداً إلى الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» [النساء: الآية ٥٩]) كجزء أساسي من معتقده، هذا الفكر بدأ مع سالم الشهّال، وكانت أوّل ترجمة عملية له مع جماعة «مسلمون» أو «شباب محمد» التي ظهرت في طرابلس عام ١٩٤٧، والتي حاول من خلالها سالم الشهّال فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدءاً من دور السينما في المدينة. وتجاوز نفوذ هذه الجماعة طرابلس إلى بعض المدن السورية، إلا أنها لم تلقَ صدى واسعاً. وفي المقابل انفجر صراع فكري بين السلفيين الوهّابيين من جهة والأشاعرة والصوفيين في لبنان من جهة ثانية. ولعب الشهّال دور المعلم للعديد من الشخصيات المعروفة في الأوساط الإسلامية اليوم، ومنها فتحي يكن وفيصل المولوي اللذان عادا وانتهجا نهجاً آخر، ولم يكن الصراع القائم بين الصوفية والسلفية يأخذ أي شكل تنظيمي ولم يبتعد عن الصراع الفكري.

كان الشيخ ماهر حمّود من أوائل الداعمين للفكر الجهادي في مدينته صيدا وتحديداً عبر تأثره بالفكر الثوري للإمام روح الله الخميني بعد الثورة الإيرانية، وانضمامه إلى تجمّع العلماء المسلمين، وتوظيف علاقاته لدعم قوات الفجر الإسلامية المقاومة. وهو يجد أن «من الصعب التأريخ الدقيق للفكر الجهادي الإسلامي لأن الفكر الإسلامي يحمل بشكل مباشر فكراً جهادياً».

ويقول إن الدعوة الإسلامية في لبنان «بالشكل الحركي» أتت من خارج الحدود في تلك المرحلة، ووصلت دعوة الإخوان المسلمين من مصر ومن سوريا في أواسط الخمسينيات، عندما وفد مصطفى السباعي[١٥] مؤسّس الإخوان في

(١٥) مصطفى بن حسني السباعي من مواليد مدينة حمص في سورية عام ١٩١٥م، نشأ في أسرة علمية عريقة معروفة بالعلم والعلماء منذ مئات السنين، وكان والده وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل. وقد تأثر بأبيه العالم المجاهد والخطيب البليغ الشيخ حسني السباعي الذي كانت له مواقف ضد الاستعمار. وشارك الإخوان المسلمون في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، حيث قاد السباعي الكتيبة السورية، وشاركوا في معركة القدس بخاصة ومعارك فلسطين بعامة. وفي يوم السبت الثالث من تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٦٤م انتقل السباعي إلى جوار ربّه عن عمر لم يتجاوز التاسعة والأربعين. وخرج مئات الآلاف من أبناء سورية لوداعه إلى مثواه الأخير.

سوريا والذي سبق أن جاهد في فلسطين «جهاداً طيباً»، إلى طرابلس للاستشفاء وأثّر في مجموعة من الشباب هناك. وفي القاهرة تعرّف الشبّان الذين يدرسون في الأزهر على الإخوان المسلمين، وانتقل كل ذلك إلى لبنان بشكل أو بآخر. «ولكن لو افترضنا أن هذه الأفكار لم تنتقل من مصر أو غيرها، فإن دواعي الفكر الجهادي كانت ستفرض نفسها وستخرج من أسطر القرآن ومن السنّة إلى حيّز التنفيذ» كما يقول الشيخ حمّود.

وكانت جماعة «عباد الرحمن» التي أسّسها محمد عمر الداعوق[١٦] (١٩١٠ - ٢٠٠٦) أول حركة إسلامية في لبنان، تعمل في إطار كشفي واجتماعي. فلما أتت أزمة عبد الناصر مع الإخوان المسلمين في مصر، أصبح الفرز واضحاً، وانتقل الكثير من «عباد الرحمن» غير المسيّسة إلى «الجماعة الإسلامية» الأكثر تسييساً. وتحوّل جميع أعضاء «عباد الرحمن» في طرابلس إلى «الجماعة الإسلامية». وحين تدخل اليوم إلى مركز «الجماعة الإسلامية» في طرابلس تجد لوحة عليها الآية «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» [سورة الفرقان: ٦٣] وهي لا تزال هناك منذ أيام «عباد الرحمن».

والتحق العديد من الشبّان في لبنان بحركة الإخوان المسلمين حين ظهورها تحت اسم عباد الرحمن، ومنهم فتحي يكن والشيخ سعيد شعبان، إلا أنهم اكتشفوا فيها حالة تعليمية، وانسحب منها كل من يكن وشعبان، وأسسا لاحقاً الجماعة الإسلامية. إلا أن الجماعة لم تتمكن من القطع مع الذهنية التربوية لعباد الرحمن، وحافظت الجماعة على هذا الطابع حتى اليوم بحسب ما يشير عدد من الباحثين والمتابعين، وأصبحت «حركة لديها سياسيون ولكن ليس لديها

(١٦) الداعية محمد عمر الداعوق، مؤسّس ورائد جماعة «عباد الرحمن» في لبنان. ولد لعائلة بيروتية معروفة عام ١٩١٠ وتوفي فجر يوم الأحد ٢٦ صفر ١٤٢٧ هـ الموافق ٢٦ آذار/مارس ٢٠٠٦م. انتهى به تحصيله العلمي إلى مدرسة الصنائع المهنية، حيث نال شهادة فنية في الميكانيكا التي برع فيها، مما يسّر له العمل واكتساب الخبرة وثقة الناس، وأصبح يُعرف بالمهندس محمد عمر الداعوق. تتلمذ، وهو بعد يافع، على الشيخ الداعية سعدي ياسين، فحصّل جانباً من العلوم الدينية كما سعى لتثقيف نفسه عبر دراسة الكتب والمراجع الإسلامية. وكان مما يميزه التزامه وحرصه على تطبيق ما يتعلمه من تعاليم الإسلام.

سياسة» بحسب أحد علماء الدين الشماليين.

وتجدر الإشارة إلى أن الفكر الجهادي يرمي في النهاية إلى إقامة نظام إسلامي، أما الجمعيات الأخرى غير الجهادية فهي تهمل هذا الجانب. ويبتسم الشيخ حمّود وهو يقول: «لا أذكر أن أحداً من علمائنا اللبنانيين في أوائل القرن الماضي أو أواسطه كان لديه هذا الفكر المتفوّق، وممّن اشتهر منهم محمد رشيد رضا من القلمون، وهو تلميذ محمد عبده (كُني مفتي الجمهورية اللبنانية محمد رشيد رضا قبّاني باسمه، وأزال رضا من اسمه لضرورات تقنية، بحيث يصبح اسمه محمد رشيد رضا راغب قباني). وكان محمد رشيد رضا العالم المشهور تحرّرياً على طريقة محمد عبده، ولكنه لم يطرح المشروع الجهادي كما نفهمه اليوم. أما فكرة إقامة دولة الخلافة، وهي الفكرة التي يركّز عليها حزب التحرير، فإنها فكرة إسلامية عامة، وحزب التحرير يبسّط الأمور ويقول إن الحلّ بالخلافة بينما هناك فكرة أخرى تقول بالدعوة أولاً وتوحيد الناس قبل الذهاب إلى الخلافة».

إلا أن الشارع السنّي كان مقسوماً بحدّة، وكانت الأغلبية المطلقة إلى جانب عبد الناصر إذ يقول الشيخ إبراهيم الصالح «عندما تتحدث عن الإسلام الجهادي في لبنان يجب أن تبدأ بجمال عبد الناصر، فأول حركة إسلامية جهادية سنّية في لبنان بدأت مع عبد الناصر في الخمسينيات من القرن الماضي، وهو من استقطب الشارع السنّي. ومن الكلام الذي كان شائعاً في لبنان: والله لو لم نكن نعلم أن محمداً هو آخر الأنبياء لاعتبرنا عبد الناصر نبياً».

على أنّ العنوان السنّي في الذاكرة معقّد وهو متشابك مع العنوان العروبي، والعكس صحيح إذ إن العنوان العروبي أيضاً متشابك مع الإسلامي، والتناقض في لبنان كان حينها إسلامياً مسيحياً، وكان الإسلاميون يرون أن الخروج من هذا التناقض يكون عبر الامتداد العربي الإسلامي. ويضيف الصالح: «لم يكن في الفكر السنّي آنذاك ما سيصبح إسلامياً أصولياً بعد بضعة عقود. وكان يُنظر إلى صائب سلام على أنه زعيم ناصري ورمز من الرموز لهذه الحالة الجهادية، وكذلك رشيد كرامي ومعروف سعد وغيرهم».

وفي طرابلس المعقل الأساس للحركات الإسلامية السنّية في مرحلة الثمانينيّات وما تلاها، كانت الناصرية قوة كاسحة، ولم يكن لحركة الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية الأخرى أي نفوذ في المدينة. وتتحدث نهلة الشهّال عن المرحلة من الخمسينيّات حتى السبعينيّات، فتقول: «كان أعضاء الجماعات الإسلامية بالكاد يتمكنون من السير في الطرقات، وذلك انعكاساً لاصطدام جمال عبد الناصر بالإخوان المسلمين»، وكان يقال في الشمال عن الإخوان بأنهم عملاء للبريطانيين إضافة إلى لائحة طويلة من الاتهامات ليس أقلّها تسميتهم «إخوان الشياطين».

وكانت طرابلس، قبل الدخول السوري إلى لبنان، مدينة هواها سوري، إذ لم يوافق نصف سكانها على الدخول في الإحصاء الذي أجراه الانتداب الفرنسي في العام ١٩٣٢. وفي العام ١٩٣٦ أضربت المدينة ستة أشهر رفضاً للترتيبات التي كانت تُعدّ للبنان. ولكن السوريين نجحوا خلال الأعوام الممتدة من ١٩٧٦ إلى العام ١٩٨١ في دفع الناس إلى كراهيتهم وكراهية العروبة وبالتالي التحوّل إلى خيارات أخرى.

وقد بدأ الفكر الجهادي بالظهور بالترافق مع فكرة الحاكمية لله التي أسّس عليها الإخوان المسلمون منهجهم، ونشأت الضرورة إلى إيجاد الوسائل لتنفيذ هذه الفكرة التي تدعو إلى إقامة شرع الله، إذ يرى الإخوان أن الدنيا تنقسم إلى شكلين من الحكم، الحكم بالكتاب والسنّة وإقامة نظام إسلامي يكون الحكم فيه لما أنزل الله، ونظام حكم ما قبل الإسلام أو الحكم الجاهلي وهو كل أشكال الحكم الأخرى.

ويلخّص الشيخ أسامة شهاب، السلفي وإمام مسجد ذي النورين في بيروت، ما سبق كالتالي: «في القرن الماضي أصاب الأمّة الإسلامية إحباط من الداخل بفعل ضربتين: أولاً سقوط الخلافة وثانياً خسارة فلسطين. وخلال النصف الأول من القرن الماضي كان الشاب المسلم يعيش حالة الإحباط ولم تظهر أي من الحركات الجهادية، وخرجت مجموعات الإخوان المسلمين، وقامت عليهم دولهم وحكوماتهم، وقام عبد الناصر بالقضاء على الإخوان المسلمين في مصر،

وفي الثمانينيّات تم القضاء على الإخوان المسلمين في حماة وحلب في سوريا».

ويرى إمام مسجد ذي النورين أن «أقرب المجموعات إلى الجهاد هي الموجودة في بلاد الرباط، أي سوريا والأردن ولبنان». أما الباحث محمد مصطفى علّوش فيرى أنه لم تمر في لبنان مراحل لمجاهدين فعليّين، أو على الأقلّ لم يشهد تاريخ لبنان الحديث قيام منظمات إسلامية تستحق هذا الاسم برغم كل ما حملته المراحل المختلفة من مجموعات إسلامية. و«المعلومات المتوافرة تقول بأن معظم المجاهدين هم لبنانيون درسوا في الخارج وكانت لهم ارتباطات خارجية» بحسب علّوش.

عبد الناصر والشعبوية

شكّلت كاريزما الرئيس المصري جمال عبد الناصر مصيبة إضافية للحركات الإسلامية، خاصة حينما وقع الخلاف بين الزعيم العروبي والإخوان في مصر. وكان على التحرك الإسلامي أن يفرز إبداعات جديدة في تأطير الحالة السياسية ليبرّر تمايزه عن زعيم بهالة عبد الناصر. ويمكن فهم ما جرى بتعابير نهلة الشهال التي لا ترى في الإسلام «إسلاماً سياسياً وإسلاماً غير ذلك، بل إن الإسلام هو مثل كل الأديان يمكن أن يكون مجرّد عبادة فلسفية بين الإنسان وربّه، أو يمكن أن يكون أداة للسلطة، سواء السلطة الحاكمة أو تلك القوى الطامحة إلى الوصول إلى السلطة، كما يمكنه أن يكون كأي دين آخر: قوة تغيير. وهذا أمر واقع على مرّ التاريخ ولم نخترعه نحن، ومن القناعة التأسيسية بأن الإسلام ليس واحداً، ومن يقول إن الإسلام واحد ينتهي سلفاً النقاش معه، ومن يوافق على مقولة إن الإسلام معطى اجتماعي، يمكننا عندها أن ندع جانباً البعد الروحاني والإيماني والفلسفي والفردي».

في زمن ظهور الناصرية الأول بداية الخمسينيات كانت أولى البعثات التعليمية تذهب من طرابلس إلى السعودية لتلقّي علوم الدين بحسب ما يؤرّخ محمد مصطفى علّوش. وذهب إلى المملكة ابن أمير جماعة «مسلمون» داعي الإسلام الشهّال الذي تخرّج في الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة عام ١٩٨٤م. «إلا

أن ما يجب تسجيله حول الفكر السلفي في لبنان ونشأته أنه اتجه نحو «محاربة البدع» ولم يأخذ أي اتجاه جهادي في بداياته المبكرة».

وتعتبر مرحلة عبد الناصر الأولى هي المرحلة الأولى أيضاً في الإسلام الجهادي، وأتت بعدها المرحلة الثانية، عندما اصطدمت الناصرية بحلفاء الأمس، مع تحوّلها إلى مدّ جماهيري واسع في المنطقة العربية. حينها أزاحت الحركات الناصرية الحركات الإسلامية والزعامات التقليدية من الواجهة، فوقفت الناصرية ضدّ صائب سلام ورشيد كرامي وغيرهما، واعتبرتهم ثغرة في العلاقة مع السلطة السياسية في لبنان، على قاعدة تساهلهم في التعامل مع المارونية السياسية، وصولاً إلى النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي حين أصبح على الإسلام السياسي الاختيار ما بين التقاطع مع الناصرية والمقاومة الفلسطينية أو الدخول إلى السجن والاضطهاد. بحسب أحد علماء الدين الذي عمل في فترة سابقة ضمن حركة التوحيد الإسلامي.

أخذ الإسلام السياسي، على ندرته وهشاشته، مساراً هادئاً ميّز خطوات الإسلاميين حتى مرحلة متقدمة. والهدوء الذي كان البعض يعتبره تشدّداً حينها يبدو اليوم كمهادنة واستسلام إذا ما قيس مثلاً بجماعة التكفير والهجرة المصرية أو الجماعة الإسلامية المسلّحة في الجزائر.

كان حزب التحرير يعمل ميدانياً من ناحيته ولكن بعيداً عن الفكر الجهادي. ومع أن الطروحات العامة للحزب كانت تتقاطع مع الجهاديين لناحية إقامة دولة الخلافة إلا أنه لم يتبنّ العنف، بل عمل وفق قواعد التربية والتوعية الإسلامية. وكان محمد البخّاش من أبرز كواد الحزب آنذاك.

وقد تأسّس حزب التحرير على يد الشيخ تقي الدين النبهاني (١٩٠٩ - ١٩٧٩) في مدينة القدس عام ١٩٥٣ لإعادة الخلافة الإسلامية. وعاش النبهاني فترة من حياته في مدينة طرابلس حيث تأثّر به عدد من رجال العلم منهم الشيخ عثمان الصافي الذي كان يكتب عن الوضع العربي والإسلامي وأثّر بدوره في توجهات الفكر الديني في مدينة طرابلس.

وتميز حزب التحرير بامتلاك وعي سياسي إلا أنه بقي لفترة طويلة معطلاً من حيث الممارسة السياسية «كون السياسة لديه تبدأ بعد الانقلاب واستلام السلطة، وليس قبل ذلك»، كما ينتقده أحد علماء الدين المحايدين. ومع عودة حزب التحرير - ولاية لبنان، إلى العلن أخيراً حافظ على تماسك إيديولوجي يكاد يمنعه من الانخراط في الحياة السياسية. ويمكن وصف حزب التحرير الإسلامي بأنه حزب يضمّ أفراداً قليلين ولا يمكن مقارنته بالجماعة الإسلامية التي مدّت جذورها بين الناس في لبنان. وكل ما لدى حزب التحرير هو معلن، ويُضمر ما يُظهر ما عدا نقطة واحدة هي النصرة، التي تتلخّص بنصرة من يعلن الخلافة الإسلامية ولو بانقلاب عسكري. كما يقول عالم دين من صيدا، علماً أن قياديين في الحزب لا ينكرون ذلك معتبرين أن العمل الانقلابي لا يتناسب مع العلنية.

الاستفادة من الثورة

مع انطلاقة المقاومة الفلسطينية في أواسط الستينيات وقف الإسلام السياسي مع منظمة «فتح» بقيادة ياسر عرفات (أبو عمّار)، ولعبت التسمية التي حملها الرجل دوراً في الاستقطاب: فعمّار[1] هو من الصحابة، وياسر كذلك، وأبو عمّار أدرى بكيفية الاستفادة من كل المعطيات حتى لو كانت اسمية، فضلاً عمّا تردّد آنذاك من أن «فتح» هي جزء من حركة الإخوان المسلمين، ما أدّى إلى إكساب المنظمة الكثير من التأييد في الأوساط الإسلامية، وإنْ مع بعض الأضرار الجانبية.

وظهر في أواسط الستينيات نموذج مختلف للقوى الإسلامية، إذ نظمت مجموعة من الإخوان المسلمين نفسها وحسمت خياراتها في العمل المقاوم، وكانت تقوم بعمليات انطلاقاً من الضفّة الغربية نحو داخل الأراضي المحتلة. واستطاعت هذه المجموعة تأسيس معسكر إسلامي تابع للإخوان اختصّ برمي الصورايخ والقيام بعمليات فدائية. وبعد معارك أيلول/سبتمبر ١٩٧٠ في الأردن بين الجيش الأردني والمنظمات الفلسطينية وطرد هذه المنظمات من الأردنّ، أتت هذه المجموعة إلى لبنان كغيرها من القوى الفلسطينية المقاتلة التي وجدت في لبنان ملاذاً ومنطلقاً لمتابعة عملها الفدائي.

(١) هو عمّار بن ياسر. من السابقين إلى الإسلام. أبوه ياسر وأمّه سُمَيّة أول شهيدين في الإسلام. وعرفات من مناسك الحجّ.

كان هؤلاء المجاهدون على خلاف مع التنظيم الرسمي للإخوان الذي لم يتبنّ التعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية وإنشاء جهاز جهادي تابع لمنظمة التحرير أو تحت رعايتها كما كانت تفعل الأحزاب حينذاك، ولم يكن التنظيم الدولي للإخوان موافقاً على هذا الاتجاه، وكان هؤلاء يأتون إلى لبنان محتفظين بأفكارهم، ويعملون على استقطاب العديد من الشبّان، وآنذاك تأسّست الحركة الإسلامية المجاهدة، التي تحمل أفكار الإخوان المسلمين مع التركيز على الجانب الجهادي. ولم تكن هذه الحركة محصورة في منطقة، أو في مجموعة من الفلسطينيين، وإن كان أكثر عناصرها منهم. ويمكن القول إن تبنّي الفكر الجهادي من قبل الحركة الإسلامية المجاهدة أدّى إلى انشقاق في صفوف الجماعة الإسلامية التي كانت تعدّ بالعشرات فقط في ذلك الحين.

و«المهمّ في هذه المرحلة أنها تظهر تواصل النقاش الإسلامي حول توقيت ضرورة الجهاد، ومتى يحين وقت استعمال العنف» بحسب الشيخ ماهر حمّود.

وبُعيد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ انحسرت الحركة الإسلامية المجاهدة وانحصرت في مخيّم عين الحلوة شرق صيدا، وإن احتفظت بمناصرين وأنصار لها في بعض المناطق اللبنانية، إلا أنهم لم يشكلوا أكثر من امتدادات متفرّقة.

وحافظ النقاش الإسلامي على الدوران حول نقطة مركزية، «توقيت الجهاد وضرورته، ومتى يحين وقت استعمال العنف». وكان التعميم السائد بأن «المنظمات الفلسطينية قومية عربية ويسارية» مجرّد غشاء كاذب.

وبعد حرب العام ١٩٦٧ أصبحت المقاومة خياراً لدى الأمّة - والأمّة هنا بمعظمها من أهل السنّة - وتوجّهت جهود المتديّنين وغير المتديّنين من بعد هزائم عبد الناصر إلى المقاومة الفلسطينية، ووُظّفت بشكل طبيعي لدى أبو عمّار. وعلى الصعيد اللبناني ركب ياسر عرفات والإسلام السياسي معاً في الانقلاب على الزعامة السياسية السنية من صائب سلام إلى رشيد كرامي، خصوصاً مع تنامي وجهة النظر الإسلامية القائلة بأنهما ذهبا مع الموارنة في لبنان أبعد مما يجب.

وقد عمل المسلمون اللبنانيون - جهادياً - مع الفلسطينيين في مواجهة

إسرائيل بينما عملت منظمة التحرير إلى جانب السنّة في لبنان ضد المسيحيين، حيث انضمّ اللبنانيون من السنّة إلى «فتح» وتحالفوا معها سرّاً وعلانية، بينما شكّلت «فتح» العصا التي يضربون بها النظام المسيحي في لبنان حين يستدعي الأمر، وهو ما كان يحصل في الغالب لأسباب داخلية ولكن بشعارات عروبية وفلسطينية. كما استخدم السنّة منظمة التحرير الفلسطينية لتشكل أحد البدائل التي ينسحبون عبرها من التزامات بزعامات سياسية احتلّت الدرجة الثانية في هرمية النظام الطائفي اللبناني، وليعلنوا عدم الرضا عن السلطة السياسية، سواء السلطة التي تمثلهم أو التي تقود البلاد بشكل عام. وكان أحد أهم المتلمّسين لهذه الحساسية الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، الذي بنى قيادته الجدّية على حساب القيادات السنّية التقليدية وفي مواجهتها، مغطياً الصراع الطائفي القائم بحركة وطنية لبنانية تستخدم الشعارات اليسارية.

وكانت السلطة التقليدية اللبنانية الممثلة بالمسيحيين أكبر الخاسرين، فالحالة الفلسطينية استقطبت السنّة وأعادت استنهاضهم بعد أن تمكنت المرحلة الشهابية من ضبطهم في مصالحة سنّية مسيحية تقبل بتمايز مسيحي على السنّة، وهي التسوية التي أتت بعد ثورة العام ١٩٥٨، وتم خلالها عملياً تطويع أهل السنّة، والمسلمين عامة. وأتت الحرب الأهلية في العام ١٩٧٥ ليقاتل السنّة ضد «المارونية السياسية» عبر اللحاق بشعارات «إلغاء الطائفية السياسية وإصلاح النظام اللبناني».

وأظهرت الأعوام الأولى من السبعينيات في لبنان عجزاً فكرياً وسياسياً لدى الإسلاميين، «ويكفي أن تقرأ كتاباً مثل «المسألة اللبنانية من منظور إسلامي» لفتحي يكن، لترى كم كان الطرح الإسلامي عاجزاً أمام شاب حينذاك مثل عصام نعمان وبرنامج الحركة الوطنية للإصلاح المرحلي» بحسب أحد علماء الدين الذين سبق لهم أن انقلبوا من الماركسية إلى الإسلام. وكان الجوّ الإسلامي أعجز من أن يشكّل طليعة في الحركة السياسية اللبنانية، فما كان من الإسلاميين إلا الالتحاق بأبو عمّار بصفته الأب الجديد لقضاياهم، بعد استحالة توافقهم مع الحركة الوطنية اللبنانية.

ولم يكن أبو عمّار جهادياً في هذا الإطار ولكن الحالة الجهادية كانت تلتحق به، وكان عبد الناصر ومن بعده أبو عمّار قد عملا على العنوان الرئيسي للإسلاميين ألا وهو القضية الفلسطينية والقدس. أما «الأمّة العربية» فلم تكن شعاراً ذا شأن لدى القوى الإسلامية. كما يقول أحد علماء الدين السلفيين الشغوفين بالتاريخ مقدّماً عن تلك المرحلة رؤية يمكن اختصارها كالآتي: كانت شعارات جمال عبد الناصر البرّاقة لا تتوافق مع ما ذهب إليه الجهاديون، وعبد الناصر نفسه اكتشف بعض هذه الشعارات حين شاهد التضامن العربي معه خلال العدوان الثلاثي العام ١٩٥٦، فصارت العروبة أكثر ربحاً من الشعار الإسلامي لديه، خصوصاً أن العروبة أتاحت له أن يزجّ بالإسلاميين في السجون، وأن يحافظ على جماهيريته الواسعة الانتشار، ومن ذاك التاريخ عاش الإسلاميون مصيبة عبد الناصر وشعاراته الجاذبة لجمهور يسعى خلف صورة صلاح الدين القائد المحرّر للأمة.

ثم جاء الرئيس أنور السادات وافترض أن كل الأوراق بيد أميركا دون الاتحاد السوفياتي، واتخذ قرارات سياسية كانت بمثابة انقلاب على سياسة عبد الناصر برمّتها، فذهب إلى تحسين العلاقة مع الإخوان المسلمين في مصر فيما كانت العلاقة بين الإخوان والنظام السوري آخذة في التردّي، وأصبحت مجلة «الدعوة» التي كان يصدرها الإخوان آنذاك في مصر تحمل مواضيع قاسية ضدّ سورية، وتنشر معلومات حول الضبّاط ومواقع القرار في النظام السوري.

وفي النصف الأول من السبعينيات كانت الأمور تتجه نحو الأسوأ في لبنان، وكانت الحركات الإسلامية مهتمّة بذاتها وبتحسين شروط وجودها وعلى هامش الحياة السياسية العامة. ومارس اليسار والقوميون قمعاً فكرياً على المنظمات الإسلامية، كما يرى العديد من الجهاديين، إلا أن كل ما ظهر في لبنان في تلك المرحلة لا يخرج عن إطار الإسلام المعتدل، أما في الحرب الأهلية فقد تحوّل النقاش وتبدّل.

وقبل الدخول في مخاض الحرب ونتائجها، كان من أهمّ مميّزات السنّة في لبنان أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم العرب المسلمين، علماً أنه في مرحلة الصراع

بين الأمين والمأمون[٢] كانت ميزة العرب التشيّع، وميزة العرب اليوم هي التسنّن. ومن السهل في الأجواء السائدة اليوم تركيب عناوين التشيّع والفرس والصفوية لاستنهاض الحالة الطائفية، كما يقول أحد علماء الدين مضيفاً: «ومن خلق المشكلة بين السنّي اللبناني والنظام السوري ليس رفيق الحريري ولا مقتله في العام ٢٠٠٥، بل ياسر عرفات وأنور السادات. فمن خلال الصراع مع النظام السوري في العام ١٩٧٦ أطلق عرفات هجمات كبيرة على «النظام العلوي» كما دعاه حينذاك، وشنّ إعلام «فتح» في لبنان هجوماً على النظام في سوريا، وتورّطت «فتح» في تدريب الإخوان المسلمين السوريين في لبنان إبّان أزمتهم مع النظام السوري، وكان الضابط الكبير في منظمة التحرير أبو طعّان أحد ضحايا هذه المرحلة، فقد سلّمه أبو عمّار في وقت لاحق وسجن في سوريا لمدة ١٣ سنة، وكان هو صلة الوصل مع الإخوان السوريين».

ولم يكن جمال عبد الناصر في نظر السنّة إلا زعيماً يقود خطاهم نحو نصر مبين. وفي المقابل انقضى زمن المنظمات الإسلامية في لبنان والمنطقة العربية تراهن على فشل عبد الناصر، وتضافر اليسار الذي تعرّض، كما الإخوان، للقمع العنيف في عهد ثورة تموز/يوليو، على الرهان نفسه، وكان الانتظار هو مفتاح الفرج لهذه القوى، إلا أن اليسار والقوميين تمكنوا من تأجيل زمن الجهاد

---

(٢) الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد. تنازعا على السلطة بعد وفاة الرشيد (٢٤ آذار/مارس العام ٨٠٩ ميلادية). تولّى الأمين الخلافة وعمره ثلاث وعشرون سنة، ولكن لم تتم له البيعة إلا في (نيسان/أبريل العام ٨٠٩). وقد أدى تولي الأمين الخلافة إلى إثارة الفتنة بينه وبين أخيه المأمون، ومما زكّى نار الفتنة بين الأخوين وقوع التنافس بين رجلين قويين كان أحدهما الوزير «الفضل بن الربيع»، الذي يسيطر على الأمين، والآخر هو «الفضل بن سهل»، الذي يسيطر على المأمون، بالإضافة إلى اتخاذ العنصرين العربي والفارسي من ابني الرشيد رمزًا للصراع بين العرب والعجم، والتفاف كل فريق حول صاحبه. واستطاع الفضل بن الربيع إقناع الأمين بعزل أخيه المأمون من ولاية العهد، وأن يجعلها في ابنه «موسى بن الأمين»، ثم ما لبث أن خلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد. ومن ناحية أخرى عمل الفضل بن سهل على توسيع الخلاف بين الأخوين، وحرّض المأمون على الاستقلال بخراسان. وأعلن الأمين البيعة بولاية العهد لابنه موسى وسماه «الناطق بالحق»، وأمر بالدعاء له من على المنابر بعده، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن. وبذلك يكون قد نكث عمّا أخذه عليه أبوه الرشيد من عهود ومواثيق.

والجهاديين إلى حين. وحين بدأت أسطورة عبد الناصر تتكلّل بالهزائم، وبدأت الشعارات التي أطلقها تفرغ من مضمونها، واتجه خليفة عبد الناصر إلى ما سيصنّف لدى الجهاديين بالخيانة التي توجب القتل، أصبح بإمكان الحركات الإسلامية أن تتجه إلى الدعوة شبه العلنية، وإلى العمل على الإعداد لما سيكون، والدعوة والإعداد من أهم مراحل الفكر الجهادي كما يظهر في كل الأدبيات الإسلامية للإخوان أو للسلفيين الجهاديين على السواء.

ومع نهاية المرحلة الناصرية، التي لم تصمد أبعد من زمن دفن قائدها، بدأت الدعاية والأفكار الناصرية بالانهيار في العالم العربي. وإذا كانت التنظيمات الناصرية قد احتاجت إلى بضعة أعوام إضافية لتأكل نفسها، فإن الإسلاميين ساهموا في إسقاط الشعارات الشعبوية للناصرية. لقد انتهى زمن بالنسبة إلى الجهاديين وسيبدأ زمن آخر.

الجهاد المتردّد في حروب اليسار والطوائف

كانت بدايات الحرب الأهلية في لبنان مناسبة لمن يرغب في الدخول إلى الجهاد من الباب الواسع، وفي المقابل كانت فرصة لإلغاء محاولات التفرّد بالجهاد من قِبل المجموعة المنشقّة عن الإخوان، والتي ستعرف لاحقاً بالحركة الإسلامية المجاهدة.

وقد وجد أحد الكوادر السابقة في الحركة الإسلامية الجهادية متسعاً من الوقت امتدّ أعواماً طويلة للقراءة والتأمّل في السجون. وهو حين دخل السجن كان شاباً مقاتلاً وقائداً ميدانياً وحين خرج كان قد تحوّل إلى ما يصفه غرامشي بـ«المثقف العضوي». وقد انخرط سجيناً في قراءات وكتابات ومذكرات وأبحاث، وحرّاً استعاد صلاته بالواقع اليومي، وهو اليوم يتحدث عن ماضي الحركات الإسلامية الجهادية، التي «لم تتمكن، منذ الخمسينيات، من شقّ خط جهادي بالمعنى الجماهيري».

يعتبر الكادر السابق الذي يتحفظ عن ذكر اسمه أن وجود حركات سبّاقة «كاليسار والحركة القومية العربية حدّت من وجود الإسلام الجهادي». وما ينطبق

على الإسلام الجهادي الحركي ينطبق أيضاً على الحركة السلفية التي شاركت في الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ في بدايات «جيش النواة الإسلامي» إلا أنها لم تكن أكثر من بدايات خجولة. وكانت الحركات الإسلامية بعيدة عن جوهر الصراع الأهلي الذي بدأ، فلم تكن في حالة وعي بما يجري من حولها ووجدت نفسها في حرب تتوقف وتشتعل دون أن تفهم هذه الحركات لماذا وكيف ومتى وأين؟ وفي مختلف مناطق لبنان وحيث وجد أهل السنّة والجماعة جرت محاولات مختلفة العمق والاتساع للتسلّح وتشكيل مجموعات جهادية، إلا أن الزمن لم يكن قد تحوّل نحو الزمن الإسلامي. وكانت القوى الناصرية ومنظمة التحرير الفلسطينية وفصيلها الرئيس «فتح» تجذب أبناء المناطق السنّية أكثر مما تجذبهم القوى الإسلامية التي كانت لا تزال بعيدة عن تكوين رؤية سياسية وفكرية عميقة، وهي لم تحسم نقاشاتها الداخلية بعد في ذاك الحين.

في العام الأول من الحرب اعتبر العديد من التيّارات الإسلامية أن حركة «فتح» و«المرابطون» (حركة الناصريين المستقلين) هما جيشا السنّة في لبنان، وفق شعار شهير أطلقه في زمن لاحق مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد، إلا أن ذلك لم يمنع بعض المحاولات لنشر الفكر الجهادي وتطبيقه بين الأطراف الإسلامية، وحينها كانت القوى الفاعلة هي الجماعة الإسلامية وعباد الرحمن وجند الله وجيش النواة الإسلامي، و«المجاهدون». وكان المفتي حسن خالد يلعب دوراً كبيراً في لمّ الشمل السياسي بعيداً عن التنظيمات العسكرية الجهادية والمجموعات المقاتلة. ويروي المرافقون للمفتي تاريخاً طويلاً من اللقاءات السياسية ومن إدارة الأزمة عبر اجتماعات كان يعقدها مع عدد من ممثلي السنّة في لبنان، شكّلت في النهاية الشرعية السياسية لمنظمة التحرير في لبنان من ناحية، ومثّلت من ناحية أخرى نوعاً من قيادة إسلامية للصراع الطائفي القائم في البلاد.

وبحسب كادر جهادي فإن «الجماعة الإسلامية (من ناحيتها) كان لها شكل مؤسّساتي، أما باقي الأطراف فكانت دون مستوى المؤسّسات. أما تنظيم جند الله فكان موجوداً في معسكرات في الجنوب وفي مخيّم نهر البارد، وكانت معسكراته

برعاية مصطفى ذيب خليل (أبو طعان)[3] مسؤول الكفاح المسلّح في لبنان. وأما الجماعة الإسلامية فأنشأت قوات «المجاهدون» وحاولت نشرها في كل لبنان.

وفي الأعوام الأولى من الحرب الأهلية لم يشكل الإسلاميون تيّاراً جماهيرياً أو شعبياً، وبحسب الكادر نفسه فإنهم «بقوا في مجال المجموعات المعزولة، وكان أهمّها عسكرياً وتنظيمياً الجماعة الإسلامية، وكانت ممتدة في كل لبنان كما أنها جزء من التنظيم الدولي للإخوان المسلمين».

ويتحدّث الشيخ ماهر حمّود عن تلك الفترة، التي كان فيها من ضمن الجماعة الإسلامية في صيدا، عن تأسيس «المجاهدون» في العام ١٩٧٦ حين ظهرت فكرة إنشاء ذراع عسكرية للجماعة.

«كان ثمّة طرف ينازع الجماعة الإسلامية على الفكر الجهادي، وهو «الجماعة الإسلامية المجاهدة» التي أتت إلى لبنان لاجئة من الأردن في العام ١٩٧٠، وحاولت شقّ صفوف الإخوان المسلمين في لبنان عبر الدعوة إلى الجهاد ضد

(٣) ضابط رئيسي في حركة فتح قادته قناعاته الإسلامية إلى التعامل مباشرة مع الحركات الجهادية الإسلامية منذ ما قبل الحرب الأهلية في لبنان، ولم يكن ذلك بمعزل عن موافقة ياسر عرفات. كان مسؤولاً عن الكفاح المسلّح في لبنان، وساعد الإسلاميين ودفع ثمناً لهذه المهمة التي قام بها عدة أعوام في السجون السورية خصوصاً أنه سلّح ودرّب وجهّز مجموعات الإخوان المسلمين السوريين عبر تطويعهم في لبنان في معسكرات خاصة خلال النصف الثاني من السبعينيات، على خلفية تأزّم العلاقة بين ياسر عرفات والنظام السوري. أبو طعان من مواليد عام ١٩٣٦ في بلدة الشيخ داود، لجأ مع أهله إلى مخيّم نهر البارد، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية غادر مع ثلّة من شباب المخيّم إلى العراق بعد دعوة المفتي أمين الحسيني، حيث تابع دورات تدريبية، ثم انتقل إلى مصر، ومنها إلى قطاع غزّة في العام ١٩٦٥، وما لبث أن غادر بعد هزيمة العام ١٩٦٧ إلى الأردن، حيث خاض معركة الكرامة ضد التقدم الإسرائيلي. غادر الأردن بعد أيلول/ سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠ إلى سوريا، ومنها إلى لبنان. شغل اللواء الركن أبو طعان منصب الأمين العام للكفاح المسلّح الفلسطيني، وكان عضواً في المجلس الثوري لحركة فتح، وقائد القوات الفلسطينية عام ١٩٨٣، كما شغل منصب ملحق عسكري فلسطيني في الكويت وفي عدة دول في الخليج. وقد اعتقل بتاريخ السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٣ وأمضى ٢٠ عاماً في السجون السورية. وخلال معارك نهر البارد طرحت فكرة تسليمه قوة تابعة للمنظمات الفلسطينية لتشكيل قوة فصل وإيجاد صيغة حلّ لمشكلة فتح الإسلام وإجلاء مقاتليها إلا أنه رفض، وذلك قبل أن يرفض الجيش اللبناني هذه الصيغة.

إسرائيل، إلا أن تبنّي فكرة تنظيم «المجاهدون» أدّى إلى لملمة الأمور محلّياً، خصوصاً أن الجماعة سلكت، شكلاً، الطريق الجهادي فانتفت ضرورة الانحياز إلى الفكر الجهادي للحركة الإسلامية المجاهدة. وبعد الدخول السوري إلى لبنان في العام ١٩٧٦ انسحبت هذه المجموعة القتالية من مسرح الأحداث مباشرة». إلا أن ما لا يرويه حمّود هو القرار المتسرّع في حلّ «المجاهدون» فور الدخول السوري، وتجنّب الصدام الفعلي مع القوات السورية الآتية تحت اسم المبادرة السورية وقوات الردع العربية، وهو ما يصفه عالم دين آخر بـ«القرار المسرحي بالانسحاب عن الخشبة».

ويضيف حمّود: «في بدايات الحرب الأهلية برز تنظيم جند الله كمجموعة صغيرة، عملت على محاور بيروت في القتال الذي كان دائراً آنذاك، ومن بينهم جميل صقر - وهو تحوّل بحسب علمي في انتمائه السياسي - وحاول المسير قبل الجماعة الإسلامية. ولكن لم تعش تلك الفكرة طويلاً، وانضمّ تنظيم «جند الله» لاحقاً إلى حركة التوحيد كما هو معلوم. وكان تنظيم «المجاهدون» الذي عمل لفترة ١٨ شهراً قد نجح في ضمّ العديد من العناصر وانتشر في عدد من المناطق منها صيدا وبيروت وغيرهما. وكان مازن فرّوخ قيادياً ميدانياً على محاور منطقة الطبّية في رأس النبع، وفي مجدليا استشهد سالم يكن وهو نسيب الداعية فتحي يكن، وكان رجلاً متعدد المواهب. وبشكل عام لعبت قوات «المجاهدون» دوراً في بداية الحرب الأهلية، ومع الدخول السوري اعتُقل عدد من أعضائها من قبل الجيش السوري على الحدود اللبنانية - السورية ولكن بشكل اعتباطي».

أما منظّمة «جند الله» فيلخّص أحد علماء الدين السنّة من الشمال تاريخها قائلاً إنها بدأت كمجموعة صغيرة من المقاتلين في العام ١٩٧٤، أنشأها الشيخ فوّاز حسين آغا وهو رياضي كان مهتماً بالعمل العسكري، وانشقّ عن الجماعة الإسلامية. وحملت «جند الله» مقولات معادية للمسيحيين، وكان التناقض وقتذاك مع المسيحيين قد برز بشكل واضح، «واستقطبت جند الله عدداً من العوامّ الذين تستهويهم المقولات الجهادية، وبرزت في هذه الحركة شخصية كنعان ناجي وانتقلت قيادتها من آغا إلى ناجي. وتمركزت هذه الحركة بشكل

رئيسي في طرابلس، وكان لديها بعض التمدّد في بيروت والبقاع، وتدرّبت عسكرياً في مخيّم نهر البارد الفلسطيني».

ويتحدّث أحد القياديين السابقين في الحركة الإسلامية المجاهدة، الذي فضّل عدم ذكر اسمه وموقعه الحالي أو السابق، عن عمل الحركة في أواسط السبعينيات «حيث كانت تعمل على التربية والثقافة، وكانت تواجه التيارات العلمانية من ماركسية وقومية، وقاومت المشروع الانعزالي والعدوان الانعزالي، وكان لها قواعد تحت غطاء الثورة الفلسطينية، ولكن هذه القواعد كانت مستقلة تحت إمرة الحركة الإسلامية، وكان هذا عبارة عن استثمار للوجود الفلسطيني لتأسيس الوجود الإسلامي».

في تلك الأثناء ومع الصراعات المتفرّقة التي كانت تُخاض ما بين القوى المتنازعة في لبنان وسوريا، التي تحول جيشها من قوات ردع عربية إلى قوات دائمة الإقامة في لبنان، أرخت حادثة بظلالها على تنظيم الجماعة الإسلامية، بحسب ما يروي أحد القياديين السابقين في الجماعة في بيروت، «حين دخل الجيش السوري إلى أحد مكاتب الجماعة الإسلامية، في صفّ البلاط، حصل على حقيبة «سامسونايت» لفتحي يكن، وفيها أسماء كل التنظيم، وتمّت معاقبة فتحي يكن وأوقف عن التنظيم وأبعد من الأمانة العامة لمدّة عام، وخلفه فيها سعيد شعبان، وذلك في العام ١٩٧٧».

كانت القوى السياسية المحلية في لبنان تدفع خلال أعوام الحرب الأهلية بالقوى الإسلامية إلى خلفية الصراع، فلا مكان لهذه القوى في صراع بين الماركسية والقومية العربية والناصرية على الاستئثار بالحركة الجماهيرية. وتمّ خلال هذه الأعوام تهميش الدور السنّي، وكان ذلك يوافق النظام السوري الذي دخل إلى لبنان، لا بل كان بدفع منه وإصرار على تهميش الطائفة السنّية في الصراعات الدائرة، وتدمير مكوّناتها كقوة سياسية مستقلة لها مصالحها الخاصة كما باقي القوى الطائفية في لبنان. وتبيّن لاحقاً مدى حذاقة الخيال السوري وقدرته على استقراء الواقع المحيط به حين انفجرت أحداث حمص وحماة، حيث كانت حركة الإخوان المسلمين التي تم تدميرها في سوريا على علاقة وثيقة

بقوى جهادية لبنانية وفلسطينية في لبنان، وهي العلاقة التي لم تنتهِ بضرب مجموعات الإخوان السورية.

على أن الحركة الإسلامية والأفكار الإسلامية الجهادية كانت تمرّ آنذاك في مرحلة ركود، بحسب الشيخ ماهر حمّود: «كان هناك بعض التنظيمات الصغيرة لا غير، واستمرت هذه الحالة إلى انتصار الثورة الإيرانية، الذي لم يؤثر مباشرة في الجوّ السنّي إلا في جانب سياسي محدود منه، ولم تحزم الثورة أمرها مباشرة للقيام بدعم الجهاد في لبنان، وتبدّل موقفها مع الاجتياح الإسرائيلي، وكان هناك تعاطف سنّي عام مع الثورة ولكنه لم يكن تعاطفاً مباشراً».

وفي شمال لبنان، وحين قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارته الشهيرة إلى القدس المحتلة، طرح أحد الشبّان من الحركة الماوية في طرابلس، التي كانت تمسك بعصب «الشارع الرثّ» (بحسب تعبير لنهلة الشهّال) فكرة «نهاية التاريخ»، وملخّصها أن السيطرة الأميركية على المنطقة العربية ستمتد إلى أكثر من ٥٠ عاماً، وأن الآفاق مغلقة بالكامل. وبحسب الشيخ إبراهيم الصالح، الذي كان من ضمن تلك المجموعة حينذاك، فإنه في هذه اللحظة «وقع الخلاف النظري بين أعضاء المجموعة الماويّة، وكان أن انتقل البعض إلى الحالة التي خرجوا منها، إلى الشارع السنّي الذي يحمل آفاقاً تغييرية، من خلال التثوير، إسلامياً، كما اكتشف شبّان الحركة الماويّة أن مقولة الاحتلال العثماني ليست أكثر من كذبة تاريخية، وأن الأتراك لم يمارسوا احتلالاً، فالاحتلال يرتبط بالاستعمار، بينما لعب العثمانيون دوراً إيجابياً في المنطقة، وأن عودة الخلافة الإسلامية ستشكل عملية إيجابية».

الإسلام الثوري ينتفض على نهاية التاريخ

من خارج الحركة الإسلامية التقليدية لعبت مجموعة الماويين في الشمال دوراً في تشكيل فكر آخر يحاول الردّ على التحدّيات الملقاة على عاتق الإسلاميين. ولم تكن هذه التحوّلات غريبة عن العديد من علماء الدين الإسلاميين، ففي الجنوب انخرط بعض هؤلاء في بداية حياتهم السياسية بقوى اليسار قبل أن يتخلّوا

عنه، كالشيخ ماهر حمّود الذي انتقل إلى الجماعة الإسلامية ثم عاد وتركها في العام ١٩٧٩. وأسّست هذه المجموعة الشمالية منطلقاً لفقه آخر للعمل السياسي، وسرعان ما تضافرت القوى الإسلامية حول هذه المجموعة الشابّة والمتحمّسة وصبّت جهودها معها، ولم تنفع محاولة تفسير ما حصل بأنه مجرّد قرار من ياسر عرفات بزرع شوكة في خاصرة سوريا، بعد أن خسر كل موطئ قدم له في لبنان عقب الاجتياح الإسرائيلي.

«السيطرة الأميركية على المنطقة العربية ستمتدّ إلى أكثر من ٥٠ عاماً، والآفاق مغلقة بالكامل، والشارع السنّي يحمل آفاقاً تغييرية في حال تم تثويره دينياً، و«الاحتلال العثماني» خدم إيجابياً قضايا التطوّر المحلّية، وعودة الخلافة الإسلامية هي ثورة على الوضع القائم».

كانت هذه مراجعة عامة سريعة لمنظومة من الأفكار التي حملت العديد من الشبّان على التأهّب لمرحلة لاحقة سيلعبون فيها دوراً مركزياً وإن كان لفترة قصيرة زمنياً. ولم تتوقف النقاشات عند هذه النقاط، إذ بدأت المجموعة تتخذ في شكل فردي قرارات بالتحوّل إلى الإسلام. و«كان من ضمن المجموعة أبو عربي (خليل عكاوي)، ومسؤول حركة لبنان العربي الدكتور عصمت مراد، ومسؤول المقاومة الشعبية فؤاد الرشيد وغيرهم» بحسب أحد المشاركين في تلك المجموعة.

وكان بعض هؤلاء الشبّان، الغاضبين من واقع لا يتغيّر ومن صراعات أهلية لا تنتهي ومن نصر موعود لن يتحقق، وقد اعتزلوا العمل الحزبي، وانتقلوا بقرار ذاتي للتعبّد في المساجد؛ وحتى قبل أن يدخل الإيمان قلوبهم دخلوا هم إلى قلوب المساجد والمصلّين، وراحوا منذ أواسط السبعينيات من القرن الماضي يحتكّون بفئات لم تكن تقع ضمن دائرة اهتمامهم سابقاً. كانوا بحسب تعبير أحدهم «يعودون إلى بيئتهم الطبيعية»، فانصرفوا إلى اختبار تجاوب الجمهور المؤمن مع طروحاتهم وتأثير قدرة إقناعهم على هذا الجمهور، قبل أن يكتسبوا هم أنفسهم قناعات إيمانية ما ورائية كانت إلى حين قريب محلّ نقدهم الفكري. وكان بعضهم يدرّس مادّة الإلحاد للشبّان المنتمين إلى التنظيم اليساري الذي كان

هو أحد أركانه، وها هو اليوم في مساجد طرابلس يستنزل الإيمان الغيبي سبيلاً لدفع المجتمعات وتفعيل حركتها السياسية.

ومع انتصار الثورة الإيرانية، وحينها لم يكن التناقض السنّي الشيعي حادّاً، تأثرت المجموعة الماويّة الشمالية بثورة الشباب الإيرانية وآية الله روح الله الخميني، وتقرّب الإيرانيون من المقاومة الفلسطينية، من قواها الرئيسية مثل فتح، ومن القوى والمنظمات الأخرى على السواء، وكان نموذج التقارب هو نوّاب صفوي الذي أتى وقاتل مع الإخوان المسلمين في فلسطين في أواسط القرن الماضي. ووقف آية الله الخميني موقفاً مشابهاً من القضية الفلسطينية التي هي عصب الأحلام الإسلامية السنّية، علماً أن الخميني ينتمي إلى أجواء الصفوي الفكرية والسياسية. وحظي تقرّب الثورة الإيرانية المنتصرة من ثورة تعيش حالة المراوحة باستحسان العديد من التيارات السنّية.

إلا أن المشكلة السنّية الشيعية برزت علناً لأول مرة حين طلب الإخوان المسلمون السوريون من الخميني مساعدتهم في سوريا ضد الرئيس حافظ الأسد قبل العام ١٩٨١، «وحينها ردّ الإيرانيون بأن إمكانيات إيران كلّها موضوعة بتصرّف الإخوان لقتال كمب دايفيد وإسرائيل، وأن الأسد هو الوحيد الذي يقف ضد إسرائيل، ولا يمكننا القتال ضده. وكان ذلك الإشكال الأول بين إيران والإخوان والسنّة» بحسب أحد علماء الدين الذين لامسوا ملفّ الإخوان السوريين في تلك الحقبة.

ورفع من معنويات المجموعة الماويّة السابقة «مقتل السادات على يد إسلاميين. وتطوّرت الأمور بسرعة، بعد الانتصار على الشاه في إيران، وانشقّ الماركسيون بين من يعتبر الثورة الإيرانية حركة رجعية ظلامية، ومن يعتبرها حركة تحررية، وانخرطت المجموعة الماوية والمثقفون في الرهان على الإسلام» بحسب أحد الذين تحوّلوا من الماوية إلى لبس الطربوش الملفوف دلالة على العلوم الدينية التي يحملها، وإن كان الرجل لا يزال يرتدي سراويل الجينز في حياته اليومية. وهكذا انتهت المجموعة الماوية التي أصبحت الأغلبية فيها تنظر إلى الدين كمثوّر للجمهور.

وفي العام ١٩٧٩ ترك العديد من الشخصيات الجماعة الإسلامية، وكان أبرزهم الشيخ سعيد شعبان، والشيخ ماهر حمّود. وتنوّعت أسباب الخروج من الجماعة، إلا أنها ترافقت مع أحداث كبيرة هزّت المنطقة، وبدا أن الجماعة لم تعد تتفاعل مع الواقع السياسي المعقّد في لبنان والمنطقة.

على أن بقايا من قوة لدى الحركة اليسارية والمقاومة الفلسطينية كانت لا تزال تجذب الجماهير بالمعنى الواسع. وما تلمّسه العديد من الشبّان المثقفين من تراجع قدرة اليسار على تقديم إجابات عن أسئلتهم وعن التقدم خطوة نحو انتصارات موعودة، سينتظر أعواماً قبل أن يشقّ طريقاً خاصاً ما بين إسلام تربوي ويسار وقومية تتراجعان إلى الخلف. وكانت سوريا في تلك الفترة تعيش هاجس السنّة اللبنانيين الذين سيدعمون سنّة بلاد الشام، وخصوصاً بعد الضربة الشهيرة التي وجّهها الجيش السوري إلى حركة الإخوان في أهمّ معاقلها السورية.

«لم تُحدِث زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى إسرائيل ودخوله الكنيست الإسرائيلي ردّة فعل كبرى لدى الحركات الإسلامية» كما يقول أحد الذين أمضوا أعواماً طويلة في السجون السورية نتيجة قيادته لمجموعات عسكرية جهادية، «ولم تظهر آثار نهضة من وراء هذه الزيارة في العام ١٩٧٧، فالحركة اليسارية وتلك القومية كانتا لا تزالان تسيطران على الساحات التحررية». وإذا كانت التيارات اليسارية والقومية لم تسمح بانتعاشات للجهاديين في لبنان فإنها عجزت أيضاً عن صياغة ردّ سياسي على ما قام به السادات، وهو ما سيؤسّس لإفلاس سياسي سيظهر جلياً لدى هذه القوى بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢.

ويتابع الرجل الذي أمضى ما يزيد على ثلث عمره في السجون قائلاً: «على أن مقتل السادات على يد إسلاميين كان له أثر إيجابي في دفع الحركات الإسلامية إلى الأمام، بينما أحدثت زيارته إلى إسرائيل ردّة فعل في مصر وحدها، حيث المركز الأمّ لحركة الإخوان العالمية. وعلى الرغم من وجود الإخوان في سوريا وبلوغهم الذروة فإن الأحداث الإقليمية لم تشكّل رافعة لعملهم السياسي».

لم يشكّل انتصار الثورة الإيرانية أي تيار سياسي في لبنان حينها، كما أن

أحداث الحرم في المملكة العربية السعودية في العام ١٩٧٩، لم تحظَ بأي ردّة فعل في المنطقة[٤]، علماً أن السلطات السعودية اعتقلت أربعة إسلاميين من طرابلس مشاركين في أحداث الحرم المكي.

وبعد هذه الواقعة «رأت السلطات السعودية أن من الواجب رعاية الجانب الإسلامي وعدم تركه ينشط وينشأ وحده» على ما يقول الشيخ ماهر حمّود، «ولم تصل إلى الحدّ الذي يمكّنها من توجيهه كما ترغب، ولكنّ ما جعل الفكر السلفي

---

(٤) المقصود حركة جهيمان العتيبي (١٩٣٦ - ١٩٨٠) وهو جهيمان بن محمد بن سيف العتيبي، الموظف في الحرس الوطني السعودي لمدة ثمانية عشر عاماً. درس الفلسفة الدينية في جامعة مكة المكرّمة الإسلامية، وانتقل بعدها إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة حيث التقى محمد بن عبدالله القحطاني، أحد تلامذة الشيخ عبدالعزيز بن باز. وتزوج القحطاني بأخت العتيبي لتبدأ بعدها حادثة الحرم المكّي الشهيرة في غرّة محرّم من العام ١٤٠٠ للهجرة الموافق ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩. في ذلك اليوم دخل جهيمان وجماعته المسجد الحرام في مكة المكرمة لأداء صلاة الفجر وكانوا يحملون نعوشاً للصلاة عليها صلاة الأموات، وما إن انفضّت صلاة الفجر، حتى قام جهيمان وصهره أمام المصلّين في المسجد الحرام ليعلن للناس نبأ المهدي المنتظر وفراره من «أعداء الله» واعتصامه في المسجد الحرام. وقدّم جهيمان صهره محمد بن عبدالله القحطاني على أنه المهدي المنتظر، ومجدّد هذا الدين، في ذاك اليوم من بداية القرن الهجري الجديد. وقام جهيمان وأتباعه بمبايعة «المهدي المنتظر»، وطلب من جموع المصلين مبايعته، وأوصد أبواب المسجد الحرام، ووجد المصلّون أنفسهم محاصرين داخل المسجد. ويروي بعض شهود العيان أنهم كانوا قنّاصة ماهرين لدرجة أنهم يقنصون العسكر السعوديين وهم من أعلى المنارة، وكانت أحياء مكة ترى الأدخنة من جهة الحرم بكل وضوح نتيجة للمبادلة بالنار داخل الحرم. ويروي آخرون أنهم احتجزوا في المسجد الحرام ثلاثة أيام وبعدها أخلى جهيمان سبيلهم لمرافقتهم النساء والأطفال وبقي عدد لابأس به من المحتجزين في داخل المسجد. ويذكر أن الجيش السعودي استخدم المياه والكهرباء لشلّ حركاتهم، وتدافعت قوات الأمن السعودية معززة في بعض الروايات بقوات أردنية وفرنسية، وإن كانت الحكومة السعودية لا تذكر تدخّل قوات خارجية في الرواية الرسمية، وتبادل الطرفان النيران الكثيفة إذ لم تكن النعوش التي أتى بها جهيمان إلى المسجد الحرام تحوي موتى بل أسلحة نارية. وأصاب المسجد الحرام ضرر بالغ جرّاء القصف وسقط من أتباع جهيمان صهره محمد بن عبدالله ونفر من الجماعة، واستسلم جهيمان ومن بقي من أتباعه. بعد فترة وجيزة، صدر حكم المحكمة بقطع رؤوس ٦١ من أفراد الجماعة بينهم جهيمان. وقد برّر جهيمان العتيبي هجومه باعتباره محاولة لتصحيح الوضع الذي تسبّب به آل سعود، الفاقدون للشرعية، بحسب رأيه، إضافة إلى دعوته إلى مبايعة محمد عبد الله القحطاني، خليفة للمسلمين.

ينتشر هو الإمكانيات المالية، من طباعة الكتب وتوزيعها إلى انتشار القنوات الفضائية السلفية. وفي لبنان تطوّر الفكر السلفي في الخفاء، ولم يكن أحد يتوقع أن تقوم فئة سلفية بتنظيم اغتيال الحلبي[٥]، والصدفة وحدها قادت إلى اكتشاف المجموعة التي نفّذت الاغتيال. وقبل هذا الاغتيال كانت المملكة السعودية قد بدأت بمحاولاتها الأولى لدعم السلفيين بعد حادثة الحرم، خصوصاً بعد اكتشاف أربعة لبنانيين متدخلين في الأحداث، الأمر الذي دفعها إلى إيلاء عناية خاصة للشارع الإسلامي اللبناني، وهي من كان يعتبر احتواء هذا الشارع والتحكم به أمراً مفروغاً منه، وجزءاً من صراعها مع المدّ الناصري المتلاشي، وأن مجموعة من المؤسسات كمثل دار الفتوى وجمعية المقاصد ودور رعاية وخدمات تقليدية كافية بمفردها للإمساك بالشارع الذي انفكّ مهزوماً من حول الناصرية، وراكم كراهية ضد النظام السوري».

على المستوى السياسي كان كل ما شكّلته الثورة الإيرانية هو حالة المراجعة. وفي تلك الأثناء كانت حركة الإخوان المسلمين في سوريا تأخذ مداها، ووقعت عملية اجتياح حماة وتطهيرها، ولكنّ الشارع اللبناني لم يتفاعل معها بشكل جدّي، برغم أن ياسر عرفات كان يدرّب هؤلاء، وكان الملفّ موكلاً إلى أبو طعّان.

ويروي أحد الخارجين من سجون سوريا «أن ياسر عرفات، بتوافق غير معلن مع أبو طعّان، كان يدرّب العناصر السورية من حركة الإخوان المسلمين في مخيّمات حركة فتح في لبنان. وتدخّل عدد من الرؤساء العرب لمنع إعدام أبو طعّان بعد اعتقاله عام ١٩٨٣ في سوريا، إذ كانت تربطه علاقة خاصة بالملك الأردني السابق حسين والزعيم الليبي معمّر القذافي. ولكن حركة التدريب الرئيسية للإخوان المسلمين كانت تتم في الأردن والعراق. وبسبب العلاقة بالإخوان السوريين تم اعتقال فتحي يكن عام ١٩٨٠ وسجن لمدة عام في سوريا،

(٥) الشيخ نزار الحلبي رئيس جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية وهي جمعية ذات طابع صوفيّ، وعلى خلاف عنيف مع الفكر الوهّابي. وسنأتي على ذكر اغتيال الحلبي لاحقاً.

علماً أنه كان يشغل في تلك الفترة منصباً حسّاساً في حركة الإخوان المسلمين العالمية إذ كان أميناً لسرّها».

إلا أن الحركة الجهادية الإسلامية كانت غائبة عن الواقع حينها، وكانت الأعوام تقترب من اجتياح إسرائيلي للبنان لا يُبقي ولا يَذر، وهي مرحلة حاول فيها اليسار اغتيال بشير الجميّل، الذي سيشكّل بفضل سياساته أحد أكبر عوامل الاستفزاز للمسلمين كافّة. وفي الوقت الذي كان يُباد فيه الإسلاميون في سوريا، في حمص وحماة، كانت الماكينة الحربية لبشير الجميّل تطرح صورة جديدة للشاب الأكثر دموية في تاريخ لبنان «الرجل الذي بنى سلطته على قتل المسيحيين فضلاً عن المسلمين والفلسطينيين» كما يقول ماهر حمّود.

ويروي كتاب ألان مينارغ «أسرار حرب لبنان» تلك المرحلة تفصيلياً، خصوصاً اللقاءات التي مهّدت لانقلاب بشير الجميّل على السلطة ودخول القوات الإسرائيلية إلى لبنان وفرض الجميّل رئيساً للجمهورية، وهو ما أدّى إلى بدايات جديدة في الصراع اللبناني، وتمّ حينها تشكيل ماكينة إعلامية ودعائية لبثّ صورة جديدة للشاب الذي سيصبح مرشحاً للانتخابات الرئاسية أو أول انقلابي في لبنان إذا لم تنجح عملية الانتخاب.

وفي مكان ما من العالم كان شابٌّ يشاهد صور قصف الطيران الإسرائيلي على بيروت المحاصرة صيف العام ١٩٨٢، وسيقول بعدها بأعوام طويلة إن تلك المشاهد هي أول ما دفعه إلى الاتجاه نحو الفكر الجهادي، واسم هذا الشاب أسامة بن لادن.

«ما سرّع تكوين حركة جهادية هو الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وليس الثورة الإيرانية، ولا مقتل السادات أو معارك حمص وحماة» كما يقول أحد الكوادر الإسلامية السابقة، «وكانت الرموز التي حاولت الانفتاح على الثورة الإيرانية عبارة عن رموز محلّية مناطقية خصوصاً في الشمال»، وبالتالي انحصر تأثير الثورة الإيرانية قبل الاجتياح على المستوى المحلي في بعض المناطق اللبنانية.

واستمرّت مرحلة الجهاد عبر المقاومة الفلسطينية، واحتضان الثورة لقوى

جهادية، إلى بداية الثمانينيّات، وكانت محطة العام ١٩٨٢ هي التي بدّلت الأوضاع، بحسب الشيخ إبراهيم الصالح.

خطوات الطفولة في الجهاد

قبل العام ١٩٨٢ كان النقاش يأخذ مداه بين الحركات الإسلامية، التي تعيش في ظل دولة «فتح» وتركز جهدها على الجانب التربوي، وأبعد ما وصلت إليه الحركات الإسلامية كان عبارة عن مشاركات متفرقة في معارك هامشية، إلا أن الزمن تغيّر منذ لحظة الاجتياح الإسرائيلي وما تلاها.

دخل الجيش الإسرائيلي إلى لبنان في السادس من حزيران/يونيو عام ١٩٨٢ بعد يومين من قصف عنيف قام به الطيران الحربي وطاول الجنوب والبقاع وبيروت. حينها كان الشيخ الشاب ماهر حمّود في طهران، وعاد من هناك متوجّهاً إلى مدينته صيدا فوراً. وفي مخيّم عين الحلوة القريب من المدينة صمد مقاتلو «الحركة الإسلامية المجاهدة» لأكثر من أسبوعين معطلين محاولات الإسرائيليين الدخول إلى المخيّم في مواجهات عنيفة، في حين كانت القوى الفلسطينية التابعة لفصائل الثورة تنصاع لقرار قيادتها منسحبة من كل المناطق الجنوبية عشوائياً أو مقاتلة دفاعاً عن حياتها بعد أن طوّقتها إنزالات متقدمة لجيش الاحتلال. «ولكن هذا الوجود الإسلامي في مخيّم عين الحلوة لم يترجم بأثر كبير في المقاومة آنذاك رغم قدرتهم على الصمود، ولذلك صعد في ما بعد نجم حركات أخرى كعُصبة الأنصار التي انطلقت في العام ١٩٨٦» كما يقول ماهر حمّود.

وفي صيدا وقبل أن تستقرّ قوات الاحتلال حول بيروت كان الشاب جمال حبّال يقرّر المقاومة مع مجموعة مقاتلة، فيبدأ بجمع ما خلّفته الفصائل الفلسطينية من أسلحة ويدفنها في أماكن متفرّقة.

ويستذكر أحد علماء الدين ممن كانوا على صِلة مباشرة بجمال حبّال أن ياسر عرفات كان يخشى من دعم الإسلاميين بشكل علني «ولكن حين استقرّ به الأمر في طرابلس تفلّت من أمور معيّنة، وقبل وقوع الاجتياح بأسبوعين طلب من أصبحوا لاحقاً «قوات الفجر» من فتح تزويدهم بالسلاح فلم يحصلوا عليه، وبعد

الاجتياح دخلوا إلى مكاتب فتح الخالية وأخذوا منها كمّيات كبيرة من السلاح مجّاناً ودفنوها». ويضيف «وقبل أن يخلع سليم حجازي ثيابه العسكرية بعد الدخول الإسرائيلي أخذ كميات كبيرة من السلاح ودفنها».

سبق ذلك خضوع مجموعة من الإسلاميين لدورات تدريبية، إذ يتحدّث الشيخ ماهر حمّود عن ذهابه مع ١٥ من كوادر الجماعة الإسلامية عام ١٩٧٦ للتدرّب على السلاح في معسكر لفتح يشرف عليه أبو عبد خطاب، وكان رئيس ميليشيا فتح في منطقة حلوة في البقاع عند الحدود اللبنانية السورية، «وقال لنا أحد الضباط إننا لا نشكّل إلا قلّة من المقاتلين. آنذاك كانت العلاقة مع فتح محدودة، وتحسّنت نظرة أبو عمّار للإسلاميين حين زار إيران عام ١٩٧٩ إلا أن التحسّن لم يترجم عملياً، إلى أن وقع الاجتياح وأعطى ياسر عرفات اهتماماً أكبر للإسلاميين».

عاش ماهر حمّود في صيدا حتى الثالث من شباط/فبراير عام ١٩٨٣، «وكنت أخطب ضد الاحتلال وضد بشير الجميّل بشكل واضح في مسجد قطيش في صيدا. وبعد انتخاب بشير بأيام ألقيت خطبة منطلقاً من آيات كريمة واضحة، وقلت: «١٦ نائباً مسلماً ممن انتخبوا بشير الجميل من يستطع قتلهم فليفعل كونهم خانوا البلاد والإسلام»، وذكرت ثلاث شخصيات شبه سياسية ممن ذهبوا وباركوا انتخاب بشير الجميّل، وهم لبيب أبو ضهر ومحمد شهاب وصلاح البابا، فسمّيتهم بالاسم، وسمّيت عدداً من الشخصيات الأخرى، وكانت الصدفة جميلة كما أتى في الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ» (٥٢) [سورة المائدة]. وحصل اغتيال بشير الجميّل بعد أيام من هذه الخطبة. وتحوّل من زار الجميّل إلى الندم».

انسحب المقاتلون الفلسطينيون من بيروت وانتُخب بشير الجميّل رئيساً

للجمهورية، وأدّى انتخابه «إلى تعبئة كبيرة لمصلحة التيار الإسلامي الجهادي، فزعامته بنيت على الذبح، وحتى ذبح المسيحيين، والسبت الأسود والدم الفلسطيني الذي لا يرى له قيمة، وبنى هذه الزعامة أيضاً على التعاون مع إسرائيل، وكانت صيغة هذا التعاون هي «لتنظّف لنا إسرائيل لبنان ولترحل»، ووطنية بشير الجميّل تكمن في قوله لإسرائيل «لترحل» فقط لا غير، مثل عاهرة تعمل من الثامنة إلى العاشرة، وتترك زبائنها بعد العاشرة، عندها يجب أن نعتبرها بهذا المنطق شريفة، ولكن لو بقيت كل الليل تعمل لاعتبرناها عاهرة» كما يقول الشيخ حمّود مشيراً إلى المنطق الذي يصنّف بشير الجميّل وطنياً كونه طلب من الإسرائيلي الرحيل بعد إنجاز المهمة.

وشعر المسلمون بالإهانة عند انتخاب بشير الجميّل رئيساً للجمهورية، ثم زادت الأمور حدّة مع ذبح الفلسطينيين واللبنانيين في مخيّم شاتيلا وحي صبرا على تخوم المخيّم، وذلك في مجزرة على ثلاث دفعات شارك فيها الجيش الإسرائيلي، وقوات سعد حداد، والقوّات اللبنانية انتقاماً لمقتل قائدها بشير الجميّل.

ومع مقتل الجميّل تعرّض عدد من الشخصيات الإسلامية لمتابعات أمنية كالشيخ ماهر حمّود الذي بقي في صيدا آنذاك «حين مات بشير بدأت المتابعات لي شخصياً، وكأنني أنا من نفّذ الاغتيال، فتواريت فترة عند الشيخ راغب حرب، وهو لم يكن معروفاً في ذلك الزمن، وحين سأل عنه الإسرائيليون قال لي الشيخ راغب: «أنا ليس لي علاقات (علنية)، ولكن يبدو أنهم خلفك أنت، فأنت أتيت من صيدا ولك علاقات بالفلسطينيين» وأخفاني. ولكن تبيّن أنهم يسألون عنه هو، وبقيت عنده إلى أن شعرت بأن المتابعات خفّت وغادرت في الثالث من شباط/ فبراير العام ١٩٨٣، وكانت تتبعني سيارة وبدل أن أتابع طريقي إلى داخل البلد في صيدا توجّهت إلى بيروت مباشرة».

وصبّت ردة الفعل الشعبية على انتخاب بشير الجميّل وعلى الاحتلال الإسرائيلي لدى كل القوى الإسلامية ولا سيّما حركة التوحيد الإسلامي في الشمال، إذ كان اليسار أضعف من أن يستوعب غضب الناس وكان مشغولاً

بلملمة وضعه ومحاولة الانطلاق مجدداً في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. ومع النهاية الدموية للزعيم الأكثر دموية في تاريخ لبنان تحوّلت الجنازات الإسلامية التي صادفت في تلك الفترة إلى أعراس، ولم تشهد الساحة الإسلامية عامّة والسنّية خاصة كرهاً لشخصية سياسية كما شهدت ضد بشير الجميّل، وإن لم ينعكس هذا الكره لدى القيادات السياسية الرسمية والتقليدية.

ونفّذت «قوات الفجر» العديد من العمليات الكبيرة ضد الاحتلال الإسرائيلي، كما قامت بتصفية عدد من العملاء وتركز عملها في مدينة صيدا وإن طاول بعض المناطق الأخرى، ومع أن «قوات الفجر» هي ابنة الجماعة الإسلامية، إلا أنها لم تتشكل بقرار رسمي من الجماعة - كما حصل مع الشيوعيين الذين أطلقوا حينها مقاومتهم الوطنية بقرار من أعلى هيئاتهم القيادية- وفي الوقت نفسه كانت قوات الفجر تتعاون مع ما سيعرف لاحقاً باسم حزب الله أو المقاومة الإسلامية. وحصل نقاش داخل الجماعة حول مدى قدرة الجماعة على تبنّي مجموعة جهادية باسمها رسمياً، وقدرتها على الصمود في ظل تبنّ رسمي كهذا.

كان القرار الرسمي للجماعة ضبابياً، إلا أنه لم يمنع بعض القيادات فيها من دعم قوات الفجر وإسنادها بطرقهم الخاصة، وإلى اليوم تراوح وجهات النظر حول ما حصل بين تفسيره بالتكتيك الأمني لتجنيب الجماعة دائرة الضوء، وتفسيره بأنه كان تردّداً في تحمّل أعباء المقاومة.

«قبل استشهاد جمال حبّال بشهرين خاطب من كان معه من الشبان وسألهم: بحال استشهدنا فمن يا ترى سيستفيد من دمنا؟ التنظيم الشعبي الناصري؟ أم الحزب الشيوعي؟ أم جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية؟ الجماعة الإسلامية، على مشكلاتها، هي أفضل من غيرها» على ما يرويه الشيخ ماهر حمّود عن تلك الفترة. وقرّر حبّال حينها إعادة العلاقات مع الجماعة بشكل مباشر. وفي نهاية العام ١٩٨٣ قُتل حبّال وجرى بعد ذلك اعتقال كل من بقي من رموز الجماعة في مدينة صيدا، وأودعوا معتقل أنصار، وكان على رأسهم الشيخ محرّم العارفي.

ولم تقتصر مساهمات الجهاديين في مقاومة الاحتلال على قوات الفجر، بل ظهرت مجموعات من الأفراد في العام ١٩٨٢ وما تلاه، لم تأخذ اسماً أو شكلاً

وكان أكثرهم ينضم إلى مجموعات الفجر بعد تميّز عملها في المقاومة.

وفي زمن الاجتياح الإسرائيلي برز «تجمّع العلماء المسلمين» من فكرة توحيد طاقات الأمّة في مواجهة الإسرائيليين، وكان يتخذ مواقف سياسية ومعنوية، وأعطى الغطاء الأمني لحركة مجموعات من الشبّان للحصول على تدريبات عسكرية وخلاف ذلك من الناحية اللوجستية. وكان التجمّع يتألّف من مجموعة من رجال الدين الشبان بمعظمهم. ومن ينضمّ من غير علماء الدين إلى الحلقة الواسعة حول التجمّع كان يرسل للتدريب في معسكرات حزب الله، إلا أن التجمّع لم ينشئ جناحاً عسكرياً. وكانت قوات الفجر تستفيد من التجمع لتدريب العناصر ولكن من خلال علاقات فردية، واستفاد جمال حبّال وسليم حجازي من تدريبات التجمع آنذاك. وفي نهاية شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ١٩٨٣ استُشهد المسؤول العسكري للجماعة في الجنوب جمال حبّال واثنان من رفاقه خلال تنفيذهم عملية ضد الاحتلال. وبقي التعاون الذي قام ما بين قوات الفجر والحرس الثوري الإيراني في ذاك الزمن طيّ الكتمان، ولا أحد يعلم إلى اليوم حجم هذا التعاون ونوعيّته، فمن يملك مفاتيح تلك الفترة لا يزال إلى اليوم يعمل في مقاتلة إسرائيل ويمتنع عن تقديم كشف حساب تفصيلي عن تلك المرحلة التأسيسية التي شهدت أكبر تعاون بين المجاهدين السنّة وممثلي الثورة الإيرانية في لبنان.

في ذلك الحين وفي مدينة طرابلس في الشمال اللبناني كان ثمّة من يعمل على تجميع القوى لمواجهة المرحلة. وكان أن سمع عدد من الشخصيات الإسلامية كلاماً خلال اجتماع ضمّ فعاليات المدينة حول تسليم طرابلس من دون قتال «لتفادي المصير الأسود الذي لحق ببيروت» وكان العديد من المرجعيات السنّية التقليدية في المدينة يرون، خلال عمليات حصار بيروت وقصفها وعند انتخاب بشير الجميل وبعد مقتله وانتخاب شقيقه أمين رئيساً للجمهورية، أن الاستسلام أوجب من القتال في ظل اختلال هائل في موازين القوى لمصلحة المسيحيين في لبنان.

ومع بدايات حركة التوحيد الإسلامي كان ياسر عرفات الذي خرج من بيروت

مهزوماً يحاول العودة من شمال لبنان، وكانت قوى اليسار تحاول إعادة الانتشار، كما كانت القوات السورية في لبنان تنفّذ عملية إعادة تموضع لمواجهة مرحلة أكثر تعقيداً، ولكنّ شبّاناً من الأحياء الفقيرة وكوادر وسطية كانت تجتمع على مبايعة سعيد شعبان أميراً لحركة جديدة سوف تُعرف بحركة التوحيد الإسلامي.

طرابلس: مقاربات وشخصية قيادية

ما توافر لطرابلس من عوامل لم يتوافر لغيرها في تلك المرحلة. فمع أواخر العام ١٩٨٢ كانت المناطق الإسلامية واقعة تحت نير الاحتلال الإسرائيلي، كإقليم الخروب أو صيدا، أو تحت ثقل الوجود السوري والإسرائيلي معاً، كمناطق البقاع، أو تحت سلطة الدولة اللبنانية بقيادة أمين الجميّل، كبيروت. والشمال وحده لم يكن تحت ثقل الصراع الذي اعتقدت إسرائيل أنها حسمته لمصلحتها، وخفّت قبضة القوات السورية عنه في تلك المرحلة، فتحرّك الشارع الإسلامي من عكّار إلى الضنّية إلى طرابلس نفسها، وفجّر ما اختزنه لأكثر من عقد من الزمن، مستفيداً من طاقات شابة ومغامرة، سترسم صورة الشمال لأكثر من ٢٥ عاماً مقبلة، وستغيّر هوى المدينة وصورتها من المدينة الناصرية الميّالة إلى اليسار، إلى مدينة إسلامية. ومن ذلك الحين فصاعداً أصبحت طرابلس عاصمة الإسلاميين في لبنان، ومركز الطامحين إلى الجهاد أو إلى تأسيس أفق لحركات جهادية، ولم ينافسها على هذا الدور إلا مخيّم عين الحلوة حين تحوّل إلى ملجأ للهاربين من طرابلس والشمال.

كانت القيادات الشابة والمغامرة تعتمد على المناطق المعدمة، انطلاقاً من قناعات يسارية ما زالت تحملها، ومن مخزون إسلامي قروي يحمله القاطنون في هذه المنطقة، ومن رثاثة حياة لا يعوّضها إلا الله في جنان الخلد. ومن الشمال - الذي سيستفيد من حاجة ياسر عرفات إلى الملجأ بعد خسائره في لبنان- ستخرج إلى العلن كوادر شابة تحمل راية حركة التوحيد الإسلامي، واضعة على رأس الحركة مجموعة من علماء الدين المرموقين لدى العامة، ولكنهم غير مقبولين من الطرابلسيين الأصليين، أو قُل من التقليديين واليساريين على السواء.

بعد انحسار الحركة الناصرية بدأت طرابلس تأخذ طابعاً إسلامياً، وتحديداً في مطلع الثمانينيات، على ما ترويه نهلة الشهّال، «وطغت هذه الحالة مع ظهور حركة التوحيد الإسلامي التي أنشأها ياسر عرفات، الذي جمع خليل عكاوي (أبو عربي) المقرّب من المقاومة الفلسطينية، مع جند الله، والشيخ سعيد شعبان، وحين كنا نسأل خليل عن ماهيّة التركيبة كان يجيب بما معناه أن الأمور تسير على عواهنها» علماً أن تركيبة التوحيد قد لا تكون تركيبة متجانسة. «ولكن حركة التوحيد لم تتمكن من الدخول في حياة المدينة التي سيطرت عليها. وكان هناك فصل بين منطق المدينة وحركة التوحيد، أولاً من الناحية الطبقية، وثانياً من ناحية نظرة الاحتقار إلى الريف التي كان يلقيها أبناء المدينة على حركة التوحيد، خصوصاً أن الشيخ شعبان من إحدى القرى السنّية في جرود البترون، وخليل عكّاوي أصله فلسطيني، ويمثل الريفيين المهاجرين إلى المدينة، والذين يشكّلون عمالة رثّة في باب التبّانة، وكانت ردّة فعل المواطنين الاجتماعية قاسية ضدّ حركة التوحيد».

إلا أن حالة الفراغ الكبيرة في المدينة سمحت للتوحيد وللحالة الإسلامية بالانتشار، وقامت الجماعة الإسلامية أيضاً بإنشاء شبكة خدمات كبيرة، وخصوصاً في التعليم والتربية، وأدّى ذلك إلى القبول بحالة إسلامية ليست بالضرورة حالة التوحيد. كما لحقت بالتوحيد وبالجماعة مجموعات أخرى لعبت على ملعب القوى الإسلامية، من السلفيين إلى جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (الأحباش).

وكان خليل عكّاوي يقول إنه «تحالف مع هذه المجموعة لسببين، أولاً لأنه هو الكتلة الضاربة في التوحيد، وثانياً لأن الكتلة التي كان يسعى إلى مخاطبتها موجودة في هذا الوسط»، كما تقول نهلة الشهّال مضيفة: «وهناك اعتبار عملي، وهو أن ياسر عرفات طلب من عكّاوي العمل ضمن هذا الإطار. ولم يكن بإمكانه الخروج من صيغة يحاول تجميعها أبو عمّار، في إطار مواجهة مع سوريا».

ولم تكن شعارات مقاومة إسرائيل وإسقاط نظام أمين الجميّل «أكثر من كلام»، ولا يمكن تصنيفها كإسلام جهادي، «وهي مجرّد صيغة تعبير عن

الحالات الرثّة، التي تنشأ وتسيطر ولكنها تبقى منبوذة»، وفي هذا الجوّ كان أبو عربي (خليل عكّاوي) يقضي وقتاً جدّياً في محاولة إنقاذ المسيحيين والشيوعيين من براثن رفاقه أنفسهم من التوحيد، وفي محاولة بائسة وحزينة لإنشاء حالة ذات معنى من الكتلة التي تحمل السلاح وتتشكل في التوحيد.

ولم تشكّل حركة التوحيد دينامية ذاتية للتأسيس والتأثير في الظروف المحيطة. «وما أسّس للمجموعات الجهادية هو حالات عامّة محلّية وإقليمية ودولية» كما ترى نهلة الشهّال التي عاصرت تلك المرحلة ميدانياً وسياسياً في طرابلس نفسها.

«إذا ما قرّر خليل عكّاوي الإلحاد تُلحِد مناطق عدّة، وإذا التحق بالإسلام أسلم معه أكثر من نصف طرابلس، وإذا ما غضب خليل من شخص فلن يلقي عليه التحية بائع العلكة في طرابلس، حتى لو كان المغضوب عليه وزيراً» كما يقول أحد رفاق خليل عكاوي الذي أطلق اسم «عربي» على مولوده الأول وتكنّى به.

قُتل خليل عكاوي في العام ١٩٨٦ وله من العمر ٣١ عاماً (من مواليد ١٩٥٥). وكان بدأ استكشاف القدرة التثويرية للإسلام في العام ١٩٧٩. ولعب أحد رفاقه باسم ميقاتي، الذي بدأ حياته السياسية شيوعياً متمرّداً، دوراً كبيراً في إقناعه بالإسلام. وكان هناك جوّ عام انطلق في موازاة الثورة الإيرانية، خصوصاً مع استشعار هؤلاء الشبّان عجزاً في المخاض الذي لا يصل إلى نتيجة في هذه المنطقة العربية، وكان باسم يتحدث حينها عن إمكانية قيام إسلام ثوري، وبدأ بالانتقال رويداً رويداً نحو «إسلام ماركسي».

وأنشأ خليل لجاناً سمّاها «لجان المساجد والأحياء»، وهي شكل من أشكال ترجمة «السوفياتات»، أي أنها فكرة مجالسية، وكان يحاول تسيير هذه المجالس ليكون في كل لجنة رابطة من أبناء الحيّ وهي تحلّ بشكل جماعي مشاكل الناس وتتابع أمورهم وشؤونهم وتدافع عن الحيّ دفاعاً قد يكون عسكرياً، وتعقد اللقاءات في المسجد الذي هو مكان للناس، أي حيّز عامّ للسكان. وبدأ عكاوي يبحث عن أسانيد فكرية ومنطقية لهذه الفكرة، وقرأ في تلك المرحلة كتب محمد

شحرور، ومحمد جودت السعيد، وعلي شريعتي، ولم يكن يلتفت إلى أن شريعتي شيعي والسعيد سنّي، وقرأ حسن حنفي، وكل ما كتب من محاولات لاستنطاق الدين الإسلامي بوجهة ثورية.

وكان خليل ابن هزيمة العام ١٩٦٧ بشكل من الأشكال، وكان عمره حينذاك ١٢ سنة، وفي العام ١٩٦٩ ذهب سيراً إلى معسكر حركة فتح في المنطار في سوريا وقال للفدائيين «أريد المشاركة في التدريب»، وحين لم يعثر عليه أهله في المنزل بحثوا عنه فوجدوه في المعسكر وأعادوه بالقوة إلى المنزل.

وكان شقيق خليل الأكبر، علي عكاوي، قد انتقل من العلاقة بحزب النجّادة بقيادة عدنان الحكيم، إلى الاقتراب من الحزب التقدمي الاشتراكي، إلى الموت في نزاع عنيف داخل الأحياء مع السلطة في أحد التحركات المطلبية المحلّية. وكان علي نموذجاً للمثقف المحلّي الذي يرتدي ربطة العنق بينما يسير أبناء الحي حفاة. وقاد عدّة تحركات ضد السلطة قبل الحرب الأهلية. وكان يرعى المجموعة المتحلّقة حول اليسار الجديد، أو ما سيصبح لاحقاً منظمة العمل الشيوعي في الشمال، كما كان يرعى شقيقه المتمرّد أيضاً خليل، الذي لن يتأخر في أن يصبح أهمّ القياديين الجماهيريين في طرابلس، وإن كان جمهوره سيقتصر إلى حدّ كبير على الفقراء المعدمين، والمتمرّدين الرثّين.

وأظهر خليل في ما بعد قدرة استثنائية على القراءة والتحليل، ومتابعة الأحداث ليس في محيطه الشمالي فقط، ولا في لبنان، بل في العالم. ومما توافر له من كتب ومعطيات بنى فهماً خاصاً للعالم وضرورة تغييره وكيفية الاستفادة من الإسلام الثوري للقيام بهذا التغيير، وكان بإمكانه قراءة كتاب من مئتي صفحة والتعمق فيه، ومن ثمّ مناقشته مع المثقفين المختصّين خلال يوم أو يومين من لحظة وقوع الكتاب بين يديه. وحافظ على نمط حياته فارضاً على زوجته وأطفاله شظف العيش وسط سيطرة الميليشيات على المرافق والمرافئ والمداخيل العامّة للدولة. ولم يمتلك خليل عكاوي أكثر من قميصين، وحين أهدت إليه نهلة الشهّال بضعة قمصان إضافية، بعد ملاحظتها أن ما يرتديه من قمصان قد بليَ، وزّع القمصان الجديدة على رفاقه واحتفظ بقميصين فقط. وحين أهدى إليه تاجر

جار له جهازَي تكييف ردّ الهدية إلى صاحبها الذي تركها في منزل خليل حين كان الأخير في الخارج.

وغدت صورة خليل عكاوي في طرابلس عامّة وفي أحيائها الفقيرة خاصّة أشبه بالأسطورة، وشكّل نموذجاً للقائد الثوري الجماهيري، ولكنه اغتيل في النهاية عقاباً له على انتفاضة طرابلس الفاشلة ضد الجيش السوري عام ١٩٨٦.

مبايعة حركة التوحيد وغضّ النظر السوري

«ليس الفقر مصدر القاعدة أو الحركات الإسلامية المجاهدة بل الأسئلة السياسية التي لا يمكن العثور على أجوبة لها، والظلم الذي لم تفلح القوى اليسارية التقليدية أو الإسلامية الوسطية في دفعه أو التصدّي له»، يقول أحد الذين تركوا اليسار والتحقوا بالإسلام السياسي وانضمّوا إلى البدايات التأسيسية لحركة التوحيد الإسلامي، وهو يعرّف هذه الحركة بأنها: «بقايا اليسار المتطرّف، مع الجماعات الإسلامية».

عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، وفي حين كانت المجموعات الإسلامية في الجنوب تقاتل انطلاقاً من صيدا «دفعت الثورة الإيرانية بعدد من الرموز في الشمال إلى إجراء المراجعة والحوار في ما بينهم، ومنهم الدكتور عصمت مراد، وخليل عكاوي، وفؤاد الكردي، وعلي مرعب (أبو عمارة) الذي استشهد لاحقاً، وكان لكل من هؤلاء تنظيم محلّي، كما انضمّ إليهم عدد من مجموعات منير شفيق (الخط الماوي داخل حركة فتح)» بحسب ناشط كان يعمل برفقة عكاوي في تلك المرحلة. وكان ضمن هذه المجموعة مناضلون متمرّسون ولكنهم لم يشكّلوا أرضية لأية حركة، كأنيس النقاش الذي تشيّع (سياسياً كما يقول خصومه) وذهب إلى إيران.

ويعتبر الشيخ إبراهيم الصالح «أن حركة التوحيد ككل أتت كردّة فعل على الاجتياح الإسرائيلي وتخطيط بعض زعماء طرابلس لتسليم المدينة إلى الجيش الإسرائيلي دون قتال إذا ما وصل إلى محيطها، وذلك لتجنيبها مصير بيروت. وفي تلك المرحلة تسرّبت معلومات عن لقاء حصل في منزل أحد كبار المتموّلين

المقرّبين من الدكتور عبد المجيد الرافعي (الأمين العام لحزب البعث العراقي في لبنان) الذي حضر اللقاء مع رشيد كرامي والعديد من الفعاليات الطرابلسية، وكان من جملة الموجودين فوّاز حسين آغا وعبدالله بابتي عن الجماعة الإسلامية» وخرج مَن سرّب فحوى اللقاء وأن ثمّة من دعا خلال الاجتماع إلى تسليم المدينة لجيش الغزاة إذا وصل إلى أبوابها. آنذاك لم تكن حركة التوحيد قد أعلنت رسمياً وكان بعض كوادرها يدفعون الشيخ سعيد شعبان إلى الموافقة على إعلان الحركة لمواجهة الإسرائيليين انطلاقاً من الشمال. وبعد أن دقّق شعبان بالمعلومات المتداولة أرسل بطلب عبدالله بابتي، الذي أكد له أجواء اللقاء الموسّع، وعلى الأثر وافق شعبان على أخذ البيعة، «بعد أن كان يرفضها، ولكنه قبل معتبراً أنه مسؤول أمام الله وأمام الناس» بحسب الصالح.

وفي شهر آب/أغسطس من العام ١٩٨٢ وبينما كانت بيروت تنتظر مصيرها من اقتحام ومجزرة في مخيّم شاتيلا، تجمّع عدّة آلاف أمام مسجد التوبة الأثري في طرابلس، وبقي الشيخ سعيد شعبان ساعاتٍ واقفاً يتقبّل البيعة عبر المصافحة المباشرة، وظهر السلاح بشكل علني في الشارع رغم سيطرة الجيش اللبناني على طرابلس. عندها بدأت الانطلاقة الفعلية لحركة التوحيد، التي كانت تخطط للعمل ضد الجيش الإسرائيلي وضد وصول بشير الجميّل إلى السلطة ومن بعده ضدّ حكم أخيه أمين الجميّل.

وتجدر الإشارة إلى أن نسبة إنشاء حركة التوحيد الإسلامي إلى أبو عمّار فيها الكثير من المبالغة، على ما يقول أحد المطلعين والمشاركين في التركيبة الأولى للحركة:

«كانت فصائل في حركة التوحيد على علاقة جيدة جداً بياسر عرفات إلا أن العديد من القياديين لم يكونوا على المسافة نفسها معه، وهو حاول أن يقوم بتسوية مع السوريين على حساب حركة التوحيد تنصّ على أن تتخلّى سوريا عن صبري البنّا (أبو نضال) وتطرده من دمشق، وبموجبها يقوم أبو عمّار بتسليم خليل عكاوي لسوريا. واعتقل على أثر هذه المحاولة خليل عكاوي وسُجن في أحد سجون فتح في لبنان وساعده على الفرار من السجن أحد ضباط فتح المعروفين.

وهذا يناقض نظرية أن فتح هي التي أنشأت حركة التوحيد، خصوصاً أن العدد الأكبر من قادة التوحيد لم يكونوا من داعمي ياسر عرفات، ولم يدعم الزعيم الفلسطيني الحركة بشكل مركزي بل كان يدعم كلاً من قياداتها بشكل منفرد، كما كان يدعم القيادات الميدانية مالياً لكن بشكل منفرد أيضاً».

ويعرب الشيخ إبراهيم الصالح عن اعتقاده بأن الدور الذي لعبته التوحيد في بداياتها كان هاماً من الناحية السياسية البحتة. وكانت إيران قد بدأت مع نهاية العام ١٩٨٢ بتدريب حزب الله في البقاع لمواجهة إسرائيل، وأبدت سوريا من ناحيتها ارتياحها لظهور حركة التوحيد، خصوصاً أن الحركة وضعت نفسها في مواجهة أمين الجميّل واتفاق ١٧ أيار/مايو. وكانت هناك تحضيرات في التوحيد لمعركة ضد الإسرائيليين، وأتى القبول الأول بحركة فتح من ضمن العداء لإسرائيل في الشكل ومحاولة احتضان المقاومة الفلسطينية، «ولم تكن حركة التوحيد قد تعلّمت ربط النزاعات السياسية، وهي تعلمت الوعي السياسي وربط النزاعات بلحمها الحيّ» بحسب تعبير الصالح.

وقد وصلت المباركة الإيرانية إلى الحدّ الذي اتُّهمت فيه حركة التوحيد بأنها من صنع إيراني، ولا يخفى على أحد أن الحركة نشأت في جوّ إعجاب بما حصل في إيران، وكانت الحركة تخاطب الإخوان المسلمين بأن ما حصل في إيران هو ما كان يتحدث عنه حسن البنّا[٦].

وكانت «إعادة تجميع القوى» بعد الضربات التي تلقّاها المشروع القومي، والردّ على المشروع الإسرائيلي، وتشكيل قاعدة خلفية للجهاد، والوقوف بوجه مشروع أمين الجميّل والسلام مع إسرائيل، كلّها بواعث لانطلاق الحركة، «وكانت عملية إنشاء معسكرات التدريب في طرابلس وفي الشمال تجري على قدم وساق من أجل قتال الإسرائيليين، وقوات الحلف الأطلسي التي أتت إلى لبنان في نهاية ذلك الصيف (العام ١٩٨٢)، وكانت النظرة إلى مشروع الدولة اللبنانية على أنها دولة الإسرائيلي والأميركي. وأتى إلى طرابلس في تلك المرحلة الدكتور

(٦) مؤسّس الإخوان المسلمين في مصر ومرشدهم، توفّي في ١٢ شباط/فبراير ١٩٤٨.

عبد المجيد الرافعي (من حزب البعث العراقي) مما حدا بفتحي يكن إلى التوافق معه مقابل الخط الذي كان يرى في سوريا داعماً غير مباشر لجهد التصدّي للدولة والإسرائيليين. وحينذاك أنشئت «جبهة الإنقاذ» التي ضمّت الرافعي وعدداً من الشخصيات والقيادات الإسلامية في الشمال» بحسب أحد الذين عملوا على التعبئة والتدريب في تلك البدايات.

في بعض المناطق اللبنانية الأخرى كانت الجماعة الإسلامية تقع في سوء تفاهم مع مجموعاتها. وكان جمال حبّال قد أقام علاقة مع الحرس الثوري الإيراني للحصول على السلاح والإمداد من أجل تمكين المقاومين في المناطق المحتلة، وبخاصة صيدا ذات الأكثرية الإسلامية، من مواجهة الاحتلال. وهذه التفاصيل يؤكّدها عدد من الذين كانوا في تلك الفترة ضمن اتحاد الطلبة المسلمين، وفي مجموعات النواة لما سيعرف لاحقاً بحزب الله.

وبعد مقتل جمال حبّال أعلنت الجماعة الإسلامية تبنّيها الكامل لقوات الفجر ونعت الحبّال. «ولكن قبل ذلك كان ثمّة اتجاه في الجماعة يرى أن من الأفضل الوقوف إلى جانب مشروع الدولة اللبنانية، الذي كان يحاول طرحه بشير الجميّل، ومن بعده شقيقه أمين، وكان الشيخ فيصل المولوي مطارداً من السوريين لعدد من الأسباب وهذا من ضمنها» بحسب ما يروي أحد الكوادر السياسية في الشمال.

و«بشكل عام، لم تكن في لبنان حركة جهادية في تلك الفترة» كما يقول الكادر الذي أمضى ثلث عمره في السجون السورية نتيجة انخراطه في الجهاد بعد أن تخلّى مع رفيقه خليل عكاوي عن الماركسية.

في ظل سيادة الحركة الإسلامية تمدّدت الحركة السلفية في الشمال إلا أنها لم تصل إلى الحالة الشعبية، وبقيت السلفية إلى ذلك الحين مرتبطة بسالم الشهّال.

وأدّى ظهور حركة التوحيد في طرابلس عام ١٩٨٣ إلى جعل المدينة في صدارة المراكز المقاومة، وتألّقت سُمعتها وأصبح سنّة العالم ينظرون إليها باحترام، وجذبت قيادات جهادية من مختلف المناطق وأهمّهم الإخوان المسلمون في سوريا الذين فتحوا مركزاً لهم في عاصمة الشمال، وأصبح معروفاً أن المدينة

تضمّ مجموعة من القيادات الإخوانية السورية المطلوبة من دمشق. وكان هناك بعض القياديين من أفغانستان وغيرها، ولكن علاقة الحركة الجهادية في لبنان بأفغانستان بقيت ضعيفة في ما عدا المشاعر والمواقف.

وظهر إلى جانب حركة التوحيد نشاط لافت لحركة فتح التي تمركز رئيسها ياسر عرفات في طرابلس، ولم تكن قد استفاقت تماماً من هزيمتها في بيروت وبعد أن تلقّت إهانة من سوريا إثر رفض الرئيس حافظ الأسد استقبال عرفات. وكان الكثير من الكوادر السياسية الذين عملوا مع فتح من لبنانيين قد هربوا إلى الشمال لينخرطوا على نحو لا يخلو من التعقيد في تشكيل حركة التوحيد الإسلامي التي تعتبر أول حركة إسلامية سنّية سياسية وغير تربوية. ويذهب الشيخ إبراهيم الصالح إلى القول «إن الشيخ سعيد شعبان من المرحلة التربوية وعقله تربوي إخواني، إلا أن الحركة على الأرض كانت حركة سياسية، فكل الكوادر التي شكلت الحركة كانت كوادر سياسية ميدانية ما عدا «جند الله» التي كانت حركة تربوية عقائدية».

ونمت حركة «جند الله» وغيرها من المجموعات في ظلّ تعرّض النفوذ السوري إلى خضّات ونتيجة لعدم قدرته على الانتصار على الإسلاميين، إضافة إلى هزيمته أمام إسرائيل في لبنان، وحيث تتراخى قبضة النظام السوري يبدأ الحراك الإسلامي بالتمدد. وكان أبو عمّار يشعل بعض المواجهات ومنها معركة باب التبّانة في عام ١٩٧٨، وهي المعركة «المذهبية» التي تجدّدت بعد إنشاء حركة التوحيد.

وبالتوازي مع حركة التوحيد ظهر «جيش النواة الإسلامي» في طرابلس، وآنذاك كانت المرة الأولى التي يشهد لبنان فيها تسلّح السلفيين. وكانت شعارات جيش النواة الإسلامي هي «الحفاظ على هويّة طرابلس الإسلامية» إلا أن هذا التنظيم لم يكتب له النجاح. وكان أبناء الشيخ سالم الشهّال وأبرزهم اليوم داعي الإسلام هم قادة هذا الجيش وأهمّ وجوه تلك المرحلة لدى السلفيين. «إلا أن حركة التوحيد كانت أول حركة سياسية تحمل فكراً جهادياً ولديها مشاركة قتالية فعلية في الميدان» على ما يرى محمد مصطفى علّوش.

وقد انتشر الفكر الجهادي في الأعوام التي تلت الاجتياح الإسرائيلي من العام ١٩٨٢ إلى العام ١٩٨٥، وأصبح هذا الفكر هو المسيطر على الأوساط الإسلامية السنّية في طرابلس والشمال وفي الجنوب، وبدأت الجمعيات السلفية بالتكاثر. وكانت جمعية «الهداية والإحسان الإسلامية» التابعة لداعي الإسلام الشهّال تعمل في مناطق تمتدّ من صيدا إلى طرابلس، وتمتلك محطة إذاعية سلّمتها لاحقاً إلى دار الفتوى في الجمهورية اللبنانية، ولكن ليس قبل أن تقع فيها حادثة أخرى سترسم مساراً عنيفاً للحركات الإسلامية الجهادية في لبنان.

ويتحدّث محمد مصطفى علّوش عن تلك المرحلة قائلاً: «كان العديد من الفرق الإسلامية المسلّحة يعمد إلى السطو على المسيحيين باعتبار أن مثل هذه الأعمال تقع في إطار «الغُنم». وفي المقابل كان العديد من القوى المسيحية يتصرف بالمثل تجاه المسلمين في الشمال» إلا أن علّوش يشدّد على أن شعارات الحركات الإسلامية كانت كلّها دفاعية.

وما امتازت به تلك الفترة هو الحرية والفوضى، والانتشار الواسع للفكر الديني المتنوّع من فرق باطنية أو جمعيات إسلامية تحمل السلاح، ولا يُستثنى من تلك الفترة جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (الأحباش) التي كان ظهورها الأول أيام سلطة منظمة فتح في بيروت حيث كانت مجموعات من هذه الجمعية تسير في مواكب شبه عسكرية في استعراضات حركة فتح، على ما يروي أحد المتابعين لتلك المرحلة من اتحاد الطلبة المسلمين الذي تحوّل في ما بعد إلى إحدى القوى المكوّنة لحزب الله.

وفي العام ١٩٨٣ أصبحت حركة التوحيد الإسلامي حركة جهادية مركزية على مستوى لبنان تضمّ شماليين، وكان ممثلها في بيروت سمير الشيخ، وفي صيدا قامت علاقة بين الحركة والشيخ ماهر حمود. وبعد ضرب تنظيم «المرابطون» في بيروت عام ١٩٨٤ صارت حركة التوحيد تلعب دوراً عاطفياً كبيراً بين السنّة في لبنان، وطرحت عدّة مرّات فكرة انتقال التوحيد إلى بيروت لدعم السنّة في ما كانوا يتعرّضون له هناك خلال مراحل الحرب الأهلية.

وتمّ تشكيل «اللقاء الإسلامي»، وانضوى العديد من التيارات تحت لواء حركة

التوحيد بهذا المسمّى، ومنها الجماعة الإسلامية وعدد آخر من المجموعات. وكان يشارك في تلك المرحلة بشكل فاعل خليل عكاوي وكنعان ناجي وهاشم منقارة، ومن الجماعة في الغالب أسعد هرموش، وعبدالله بابتي.

ويعترف كل ذي شأن في الحركة آنذاك بأنها لم تطبّق الشعار الجهادي الذي ترفعه، ومع أنها قاتلت في شرق صيدا حيث كان من رموز تلك الفترة الشيخ محمود البضن والشيخ إبراهيم الصالح وكانا لا يزالان شابين يقودان مجموعات عسكرية ويملكان حميّة سياسية، إلا أنها لم تخض معارك مباشرة ضد الإسرائيليين أو قوى السلطة اللبنانية. على أن الشيخ محمود البضن عاد ولعب دوراً أكبر بعد ضرب حركة التوحيد.

الإطاحة بالتوحيد والهروب نحو «القوّات»

بدأ الشرّ المستطير يتجمّع فوق طرابلس منتصف عام ١٩٨٣، إذ سبق لقوّات «فتح» أن تسرّبت إلى الشمال من كل مناطق لبنان، خصوصاً بعد مقتل سعد صايل (أبو الوليد) في البقاع (في ٢٩ أيلول/ سبتمبر العام ١٩٨٢) وتمركز ياسر عرفات في طرابلس وفي ظلّ توتّر علاقاته بسوريا والشيوعيين.

انتظر السوريون من «حركة التوحيد الإسلامي» أن تطلب إلى أبو عمّار عدم دخول المدينة وعدم إدخالها في النزاع ضد الجيش السوري، أو بين الفصائل الفلسطينية المتصارعة. وزار قياديون شبّان في «التوحيد» عرفات في مقرّه في الزاهرية لكي يطلبوا إليه ألاّ يورّط المدينة في معركة وأن يرحل بأسرع ما يمكن، إلا أن عرفات صاحب الحنكة والذي يجيد قراءة الواقع السياسي كما يجيد الاستفادة من المعلومات الاستخباراتية، تمكن من قلب رأيهم قبل أن ينطقوا به قائلاً: «أنا مسلم يطلب النصرة» بحسب ما يروي أحد المشاركين في اللقاء.

«لم يكن هدف عرفات مواجهة سوريا فقط» يقول إمام مسجد القدس في صيدا ماهر حمّود، «إذ كان يموّل جزئياً قوات الفجر، ولم يكن قد بدّل موقفه بعد مما يتعلّق بالقتال ضد الإسرائيليين». ويضيف حمّود الذي التقى عرفات المحاصر في طرابلس عام ١٩٨٣ أنه «كان يركّز على مقاومة السوريين الذين

يحاصرونه، إلا أنه كان يشجّع القتال ضد الإسرائيليين». حينها خاطب حمّود عرفات قائلاً: «أعلنْها (الثورة الفلسطينية) إسلامية حتى نتمكن جميعاً من السير خلفك». فأجاب الملقّب بالـ«ختيار»: «ما اقدرش، أنا وراي المسيحي والشيوعي والعلماني، وأنا الكل».

وفي تلك الفترة كانت العلاقة بين حركة التوحيد وطهران جيّدة، إلا أن طهران كانت مُحرجة من عدد من الأسماء في قيادة حركة التوحيد. وهذا لم يمنع الحركة الجديدة الناشئة من إمداد الحرس الثوري في لبنان وحزب الله بصواريخ من المخزون الذي تركه ياسر عرفات، صواريخ الكاتيوشا والغراد والصواريخ المعدّلة ٢٤٠ وراجماتها التي أتت من مصر إلى حركة فتح في أزمنة سابقة.

وكان التمويل الإيراني يصل بشكل مركّز إلى الشيخ سعيد شعبان. وفي المقابل كان خليل عكاوي (أبو عربي) يحصل على تمويل من الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلّه يعادل عشرة أضعاف ما يقدّمه عرفات لعكاوي. ونشب خلاف كبير بين عرفات وعكاوي خصوصاً بعد استقبال الأخير مجموعات الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلّه لتدريبهم في طرابلس، وكانت هذه المجموعات تتدرب وترحل مباشرة. ومن يعرف عكاوي جيداً ويعرف عائلته يعلم أنّه حين قُتل لم تجد العائلة ما تستعين به على أسباب الحياة إلا أصدقاء خليل المقرّبين.

وحوّلت التوحيد المدينة إلى ما يشبه الإمارة، وكان لديها ما يقارب ٥٠٠٠ مقاتل، ما بين متفرّغ بالكامل وشبه متفرّغ، ولكنّ معظم هؤلاء لم يكونوا مقاتلين محترفين، وكان كل منهم يقاتل حيث هو في منطقته، وكان يتولّى التدريب ضبّاط راكموا خبراتهم وعلومهم العسكرية من تنظيمات أخرى قبل انضمامهم إلى «التوحيد»، وبالتالي كان التدريب يتمّ بقدرات ذاتية ولم يتدخل فيه أي عنصر خارجي، إلا من حكم وجوده في المنطقة من ضبّاط فتح بالمشاركة في عمليات الإعداد للمقاتلين. بحسب ما يروي أحد الذين أشرفوا على عمليات التدريب لمجموعات محلّة التبّانة.

وعلى مستوى التسليح كان سلاح حركة التوحيد يوازي سلاح «حزب الله»

بمقاييس اليوم، من راجمات ومالوتكا وسام ٧، وهاونات ومضادّات للطائرات من طراز ٢٣ و٣٧، ١٠٦ مباشر، وراجمات غراد وكاتيوشا وذخيرتها وغيرها، ولكن «لم تتمكن الحركة من استخدام أسلحتها» بفعل غياب القدرة العسكرية على استغلال كل هذه المنظومة من الأسلحة. كما يقول المشرف على عمليات التدريب مضيفاً: «وعملت كل مجموعة كما ترتئي، وتعاملت مع ما تملك من السلاح بما تراه مناسباً. إضافة إلى أن كل مجموعة كانت لها غرفة عمليات خاصة، وعادة ما ترسم الخرائط على الأبواب الخشبية». وكانت مجموعة باب التبّانة التي يقودها عكاوي رأس الحربة في العمليات الحربية.

استفاد العديد من التيارات الإسلامية من حالة «التوحيد» ونما بسرعة من السلفية إلى «جمعية المشاريع» التي أنشأت نظام خدمات في الشمال، إلى «الجماعة الاسلامية». وشجّعت مجموعة من المثقفين ما سُمّي لاحقاً «الإسلام السياسي» وأبرز هؤلاء روجيه نبعة والياس خوري ونهلة الشهّال، وكان تأثيرهم يتجلّى عبر خليل عكاوي بشكل أساسي. وكما كان عكاوي يؤوي مجموعات يسارية كان غيره من رموز «التوحيد» أيضاً يؤوي مجموعات من الشيوعيين السوريين والإخوان السوريين ومجموعات إسلامية مختلفة المشارب.

وذات يوم وقعت حادثة شهيرة في معسكر للتدريب في طرابلس يرويها ضابط التدريب نفسه قائلاً «كان هناك شاب ماركسي من بيروت، وكان معتقلاً مع مرشد شبّو على أثر عملية بنك أوف أميركا، وأتى إلى معسكراتنا للحماية لا أكثر، هرباً من الاجتياح الإسرائيلي، وهو رفيقنا بكل الأحوال. وحضر يوماً إلى المعسكر كنعان ناجي وأبو عمارة، ولفت نظرهما وجود شاب من بيروت بيننا. وحلّ أذان العصر فطلبوا من الشاب إمامة الصلاة تكريماً له، فبدأ التلاوة بصوت عالٍ، إذ كانت معارفه الدينية بسيطة ولم ينتبه إلى أن صلاة العصر ليست جهراً، فقال له أحد الشيوخ من خلفه «سبحان الله» في إشارة إلى أنه نسي، ثم عاد الشاب وكبّر وعاد للتلاوة بصوت عالٍ، فعاد الشيخ وقال له «سبحان الله»، ثم عاد الشاب للتكبير والتلاوة ما حدا بالشيخ إلى إيقاف الصلاة وسؤاله: ما بك ألا تعرف الصلاة؟»

لم تكن مجموعة خليل عكاوي التي تشكّل العمود الفقري لقوات التوحيد العسكرية ملتزمة دينياً، وكان عكاوي يصل إلى منطقته ويقول «أيها السفلة أين أخفي وجهي من الناس؟ الكل يتحدث عن ممارساتكم وعدم التزامكم بالصلاة، ها هو الآن الأذان يرفع تفضّلوا إلى المسجد أمامي» وكان الشبّان يجيبونه «سنتبعك يا حاج» ثم يهرب كل منهم بطريق ولا يصلون إلى المسجد. بحسب ما يذكر أحد المقرّبين من عكاوي.

وحين هاجم الجيش الإسرائيلي جزيرة مقابل طرابلس في شهر رمضان من العام ١٩٨٣، وصلت المجموعة «التوحيدية» إلى الشاطئ للقيام بهجوم مضادّ متنكرة بلباس الصليب الأحمر، «وكان الكل تقريباً يدخّن ويأكل» كما يقول أحد الضباط ممازحاً سائله عن الجانب التربوي.

«التربية الجهادية لدى حركة التوحيد كانت متفاوتة بين مجموعة وأخرى» يقول أحد الذين اهتموا فقط بالجانب العسكري من التوحيد مضيفاً: «بعض المجموعات كانت على تربية جهادية والتزام ديني عاليين، مثل جماعة «جند الله»، و«جيش النواة» وعدد آخر من المجموعات التي كان لديها مستوى عقائدي متقدّم. وحركة التوحيد هي حركة سياسية بامتياز، أقلّه على مستوى خليل عكاوي وعصمت مراد اللذين كانا صاحبي تجربة في اليسار، ومنظّرين أساسيين للحركة. وقد أنشأ أبو عربي ما يسمّى بـ«حركة الدعاة» التي كانت تتكفل بالتربية الدينية. وكان ثمة تشجيع على الذهاب إلى الكلّية الدينية، ولكن في تلك المرحلة لم يكن يذهب إلى الكلّية الدينية من يتمكن من الحصول على تعليم اختصاصي عالٍ، كالطب والهندسة. على أن أهمّية التوحيد تكمن في أنها أوجدت الحالة الجهادية الإسلامية على أرض الواقع، وكما شكّلت إيران رافعة للقوى الجهادية لدى الشيعة كذلك حاولت حركة التوحيد أن تشكّل رافعة للحالة السنّية، إلا أنها، وبسبب من كونها مزيجاً، لم تتمكن من تعميم الحالة الجهادية بشكل موحّد وشامل».

كانت حركة التوحيد تحتضن أيضاً عناصر من تنظيمات أخرى، لبنانية وغير لبنانية، ولم يندر وجود مجموعات من الإخوان المسلمين في طرابلس يقاتلون إلى جانب قوات التوحيد، كما لم يندر أن يلجأ إلى التوحيد عناصر من الأحزاب

الشيوعية السورية المطاردة دائماً في بلدها الأم، فكانت حركة التوحيد تحتضنها سرّاً.

وكان عكاوي يرسل أسلحة عبر التوحيد إلى حركة الإخوان المسلمين السورية، ولم يكن هؤلاء يكشفون عن وجودهم بين عناصر حركة التوحيد، وخصوصاً الطاقم الذي كان لا يزال يتحرك في سوريا ولم تنقطع صلته ببلده الأمّ، إذ كانوا لا يتحدثون مع العناصر الأخرى من الحركة وتجري عمليات تسليمهم السلاح بدقّة أمنية عالية حفاظاً على سرّيتهم.

في نهاية عام ١٩٨٣ انفجرالصراع مع الشيوعيين، وتكلّل بمجزرة قامت بها مجموعات التوحيد، وكان عكاوي يقضي وقته في محاولة يائسة لإنقاذ رفاق الأمس من براثن إخوة اليوم. بعدها اغتيل عصمت مراد وهو يغادر أحد اجتماعات الحركة، وكانت تصفيته بمثابة نزع لمكابح الصدام مع الجيش السوري «كونه أبدى اعتقاده بأن تجاوز المعركة المباشرة مع السوريين يمكن أن يشكّل خشبة خلاص للقوى الإسلامية» بانتظار الاتفاق الثلاثي عام ١٩٨٥ الذي تمّ توقيعه بعد معركة طرابلس بأسابيع، بحسب الشيخ إبراهيم الصالح.

ولم تكن حركة التوحيد تخطط لمعركة ضد الحزب الشيوعي، والمعركة الرئيسية كما تراها كانت مع قوى السلطة، أي قوى أمين الجميّل الذي أصبح رئيساً للجمهورية آنذاك. وصفّت حركة التوحيد قوات حزب البعث العراقي وحركة تشرين في المدينة، ما أوجد جوّاً مريحاً في الشمال، وتوحّدت القوى ضدّ الرئيس الجميّل، وضدّ اتفاق ١٧ أيار/مايو مع إسرائيل في العام ١٩٨٣.

في ذلك الحين كان الشيوعيون يتوجسّون ريبة من الجوّ الإسلامي الذي يسود الشمال، وحدث أكثر من اختراق أمني لإدخال الشيوعيين في المعركة. ومن المعروف أن منطقة الأسواق الداخلية في طرابلس القريبة من مركز الحزب الشيوعي في ساحة النجمة، منطقة معرّضة لاختراقات أمنية كبيرة. وعندما بدأ أبناء هذه المنطقة بالانضمام إلى حركة التوحيد بدأت المشكلات مع الشيوعيين، ومن هناك انطلقت شرارة المجزرة. وبالنتيجة ثمة أسباب كثيرة لنشوب القتال بين الطرفين. فمن الخلاف الإيديولوجي إلى معارك أفغانستان إلى التنافس على

القواعد الشعبية، إلى الخلافات السياسية الكبيرة، والتحالفات المتناقضة إذ يحالف الشيوعيون سوريا في لبنان بينما تحالف حركة التوحيد الخصم اللدود لسوريا حينها ياسر عرفات، «كان كل شيء يحضّ الطرفين على التقاتل» بحسب أحد علماء الشمال.

وتواصل تدفّق مجموعات حركة فتح من البقاع إلى طرابلس والشمال، وتمركز أبو عمّار في عاصمة الشمال، وكانت علاقته سلبية بالشيوعيين في تلك المرحلة. وساهم الموقف السوري في الضغط على الشيوعيين ودفعهم في مواجهة حركة التوحيد التي تستضيف ياسر عرفات، كما دفع التوحيد في مواجهة الشيوعيين. وأتى موقف أبو عربي من حركة التوحيد وانسحابه مستاءً من المعركة ضد الشيوعيين. ومن ثمّ وقعت مجزرة جرى خلالها قتل عشرات من الشيوعيين وتم سحبهم من منازلهم وإعدامهم في الشوارع وطردهم من المدينة، وسيطرت قوات التوحيد الإسلامي دون منازع على المدينة وأعلنتها منطقة محرّمة على الشيوعيين الذين كانوا قد استنزفوا أنفسهم في القتال في عدة مناطق من لبنان، من عملياتهم ضد الإسرائيليين في الجنوب، إلى معاركهم الصامتة في بيروت ضد سلطة أمين الجميّل وقوات المارينز، إلى استعداداتهم وخوضهم لحرب الجبل ضد الجيش اللبناني والمارينز، إلى مناوشات الضاحية الجنوبية ضد الجيش اللبناني، وأخيراً إلى مذبحة لن ينسوها في طرابلس وهي أحد معاقلهم التقليدية. ولكن سيطرة التوحيد وياسر عرفات على المدينة أمر لن يطول، فلسوف يُجبَر عرفات على مغادرة المدينة، وستعود المدينة لتدفع ثمن مغامرات عرفات وعلى يد الشيوعيين والجيش السوري وعدد من الأحزاب اللبنانية.

وقبل أن تصل الأمور إلى مرحلة حسم وضع المدينة أواخر العام ١٩٨٥، اغتيل الدكتور عصمت مراد، «وهذا الاغتيال أتى من خط داخل الحركة. وبالتحليل المنطقي نستنتج أن السوريين ليسوا هم من قام بتصفيته، بل الخطّ الذي كان يهمّه ألاّ يتطوّر الإسلام سياسياً، خصوصاً أن عصمت كان يمثل رؤية استراتيجية» على ما يقول إبراهيم الصالح. وفشل النقاش الداخلي في ضرورة تقطيع الوقت لمصلحة الصدام مع سوريا.

وتنفتح الاحتمالات حول اغتيال مراد، ومنها أن عرفات أمر بقتله لضمان وقوع معارك طرابلس ضد الجيش السوري، أو أن يكون الجيش اللبناني هو من قام باغتياله بالتعاون مع الأميركيين في لبنان، ولكل من هذه الاحتمالات ما يدعمها معلوماتياً وسياسياً.

ولكن النتيجة العملية لتصفية مراد كانت وقف النقاش حول منع الاصطدام بالجيش السوري في لبنان. في تلك المرحلة كان النقاش والتفاوض حول الاتفاق الثلاثي يجري على قدم وساق، وكانت المفاوضات بحاجة إلى حسن النيّات، وإلى ضحايا وكبش فداء. ويمكن ملاحظة أن معركة طرابلس حصلت أواخر العام ١٩٨٥ (تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر) بينما وقعت معركة الاتفاق الثلاثي والانقلاب عليه من قبل سمير جعجع في بداية العام ١٩٨٦ «وكنا نناقش في ما بيننا ضرورة تقطيع الوقت، حتى لا نكون نحن ضحية الاتفاق الثلاثي آنذاك، وكان النقاش الداخلي في قيادة التوحيد يلحظ أن أية معركة مع التوحيد ستقدّمها كبش فداء للاتفاق الثلاثي، وكان ثمّة جهة في القيادة أبرز ممثليها هو عصمت مراد تصرّ على ضرورة تفويت الاشتباك مع الجيش السوري بأي ثمن، إلا أن ذلك لم ينجح» على ما يقول أحد القياديين في حركة التوحيد حينها. ووقعت المعركة وتمّ ضرب الحركة بعد تدمير المدينة.

في المشهد الخلفي للعام ١٩٨٥ كانت صورة الآليات الإسرائيلية تغادر صيدا وأجزاء كبيرة من الجنوب، وتبنّت «الجماعة الإسلامية» بشكل كامل «قوّات الفجر» بعد الانسحاب. ويصف الشيخ ماهر حمّود موقف الجماعة حينها بـ«الجيد على وجه العموم»، إذ «كانوا يدرّبون المقاتلين ويشغلون مواقع قتالية متقدمة، وكان هناك شيء من التعاون مع حزب الله بقرار رسمي من قيادة الجماعة». ولم يحصل عملياً تمايز كبير بين الجنوبيين و«التوحيد» شمالاً، وإن كانت الجماعة والحركة قد عاشتا أجواء توتّر بينهما في مرحلة ما. ولكن بعدها كان الشيخ عبدالله بابتي إلى جانب الشيخ سعيد شعبان دائماً.

وحين زار أمين الجميّل صيدا بُعيد تحريرها واجتمع بعدد من العملاء السابقين في ١٧ شباط/فبراير من العام ١٩٨٥، كان «تجمّع العلماء المسلمين»

ينظم تظاهرة في بيروت، «وحين بلغ المتظاهرين خبر زيارة الجميّل وإطلاقه تصريحاً تحدث فيه عن المقاومة اللبنانية (لا الوطنية اللبنانية ولا الإسلامية) وكانت حينها المقاومة اللبنانية تعني القوّات اللبنانية، وكان هذا الكلام مسيئاً، توجهت تظاهرة ضخمة من بيروت إلى صيدا ردّاً على هذه الزيارة» كما يتذكر ماهر حمّود.

وعندما حصلت عملية خطف الدبلوماسيين الروس في بيروت، اتهمت بها حركة التوحيد التي لم يكن لها أي ضلع فيها على الإطلاق. «وبعدها دفعت المخابرات السوفياتية (كا جي بي) وليد جنبلاط إلى تصفية سمير الشيخ (وهي العملية التي يتهم بتنفيذها أيضاً أحد كوادر الحزب السوري القومي الاجتماعي آنذاك أسعد حردان والتي طاولت الشيخ وعائلته)، وكانت تلك مقدّمة لحصر التوحيد في الشمال، خصوصاً أن الشيخ كان يعمل في بيروت على تدعيم التنظيم» كما يقول أحد المتابعين للحركة.

وفشلت الحالة الجهادية في إيجاد أي توازن يحميها داخلياً أو على مستوى المنطقة حيث لا يوجد تبنٍّ للحالة الإسلامية سياسياً. «فالسعودية على سبيل المثال اعتبرت آنذاك أن الإسلام الجهادي حالة معادية وإيرانية الهوى، ويجب أن نستقرئ انحياز السعودية في تلك الفترة إلى جانب الكتائب اللبنانية، ولم ترتح السعودية إلى الحالات الإسلامية الشعبية، سواء أكانت متدينة أم غير متدينة» كما يقول أحد علماء الشمال. وتأخّر السعوديون طويلاً قبل التدخّل في الوسط الإسلامي اللبناني. «وكان تدخّلهم في تلك الفترة يتم عبر جولات استكشاف يقوم بها رجل أعمال لبناني يدعى رفيق الحريري مباشرة بعد الاحتلال الإسرائيلي للعاصمة وقُبيل انفجار الأمور في العاصمة».

في تلك الفترة برز التناقض الإسلامي مع السعودية، وكتب سعيد شعبان في «مجلة التوحيد» الصادرة عن الحركة مقالات تشير بالاسم إلى رفيق الحريري وتهاجم سياسته بين أوساط السنّة في لبنان، لكونه «يسحب الشبّان إلى الغرب ويحوّلهم إلى أغراب، ويحاول منع الجهاد من الانتشار بين أبناء الأمّة عبر المنح التعليمية».

وكان الأميركيون والدول العربية يرسلون كل الحالة الإسلامية، على اختلاف

أهوائها ومشاربها، إلى أفغانستان لقتال السوفيات من ناحية ولعزل الأنظمة عن التأثيرات الممكنة من قبل الجهاديين العرب من ناحية ثانية. وكانت الحالات التي لم تذهب إلى أفغانستان حينها معدودة، وبينها حركة التوحيد، وقوات الفجر والقليل من المجموعات.

وفي خريف عام ١٩٨٥ تم ضرب «التوحيد»، وكان الضباط من «التوحيد» في منطقة الشعراني يقرأون على الجدران عبارات خطّها مقاتلون لهم سبقوهم تقول «بالثارات يا حماة». وكان المقاتلون من الإخوان المسلمين السوريين قد انخرطوا عميقاً في حالة «التوحيد» وقاتلوا وقتلوا مجهولين في هذه المدينة قبل هزيمتهم.

واعتمد خليل عكاوي نظرية تفيد بأن حركة التوحيد هي تكبير للمواجهة مع النظام السوري، لإضعاف سوريا في لبنان وبالتالي السماح بضعضعة وضع النظام في سوريا فسحاً في المجال أمام حركة الإخوان للإمساك بالنظام هناك. وحين انتهت حركة الإخوان في سورية اعتبر خليل عكاوي أن صراعه مع النظام السوري في لبنان قد انتهى. كما يقول أحد المقرّبين من عكاوي في تلك الفترة.

وبعد أشهر، في العام ١٩٨٦، قُمعت محاولة انتفاضة قام بها عدد من الكوادر في التوحيد، وتحدّثت منظمة «أمنستي» عن عمليات إعدام جماعية طاولت المئات من المقاتلين والسكان، كما تحدث سكان المناطق الفقيرة في طرابلس عن تطويق شوارع بأكملها، وإنزال السكان من منازلهم، وعن إعدامات في الشوارع وعمليات اغتصاب، وحرق منازل، وإلقاء شبّان من الشرفات والطوابق المرتفعة، وعن عمليات حربية دامت لعدة أيام. وهرب عدد من المقاتلين المسؤولين عن الانتفاضة إلى الجرود المحيطة بالمدينة، واستخدم الجيش السوري الطوّافات الحربية بحثاً عنهم وسعياً وراءهم. إلا أن كل ذلك بقي غريباً عن الرأي العام المحلي، فلم تذكر الصحف اللبنانية الكثير عن المجزرة، وجرى اعتقال كل من له أية صلة بحركة التوحيد، ومن ضمن المعتقلين طفل اسمه شهاب قدّور، متّهم بتسهيل فرار عناصر من التوحيد. وهذا الطفل الذي سيُعرف في ما بعد بلقب «أبو هريرة» سوف يشبّ بين المعتقلين الإسلاميين السوريين واللبنانيين ويتعلّم منهم الكثير.

دفع خليل عكاوي ثمن معركة طرابلس الثانية، وقُتل قرب حاجز سوري. وتعرّض الشيخ هاشم منقارة لمحاولة اغتيال واعتُقل بعدها وأرسل إلى السجن في سوريا.

وبعد ضرب «التوحيد» استطاع السوريون توظيف بقايا هذه الحالة لمصلحتهم، وإن لم يتمكنوا من استيعابهم بالكامل، وبقيت أجزاء من الحركة تخوض صراعاً ضد سوريا في لبنان. وبعد الانتفاضة التي جرت في طرابلس عام ١٩٨٦ حاول العديد من أقطاب التوحيد إعادة تجميع الحركة على أساس المعركة مع إسرائيل. وفي العام ١٩٩٨، أنشأت التوحيد جهازاً عسكرياً، وبعد فترة اتخذ الشيخ سعيد شعبان قراراً بحلّ هذا الجهاز. وكان الخلاف بالتحديد حول الفكر الجهادي، وكان مظهره هو مشكلات معتادة وتقليدية، وكان لدى حركة التوحيد حينها ضبّاط ومداخل للجهاد وجهوزية مقبولة، ولكن الشيخ سعيد شعبان كان يشعر بمسؤولية الدم، خصوصاً بعد كل ما مرّت به الحركة.

وكان جزء كبير من حركة التوحيد ومن المشايخ الإسلاميين يصوّرون المشكلة على سبيل التشبيه بأن الشباب المسلم المندفع كمن بيده قنبلة منزوعة الأمان، وسيرميها في مطلق الأحوال، وبدل أن يرميها على الجيش السوري في لبنان أو على الجيش اللبناني أو على المواطنين من طوائف أخرى، فليرمها على الإسرائيلي.

وعلى مستوى الحركات الجهادية، كان «تجمّع العلماء المسلمين» مشكلاً من السنّة والشيعة ومن الانعكاسات المهمة في الحركة الجهادية، ولكنه ابن إيران. وحينها كان ثمّة تقارب بين التوحيد والجهاديين السنّة والثوريين الإسلاميين الشيعة المتمثلين بحزب الله وتجمّع العلماء المسلمين. وحين ضُربت الضاحية الجنوبية وكان على رأس اللواء الثامن في الجيش اللبناني ميشال عون، لم يأخذ أي طرف قراراً بتصفية البعث العراقي إلا خليل عكاوي في الشمال، نظراً إلى تحالف البعث العراقي مع رئيس الجمهورية آنذاك أمين الجميّل.

وبعد ضرب «التوحيد» ورثت «جمعية المشاريع» (الأحباش) الشارع

الإسلامي، كما ورثته «الجماعة الإسلامية» بدرجة أقلّ، أما مجموعات «التوحيد» فتشظّت ما بين قتل وسجن وهروب إلى أنحاء العالم، وتناثرت مجموعة منها ما بين صيدا وعدد من المناطق الأخرى، مثل مربّعات في بيروت الغربية. وعمل عدد من مقاتليها وقياداتها الميدانية في إطار الحزب التقدمي الاشتراكي وسهّل لهم عملهم مع الحزب مقاتلون سنّة من «المرابطون». وفرّ عدد من القياديين في حركة التوحيد إلى المنطقة الشرقية من بيروت الخاضعة لسلطة القوات اللبنانية والجيش اللبناني فترة حكم أمين الجميّل. وما لبث بعض هؤلاء أن فرّوا من بيروت الشرقية إلى الغربية إثر محاولة توظيفهم في السياسة الداخلية. وقاتل هؤلاء في بيروت عام ١٩٨٧ إبّان المعركة التي أدّت إلى عودة القوات السورية مجدّداً إلى غرب بيروت، وهربوا بعدها نحو صيدا التي كانت في تلك الفترة خالية من القوات السورية. وكان تجمّع العلماء المسلمين في صيدا قد قام بحركة لافتة في تلك الفترة ترأسها الشيخ غازي حنينة والشيخ ماهر حمّود وعدد من الشيوعيين السابقين أيضاً، إضافة إلى انتشار كبير لحركة فتح في المنطقة أثناء مراحل حرب المخيّمات التي لم تتمكن حركة أمل من حسمها أو إثبات التفوّق فيها. وفي تلك الفترة بدأت الحركات الجهادية تشكل كيانها الخاص، وبقيت الجماعة الإسلامية رغم كونها الحركة الأمّ في لبنان بعيدة عن جوّ هذا الحراك الجهادي.

ولم تتشكل حركات جهادية في جميع المناطق التي كانت تحت السيطرة السورية، وتم ضرب أية حركة فاعلة في تلك المناطق حيث أعاد الجيش السوري تركيب المجموعات بمفاهيم اجتماعية، وخصوصاً في الشمال. ولكنّ الحركة الاجتماعية لم تلاق الصدى المتوقع لها بين الناس إلا على مستوى ضيّق، أما سياسياً فكانت ضعيفة جداً، ولا سيما أنها لعبت دور الداعم للنظام السوري وتكفير السيد قُطب.

وكان عدد من قياديي الحركات الإسلامية المقاومة، السنّية منها والشيعية، يتحركون بتسهيل من قيادات التوحيد وبتغطيتها للسفر من وإلى لبنان عبر المناطق الشرقية الخاضعة للقوات اللبنانية، مفضّلين تلك المجازفة على المرور من مطار بيروت الدولي، حيث ترصد مطارات الوصول الطائرات المسافرة منه، كما أن

القوات السورية كانت تدقّق في هويّات العابرين من مطار بيروت الدولي تدقيقاً جدّياً.

وطُرحت حينها فكرة العمل على تشكيل قوة سياسية وعسكرية جهادية من السنّة والشيعة معاً. وخلال العام ١٩٨٩ تعرّض بعض القيادات في التوحيد للملاحقة من قبل منظمة التحرير الفلسطينية، وكان تدخّل أحد أهمّ القياديين العسكريين في حزب الله يعدّل أحياناً من المواقف، وفي هذا المجال كان السيّد عبّاس الموسوي هو الأبرز خصوصاً مع القوى الإسلامية الجهادية. ولعب إبراهيم أمين السيد دوراً بارزاً في العلاقة بين حزب الله والقوى الجهادية الإسلامية السنّية، وهو أحد الذين شجعوا قياديين آخرين في حزب الله على توطيد العلاقة مع الجهاديين السنّة.

في تلك المرحلة كانت المسألة الجهادية في لبنان غير مطروحة على طريقة القاعدة، ولم تكن الحركة الإسلامية مستعدة للقيام بما تقوم به القاعدة الآن. وكان إبراهيم أمين السيد من الراعين للعلاقة مع الجهاديين السنّة وهو مَن أتى بعدد من الكوادر لتدريب مجاهدين سنّة، ولكن حزب الله لم يطلب أي دور من هؤلاء الجهاديين، لا على مستوى الجنوب حيث أمسك بالأرض بمفرده، عبر ضبّاط ومسؤولين سابقين من الحركات اليسارية والفلسطينية انضمّوا جميعاً بشكل نظامي إلى صفوفه. وفي الجبهة الخارجية لم يستعن حزب الله في بناء قواه بأي من السنّة أيضاً، برغم التقاطع أو التشابك مع كثير من القوى الإسلامية الفاعلة دولياً.

كانت الحركة الإسلامية الجهادية في تلك الفترة محاصرة، لا يمكنها السفر من طريق مطار بيروت الدولي، وحركة أمل تمنعها من السفر عبر المرافئ غير الشرعية. وكانت القيادات السنّية بحاجة إلى منافذ على العالم الخارجي، لم يجر تأمينها إلا عبر القوات اللبنانية، التي كانت تهتم لمسألة معنوية واحدة وهي أن المسيحيين ليسوا بمفردهم ضد السوريين، بل ثمّة مسلمون أيضاً ضد هذا الوجود السوري. على أن الوجود الإسلامي في المناطق الشرقية كان أقرب إلى اللجوء الاجتماعي، ولم تؤمّن القوات اللبنانية بموجب هذا الاتفاق أي شيء سوى

إمكانية الإقامة في هذه المنطقة. ولم يكن الجنرال ميشال عون قد ظهر بعد. وأعطت المجموعات الإسلامية المستقرة في المناطق الشرقية المناخ الآمن لبعض المجموعات الإسلامية المطاردة من قِبل سوريا، وبدأت أسماء بالظهور هناك مثل خليل حمزة من جيش لبنان العربي، وعبد الحفيظ قاسم والشهّال وغيرهم.

وكان مجمل القوى الجهادية في المناطق الشرقية عدة مئات، ولكن من غير أي ظهور أو وجود مسلّح، وكان الكل يصرّ على أنهم في حالة لجوء إنساني، خصوصاً أن أي وجود مسلّح هناك كان من شأنه حرق كامل الحركة الجهادية سياسياً.

وما أنهى هذه الحالة الإسلامية في المناطق الشرقية هو حرب الإلغاء، وبعد دخول الجيش السوري إلى هناك فرّت الأغلبية إلى خارج المنطقة أو خارج لبنان. وكانت صيدا ملاذ المجموعات الجهادية، بينما كانت بيروت الشرقية ممراً لها، علماً أن بعض المجموعات مثل مجموعة كنعان ناجي كانت مستقرة في المناطق الشرقية، ولكن أغلبية القوى كانت تفضّل التحرك في صيدا. وقد توافرت إمكانية عمل من المناطق الشرقية، التي أقام فيها مسؤول لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وشكّلت صيدا من ناحيتها المركز وأمّنت الحماية للعديد من القوى الإسلامية، وخصوصاً للفارّين من الشمال من قيادات حركة التوحيد وعناصرها، الذين استخدموا مناطق صيدا للتدريب وللعمل ضد الوجود السوري العسكري في لبنان. إلا أن الحركة الجهادية لم تعمل ضد الاحتلال الإسرائيلي، وكان التبرير بأن هذه الأنظمة التي تقمع شعوبها هي التي تمنع الشعوب العربية والإسلامية من تحرير فلسطين، وأن المشكلة الرئيسية مع الأنظمة التي لا بدّ من إزاحتها وتغييرها قبل العمل على تحرير الأراضي المحتلة والتخلّص من المشكلة الإسرائيلية. وذلك عملاً بالآية القرآنية ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غِلظة﴾ [التوبة: ١٢٣][٧].

(٧) أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ قال: الأدنى فالأدنى. وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: كان الذين يلونه من الكفار العرب، فقاتلهم حتى فرغ منهم.

وكانت المجموعات الجهادية ترى أن الأنظمة وقمعها مع إسرائيل حتماً وأنها أعاقت حركات التحرر عن القيام بدورها حيال شعوبها، وأن المشكلة الفلسطينية كان يمكن حسمها بقرار موحّد من حركات التحرر. وبرز أيضاً في خلفية الفكر الإسلامي ما قاله عبد الناصر من أن الوحدة طريق التحرير، وبعده ردّ ياسر عرفات بأن التحرير طريق الوحدة، وتم ضربه في الأردن. وتطوّر الفكر الجهادي وصولاً إلى تبنّي فكرة الحاكمية لله، وهي من بديهيات العمل الجهادي فكرياً.

والحالة التي أعادت تشكيل رمز للحركة الجهادية بعد القضاء على حركة التوحيد هي حالة مَن سمّوا بالأفغان العرب، حيث كانت كتلة إسلامية كبيرة ومتنقلة تعتبر أن كل ساحات المسلمين التي تتعرّض لقمع الأنظمة هي عبارة عن ساحات نُصرة، إن لم تكن مؤهّلة فعلاً للتحوّل إلى ساحات للجهاد. وجرت أول محاولة لتكريس أرض النصرة في كانون الثاني/يناير من العام ١٩٩٩ في جبال الضنّية مع بسّام كنج.

التأسيس لمجزرة الضنّيّة

الحروب الصغيرة والكبيرة تستعر في لبنان، وبقايا حركة التوحيد انتشرت في البلاد تحاول إيجاد ملاذات آمنة، ولم يعد الجهاديون في لبنان متناثرين بقدر ما كان يُعتقد، وأصبحوا أكثر حنكة ودراية وتوجّهوا إلى السياسة بمعناها المباشر.

وهرباً من جحيم المعارك ولمتابعة الدراسة، حصل شاب شمالي على منحة تعليمية من مؤسّسة رفيق الحريري في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، وتوجّه إلى الولايات المتحدة. هذا الشاب هو بسّام كنج، الذي سيلعب مع مجموعته دوراً تأسيسياً لما سيليه منطلقاً من كل ما سبقه.

صيدا ومخيّم عين الحلوة سيغرقان في نهايات الحرب في معركتين: حرب المخيّمات وحرب أمل وحزب الله، وستخرج مجموعات كعصبة الأنصار وأنصار الله، وتعاود الحركة الإسلامية المجاهدة لعب دورها في عين الحلوة، كما ستمرّ على لبنان أحداث جسام، نعود إليها لاحقاً. وفي هذه المرحلة كان تنظيم القاعدة قد ظهر في أفغانستان، على بقايا حركة الشيخ عبد الله عزّام الجهادية.

وبدل طرابلس الإسلامية ظهرت صورة بيشاور الباكستانية، وكان المناخ في أميركا حيث يدرس الشاب كنج مؤيّداً للمجاهدين بصفتهم «مقاتلين من أجل الحرية»، وتأثر عدد من الشبّان بأجواء هذه التعبئة التي كانت إلى حينه محصورة بوجهة أمنية.

وتمّ العمل على رمزية الشيخ عبد الله عزّام[١]، الفلسطيني من الإخوان المسلمين، الذي رأى أن الجهاد في فلسطين ليس ضرورياً، وذهب إلى أفغانستان معتبراً أن الجهاد هناك واجب بحسب عبارته الشهيرة: «جوار المسجد الحرام لا يمكن أن يُقاس بالجهاد في سبيل الله». على أن هذه الدعوات لم تلقَ أي صدى عمليّ لدى القوى الإسلامية الموجودة في لبنان، بحسب ما يؤكد عدد من علماء الدين الذين عاصروا تلك المرحلة. ورغم ذلك فإن بسّام كنج وعدداً آخر من الشبان التحقوا بالجهاد ضد السوفيات في أفغانستان، وذلك عبر مداخل أوروبية وأميركية خاصة وليس انطلاقاً من دعوات جهاديين لبنانيين.

وكانت الدعاية الأميركية والعربية عامة تعمل على حثّ الجميع للانخراط في الجهاد الأفغاني. وبدأ فريق الدعاية المحترف بالتلاعب بالأحاديث النبوية «الرايات السود تأتي من الشرق من خوزستان»[٢]، وكانت الدعاية الإعلامية التي يستخدمها الفريق المحترف تقوم على إقناع المؤمنين بأن المرحلة التالية على انتهاء القتال ضد الملحدين السوفيات هي مرحلة الزحف بالرايات السود، وهي رايات الإسلام، نحو بلاد المسلمين في أرض العرب، وفلسطين.

وتمّ استقدام الشباب من مصر والكويت والإمارات والجزائر والأردن وليبيا

(١) عبد الله يوسف عزّام (١٩٤١ - ١٩٨٩)، هو شخصية إسلامية يوصف بأنه رائد «الجهاد الأفغاني». كان منتمياً إلى جماعة الإخوان المسلمين، وشخصية محورية في تطوير الحركات الإسلامية المسلحة. أسّس مدرسة فكرية وبنية تحتية شبه عسكرية كانت تركز على الصراعات الوطنية، الثورية والتحررية المنفصلة. وكانت فلسفة عزّام في ترشيد الجهاد العالمي وتبنّي أسلوب عملي لضمّ وتدريب المسلّحين المسلمين من أنحاء العالم قد أثمرت أثناء الحرب ضد الاحتلال السوفياتي في أفغانستان، وكانت مؤثرة تأثيراً حرجاً على التطور اللاحق لحركة القاعدة العسكرية. قُتل في ٢٤-١١-١٩٨٩ في انفجار سيارة مفخخة في بيشاور بباكستان.

(٢) الرواية الوحيدة المثبتة بهذا المعنى هي ما ينقل عن الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني (٨٢٤ - ٨٨٦ ميلادية) من كتاب سُنن ابن ماجة «حدثنا محمد بن يحيى وأحمد بن يوسف قالا حدثنا عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن خالد الحذّاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثم يقتتل ثلاثة كلّهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم». ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال: «فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي».

والسعودية واليمن وغيرها، وعلى قاعدة أن هؤلاء الشبان سيذهبون للجهاد، ويحملون الرايات السود من الشرق، من أفغانستان، ويعودون فاتحين إلى بلادهم، ويتم الفتح من الشرق إلى الغرب. وبعد انتهاء الاحتلال الروسي لأفغانستان، صار الهمّ الأميركي تصفية الأفغان العرب، لكونهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم فاعلين في المشروع نفسه الذي سينفتح نحو الغرب، من خوزسان في اتجاه الدول العربية كافّة، بحسب عالم دين وجهادي سابق تعرّض لاعتقال طويل.

وغرق المجاهدون حينها في صراعات داخلية، كما أن جزءاً رئيسياً منهم التحق بأماكن توتّر من البوسنة إلى الشيشان.

وحين قُتل الشيخ عبد الله عزّام أصبح أسامة بن لادن بديلاً منه[٣]، وثمة من يشكك بأن للأخير علاقة بقتل عزّام. وكانت القاعدة من اسمها إلى عملها بكامله مجرّد تعبيرات عسكرية وأمنية، وهي عبارة عن مركز يستقبل مقاتلين ويدرّبهم ويرسلهم إلى أفغانستان للجهاد وينظّم أوضاعهم، ويعبّر في العمق عن طموحات أسامة بن لادن لقيادة العمل الجهادي في بلاد الأفغان وباكستان. وكانت مجموعة صغيرة من عناصر التوحيد الإسلامي التحقت بالجهاد في أفغانستان، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى لبنان، بحسب ما يروي أحد المتابعين ميدانياً لتلك المرحلة.

وفي لبنان كانت النظرة والمعلومات المتوافرة عمّا يجري في أفغانستان ليست قليلة إلا أنها غير مشجّعة على الالتحاق بالجهاد. واستهجن عدد من العلماء الخلط ما بين عبدالله عزّام الآتي من مدرسة الإخوان والمتبنّي للفكر الجهادي، والطلب الأميركي من الأنظمة العربية إرسال المجاهدين إلى أفغانستان لقتال الجيش السوفياتي هناك. ولم تلقَ الدعوات هذه صدى واسعاً بين الجهاديين في لبنان، خصوصاً أن اللبنانيين خبروا منذ أعوام قليلة مفاعيل الوجود الأميركي على

(٣) للاطلاع على تفاصيل تلك المرحلة الأفغانية والتحولات التي أصابت المجاهدين العرب والصراعات الداخلية، والإحباطات التي ضربتهم فطردتهم كلاً إلى طريق، يمكن العودة إلى كتاب كميل الطويل «**القاعدة وأخواتها**» الصادر عن دار الساقي، ٢٠٠٧.

أرضهم[٤]، ولم يستسيغوا الدعم العربي للجهاد. وبكل الأحوال لم يفهم الجهاديون في لبنان تلك المزاوجة التي تجري في باكستان ما بين الفكر السلفي وفكر الإخوان المسلمين تحت شعار الجهاد، وإن كان الاستهجان لم يصل حدّ الاستنكار، وهو ما يشرحه أحد الخبراء الشبّان من خرّيجي معاهد الشريعة في لبنان.

وظهر لأول مرة اسم القاعدة مع أُسامة بن لادن، وكان المجاهدون العرب في أفغانستان يؤمنون بأن الجهاد هو ما سيطهّر الأمّة ويوحّدها. وقد أرسل الشيخ عبدالله عزّام كتاباً إلى الشيخ عبد العزيز بن باز العالم السعودي الوهابي ليعرض فيه عليه صور شهداء سقطوا في أفغانستان، ذاكراً كراماتهم من الرائحة الطيبة التي تنتشر من جثثهم، واستطالة لحاهم، أو عدم فناء أبدانهم بعد الموت. وكان عزّام يحاول الحصول على شرعية كاملة للفكر الجهادي الذي يسود في أوساط المقاتلين العرب في أفغانستان، حيث كان المجاهدون يعتبرون أن أفغانستان مجرّد نقطة على الطريق، وأن ما يتبقى هو كل بلاد المسلمين، التي تنتظر المجاهدين لتحريرها مما هي فيه، بحسب الباحث محمد علوش الذي يضيف أنه «لم يعرف في لبنان من الذي ذهب إلى أفغانستان، وبعض الذين ذهبوا كانوا يتجهون إلى أفغانستان من دول أخرى».

و«بعد فشل الحركات الإسلامية التقليدية في تحقيق أي تقدّم وصلنا إلى ما نحن عليه، فلم تقم حركة إسلامية في العالم السنّي بنجاح، ما أدّى إلى اعتبار أن الطريقة البطيئة التي تتبعها هذه الحركات غير ناجحة وغير مرضية، ودفع بالحركات الإسلامية الأخرى إلى البحث عن القفزات الكبيرة وإلى أسلوب التفكير الجهادي الحالي» كما يقول الشيخ ماهر حمّود.

---

(٤) عام ١٩٨٢ عاش لبنان تحت وطأة وجود قوات متعددة الجنسيات فيه، أتت للإشراف على الانسحاب الفلسطيني عقب الاجتياح الإسرائيلي، وانسحبت ثم عادت بعد وقوع مجزرة صبرا وشاتيلا، ولم تنسحب نهائياً إلا بعد تعرّضها لضربات عدة طاولت مقر السفارة الأميركية ومقر قوات المارينز والقوات الفرنسية في العام ١٩٨٣، وبعد هزيمتها سياسياً عبر حرب الجبل وانتفاضة الضاحية الجنوبية في العام نفسه، ولكن ليس قبل أن تشارك بفاعلية في قصف مناطق في جبل لبنان دعماً للجيش اللبناني الذي كان بإمرة رئيس الجمهورية آنذاك أمين الجميّل.

وكانت جذور الفكر الجهادي من تكفير الحكام إلى استخدام العنف موجودة على الدوام، «ولكن الفرق هو بين استخدامها بشكل هادئ تماماً كالدواء، الذي يشفيك بقطرة ويقتلك بجرعة كبيرة» كما يوضح حمّود مضيفاً أن الفرق لدى الإسلاميين بحجم الجرعات، «فكل الإسلاميين يريدون الخلافة الإسلامية وتحرير البلاد الإسلامية وتحرير فلسطين، وحتى الصوفي يفكر بهذه الطريقة، ولكن الصوفي يتعامل بجرعات بسيطة جداً والجهاديين اليوم يتعاملون بجرعات مفرطة». وقد أثّرت مسألة الجزائر في الجهاديين إلى حدّ بعيد، إذ بعد إلغاء الانتخابات الجزائرية (عام ١٩٩٢) صعد نجم التكفيريين وخاصة القادمين من أفغانستان، وكذلك الأمر في مصر «فاليأس من الأسلوب السلمي تسبّب في ظهور الفكر التكفيري، وهو ما يتحمله في العمق الحكام بشكل عام» كما يرى حمّود.

شكّلت الحالة الجزائرية مثالاً بالغ الأهمية بالنسبة إلى الجهاديين في لبنان. وصار يمكن سماع محاجّة هؤلاء لمن يدعوهم إلى التزام النموذج الديمقراطي، والمساهمة في الدولة بصفتها الجهة التي تمثل جميع القوى السياسية وتحفظ حقوق المواطنين، وقولهم «ألم يأتك حديث الجزائر؟» وأصبح المسار الديمقراطي في نظرهم مضيعة للوقت ويتم التحكم فيه مسبقاً لمصلحة طوائف وقوى سياسية محلية وسورية هم خارج إطارها، كما أنها لا تحكم بما أنزل الله ولا تعدل بين المواطنين[٥].

«لم يخرج العديد من الشبان اللبنانيين إلى أفغانستان في هذه الأعوام، الممتدة من نهاية الحرب إلى منتصف التسعينيات، ومن أعرفهم ممن غادروا إلى أفغانستان عادوا في غاية الهدوء والانضباطية ولم يعودوا كالأفغان العرب في دول أخرى» كما يؤكد حمّود.

ويشرح أحد الكوادر السابقين في «الحركة الإسلامية المجاهدة» جانباً من الصورة مبتدئاً بالتأكيد على أن «الجهاد فريضة شرعية لا يمكن إنكارها، وهو فرض عين اليوم بسبب تعطيل شرع الله في بلاد المسلمين، وإذا قمنا باستفتاء بين

---

(٥) من نقاشات خاصة مع عدد من الجهاديين والسلفيين في لبنان.

الأمّة نجد أنها تطالب بالإسلام، وفي فلسطين ومصر وتركيا فإن الجمهور يطالب بالميثاق الإسلامي وبحكم الإسلام. والإسلام يأتي قبل الحدود، وهو يؤمّن العدالة الاجتماعية، ويوحّد الأمّة خلف الخليفة ويدافع عن الأرض. والإسلام عادل مع الأقلّيات، وهو ما نرى مثاله في الكتب والتاريخ. والجهاد واجب من أجل إقامة الحكم (الإسلامي) في بلاد المسلمين، حتى يسود شرع الله ويحقّق العدل بين الناس، فإذا ما استغاثت مسلمة يأتي نصرها من القادة ومن الجيوش».

ويروي الكادر السابق في الحركة الإسلامية المجاهدة أنه «في التسعينيات مرّ المسلمون بمحن كثيرة، من حصار العراق، وما جرى في البوسنة، واغتصاب النساء. حتى إنهم ذبحوا طفلاً ووضعوه في قدر كانت أمه تطهو فيه، وهذا ما حصل من قِبل الصليبيين الصرب، الذين كانوا يقاتلون من منطلق عقائدي، وارتكبوا الفظائع ولم يحرّك الغرب ساكناً، بينما الكل تحدث عن اغتصاب النساء وذبح الأطفال. وفي الجزائر أُلغيت نتائج الانتخابات، ووضِع علماء الدين في السجون، ولم ينصر أحد المسلمين. وفي أفغانستان أُجهضت التجربة الجهادية عبر إيقاع الفتنة بين المسلمين من أجل إحباطهم. وأكرمنا الله بلقاء محمد قُطب، شقيق سيّد قُطب، الذي تحدث عن التجربة الأفغانية ودور الأميركيين في إجهاضها، وقال إنّ المجاهدين امتلكوا ترسانة وخبرة هائلتين قبل الفتنة، وإن الشهيد عبد الله عزّام أخذ منهم العهد بأن القدس ستكون بعد كابول. وأتت الفتنة التي افتعلها الأميركيون حتى لا تحذو الحركة الأفغانية حذوَ تلك الإيرانية في تصدير الثورة. وإضافة إلى الأميركيين لعبت السعودية وإيران دوراً في إحباط الحركة الأفغانية، كما لعبت الأخطاء التي ارتكبها المجاهدون دورها السلبي أيضاً».

وبينما كان المجاهدون يردّدون القول بأن إيران جمهورية إسلامية لا يُفترض وقوع مشكلات معها، كانت التوترات على الحدود بين الطرفين لا تلبث أن تظهر من حين إلى آخر، وهو ما دفع بطهران إلى اتخاذ موقف سلبي من حركة طالبان بحسب القيادي السابق في الحركة الإسلامية المجاهدة الذي يخلص إلى القول: «وبكل الأحوال فإن أفغانستان كانت على قائمة التدمير حتى لو لم تقع ضربة ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١».

تشكلت «الجبهة العالمية الإسلامية»[٦]، بعد هزيمة الروس في أفغانستان، وفي أوج أحداث البوسنة، وبعد ضرب التجربة الجزائرية والتجربة الليبية وتشرّد القوى الإسلامية المجاهدة في أكثر من مكان بعد طردها من السودان، وفي ظل مراوحة القضية الفلسطينية في نطاق اتفاق أوسلو، وهي «مرحلة إحباط المسلمين في العالم» كما يصفها القيادي السابق في الحركة الإسلامية المجاهدة.

حينذاك اتصلت الجبهة بكل الأقطاب في العالم، ونجحت في استقطاب مجموعة أيمن الظواهري، ولم تنجح في استقطاب مجموعات أخرى، ولكن انضمّت إليها تيارات سلفية جهادية، وحركة طالبان، وبدأ حينذاك التواصل مع بلاد الشام (لبنان وسوريا).

واحتلت الناحية الأمنية حيّزاً هاماً في عمل الجبهة، خصوصاً بعد ضربات تنزانيا[٧]، وكان قادة الجبهة يتعرضون لضربات أينما عثر عليهم الأميركيون.

ويرى القيادي السابق أنّ «الصراع مع الأنظمة أثبت عُقمه لأنها مدعومة من الولايات المتحدة ومن الغرب، ومهما تعرضت للضربات فلن تنهار، ولا يتم القضاء على هذا الوضع إلا بتوجيه الضربات إلى رأس الأفعى، أي الولايات المتحدة والغرب. ثم إن الغرب لم يكن بريئاً في مواقفه من الجزائر إلى البوسنة إلى فلسطين، وفي الصراع مع إسرائيل كان له دور كبير. كما لعب أسامة بن لادن دوراً كبيراً في جبهة الصراع الإسرائيلية» دون أن يوضح القيادي السابق ما هو الدور الذي لعبه بن لادن في الملفّ الفلسطيني.

---

(٦) في شباط/ فبراير ١٩٩٨ أُعلن تأسيس «الجبهة العالمية الإسلامية لجهاد اليهود والصليبيين». وبدأت الجماعات الإسلامية المنضوية تحت هذه الجبهة، بقيادة أسامة بن لادن وقائد جماعة الجهاد المصرية أيمن الظواهري، بتحضير وتنفيذ عمليات ضد أهداف أميركية. وجاءت هذه العمليات تنفيذاً لفتوى أصدرتها هذه الجبهة مفادها: «إن حكم قتل الأميركيين وحلفائهم، مدنيين أو عسكريين، فرضُ عين على كل مسلم أمكنه ذلك في كل بلد تيسر فيه، وذلك حتى يتحرر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم، وحتى تخرج جيوشهم عن كل أرض الإسلام».

(٧) في السابع من آب/ أغسطس من العام ١٩٩٨ تمّ تفجير حافلتين، تفصل بين كل عملية تفجير تسع دقائق، خارج مبنى السفارة الأميركية في تنزانيا، حيث قتل ٢٢٤ شخصاً بينهم ١٢ أميركياً.

ويقول كادر شمالي قريب من الجماعات الإسلامية الجهادية إن «جمع التبرعات لمصلحة العمل في لبنان بدأ في بدايات العام ١٩٩٨، وكان ذلك تحضيراً لخلايا تعيش بأمان وتدعم المجاهدين انطلاقاً من لبنان، وحتى الآن يتم جمع تبرعات بشكل سرّي للغاية كما هو معروف ولكن بطرق وأساليب مختلفة وفردية أحياناً».

ويردّ العديد من علماء الدين في الشمال كل الأحداث الأمنية التي حصلت في تلك الفترة (ما بين العام ١٩٩٨ والعام ٢٠٠٠) إلى كونها «من آثار مجموعة الضنّية»، من الهجمات على مراكز تجارية أو القيام بأعمال أمنية فردية واغتيالات وإلقاء قنابل وغيرها. «وكان الردّ الأمني تفكيك هذه المجموعات بما في ذلك اعتقال رجال دين». إلا أن قصة بسّام كنج ومجموعة الضنّية، من وجهة نظر من عاشوها، لم تُنشر حتى اليوم، وهي تقبع طي الكتمان، ولا يزال الناجون من العمليات الحربية التي أدّت إلى مقتل عدد من المجاهدين في الضنّية وأسر عدد آخر، يعانون نتائج تلك المرحلة، ولم يعد أحد منهم إلى الجهاد المباشر، ولم يتورّط أي منهم في أحداث نهر البارد، وإذا كان أبو جندل (بلال المحمود) قد قُتل في الشارع إلا أنه لم يثبت أن له أيّة علاقة بفتح الإسلام.

وعلى الرغم من ذلك أصبح كل عمل أمني يوصف بأنه من إنتاج «جماعة الضنّية» أو «ما تفرّع منها» وكلّما جاء إلى بيروت موفد أجنبي إلى مقرّ الرئاسة الأولى في بعبدا يسمع كلاماً حول أسبقية لبنان في مكافحة الإرهاب في الضنّية. ولا يزال الحديث عن مقتل الضابط ميلاد النذّاف يعتمد على ما سيق في التقارير والتحقيقات الرسمية. والكلام الذي سيق في قاعات المحكمة من قبل المتهمين والضالعين في الضنّية، وما جرى هناك كلّف هؤلاء اضطهاداً وملاحقات وتعذيباً في السجون. كما كان كافياً لأحد الموقوفين جميل حمّود أن يذكر خلال جلسة محاكمته أنّ ما جرى في الضنّية «مجزرة» مطالباً بلجنة تحقيق حتى يُحال على محكمة عسكرية إلى جانب محكمته الرئيسية، ويُحكم عليه بسنة ونصف السنة سجناً إضافة إلى أي حكم يناله.

إلا أن الضنّية أسّست لدى الجهاديين اللبنانيين لمرحلة لاحقة. فبسّام كنج

الذي آثر الموت على الفرار في نهاية المعارك وهزيمة مجموعته، حفر حفرة لا تزال تجد من يحفر فيها ولا تني تتعمق وتتوسع. وكلّما قامت القوى الأمنية بمداهمات في الشمال يتذكر أهالي المناطق السنّية الفقيرة والبيوت المتداعية أن مجموعة الضنّية بدأت رحلة موتها من عمليات ملاحقة واضطهاد تعرّضت لها في طرابلس والمناطق المحيطة من أبو سمرا والتل والضنّية وبعض قرى عكار[٨]، ويتحدث شبّان يستفزهم القمع والاعتقالات كل يوم عن الجهاد وعن بسّام كنج، الذي أصبح أشبه بأسطورة رغم أن من عرفه لم يقدّمه كذلك.

ينطلق النقاش مع أفراد عاشوا مرحلة الضنّية من تعريف مفهوم كلمة جهاد، هل هي ما يجري في العراق أو ما تمثله القاعدة، أو أي حركة كان لها نشاط عسكري يمكن إطلاق صفة جهادي عليه. وثمة مسافة في التعريف وفي النظرة ما بين «قوّات الفجر» التابعة للجماعة الإسلامية والتي كانت تقاتل الاحتلال الإسرائيلي في الجنوب وحركة التوحيد التي كانت تقاتل القوات السورية في الشمال، كما أن هناك فرقاً ما بين هذه الحركات والقاعدة اليوم.

ويشمل العمل الجهادي «كل حركة إسلامية لديها أهداف سياسية تبنّت العمل العسكري»، بحسب هؤلاء. وعندهم أن «حركة التوحيد كانت تقاوم الوجود السوري في الشمال، وصنّفت نفسها لذلك كحالة جهادية، وكانت بهذا المعنى قوات الفجر هي أولى القوى الجهادية الإسلامية التي ظهرت كرد فعل على الاجتياح الإسرائيلي».

ويحمل من بقي من مجموعة الضنّية في ذاكرته ما حصل في صيدا حين دخول الجيش اللبناني في تموز/يوليو من العام ١٩٩١ من سوء تفاهم، «حيث كانت الاتصالات مع الجماعة الإسلامية وقيادة الجيش تفيد بأن الجيش سيطوّق مخيّم عين الحلوة فقط لا غير، وأنه لن يدخل إلى المعسكر التابع لقوّات الفجر. إلا أن وحدة من الجيش دخلت إلى المعسكر، ولما حاول بعض الشبّان الممانعة

(٨) مناطق هامشية وفقيرة وذات كثافة سكانية عالية، تضمّ ريفيين من أهل السنّة يعيشون فيها ويعملون في طرابلس في أعمال بسيطة.

في تسليم سلاحهم إلى الضابط اللبناني، أطلق النار على شابين منهم مباشرة، وتمّت إزالة المعسكر برغم الاتفاق مع الجماعة على أن المعسكر تابع للمقاومة» بحسب أحد الناجين من الضنّية.

ويصنّف هؤلاء عملية اغتيال نزار الحلبي[9] كـ«ردّة فعل فردية»، معتبرين أن عصبة الأنصار «حاولت استغلالها» إذ نسبتها إلى نفسها وأعلنت أن المجموعة تلقّت تدريباتها على تنفيذ عملية الاغتيال لدى العصبة في مخيّم عين الحلوة، بينما لم يكن للفاعلين ارتباط جدّي بأية مجموعة، «وربما حصل توافق نظري حول مسألة الاغتيال ولكن لم تكن هناك توافقات فكرية كبيرة» كما يقول أحد الناجين من تجربة الضنّية. واشتهرت عُصبة الأنصار عقب هذه العملية.

وكانت «ردّة الفعل» هذه التي تجلّت بالاغتيال استجابة لما يجري في المساجد من تعرّض للمصلّين والضرب في الشوارع لأنصار مذاهب سلفية معيّنة وتكفيرهم، وانتشار التعرّض للسلفيين وضربهم بالسكاكين. «وكان الجيش السوري في لبنان يعتبر «جمعية المشاريع» العصا التي يستخدمها لضبط الشارع السنّي. وكانت ممارساتهم بدأت منذ العام ١٩٨٧، حين دخلت مجموعة من جمعية المشاريع إلى مسجد في طريق الجديدة وتعرّضت للمصلّين بالسكاكين، ومن ثم تم اعتقال كل المصلّين في مركز للمخابرات السورية» كما يقول أحد الناجين من الضنّية.

بسّام كنج وبداية حفرة القاعدة

ركّز الجوّ السلفي في التسعينيات على الجانب العقدي (العقائدي) في مواجهة المحاجّة التي كان السلفيون يتعرّضون لها فكرياً وعملياً. حينها كان عدد الملتحقين بالجهاد خارج لبنان محدوداً. ومع أن معظم كوادر التوحيد الإسلامي فرّوا من الشمال، وسافر منهم من سافر، فإن الذهاب إلى أفغانستان والشيشان والبوسنة لم يجذب العديد منهم، ولا من اللبنانيين الإسلاميين.

غادر بسّام كنج (أبو عائشة) لبنان إلى الولايات المتحدة في العام ١٩٨٨ أي

(٩) سيأتي الحديث عن عملية اغتيال نزار الحلبي رئيس جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية في لبنان، والتي نفّذها شبّان سلفيون.

في المرحلة الأخيرة من الجهاد الأفغاني ضد السوفيات. وفي نهاية ذلك العام عندما قرر السوفيات الانسحاب وبقيت القوات الأفغانية تقاتل المجاهدين بمفردها، ذهب كنج إلى أفغانستان. وكان قد شارك في معارك طرابلس عام ١٩٨٥ كسائق لسيارة إسعاف. كما شارك يوم الإنزال الإسرائيلي في جزيرة الأرانب، وحينها كان التزامه الديني بسيطاً.

تحمّس كنج في مرحلة أفغانستان، علماً أن البيئة التي احتضنته في أميركا كانت مقرّبة من المجاهدين، «وكان الجهاد حينها حلالاً لدى الأميركيين ولدى الأنظمة العربية من السعودية إلى مصر إلى غيرها» كما يقول من عرف كنج يومها. وقد أقام كنج في أفغانستان مدة عام، والتحق بمعسكر تدريبي في بيشاور، ومن ثم انتقل إلى الجبهة، وعمل أولاً في الدفاع المدني ثم مترجماً لمصلحة مجلة يصدرها المجاهدون.

وقد وصل كنج إلى الخط الأمامي في المواجهات وأصيب خلال تقدّم للجيش الأفغاني، وبقي عدة أشهر في المستشفيات للعلاج وعدة أشهر أخرى للنقاهة، ومن ثم عاد إلى أميركا ليكمل علاجه. «لا تتميز تجربة كنج في أفغانستان عن تجربة العديد من العرب، الذين ذهبوا لتمضية أسابيع كإجازة صيفية، وانخرطوا بضعة أيام في المعسكرات التدريبية قبل أن ينتقلوا إلى الجبهات لسماع أصوات الرصاص قبل عودتهم لمتابعة دراساتهم الجامعية» كما يقول أحد زملائه حينها. ونظراً إلى ضيق الوقت الذي أمضاه كنج في أفغانستان لم يتسنّ له إقامة علاقات واسعة بالمجموعات التي كانت تقاتل هناك، خصوصاً أن النقاشات الفكرية والأطروحات النظرية كانت تنحصر في بيشاور في الخطوط الخلفية، وليس في الجبهات أو المستشفيات.

ثمة فترة من الصعب متابعة سيرة بسّام كنج خلالها هي الممتدة منذ عودته من أفغانستان إلى الولايات المتحدة ومن ثم عودته إلى لبنان في العام ١٩٩٨. وبعد وصوله إلى شمال لبنان بدأ بالعمل، وجمع حوله مجموعة من الشبان في منطقته، وأنشأ حلقات تدريس، وكان الإسلاميون يعيشون آنذاك تحت ضغط من أجهزة الأمن في لبنان.

وبدأت الأمور تتراكم بشكل جدّي حين تلقى كنج اتصالاً خارجياً طلب منه تسهيل مرور «مجموعة من الإخوة من خارج لبنان إلى فلسطين» بحسب أحد الذين اعتقلوا لاحقاً في إطار أحداث الضنّية. وكان المشروع هو إدخال عدد من المجاهدين العرب، أكثرهم فلسطينيون، إلى لبنان على أن يوصلهم كنج إلى الحدود اللبنانية الإسرائيلية، فيتدبّرون أمورهم من هناك. وكان الجنوب لا يزال تحت الاحتلال الإسرائيلي، إلا أن الوضع المحلّي والميداني والتعقيدات التقنية لم تسمح بحركة مشابهة. وكان هؤلاء «المجاهدون القادمون نحو فلسطين من الذين سئموا ما كان يحصل في أفغانستان آنذاك، وقرروا الرحيل إما إلى بلادهم وإما إلى الشيشان» كما يقول معتقل سابق.

واستقر رأي كنج ومن كان معه على الطلب من الإخوة في الخارج إمهالهم فترة سنتين لإعداد مجموعات قادرة على القيام بالمهمة، ولإنشاء قواعد عمل في لبنان تشكل منصّات خلفية لهذه العمليات. وذلك لئلا يحصل في لبنان ما حصل في العديد من الدول العربية مع من يسمّون الأفغان العرب، حيث استدرجوا إلى المواجهات وفتحت لهم ملفات أمنية وقضائية كانوا بغنى عنها.

وبدل التسرّع في تسهيل مرور المجاهدين نحو فلسطين المحتلة استقر الرأي على إنشاء مجموعات مقاومة لبنانية، تشارك في العمليات ضد إسرائيل، ويمكنها حمل ثقل مشاركة مجاهدين عرب، وتُمكّنهم من العبور نحو فلسطين، شرط اكتساب شرعية للمقاومة في لبنان.

وبدأ كنج بحلقات دينية عادية لكي لا يتحول مشروعه إلى تنظيم عسكري بصورة مباشرة وعلى نحو صادم، خصوصاً أن المجال كان مفتوحاً أمام الإسلاميين للعمل في الدعوة الدينية، على الرغم من القمع الذي كان سائداً. وفي منتصف العام ١٩٩٩ أُنشئ المخيّم في الضنّية وكان من ضمن نشاطاته التدريب العسكري إضافة إلى التعليم الديني، وبدأ يلتحق به شبّان من طرابلس لممارسة الرماية النارية أو لتلقّي العلوم الدينية وكان كنج يحاول اختيار العناصر الصالحة للمتابعة.

ولسوء حظ كنج فقد رصدت المخابرات الروسية الاتصال الذي جرى معه. وكان السفير الروسي أوليغ بيريسيبكين يقوم في تلك الفترة بجولات على القيادات

السياسية اللبنانية مبشّراً بقرب الانسحاب الإسرائيلي بناء على قرار الأمم المتحدة الرقم ٤٢٥، كما أن المخابرات الروسية أرسلت وفداً أمنياً إلى بيروت أطلع عدداً من المسؤولين اللبنانيين على فحوى الاتصال مشيراً إلى وجود مجموعات أمنية إسلامية في شمال لبنان تملك اتصالات مع مجموعات أصولية خارجية.

وحين تناهت إلى كنج معلومات حول الأمر، وأن ثمة من يبحث عنه وعن المجموعة في الشمال، لم يولِ ذلك كبير أهمية، وبدّل اسمه الحركي بما يشبه المزاح من «أبو عائشة» إلى «أبو أحمد»، وكانت المخابرات اللبنانية بدأت تسأل في طرابلس عن أبو عائشة، وتحوّلت الملاحقة إلى حجم لا يمكن تداركه بتدابير بسيطة.

في تلك المرحلة كان إيهود باراك[١٠] رئيس الحكومة الإسرائيلية يمهّد لانسحابه من لبنان، وكان هناك تفاوض غير معلن يجري عبر وسطاء دوليين حول شروط الانسحاب، كما يقول من عاش مرحلة الضنّية وشارك في البحث عن معلومات حول خلفية ما حصل.

ووصلت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت إلى بيروت في زيارة نادرة، وتحدثت عن وجود أصولية في شمال لبنان وأن هذه الأصولية تشكل تهديداً لعملية السلام، وهو ما اعتبرته المجموعات الجهادية إشارة واضحة موجهة إلى دمشق تحديداً بضرورة إنهاء وجود القوى الأصولية.

في المخيّم الذي نظّمه بسّام كنج كان يمكن تلمُّس حالة ضياع في الهدف الفكري والعقائدي، وكان ما يجمع الناس هو البحث عن فرصة للعمل في المقاومة. وكانت تجري محاولات للاتصال ببقايا «التوحيد» في القرعون، جنوب البقاع اللبناني، وكانت مجموعات القرعون الإسلامية قد شاركت في ضرب الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان خلال فترات سابقة. وكانت منطقة القرعون مدخل المثلث السنّي في الجنوب اللبناني حيث كان يمكن للمجموعات الجهادية التحرك بحرية نسبية.

---

(١٠) ولد عام ١٩٤٢. هو عاشر رئيس وزراء لإسرائيل من ١٩٩٩ إلى ٢٠٠١.

وبدأت أولى شرارات المواجهة بعد طول ملاحقة حين جرت محاولة اعتقال عبدالله هزيم، الذي سبق له أن أمضى تسعة أعوام في سجن تدمر في سوريا. وكان هزيم مطلوباً من السلطات اللبنانية للتحقيق في تهمة تفجير كنائس. وحين وصلت دورية أمنية لاعتقاله طلب من عناصرها عدم الاقتراب منه. فلما حاولوا اعتقاله بالقوة أطلق النار من مسدّس عيار ٥ ملم وأصاب العريف بيده بينما هرب عنصران آخران، وتمكن هو من الفرار. وكان هزيم يتعمّد ألا يحمل مسدساً قاتلاً حتى لا يتورّط بالقتل. واتصل هزيم بأبو عائشة وأخبره بما جرى فطلب منه الأخير الالتحاق بالمخيّم، ورافق هزيم عدد من الشبان تعود إليهم ملكية الأرض التي يقع عليها المخيّم.

وفي طرابلس ازداد الضغط من قبل القوى الأمنية على المجموعات الإسلامية، وهو ما دفع بالعديد من الشبان إلى الاتصال بأبو عائشة الذي كان يبلغهم بأن من يخاف على نفسه من الملاحقات فليلتحق به في المخيّم. وحتى لا يتعرّض الشبان للملاحقة والتعذيب في حال اعتقالهم كانوا يلتحقون بالمخيّم خصوصاً مع اقتراب شهر الصيام، وتفضيلهم قضاءه خارج السجن بطبيعة الحال.

وكان أبو عائشة وعبدالله هزيم يملكان بعض السلاح ويخفونه في مكان ما في جرود الضنّية، فاستخرجاه وأعادا توضيبه وإخفاءه في أماكن أخرى بعيداً عن أنظار الجيش اللبناني والقوى الأمنية. وكان ثمة عدد من الشبان لديهم تجربة عسكرية مع حركة التوحيد الإسلامي وبعضهم يتقن استخدام السلاح، إلا أن كنج لم يزوّد أيّاً من هؤلاء بالسلاح بشكل يسمح بخوض مواجهة بل اكتفى ببعض الأسلحة التي تشكل حماية، وتُستخدم لتدريب الشبان.

على المستوى الفكري كانت المجموعة تضم آراء متضاربة ومتباينة، وكان السلفيون في الشمال قد نجحوا في استقطاب عدد من أعضاء «التوحيد» بعد ضرب الحركة. إلا أن الحركة السلفية لم تصل في استقطابها إلى حدّ التثقيف الإيديولوجي وإنما كانت تقدّم لهذه العناصر تعليماً دينياً أولياً.

اعتقد أبو عائشة أن عدم تحرّك أجهزة الدولة على الرغم من علمها بوجودهم في جرود الضنّية معناه غضّ النظر عنهم، وأنه لن تحصل مواجهات خصوصاً أن

المجموعة لم تتعرّض للقوى الأمنية، ما عدا حالة عبدالله هزيم الذي جرح شرطياً ليتمكن من الفرار. وقد فضّل بسّام كنج المواجهة على تسليم نفسه للسوريين أو للقوى اللبنانية التي قد تسلّمه بدورها للجيش السوري.

وفي تلك الفترة التحق جميل حمّود بالمجموعة تاركاً بيروت، ليجد أكثر من ٣٠ مقاتلاً ولاجئاً مجتمعين في الجرود. وكان أبو عائشة يعتبر أن ثمة أربعة أو خمسة أشخاص فقط من ضمن المجموعة يمكن أن يشكلوا نواة للعمل، أبرزهم عبدالله هزيم وأحمد اليوسف ورضوان رستم. وكان هؤلاء يشكلون نوعاً من القيادة العسكرية، ويتخذون القرارات المباشرة. وكان هناك العديد من الشبان الذين يتعرّفون إلى بسّام كنج للمرّة الأولى، ومنهم بلال محمود[١١] (أبو جندل)، وأشقاؤه، وسعيد وممتاز الميناوي وشقيقهما خالد الذي لم يبلغ السادسة عشرة من العمر.

وكان كنج يتلقّى اعتراضات من المحيطين به تتركز على أن من يجمعهم في المخيّم لا يصلحون للقتال، وأنه يراكم أسباب ملاحقتهم ومهاجمتهم من قبل الجيش اللبناني والقوات السورية، مما يؤدّي بالتالي إلى تدمير أُسس العمل الذي يُفترض أن يتم تنفيذه على المدى البعيد، وكان كنج يجيب بأنه لا يملك خيارات أخرى.

على أن كنج ما لبث أن أدرك أنّ الجيش اللبناني والقوى الأمنية ستطارده في مكانه في الجرود، فأرسل من يستكشف الطريق الترابية نحو الجرود، وتبيّن أنها مقطوعة بالثلوج، ولا يمكن أن تعبرها السيارات. وبدل فتح الطريق أرسل كنج عبدالله هزيم ومعه مجموعة إلى مبنى تقوية إرسال «إذاعة القرآن» التابعة لداعي الإسلام الشهّال[١٢]، والتي كان أحد شبّان المخيّم من العاملين فيها. وكان

(١١) في وقت لاحق قتلت قوى الأمن هذا الشاب خلال حرب نهر البارد من دون مبرّر. ويذكر شهود عيان أن بلال محمود كان واقفاً في أحد شوارع طرابلس حين تقدمت منه سيارة لفرع المعلومات التابع لقوى الأمن الداخلي وقام من بداخل السيارة بإطلاق النار عليه.

(١٢) داعي الإسلام الشهال شخصية سلفية ورث عن والده قيادة التيار السلفي في شمال لبنان، سبق ذكره في النص.

الاتفاق أن تبيت مجموعة هزيم لليلة واحدة في الإذاعة وتستكشف الطريق وصولاً إلى عيون السمك، ومحاولة التسلل ليلاً عبر الطرق الفرعية.

والتقى النائب خالد الضاهر[١٣] حينذاك كنج في المخيم، وأخبره أن الدولة لن توافق على بقاء الوضع القائم، وسترسل قواتها إلى المنطقة لحسم وجود المجموعة الأصولية، وأجابه كنج بأن المجموعة «لم ترتكب أي جريمة، فلماذا تصعد القوى النظامية لقتالنا؟ فلسنا أول من حمل السلاح في لبنان ولا نحن بمفردنا من يحمل السلاح، وكل الأحزاب اللبنانية تحمل السلاح، ولم نرتكب أي عمل أمني. كل ما هنالك أننا نتعرّض لعمليات اعتقال تعسّفية في طرابلس وهو ما دفعنا إلى الفرار، أما من يصل إلينا ليقاتلنا فسيجبرنا على الدفاع عن أنفسنا».

وسألهم خالد الضاهر إن كانت ثمة اتهامات موجّهة إلى أي من أفراد المجموعة، فأجابه كنج بأن عبد الله هزيم هو الوحيد المتّهم بإطلاق النار على القوى الأمنية لتسهيل فراره، وأن لا أحد من العناصر الموجودين في المخيّم يخضع لملاحقات مبنية على تهم واضحة، أو ملاحقات قضائية رسمية، أو أنه متورّط بأي عمل أمني. وكان الضاهر يحاول إيجاد حلّ مع القوى الأمنية على أساس أن «يكفّ شرّهم عن المجموعة» على أن لا تحاول المجموعة العودة إلى طرابلس قبل انفضاض المشكلة نهائياً.

وكلّف كنج خالد الضاهر بحلّ المشكلة، واقترح هذا أن يعود من هو غير مطلوب مباشرة للتحقيقات إلى منزله، وأن يبقى من هو مطلوب للتحقيق في الجرود إلى حين إيجاد حل.

وكان الجيش قد أعطى مهلة ٣٦ ساعة للحلّ، وأبلغ الضاهر المجموعة بهذه المهلة. وبعد رحيل الضاهر اصطحب كنج واليوسف عدداً من أفراد المجموعة، وكانت الأمور تتجه نحو التسوية بهدوء، ونزلت مجموعة أبو عائشة بقصد تأمين

---

(١٣) نائب في البرلمان اللبناني عن الجماعة الإسلامية في تلك المرحلة قبل أن ينشقّ عنها. قام مع الشيخ بلال شعبان ابن الشيخ سعيد شعبان بمحاولات ومفاوضات لإيجاد حل سلمي لمجموعة الضنّية.

الطريق نحو منطقة عيون السمك، تمهيداً لخروج من هو غير مطلوب من القوى الأمنية من المنطقة. وكانت تقديرات أبو عائشة أن الجيش اللبناني والقوات السورية لن تقوم بأي عمل أمني في هذه الفترة ولا سيّما أنها فترة الألفية الثانية وكل البلاد والعالم مشغولة بالاحتفالات، ولن تقوم القوى الأمنية بتخريب الاحتفالات، خصوصاً أن المجموعة في الجرود لا تقوم بأي عمل عسكري أو استفزازي لهذه القوى، وبالتالي فإن أمام المجموعة عدة أيام قبل أن تصل إلى حلّ نهائي لوضعها يسهّل خروج غير المطلوبين كما يسهّل اختفاء من هو مطلوب في الجرود..

ليلة الخميس - الجمعة غادر بعض الشبان من المجموعة نحو طرابلس بسياراتهم وبشكل طبيعي. وصباح اليوم التالي، وكان يوم جمعة ومنطقة الضنّية تعيش حالة العطلة الأسبوعية، كانت مجموعة أخرى تحاول المغادرة واكتشفت أن في طريقها حاجزاً للجيش اللبناني، مدعوماً بآليّات، فعدّلت السيارة من مسارها، ولكن كان على نهاية طريق بقاعصفرين حاجز آخر مدعوم بدبابة، ولم تكن مهلة الساعات الـ ٣٦ قد انتهت بعد.

في هذه الأثناء كانت إحدى المجموعات لا تزال في مركز تقوية الإرسال التابع لإذاعة القرآن، وكان قرار الحكومة اللبنانية بإقفال الإذاعات ووسائل الإعلام غير الشرعية يبدأ بالسريان مع بداية العام الجديد (٢٠٠٠) وبالتالي فإن المجموعة الموجودة في مبنى تقوية الإرسال كانت معرّضة للخطر، وكان أمام مبنى الإذاعة سيارة فان أقلّت مجموعة الإذاعة إلى المبنى.

وبعد نقاش سريع اتّخذ القرار بتجنّب المواجهة أو الاصطدام بالجيش، والانسحاب من مبنى التقوية الإذاعية، والاتجاه نحو الوادي، وبقي هناك ثلاثة أشخاص، أحدهم عامل في الإذاعة، رفضوا النزول إلى الوادي للخروج من المنطقة. وكان أحد الثلاثة مريضاً ولا يتمكن من السير، فحاولت المجموعة قبل المغادرة تحريك الفان لإخفائه عن أعين عناصر الجيش اللبناني. ويبدو أن دورية للجيش على تلة مقابلة رصدت الحركة، فتقدمت قوّة على رأسها ضابط من مفترق

الطرق القريب المؤدي إلى الإذاعة، وحصلت مواجهة بين المجموعة والدورية الأمنية، وبدأ الجيش بإطلاق النار نحو المجموعة في الوادي وجرح ثلاثة من عناصرها. وردّ الشبّان بإطلاق النار على الجنود فقُتل عدد منهم، وأُسِر اثنان، ولم تعرف المجموعة رتبة الأسيرين وأن أحدهما هو قائد العمليات في المنطقة.

وتدخّل حاجز الجيش في الاشتباك، وطلب أحد قادة المجموعة من الضابط الأسير الاتصال بعناصره والطلب إليهم وقف إطلاق النار حتى تتمكن المجموعة من الانسحاب، واتصل الضابط هاتفياً وطلب وقف إطلاق النار وأبلغهم بأنه أسير وطلب إليهم الابتعاد ٥٠٠ متر عن دائرة الاشتباك.

عند ذلك توقفت الاتصالات لإيجاد حلّ للمجموعة ولم يتم أي اتصال من قيادة الجيش حول المفاوضات السابقة. وشاهدت المجموعة تعزيزات للجيش اللبناني تنتشر حولها، وقدّر بسّام كنج أن وقوع أسير من الجيش سيمنع القوى الأمنية من تنفيذ عملية اقتحام أو محاولة إبادة المجموعة، خصوصاً أن الضابط برتبة عالية ومسيحي، ولن تضحي به قيادة الجيش، وكان هذا أسلوباً ساذجاً في قراءة الموقف.

وانسحبت المجموعة مع جرحاها ليلاً وبقيت تواصل السير حتى الخامسة صباحاً سالكة طريقاً طويلة إلى مخيّمها، وكان راسخاً في اعتقاد كنج ورفاقه أنهم سيعاودون الاتصال بالجيش اللبناني ما إن يصلوا إلى المخيّم، ويتابعون المفاوضات. وفي هذه الأثناء أخبر كنج الوسطاء بحيثيات الاشتباك مع الجيش اللبناني. وفجراً وصلت المجموعة الفارّة إلى مفترق طرق، فأمامها قرية مسيحية، وقبالتها أحراش، وشاهد المنسحبون ما بين ٤٠ إلى ٦٠ دبابة وملالّة للجيش اللبناني تتجه نحو المخيّم الذي كانت المجموعة تحاول الوصول إليه، فعدّلت مسارها، وأبلغ كنج العناصر في المخيّم عبر الهاتف الخلوي بأن قوة كبيرة من الجيش تتجه نحوهم وطلب منهم إخلاء المكان. وعند الساعة الثامنة صباحاً سمع أفراد المجموعة دويّ إطلاق النار خلفهم، وبتقدير المسافات أيقنوا أن الجيش يقتحم مبنى تقوية الإرسال الإذاعي.

مع إشراقات الشمس الأولى امتنعت المجموعة عن الحركة، خصوصاً أنها في منطقة جردية مكشوفة لقوات الجيش اللبناني، وفي الوقت نفسه في موقع تشرف منه على هذه القوات. بعد ذلك شرعت المروحيات بالتحليق في المنطقة، وبدأت عمليات إنزال في عدة مواقع، ولما حاول عنصران في المخيّم تغطية انسحاب الباقين قُتلا، ويقال إن أحدهما أصيب، وتمّ اعتقاله.

من مكان بعيد، كانت المجموعة التائهة في الجرود تشاهد تعزيزات الجيش بعد أن تخلّت عن موقعها في مبنى التقوية الإذاعية وبقيت تنتظر حلول الظلام. وبناء على نصيحة من أحد أفراد المجموعة حاول كنج تطمين الرائد والجندي الأسيرين أن لا نيّة لديهم بقتل أحد، وأن المجموعة سوف تخلي سبيلهما بعد تأمين مسلك لفرارها من قوات الجيش، وإذا كان لدى الجيش أسرى من المجموعة فستجري عملية مبادلة. وقدّم كنج هاتفه إلى الضابط ميلاد النذّاف ليتحدث مع زوجته ويطمئنها إلى وضعه. وطلب من الأسيرين عدم محاولة الفرار حتى لا يضطر إلى إطلاق النار عليهما.

وليلة السبت - الأحد عاودت المجموعة تحرّكها فوصلت إلى منطقة حرجية كثيفة وبيوت متباعدة، خارج الضنّيّة، وتوقفت عن السير مع إطلالة شمس الأحد، وكانت ملالّات الجيش اللبناني تتحرك على مسافة عشرات الأمتار من المجموعة باحثة عنها.

صباح يوم الأحد كانت المجموعة تختبئ في الأحراش، وحصل نقاش بين عدد من أفرادها والضابط الأسير ميلاد النداف الذي كان قائد العمليات في الضنّيّة. وبدأ النقاش حين فضّل أحد أفراد المجموعة تقديم الطعام إلى الرائد رغم أن المجموعة لم تكن تملك الكثير من الطعام. وقدّم المقاتلون إلى الضابط بعض التمر، بحصّة مساوية للباقين، فالتهم ما قدّم إليه بسرعة خلاف الآخرين الذين كانوا يتركون التمر يذوب في أفواههم ليمتصوا منه الرطوبة والسكر. وحين لاحظ أحدهم أن النداف أنهى تمراته، أخرج قطعة من الخبز كان يحتفظ بها وقدّمها له، ما أثار إعجاب الضابط. وعندها أعطى الانطباع بأنه راغب في الحديث، وتحاور

مع آسريه، وشرحوا له عقائدهم اجتماعياً وسياسياً. ولا يستبعد الذين سمعوا تلك المحادثة احتمال أن يكون الأسير النداف يبدي تجاوباً مراعاة لوضعه كأسير، إلا أنه بدا وكأنه راغب في الحديث ومعجب بما يسمعه من المقاتلين الشبان وبخاصة المتعلمين بينهم.

خلال المسير ليلة الاثنين وأثناء المرور فوق قرية كفرحبّو، كانت المجموعة تتحرّك ببطء لأن المنطقة ملأى بالجنود وفيها الكثير من الحجارة التي يمكنها أن تصدر أصواتاً تكشف عن وجودهم. ثم وصلت المجموعة إلى جوار كسّارة حجارة، وفيها شخص يبدو أنه صاحبها، فاقترب منه عناصر الاستكشاف وعلى رأسهم أبو عائشة، وسألوه عن الطريق، وطمأنوه إلى أن نيّتهم المرور فقط نحو منطقة أخرى، ودعاهم إلى شرب الشاي فشكروه وتابعوا طريقهم، طالبين منه الدخول إلى منزله وإغلاق الباب ببساطة واطمئنان كبيرين. ولكن بعد ابتعادهم مسافة مئة متر، سمعوا صراخ الرجل وهو يبلغ سكان المنطقة عن وجود المجموعة، وبدأ إطلاق النار بكثافة في اتجاههم من السكان المدنيين وبأسلحة مختلفة العيارات، وصاروا يسمعون أزيز الرصاص فوق رؤوسهم، وشرعوا في الركض نحو أحد البساتين.

عندها قرّر أبو عائشة، بعد انكشاف وجودهم في المنطقة وإطلاق السكان المدنيين النيران عليهم، عدم متابعة الطريق والدخول إلى أقرب منزل وإبلاغ الجيش بمكان وجودهم ووجود الأسيرين معهم، على أمل أن يدخل الجيش ويفصل بين المجموعة ومطلقي النار من المدنيين، متوقعاً بسذاجة متابعة التفاوض مع الجيش لإيجاد حلّ لوضع المجموعة الفارّة.

ولدى وصولهم إلى أطراف قرية كفرحبّو قرع بعضهم باب أول بيت صادفهم، وكانت مجموعة الاستطلاع هي التي وصلت أولاً، فأطلّ أحد السكان من النافذة، وشاهدهم يحملون السلاح، فقال له أحدهم: «لو سمحت افتح لنا الباب نحن نتعرض لإطلاق النار، ولن نؤذيك، ولكننا نريد الاتصال بالجيش ومعنا ضابط من الجيش»، وكان رد المواطن إطلاق النار، فقتل رجلين من المجموعة، فردّ الآخرون بإطلاق النار، وتمكن المواطن من الفرار هارباً من نافذة خلفية. ومن

منزل آخر، وهو منزل شقيق الرجل الأول، تم إلقاء قنبلة يدوية على المجموعة، وألقى دليل المجموعة بنفسه على القنبلة لحماية عنصر آخر، فقُتل الدليل فوراً، وأصيب الآخر ودخل المنزل وهو ينزف.

بقي المنزل الذي دخلته عناصر المجموعة كلّها يتعرّض لإطلاق النار بالأسلحة الفردية والقنابل مدة تزيد على الساعة، وحاول أحدهم الاتصال بقيادة الجيش لكي يطلب إليها التدخّل لوقف إطلاق النار وتشكيل لجنة تفاوض، واتصل الضابط الأسير بقيادة العمليات التي ردّت بأن الدوريات العسكرية ستصل خلال نصف ساعة، ولكن التعزيزات العسكرية وصلت بعد ساعة ونصف، من فجر الاثنين. وحوالى الساعة السادسة والنصف كانت الدبابات قد بدأت بالوصول.

صعد عبدالله هزيم إلى سطح المنزل وبدأ بالردّ على مصادر إطلاق النار، وكان شاب آخر يردّ على مصادر النيران من خلف نافذة إلا أنه تعرّض لطلقة في صدره. ومع وصول آليات الجيش بدأ إطلاق النار بغزارة ولكن ليس على المنزل، ولم يفهم أعضاء المجموعة ما الذي يحصل، وبعد دقائق اكتشفوا عملية هجوم مباشرة على المنزل الذي يحتمون به، ووصلت ملالّة إلى طرف المنزل ونزل منها جنود محاولين الاقتحام فردّ عبدالله هزيم من سطح المنزل حيث يتمركز بإطلاق نار مباشر.

انسحبت الملالّة الأولى، ثم عاودت الهجوم مجدداً، وكان أحمد اليوسف يساعد هزيم ويمدّه بالذخيرة حتى لا يغادر موقعه، وصار اليوسف يجمع السلاح والذخيرة من الشبان ويعطيها لهزيم، خصوصاً أن الشبان لم يقاتلوا فعلياً. وبعد نصف ساعة عاودت الملالات الهجوم، وسأل كنج الضابط: «ما مشكلة صديقك؟ طلبنا منه وقف إطلاق النار والتفاوض» فعاود الضابط الاتصال بزميله في غرفة العمليات، فأجابه كالتالي: «الموضوع لم يعد بيدي اتصل بغرفة العمليات». وكان أحد أعضاء المجموعة يستمع إلى المحادثة على السبيكرفون.

وقرابة الساعة التاسعة صباحاً أحرق هزيم ملالّة كانت تحاول الاقتراب، وتواصلت عمليات إطلاق النار في اتجاه المنزل من أسلحة رشاشة من عيار

١٢,٧ ، وتعرّض المنزل لقذيفتين، وانفتح على أثرهما الجدار الأمامي. واقترب كنج من النداف وقال له: «يبدو أن جماعتك سيهدمون المنزل عليّ وعليك معاً» فاتصل النداف بغرفة العمليات وقال لهم «إن المجموعة ليست لديها أية نية في القتال، وهم يريدون التفاوض ويبدون استعدادهم لإطلاق سراحنا الرقيب وأنا، فقط وفروا لهم طريقاً آمناً». وأتاه الجواب «سنرى سنرى».

وعندها بدأ كلّ من الشبّان بالاتصال بأهله ووداعهم، وأعطى كنج الهاتف إلى الندّاف لكي يتصل بأهله، وأخبر الضابط زوجته بأنه اتصل بغرفة العمليات وأطلعها على نتائج الاتصال.

وبعد حوالى ربع ساعة شعر شاب كان يقف قرب الندّاف بأن ثمة حائطاً يطير، وبعد ساعات استفاق الشاب، وكان السكون يسود المنطقة ولا أثر لصوت طلقة أو لصوت حي، ولم يعثر على الندّاف الذي كان تركه خلف العمود الأسمنتي، وكان العمود والجدران مدمّرة بشكل شبه كامل، وتمكن الشاب من الفرار بعد أن تأكد له مقتل الندّاف بالقصف، وبدا أن أحداً من الشبّان لم ينج، ومن تمكّن من الخروج من المنزل اتجه نحو الحقول القريبة. ويروي أحد الناجين أنه شاهد كنج يخرج سالماً ويختبئ في أحد الحقول، وأنه راح يخاطب نفسه، ويبدو ساخطاً على ما حصل، وعلى فقدان المجموعة التي كانت برفقته، قبل أن يهجم في اتجاه مجموعات الجيش مطلقاً النار ويموت بطلقة من عيار ١٢,٧ ملم.

ليلاً بدأت الدبّابات تمشّط المنطقة، وكان الهاربون يسمعون طلقات نارية متفرقة. ونهار الأربعاء وقع أحد الفارّين بيد مجموعة من جهاز الاستقصاء التابع لقوى الأمن الداخلي، بعد أن تمكن من القفز من المنزل المحاصر في قرية كفرحبّو وزحف مسافة طويلة، وهو المصاب في ساقيه، حتى وصل إلى مرأب سيارات في قرية مجاورة حيث اعتقله عناصر الاستقصاء الذين كانوا يتسابقون مع قوات الجيش اللبناني لأسر أفراد المجموعة، واصطحبوه في سيارة مدنية.

هكذا كانت خاتمة مجموعة من الشبّان حاولوا على طريقتهم العمل في المقاومة وتم القضاء عليهم قبل أن يصلوا إلى أي مكان أبعد من قراهم.

ويتحدث من يعرف عبد الله هزيم وخبره في المعتقلات السورية قائلاً إن «عبدالله هزيم قاد فصيلاً في «التوحيد»، وسُجن مرتين في سوريا، وبرز لديه مَيل إلى السلفية الجهادية في مراحل أخيرة من عمله قبل أن تنفجر معارك الضنيّة. ولم تكن مجموعة الضنيّة تعدّ لمعركة ولكن عبدالله هو من ورّطها بالمعركة، إذ كان يقوم ببعض الأعمال الأمنية من خارج سياق تنظيم بسّام كنج، واتهم بعمليات تفجير لكنائس».

وكان بسّام كنج يعمل في إطار أبعد من طرابلس، ويمتد إلى داخل مجموعات إسلامية أصولية في سوريا، وتم القبض عليهم لاحقاً، ولم يعلن عنهم. وكان اسم هذه المجموعات السورية «جند الشام»[(١٤)]، وقامت سوريا حينذاك بعملية عزل فلم تعلن عن المجموعة ومنعت عبور الحدود الشمالية وراقبت هذه الحدود بشدة طوال مرحلة الاشتباكات مع مجموعة الضنيّة اللبنانية. حتى خالد الميناوي[(١٥)]، وهو أحد الأسماء المهمة بين المجموعات السلفية، تم اعتقاله في سوريا وليس في لبنان وتم تسليمه لاحقاً إلى السلطات اللبنانية. وفي ٥ أيار/مايو ٢٠٠٣ أصدرت المحكمة العسكرية الدائمة حكمها بحق مجموعة أخرى متهمة بالانتماء إلى «القاعدة». وكانت المجموعة اعترفت بعيد اعتقالها في فترة قريبة من اعتقال مجموعة الضنيّة بأنها كانت تخطط لإنشاء شبكة دعم للقاعدة في لبنان وإيواء أعضاء من التنظيم في لبنان. وقضى الحكم بإنزال عقوبة الأشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات بخالد عمر ميناوي. كما صدرت أحكام بعدد آخر من المعتقلين والفارّين.

واكتشف بعض السجناء من الجهاديين اللبنانيين في أحد السجون السورية في

---

(١٤) وهم غير المجموعة المعروفة بالاسم نفسه في مخيم عين الحلوة.

(١٥) خالد عمر الميناوي، تعرّف عنه المواقع السلفية بأنه أحد القادة للمجموعات الصغيرة ومنها «مجموعة خالد الميناوي ومحمد سلطان ومحمد الجمعة وحسين الخلف المسؤولين عن أحداث الضنيّة في نواحي طرابلس وأحداث الدكوانة في لبنان»، بحسب أحد المواقع السلفية على الأنترنت. وقد حكم عليه في لبنان في الخامس من أيار/مايو من العام ٢٠٠٣، إلى جانب زميله السعودي إيهاب دفع، وكانت تلك من المرات الأولى التي يحكم فيها على سعودي في لبنان بتهمة الانتماء إلى تنظيم القاعدة.

العام ٢٠٠٠ أن هناك معتقلاً إسلامياً سورياً يرسل إليهم بأنه من جند الشام واسمه منير حاووط، وهو قيد الاعتقال في السجن نفسه، وأنه اعتقل في إطار عملية الضنّية ولكن في الجانب السوري، ليفهموا لاحقاً بأن عملية الضنّية كانت الجزء المكشوف من مطاردة القاعدة في المنطقة، أما الجزء الخفيّ فكان يتم في سوريا. وحكم على منير حاووط في العام ٢٠٠٠ بالسجن ١٢ سنة وذلك من قِبل محكمة ميدانية في حلب. (بينما لم يحكم على شاكر العبسي إلا بالسجن ٣ أعوام على سبيل المثال). كما التقى المعتقلون اللبنانيون بالمئات من أعضاء المجموعات السلفية الذين تمّ تصنيفهم بأنهم من مجموعات الهجرة والتكفير السورية.

ستمرّ أعوام من المحاكمات ومن سجن أفراد شاركوا في معارك الضنّية، ولن تهدأ الخواطر في شمال لبنان خاصة، حيث سيتمّ استحضار ما تعرّض له شبّان مجموعة الضنّية من تعذيب واعتقالات وتصفية مباشرة في الميدان، مع كل حملة مداهمات ستشنّها القوى الأمنية ضد مجموعات إسلامية. وستصبح قصة الضنّية هي الحفرة الكبيرة التي لا تني تتوسّع كل مرة يبحث فيها شبان مسلمون في موضوع الجهاد. وسيتذكرون ما جرى وما كان من أمر بسّام كنج، ولن يكون غريباً أن يتحوّل إلى ما يشبه الشخصية الأسطورية بين المراهقين الحالمين بالانضمام إلى الجهاد المقدّس. وهو ما سيظهر لاحقاً في الأعوام التاليات وخاصة في دعم الجهاد في العراق وتأييد «فتح الإسلام».

المدخل إلى عين الحلوة عبر المجموعات الجهادية

قبل ١٥ عاماً من مقتل بسّام كنج في جرود منطقة الضنّية الوعرة، أي في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، كانت الدعاية الأميركية والعربية الرسمية عامة تعمل على حث الجميع على الانخراط في الجهاد الأفغاني. وبدأ فريق الدعاية المحترف بالتلاعب بالأحاديث النبويّة «الرايات السود تأتي من الشرق من خوزستان».

وكان مخيم عين الحلوة في صيدا غارقاً في حربين، الأولى: حرب المخيّمات (١٩٨٥-١٩٨٨) والثانية: حرب أمل وحزب الله (١٩٨٩-١٩٩١)،

وفي هذه الظروف ظهرت مجموعات كعصبة الأنصار، وأنصار الله، وعاودت الحركة الإسلامية المجاهدة لعب دورها في المخيّم.

يعيش في مخيّم عين الحلوة ٨٠ ألف لاجئ فلسطيني ومواطن لبناني، وهو أكبر مخيّمات لبنان سكانياً ويشغل مساحة رسمية لا تتجاوز كليومتراً مربعاً واحداً. هناك يمكن رصد ثلاث حركات جهادية رئيسية، هي «عُصبة الأنصار»، و«أنصار الله»، و«الحركة الإسلامية المجاهدة». ولكن هذا المخيّم يضم أيضاً كل الأطراف الفلسطينية، وغيرها من المجموعات المقاتلة، التي لم تجد بدّاً من الاختفاء في هامش المخيمات الفلسطينية المغلوبة على أمرها.

وكان العديد من المقاتلين والقياديين في حركة التوحيد الإسلامي قد انتقلوا في الثمانينيات (١٩٨٦- ١٩٩٠) إلى مخيم عين الحلوة، حيث كان الطرف الأقوى آنذاك حركة فتح بقيادة ياسر عرفات، وأمضوا فترات طويلة من اللجوء هناك، وقد عمد عرفات إلى تسليم بعضهم إلى الجيش السوري لهذا السبب أو ذاك. وحين انقضّت عناصر لبنانية وفلسطينية مسلّحة على مواقع المخابرات السورية في منطقة الرميلة شمال مدينة صيدا في عملية مباغتة، وقتلت من قتلت من عناصر الجيش والمخابرات السورية في العام ١٩٨٨، ضغط الجيش السوري على أبو عمار فقرّر التنصل من مسؤولية العملية وتسليم بعض قياديي التوحيد موجهاً إليهم التهمة بـ«اختراق قوات منظمة التحرير» وطارداً إياهم من جنّة اللجوء في مخيّم عين الحلوة، بحسب ما يقول أحد المشاركين الرئيسيين في تلك العملية.

وخلال حرب المخيمات بين حركة أمل المدعومة من سوريا من جهة، والفصائل الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات من جهة ثانية، وجدت فكرة «عُصبة الأنصار»[١٦] في العام ١٩٨٦، خصوصاً مع إطلاق النار من منطقة مغدوشة قنصاً

---

(١٦) أسّس الشيخ هشام الشريدي عصبة الأنصار، وتم اغتياله خريف العام ١٩٩١ برصاص مجموعة مسلحة من حركة فتح تابعة لسلطان أبو العينين وأمين كايد اللذين اتهما بالوقوف وراء عملية الاغتيال. ومنذ ذلك الوقت تولّى إمارة عصبة الأنصار عبد الكريم السعدي الملقب بأبي محجن، المطلوب للدولة اللبنانية على خلفية اتهامه بالقيام وعصبة الأنصار بعمليات استهدفت الأمن =

على المخيم، وقيام هشام شريدي مؤسس العصبة بعملية اقتحام لبلدة مغدوشة[17]. بعد ذلك تمكن هذا الرجل الذي اغتيل لاحقاً من إيجاد حالة تعاون بين كل المجموعات الجهادية والإسلامية في مخيّم عين الحلوة، وفي محيطه وصولاً إلى صيدا. «وبعدها أصبح هناك خلافات يومية بين العصبة وحركة فتح، ومع شخصيات مثل أمين كايد الذي تمّت تصفيته، كما اغتالت العصبة بعض العملاء في صيدا ومنهم هشام بعلبكي من الشرطة الأمنية في صيدا[18]، وهذا ما أعطاهم حيثية وهيبة. وكان تشكلهم داخلياً جداً، وربما كانت المجموعة التي اغتالت نزار الحلبي قد تدرّبت في عين الحلوة مع عصبة الأنصار» كما يقول الشيخ ماهر حمّود.

كان الشيخ هشام الشريدي أشعرياً، وتنقّل بين الحركة الإسلامية المجاهدة، وحزب التحرير، والجماعة الإسلامية، وبقي أشعرياً حتى وفاته. وكان أحمد السعدي (أبو محجن) أشعرياً أيضاً علماً أن العقيدة السائدة عند الفلسطينيين هي الأشعرية والحنفية والشافعية، ويعتبر شقيق أبو محجن (أبو طارق السعدي) من المذهب نفسه. وهناك الشيخ أبو شريف عقل الذي ينتمي إلى العُصبة ويطل على الفرق السلفية داخل المخيم، ومشربه الفكري سلفيّ، وصار للمنحى السلفي جمهور بين الفلسطينيين. وكان يتلقى الدعم من الخارج بصفته سلفياً، إلا أن ما يعرف عنه أنه شخص عقلاني وواقعي، بحسب ما يقول مسؤول إحدى القوى الجهادية في المخيم.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشيخ هشام الشريدي كان يمتلك فكراً خاصاً

= القومي اللبناني وبقتل أربعة قضاة في صيدا وبالمشاركة في اغتيال الشيخ نزار الحلبي. وقد رحل السعدي إلى العراق، حيث أفيد عن انضمامه إلى أبو مصعب الزرقاوي والقاعدة في العراق، وتسلّم مسؤولية عصبة الأنصار شقيق أبو محجن، أبو طارق السعدي، وأبو شريف عقل.

(١٧) تقع قرية مغدوشة في أعلى جبل يطل على مخيم عين الحلوة وصيدا، وهي قرية مسيحية تم تهجير أهلها عقب الانسحاب الإسرائيلي من صيدا ومعظم مناطق الجنوب في العام ١٩٨٥.

(١٨) هشام بعلبكي، أحد الضباط في الشرطة الأمنية في صيدا التي لعبت دور الشرطة والجيش في آن واحد خلال الحرب الأهلية، وكانت تعتبر من القوى الوطنية، إلا أن العديد من عناصرها كان قد تعامل مع الجيش الإسرائيلي خلال وجوده في صيدا بين العامين ١٩٨٢- ١٩٨٥.

على المستوى الإسلامي، ويعتقد أن أبو عمار خائن وأن لا حلّ إلا بالإسلام. وبعد مقتل الشريدي اتخذت الحركة منحى مختلفاً، وكان هناك عدد من المرشحين لاستلام زمام الحركة بعد هشام إلا أنهم لم يظهروا، وبعد مقتل الشيخ نزار الحلبي برز أبو محجن، الذي تفيد بعض المعلومات غير المؤكدة بأن له صلة غير مباشرة بمقتل رئيس جمعية المشاريع. وتحوّلت عصبة الأنصار وعين الحلوة إلى مأوى لكل الجهاديين اللبنانيين، كان يقصده جهاديون من الدول العربية ويبقون فترة في المخيم ثم يغادرون البلاد إلى جهات مختلفة، وأكدت هذه المعلومات تحقيقات مع أحد المعتقلين في شبكة الماكدونالد، كما أشارت التحقيقات مع أحمد الميقاتي وغيره إلى المعطيات نفسها.

وشكلت صيدا موئلاً للعديد من القوى الإسلامية في النصف الثاني من ثمانينيات القرن الماضي، وخصوصاً للفارين من الشمال الذين استخدموا مناطق صيدا للتدريب وللعمل ضد الوجود السوري العسكري في لبنان. ولم تعمل الحركة الجهادية ضد الاحتلال الإسرائيلي «وكان التبرير بأن هذه الأنظمة التي تقمع شعوبها هي ما يمنع الشعوب العربية والإسلامية من تحرير فلسطين، ولا بد من إزاحة الأنظمة وتغييرها قبل التخلص من المشكلة الإسرائيلية» كما يقول أحد الجهاديين الشماليين الذي أقام عدة أعوام في عين الحلوة.

في تلك المرحلة كانت الحركة السلفية عبارة عن مجموعة كبيرة في الشمال ولكنها ليست حالة شعبية، وكانت مرتبطة بسالم الشهال. وحتى ظهور عصبة الأنصار الأشعرية على المستوى المذهبي لم يكن للسلفيين وجود في مخيّم عين الحلوة، وكانت العصبة في مرحلة ما جزءاً من حزب التحرير الإسلامي قبل أن ينشق عنه الشيخ هشام شريدي، وكان انشقاقه نتيجة خلاف مع فتح حول أولوية التسوية، فعزل نفسه في حالة خاصة هي عصبة الأنصار التي بدأت كحركة صغيرة معزولة. بعدها لمع اسم العصبة إثر اتهامها بالمشاركة في اغتيال الشيخ نزار الحلبي، وبقضية اغتيال القضاة الأربعة في صيدا، والتي ما لبثت أن ألصقت بأحمد السعدي الذي غادر لبنان - بحسب المعلومات المتوافرة - للالتحاق بأمير تنظيم القاعدة في العراق أبو مصعب الزرقاوي، قبل مقتل الأخير وانقطاع أخبار الأول.

أما الحركة الإسلامية المجاهدة فقد تصدّت في العام ١٩٨٢ لمحاولات القوات الإسرائيلية اقتحام المخيم أثناء الاجتياح، ومن شهدائها الشيخ أبو بكر الحافي. وتدلّ عمليات الحركة وإن كانت متواضعة على إصرارها على العمل الجهادي. ومنذ تلك اللحظة بدأ إعدادها للعمل الفدائي خلف خطوط القتال وقامت بتصفية العديد من العملاء في عين الحلوة وصيدا، إضافة إلى تنفيذ عمليات ضد الاحتلال، وأسّست العشرات من المؤسسات ذات الطبيعة الدينية والاجتماعية والتعليمية.

وتعتبر الحركة أن الإسلام يأتي قبل الحدود، ويوحّد الأمة خلف الخليفة ويدافع عن الأرض، وهو عادل مع الأقلّيات، وهو ما نرى مثاله في الكتب والتاريخ، وأن الجهاد واجب لإقامة الحكم في بلاد المسلمين حتى يسود شرع الله ويحق العدل بين الناس.

وتقول الحركة الإسلامية المجاهدة عن نفسها في مراسلة رسمية مع الكاتب إنها انطلقت في العام ١٩٧٣ من المخيّمات الفلسطينية في لبنان بفكر وسطي معتدل تحت شعار «الدعوة للجهاد»، متخلّية عن علاقتها بمن أتوا من الأردن والضفّة بعد أيلول/ سبتمر الأسود العام ١٩٧٠. واعتمدت الحركة «الجهاد من أجل تجميع جهود وطاقات الأمة العربية والإسلامية لمواجهة الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين».

وقدّمت الحركة في مواجهتها للاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٢ عدداً من قادتها، ومنهم الشهداء فوزي آغا، ومنير الحافي، وعبد الكريم سمارة.

وفي العام ١٩٨٥، وبعد الانسحاب الإسرائيلي من منطقة صيدا في اتجاه الجنوب، «سعت الحركة من أجل إقامة مؤسّسات دينية وتربوية ودعوية وثقافية واجتماعية، تحتضن الأجيال الناشئة من الشعب الفلسطيني وترعاه وتوجّهه دينياً وثقافياً وعلمياً وأخلاقياً، وتؤكد في وجدانه أن العودة إلى فلسطين لها طريق واحد هو طريق الجهاد».

وتضيف المراسلة الرسمية أنه عند قيام «حرب الفتنة» بين المخيمات والجوار (بين «أمل» والمخيمات الفلسطينية) «كان للحركة الإسلامية المجاهدة دور في

السعي إلى وأد الفتنة، إذ تعاونت مع المخلصين في كل المبادرات التي عملت على إطفاء هذه المواجهة، وخاصة مع مبادرة الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي جنّدت طاقاتها السياسية والدبلوماسية في هذا السبيل، وتحرّك سماحة السيد عباس الموسوي مع ثلّة من علماء السنّة والشيعة من تجمّع العلماء المسلمين (الشيخ ماهر حمّود، الشيخ محرّم عارفي، الشيخ عبد الله حلاق، الشيخ غازي حنينة، السيد عيسى طباطبائي). وبعد جهود مضنية من الاتصالات واللقاءات مع قيادة حركة أمل والقيادات الفلسطينية، تحوّل خلالها منزل الشيخ ماهر حمّود في صيدا إلى خلية سياسية، وعملت السفارة الإيرانية في بيروت على تجنيد كل طاقاتها واتصالاتها وعلاقاتها في الساحتين الشيعية والسنّية من أجل إنجاح جهود العلماء، وفعلاً تكللت المبادرة بالنجاح وتوقفت حرب الفتنة التي كان يراد لها أن تزداد أواراً».

وكان للحركة الإسلامية المجاهدة «دور في السعي الحثيث والمستمر في تقريب وجهات النظر بين قيادة عصبة الأنصار وقيادة حركة فتح، من أجل وضع حد للخلافات السياسية التي تحوّلت إلى أبعاد أمنية بين الطرفين، فكانت بين الحين والآخر تشكّل خلية أزمة من الشيخ جمال خطّاب (مسؤول الحركة الإسلامية المجاهدة) والشيخ ماهر حمّود واللجنة الشعبية في عين الحلوة ومعظم فعاليات صيدا السياسية، من أجل إيجاد الحلول الممكنة لكل المشكلات الطارئة. وقد نجحت هذه الجهود في تقريب وجهات النظر إلى درجة جلوس قيادات الطرفين إلى طاولة الحوار، ومحاصرة أي إشكال على الأرض، ولا ننسَ من ذلك مساهمة كل المنظمات الفلسطينية في الضغط السياسي على الطرفين في اتجاه تحصين الوضع الأمني والسياسي في المخيم ومنطقة صيدا».

أما تنظيم «أنصار الله» فخلال حرب إقليم التفاح بين أمل وحزب الله انشق جمال سليمان، قائد كتيبة شهداء عين الحلوة، عن حركة فتح، وكان قريباً من الإسلاميين في المخيّم وبخاصة الشيخ هشام شريدي، مؤسّس عصبة الأنصار، ومن الجماعة الإسلامية، كما كان على صلة بحزب الله. وخلفية الانشقاق انحياز سليمان إلى حزب الله، بينما وقفت فتح إلى جانب حركة أمل، ووقع إشكال بين

فتح وسليمان دفعه إلى التخلّي عن فتح، وتشكيل حالة أطلق عليها اسم «أنصار الله»، وتصنّف الحالة نفسها بأنها «جزء من حزب الله وخاصة بما يتعلق بجانب المقاومة».

وتُعتبر «أنصار الله» جزءاً من جهاز المقاومة في حزب الله، تمويلاً وإشرافاً، منذ نشأتها حتى اليوم. وكان لها نوبات في المرابطة على الحدود، وفي حرب تموز/ يوليو العام ٢٠٠٦ التحقت مجموعة من أنصار الله بالقوى المقاتلة في المقاومة الإسلامية في جنوب لبنان. أما على مستوى التحالفات السياسية والعلاقات التنظيمية الداخلية فلأنصار الله استقلالية تامة.

خرج سليمان من عين الحلوة إثر اشتباكه مع فتح، وتمركز في منطقة وادي الزينة ومعه كوادره الرئيسية التي أخلت المخيم لغاية العام ١٩٩٣، وعاد بعدها إلى المخيّم من دون اتفاقات مع أية جهة. وبعد أعوام طويلة، في العام ٢٠٠٥، بدأت حركة أنصار الله بما تدعوه «الانطلاقة الثانية» فجرى ضمّ عناصر جديدة وتشكيل مجلس شورى يضم الأمين العام سليمان، ونائبه الحاج محمود، والمسؤول الإعلامي والتنظيمي والسياسي أبو أيوب (أسامة عباس)، وتم تشكيل المكتب العسكري الذي يرأسه الحاج ماهر عويد.

وتتركّز الحركة في عين الحلوة، إلا أنها تملك امتدادات في مخيمات أخرى، مثل مخيمات صور وغيرها، ولديها مكاتب في مخيم برج البراجنة وشاتيلا، وتقوم بتقديمات اجتماعية وهي ترتبط في هذا المجال أيضاً بمؤسّسات حزب الله الاجتماعية، كمؤسّسة الشهيد والإمداد. وفي المسيرة التي نظمها أنصار الله لمناسبة يوم القدس العام ٢٠٠٦ شارك ما يقارب ١٠٠٠ من الجنود والمحازبين والأشبال.

وكانت الحركة تحاول التمدد إلى كل المخيمات الفلسطينية في لبنان، خصوصاً في الشمال إلا أن الأحداث في مخيّم نهر البارد سبقتها. وتقدّر الحركة أنها بحاجة إلى أربعة أو خمسة أعوام لتكريس انتشار واسع في المخيّمات، وهي تعمل حصراً في المخيمات الفلسطينية وبين الفلسطينيين.

يجمع الحركة مع حزب الله مقاومة إسرائيل، كما أن الحركة تتوافق مع

الخلفية التي يقاوم بها حزب الله إسرائيل، أي الخلفية الفكرية الإسلامية، فضلاً عن أنها تلتزم المبدأ الشرعي بمناصرة طرف إسلامي ضد أطراف غير إسلامية.

ولم تشهد حركة أنصار الله نقاشات نظرية حول «أي إسلام تنتمي إليه الجماعة»، على اعتبار أن الإسلام واحد، وطبيعة العلاقات والساحة والفترة الزمنيّة هي ما يحدد الموقف. ومنطلقات الحركة هي تأهيل العناصر لمواجهة الكيان الصهيوني، وليس لديها علاقات تناقض مع أطراف محلية.

وتقف الحركة ضد تفتيت الجهود الإسلامية في أي اتجاه، وهي لا تؤيد الذهاب للقتال ضد الاحتلال الأميركي في العراق، أو في أفغانستان، مقابل إصرارها على التفرّغ استعداداً للمواجهة في فلسطين. حيث المعركة الأساسية مع إسرائيل حصراً.

ولكن ثمة حادثة تعرّضت لها حركة أنصار الله، حين تقرّب ابن جمال سليمان، حسن سليمان (من مواليد العام ١٩٨٥) من الجو السلفي في مخيّم عين الحلوة، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وذهب مع شاب جار له يدعى محمد زيدان، من دون علم والده، إلى العراق ثم بقي هناك لقتال القوات الأميركية ضمن المقاومة العراقية. وذهب الوالد ومعه أحد كوادر الحركة إلى سوريا بحثاً عمّن يعرفون مسالك الذهاب إلى العراق والعودة منه، في محاولة لاستعادة ابنه، وعندما تمكن الوالد من الاتصال هاتفياً بابنه قال له: «عد إلى لبنان، فمعركتنا في فلسطين وليس في العراق». فأجاب الشاب: «ضغطت عليك مدّة عامين لإرسالي إلى الحدود للقيام بعملية ضد إسرائيل فلم توافق». ووعده والده بإرساله لمقاتلة إسرائيل في حال عودته، إلا أن الشاب نفّذ عملية استشهادية مفجّراً نفسه بصهريج وقود ضمن قافلة للقوات الأميركية في العراق عام ٢٠٠٣.

وفي العام ٢٠٠٣ أيضاً اتهمت أنصار الله بإطلاق صواريخ على مبنى تلفزيون المستقبل في بيروت بعد أن صدر بيان موقع باسمها يتبنّى العملية، إلا أن الحركة أسرعت إلى نفي مسؤوليتها أو علاقتها بالعمل. كما استبعد الرئيس رفيق الحريري حينذاك أية علاقة لأطراف إسلامية بالعملية.

وفي حين تتبنّى حركة أنصار الله «الإسلام المبسط» كما يقول أسامة عباس، فهي تشك في أن إرسال ابن جمال سليمان إلى العراق كان بمثابة اختراق للحركة. والحركة التي يكفيها الالتزام بالدين والجهاد ضد إسرائيل، يمكن أن تصل في إجراءات الزجر ضد من يتطرف بأفكاره من عناصرها إلى حدود الفصل من التنظيم. وهي تعتبر أن الفروق بين المجموعات الإسلامية مفتعلة لأسباب سياسية وتنظيمية.

التسعينيات: زمن الجهاديين الصعب

كانت الحرب الأهلية قد انتهت في البلاد عندما دخل الجيش اللبناني إلى مدينة صيدا في الأول من تموز/يوليو العام ١٩٩١، في سياق خطة الانتشار في المناطق اللبنانية كافة. ودخلت وحدات من الجيش اللبناني إلى معسكر الجماعة الإسلامية في محلّة الشواليق شرق صيدا حيث سقط قتيلان من «قوات الفجر» حاولا اعتراض دخول الجيش إلى المعسكر «وكان ثمة خطأ فادح من قِبل الجماعة من حيث القرار الإداري، واعتبارها أن هذا الموقع هو موقع للمقاومة من دون القيام بأي اتصال سابق في هذا الشأن، وهو ما أدّى إلى ضربهم» كما يقول أحد رجال الدين المواكبين لسير الأحداث في تلك الفترة.

واشتبك الجيش اللبناني مع حركة فتح على أطراف مخيّم عين الحلوة. وهكذا دخل المخيّم عهد السلم الأهلي بمعركة «وكان هناك غباء في قيادة فتح حين قررت القيام بمعركة صغيرة لا تحقق فيها نصراً ولا ترمي سلاحها، وكان ذلك أسوأ الخيارات، وقلنا لمسؤولي فتح آنذاك: إذا كنتم لا تقومون بمعركة فلِمَ لا تسلّمون سلاحكم إلى الجيش الذي دخل ليوحّد البلاد؟ وكان الجواب: لم يسبق لنا أن سلّمنا سلاحنا دون قتال. وكان أن سلّموا سلاحهم بعد معركة قصيرة، وهو ما دفع بالقوى الأمنية إلى التجرّؤ علينا» كما يرى الشيخ ماهر حمّود.

لكنّ مخيّم عين الحلوة سيكون له شأن في ما نحن بصدده من تأريخ

للحركات الجهادية في لبنان، وسيشغل الإعلام لأعوام طويلة وبعض ما سيُنشر حوله سيكون أقرب إلى الخيال.

وذلك أن هذا المخيّم كان قد أصبح ملاذاً للعديد من المجموعات التي تبنّت الفكر الجهادي بتأثير من الحركات التي قامت في الثمانينيات في الشيشان والبوسنة وأفغانستان «فالعالم الإسلامي يتأثر بعضه ببعض» كما يقول الشيخ أسامة شهاب، «وزاد هذا التأثير في التسعينيات خاصة بعد أن لمع اسم أسامة بن لادن كمسلم غيور يطالب بتحرّر بلاد المسلمين، وبعدها ظهرت القاعدة. ولكنْ كان ثمة تعارض بين مفهوم الجهاد لدى السلفيين والإخوان المسلمين على سبيل المثال: فهؤلاء يطالبون بالجهاد ضد إسرائيل بغضّ النظر عن الحكومات، أما القاعدة فتقول بالجهاد في الداخل قبل الانطلاق إلى الخارج. وفي تلك المرحلة حين اتضح الفكر الجهادي للقاعدة بدأت بإنشاء الخلايا الخارجية لها».

ويضيف شهاب أن «الصف السلفي انشقّ بعد عمليات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ إذ كان هناك من لا يوافق على ذلك لأسباب شرعية ونحن منهم»، وأخذ العديد من المجموعات استقلاله عن القاعدة وشكّلت عين الحلوة موئلاً لتلك المجموعات. على أن ذلك لم يؤدّ إلى إفراز قوى مقاومة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي على الرغم من قرب المخيّم من الحدود الدولية ومن المناطق المحتلة[1]، وفي حين يجري إعداد وتدريب مجموعات قتالية. «ولا معنى لأي كلام عن منعهم عن الجهاد من قبل حزب الله، خصوصاً أنهم حالات غير منضبطة، ولكنهم اكتفوا بالعلاقات السياسية الداخلية» كما يرى أحد علماء الدين المتصلين بالمجموعات المقاومة.

ويرى رجل دين شمالي «أن المناخ الشمالي لم يكن مع رفيق الحريري، حتى بعد اغتياله، لولا وقوع حزب الله وأمل في الكثير من الأخطاء الناتجة من محاولة التعبير عن الانتصار (الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠)، مما حرّك الأجواء

(١) تعتبر صيدا ومخيم عين الحلوة قريبين من المناطق المحتلة خاصة لناحية جزّين وبعض مناطق النبطية وذلك قبل الانسحاب الإسرائيلي من معظم الأراضي اللبناني في ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٠.

الشمالية ضد الشيعة وضد حسن نصر الله، ولم يؤثر التحالف الرباعي في تلطيف الأجواء المذهبية. وإذا كان الملعب الرئيسي للوهّابيين هو العداء للشيعة ولحزب الله فإن المشكلة التي واجهها النظام السعودي في هذه الحالة، والتي نمت أو جرت تنميتها، هي أن شريكهم الطبيعي في هذه المعادلة هو الشيخ أسامة بن لادن واللادنية».

وقبل الوصول إلى مرحلة مقتل الرئيس رفيق الحريري، كانت قد مرّت أعوام من التعقيدات والإشكاليات التي انفجر خلالها كل شيء، وكانت الساحة السنّية التي تلقت ضربات عدّة قد هيّأت الأرضية للانفجار، ولا سيّما ضد «السوري العلوي المعادي للسنّة» وذلك بمشاركة كبيرة من أجهزة أمنية، بينما كانت مشاركة الشخصيات السياسية المحلية في هذه العملية ضئيلة بمن فيهم رفيق الحريري الذي بدت قدرته التحريضية متواضعة في هذه الخريطة المعقدة.

ولكن بعد مقتل إسماعيل الخطيب[2] في البقاع صبّ الموقف السنّي مع آل

(٢) توفّي إسماعيل الخطيب المتهم بالانتماء إلى القاعدة بعد خضوعه للتعذيب أثناء سجنه في أحد مراكز قوى الأمن اللبنانية في البقاع وأثار مقتله اضطرابات أهلية وحركات احتجاجية استمرت بضعة أسابيع في العام ٢٠٠٤. واتهم الخطيب بالمشاركة في شبكة إرهابية تحضّر لتنفيذ أعمال ضد مصالح غربية في لبنان.
ويورد تقرير لمنظمة العفو الدولية التالي: «في أيلول/سبتمبر (العام ٢٠٠٤)، قُبض على عشرات من النشطاء الإسلاميين السُنَّة دون اتباع الإجراءات القانونية الواجبة، واحتُجزوا بمعزل عن العالم الخارجي في مراكز اعتقال سرّية، واستمر احتجازهم دون السماح لهم بالاتصال بالمحامين أو بالأهل. وجاء القبض عليهم إثر مداهمات نفذتها قوات الأمن في مناطق متفرقة من البلاد، بما في ذلك الجنوب والبقاع.
واتهمهم وزير الداخلية السابق (الياس المر) بالضلوع في أنشطة «الإرهاب» وفي مخططات لتنفيذ تفجيرات في عدد من السفارات وفي قصر العدل وأماكن أخرى. وكان من بين المعتقلين أحمد سليم الميقاتي، ونبيل جلول، وجمال عبد الواحد، وشفيق البنا، وإسماعيل الخطيب.
وأُفرج عن سيدتين، هما لطيفة الخطيب، شقيقة إسماعيل الخطيب؛ وإنعام جلّول، شقيقة نبيل جلّول، دون توجيه تهم إليهما على ما يبدو، وذلك عقب احتجاجات جماهيرية على الانتهاكات الجسيمة التي شابت عمليات القبض، ثم أتت وفاة إسماعيل الخطيب في الحجز، بعد احتجازه أكثر من ١٠ أيام بمعزل عن العالم الخارجي في مكان سرّي. وعقب القبض عليه مع عشرات من النشطاء الإسلاميين السُنَّة وصفته السلطات بأنه زعيم إحدى شبكات تنظيم «القاعدة» في لبنان. =

الحريري خاصة مع اتهام السوريين بأنهم خلف مقتل الشاب على الرغم من أنه توفي أثناء اعتقاله في أحد المراكز الأمنية اللبنانية.

وشهدت الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي مواجهات بين السلفيين وجمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (الأحباش)[٣]، وانتهت بمقتل الشيخ نزار الحلبي على يد مجموعة سلفية في ٣١ آب/أغسطس ١٩٩٥، وكانت تلك عملياً الإطلالة العنيفة الأولى للحركة السلفية، إضافة إلى محاولة اغتيال مفتي طرابلس الشيخ طه الصابونجي. وكان الفكر السلفي بشكل عام يبدي انزعاجاً وتبرّماً من جمعية المشاريع على خلفية التكفير المتبادل، على أن «الأحباش» لم يشكّلوا حالة تعيق السلفيين على الرغم من محاولتهم السيطرة على الشارع السنّي الذي كان أقرب إلى الاتجاه السلفي الجهادي.

وقد جاء اغتيال الحلبي في سياق تعاون مضمر بين «عُصبة الأنصار» التي تزعّمها في ذلك الحين أحمد عبد الكريم السعدي (أبو مِحجن) والمجموعة السلفية، ونظر العديد من المجموعات بعين الرضى إلى مقتل الحلبي، بل إن أوساطاً دينية رسمية أبدت ارتياحها لعملية الاغتيال في مجالس مغلقة.

وعلى أثر اغتيال الحلبي شنّت السلطات اللبنانية حملة على السلفيين، وكان منهم داعي الإسلام الشهّال، الذي توارى عن الأنظار، وتم حل جمعيته وإغلاق

= وأفاد تقرير طبي رسمي بأنه تُوفي بأزمة قلبية وأنه كان يعاني عدة مشاكل صحية، من بينها صعوبة التنفس وتورّم الساقين ومشاكل في الكبد. وقد رفضت أسرته نتائج التقرير، وقالت أخته التي كانت معتقلةً معه إنها سمعته يصرخ من الألم. وأظهرت صور التُقطت لجثة إسماعيل الخطيب وجود إصابات جسيمة على الجسد. وقد أمرت السلطات بإجراء تحقيق في ملابسات الوفاة». (مقاطع من تقرير لمنظمة العفو الدولية العام ٢٠٠٥).

(٣) دخلت المجموعات السلفية في معركة فكرية وإعلامية واسعة مع جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية (الأحباش) منذ منتصف الثمانينيات، وهذه المجموعات تعتبر أن الأحباش ليسوا أكثر من أداة مخابراتية ومجموعة من العسس في يد المخابرات السورية. ويتهم السلفيون الأحباش بقتل الشيخ أسامة القصاص (عام ١٩٨٨ في طرابلس)، ويقول الشيخ داعي الإسلام الشهال في إحدى مقابلاته في شباط/فبراير العام ٢٠٠٧: «وكان من الأخوة الذين اغتيلوا الشيخ أسامة القصاص، وهو أحد الإخوة النشيطين في الدعوة، وأحد المؤسسين لجمعية «الجماعة والدعوة السلفية»، اغتيل على يد الأحباش الذين حاربوا الدعوة السلفية في لبنان».

عدد من المعاهد الدينية التابعة له أو لجمعيات سلفية أخرى. وقد جرت مفاوضات مع الشهّال قبل فراره طُرحت فيها فكرة أن يدخل السجن لفترة قبل أن تتم تبرئته لكنه رفض هذه المساومة.

إلا أن المنفذّين الفعليين لعملية الاغتيال الذين تم اعتقالهم لاحقاً ووقّع رئيس الحكومة رفيق الحريري قرار إعدامهم إلى جانب رئيس الجمهورية الياس الهراوي، أقروا بأنهم نفّذوا عمليتهم بمفردهم، ودون الاستعانة بأية جهة، وأكدوا أنهم نفّذوها اقتناعاً بما لدور المشاريع من تأثير سلبي على الشارع الإسلامي عامة والسلفي خاصة. وعلى الرغم من هذه الاعترافات فإن خيطاً رفيعاً يصل بين هذه المجموعة وزعيم عصبة الأنصار أحمد عبد الكريم السعدي (أبو مِحجن)، إذ تفيد معلومات متقاطعة بأن المنفّذين جرى تدريبهم في مخيّم عين الحلوة بمساعدة السعدي وعصبته، وهذا ما أشاعه السعدي نفسه بكثير من الفخر، ضامّاً هذه العملية إلى مجموعة من الإنجازات التي نفّذتها عصبة الأنصار. ولكن المجموعة السلفية الصغيرة التي اغتالت الحلبي نفّذت هجومها بشكل بسيط وفي وضح النهار في منطقة تسيطر عليها جمعية المشاريع وتعتبر أكثر المناطق السنّية ازدحاماً وهي الطريق الجديدة حيث يسكن الفقراء السنّة إجمالاً. وهو ما قد يشير إلى عدم قيام هذه المجموعة بالحسابات التي تلجأ إليها المجموعات النظامية من حيث البحث عن نقاط الضعف في جدار إجراءات الخصم الأمنية، ولعلّ ما مكّن المجموعة من الفرار حالة الارتباك الكبيرة التي عمّت الشارع الذي شهد الاغتيال.

ويرى الشيخ ماهر حمّود أن «اغتيال الحلبي جمع عوامل عدّة أهمّها ما تتحمله سوريا لناحية موقفها السلبي من الإسلاميين عامة وعدم اقتناعها بأن هناك إسلاميين وطنيين ومقاومين، ومحاولتها جعلهم مجرّد مخبرين. كما أن جمعية المشاريع أساءت كثيراً وأحرق مناصروها كتب السيد قُطب بعد إصدار قرار من الأمن العام اللبناني بمنعها. وشعر الإسلاميون بالغبن الشديد نتيجة دعم فئة يعتبرها الكثيرون فئة ضالة».

في تلك الفترة كان رفيق الحريري بعيداً عن العمل الإسلامي، «ولم ينشئ مسجداً واحداً» كما يتذكر حمّود، «ولم يشكل مدخلاً في بداية التسعينيات لدعم

القوى السلفية، وربما كان لديه قرار بدعم ما هو موجود من قوى فعلية بين السلفيين حتى لا تخرج من يده فقط».

أما من ناحية التمويل فكان «أبو صهيب»[٤] أول مموّل فعلي دخل على خط «القاعدة وتمويل مجموعاتها في لبنان» في عام ١٩٩٢ وهو الذي موّل عملية قتل الحلبي، وعمليات أبو محجن، وذهب إلى قبرص لجلب التمويل، وشارك في تركيب مجموعة في العراق بعد سقوط صدّام، وأرسل المال قُبيل تفجير الماكدونالد خلال مراسم الحج.

وتولّى العديد من الدول والجهات غير الحكومية تمويل الجمعيات السلفية والإسلامية الجهادية، وكانت الأموال تأتي من السعودية والكويت خاصة، إلى أن وقعت أحداث الضنّية، فانقطعت الموارد عن العديد من المعاهد السلفية، لكن عمليات التمويل ما لبثت أن انتعشت عقب مقتل رفيق الحريري.

في المرحلة التي سبقت تفجيرات أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة كان التيار الإسلامي قد انتهى من بقايا اليسار والقومية العربية على المستويين السياسي والفكري، وأصبحت الساحة خالية أمامه، وحمل بن لادن وحده راية الكفاح المسلّح، مما دفع بالجهاديين إلى اعتباره رمزاً.

على أن الانعكاسات القاعدية في لبنان بقيت محدودة جداً، وعاش الجهاديون ظروفاً صعبة على وجه العموم، فلم يسعهم التحرّك وسط سيطرة سورية على مقدّرات البلاد، وكانت السلطات اللبنانية تقمع بقوّة أية محاولات أمنية أو ظهور غير مرغوب فيه من المجموعات الجهادية ما حمل كثيرين منهم على الفرار إلى المخيّمات الفلسطينية أو إلى خارج البلاد، ثم لا يلبث الفارون إلى الخارج أن يعودوا وهم أفضل تدريباً وأحسن تثقيفاً وأوسع حيلة، فيعملون على إنشاء خلاياهم في الداخل.

وخططت «الجبهة الإسلامية العالمية» لإرسال مجاهدين إلى لبنان لمواجهة

(٤) هو بلال سعدالله خزعل أوقف غيابياً في ٤/٦/٢٠٠٤، وحكم غيابياً مع شقيقه ماهر في عمليات تفجير «الماكدونالدز».

الاحتلال في الجنوب. «وفي حرب تصفية الحساب عام ١٩٩٣ أرسلت القاعدة مجموعة من مجاهديها إلى لبنان ولكن لم يكتب لهم التصدّي للعدوان الإسرائيلي، ووصل بعضهم إلى بعض المخيمات الفلسطينية، حيث بقوا، وعاد الآخرون من حيث أتوا»، كما يقول أحد الكوادر السابقة في الحركة الإسلامية المجاهدة. وعملت بعض المجموعات التابعة لنهج القاعدة على إطلاق صواريخ من جنوب لبنان نحو إسرائيل وخاصة بعد عدوان تموز/ يوليو ٢٠٠٦، «ولكن هذه المحاولات كانت محلّية ولا تنتمي إلى التنظيم العالمي للقاعدة وإن كانت محاولات جدّية».

ويردّ المصدر نفسه عدم إسهام الجهاديين في قتال إسرائيل إلى سببين: «الأول أن حزب الله هو رأس الحربة في مقاتلة إسرائيل وعلاقته بالدولة اللبنانية وبسورية لا تسمح بانخراط عناصر من الجهاديين في المواجهة، كما تم اعتقال واضطهاد مجاهدين فلسطينيين من قبل الأجهزة الرسمية اللبنانية. والثاني أن المجاهدين قصّروا في لعب دورهم في تفجير الجهاد المسلّح في الجنوب، وتركوا الحالة الإسلامية محاصرة في المخيمات الفلسطينية».

وتمركز العمل الجهادي، بعد الضنّية، في صيدا وعين الحلوة، وتحوّل المخيّم إلى مأوى لكل الجهاديين، وكان يصل بعضهم من الدول العربية ويبقون فترة في المخيم ثم يغادرون البلاد إلى جهات مختلفة ، وأكدت هذه المعلومات تحقيقات مع أحد المعتقلين في شبكة الماكدونالد.

ففي نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٣ ادّعى مفوّض الحكومة اللبنانية لدى المحكمة العسكرية بالتكليف القاضي مارون زخّور على ٣٢ شخصاً[٥]، بينهم مجنّدان

(٥) المدّعى عليهم هم: المجنّد لقمان يحيى كعكة (موقوف)، المجنّد وليد محمد عمرية (موقوف)، محمد سعد الدين (موقوف)، محمود إبراهيم حمّود (موقوف)، وسام يوسف المغربي (موقوف)، عمر محمد ديب عبدالنبي (موقوف)، أحمد عبداللطيف شتلة (موقوف)، محمد علي كامل عريان (موقوف)، خالد كامل عريان (موقوف)، ماهر عبداللطيف شتلة (موقوف)، خالد أحمد عبدالقادر (موقوف)، معين الدين مصطفى ناصر (موقوف)، بلال سليمان حلّوم (فار)، شادي ظهير جبارة (فار)، خالد أحمد العلي (فار)، إبراهيم طارق الحلاق، محمد كعكة (أبو يحيى)، حسين القرحاني، خالد أحمد مقصود (موقوف)، ابن الشهيد (يمني الجنسية)، رضوان الجباخنجي =

وموقوف في أحداث الضنّية، بجرم الانتماء إلى جمعية إرهابية بقصد ارتكاب الجنايات على الناس والأموال، وقيام ١٨ شخصاً منهم بأعمال إرهابية وتفجيرات طاولت مطاعم «الماكدونالدز» و«البيتزا هات» و«الوينرز» والـ«K.F.C» وسوبر ماركت «سبينس» في طرابلس والدورة والمعاملتين، وقد تمّ اعتقال ١٣ منهم أُحيلوا إلى قاضي التحقيق العسكري الذي طلب توقيفهم.

وممّا جاء في الادّعاء أنه «في طرابلس وجونيه والدورة وخارجها بتواريخ مختلفة، أقدم المدّعى عليهم على الانتماء إلى جمعية إرهابية بقصد ارتكاب الجنايات على الناس والأموال. كما أقدم المدّعى عليهم على القيام بأعمال إرهابية وارتكاب أعمال تفجير بواسطة المتفجرات والمواد المتفجرة طاولت مطاعم في طرابلس وجونيه والدورة والمعاملتين بقصد قتل الموظفين والزبائن والمارّة، ما أدّى إلى جرح بعض الأشخاص وإيذائهم، وإحداث أضرار جسيمة بالمطاعم والسوبرماركت المنوّه عنها أعلاه. وأقدم الباقون على التحريض على القيام بهذه الجرائم.

كما أقدم أحدهم، بالإضافة إلى ما هو مذكور أعلاه، على محاولة قتل عناصر من قوى الأمن الداخلي بوضع متفجرات داخل جهاز الكومبيوتر في منزله، وعلى الاتجار وحيازة الأسلحة الحربية وسرقتها بالاشتراك مع غيره. كما أقدم أيضاً على إطلاق قذيفة صاروخية في مكان مأهول. وأقدم غيره على تزوير جواز سفر واستعماله مع العلم بالأمر. كما أقدم المدعى عليهما الأولان على مخالفة التعليمات العسكرية».

وذكرت مصادر أن أحد المدّعى عليهم الفارّين خالد أحمد العلي وهو صاحب سيارة الرينو المفخخة، عمد إلى وضع عبوة داخل جهاز الكمبيوتر في منزله معدة للانفجار، واكتشفتها القوى الأمنية خلال مداهمة منزله ومحاولتها الاطلاع على المعلومات المخزنة داخل الكمبيوتر.

= (موقوف لدى المجلس العدلي)، أبو سويد (فلسطيني)، أبو إبراهيم (فلسطيني)، بلال المرجع، أبو عبيدة، محمد حيدر، أبو عمر، أحمد العتر، أحمد ميقاتي، علي العبدو، أبوصهيب (موجود في أستراليا).

وشهد لبنان مناخاً ساعد على تشريع واحتضان السلفية «ولم يكن هو المناخ السوري بل كان يأتي من أركان في السلطة اللبنانية على علاقة ملتبسة بسوريا» كما يقول أحد الجهاديين من خارج الجو السلفي. وما أعطى السلفية مداها هو انتشار معاهدها في كل البلاد.

ومع محاولات الجيش السوري والسلطات اللبنانية احتواء السلفيين في مرحلة ما بعد عمليات الضنّية وقبل مقتل رفيق الحريري، وبخاصة عن طريق العنف والاعتقال والملاحقات والاتهامات التي كانت تصدر أحياناً بغية تنفيذ حملات اعتقال واسعة، أصبح الوعي السلفي كالآتي: إن الطائفة السنّية محرومة في لبنان، وهي لا تملك حقوقاً فعلية كطائفة مقارنة بغيرها من الطوائف، ولبنان بلد أحدثه الفرنسيون ليعطوا فيه السلطة للمسيحيين، وفي عهد كميل شمعون عام ١٩٥٨ تعرّض السنّة لمؤامرة مدبّرة. ولمّا دخل الجيش السوري البلاد في العام ١٩٧٦ اضطهد السنّة بشكل خاص، وإذا كان اتفاق الطائف قد أعطى السنّة بعض حقوقهم فإن سوريا وأطرافاً لبنانية أخرى جمّدت تنفيذ هذا الاتفاق.

شبكة الـ ١٣ واغتيال الحريري

قبل أحداث الضنّية شهدت مناطق عدة عمليات تفجير، كانت تليها حملات دهم واعتقال تقوم بها السلطات الأمنية اللبنانية والسورية، واتهم السلفيون المخابرات بالوقوف خلف بعض التفجيرات تبريراً للاعتقالات، ولإشعار المسيحيين بالقلق الدائم. وعزّز الانتشار السوري من التشدد الفكري فوق ما كان يحمله السلفيون من مشاعر اضطهاد ومن تمثيلهم للاوعي سنّي عام، وأتى مقتل الحريري ليغذي الشعور بالاضطهاد، علماً أن قراءة الجهاديين للواقع الإسلامي واللبناني مبسطة للغاية وتشير إلى تدنٍّ في نسبة النضج السياسي لدى المجموعات الإسلامية[٦].

(٦) في إجابة عن سؤال حول معنى الاستراتيجية، لم يتمكن العديد من رجال الدين تقديم ترجمة عربية واضحة للمفهوم. وقد طرح الكاتب هذا السؤال على عدد من علماء الدين الإسلاميين بعد أن حدّثه أحدهم عن قصور الإمكانيات السياسية لدى المجموعات الإسلامية ولا سيما الجهادية =

خلال المطاردات التي كانت تستهدف السلفيين وصل إلى لبنان عدد من متخرّجي المعاهد الشرعية السعودية الذين استقرّوا في أماكن عدة وراحوا ينشرون العلوم التي تلقوها ما أدّى إلى تكاثر الجمعيات الإسلامية وتنوّع مناهجها، وتحوّلت إلى معاهد، وبدل أن يكون في لبنان تيار سلفي واحد نشأت مدارس وتيارات متعددة، حافظ معظمها على البُعد الفقهي والعقدي، ونأى عن الجهاد اليومي مخافة الوقوع ضحية أعمال القمع التي مارستها السلطات على المجموعات الجهادية كافة، ولأي سبب كان[(٧)].

ويمكن ترتيب التيارات السلفية في الحقبة التالية لمقتل الرئيس رفيق الحريري كالآتي:

- تيّار مستقل يحاول الابتعاد عن السعودية مموّلاً نفسه من تبرّعات خليجية، وينحصر نشاطه في الدعوة.
- تيّار مقرّب من السعودية ومن «المستقبل».
- الجهاديون، وهم أتوا من الخارج، وأكثرهم لبنانيون.

ولم يأخذ أحد في لبنان على محمل الجد إمكانية تورّط السلفية الجهادية في عملية اغتيال رفيق الحريري يوم ١٤ شباط/ فبراير العام ٢٠٠٥، وذلك على الرغم من وصول شريط مصوّر إلى قناة الجزيرة في اليوم نفسه يعلن فيه السلفي أحمد أبو عدس عن تنفيذه العملية. على أن ما يعرفه الخبراء اللبنانيون عن السلفية وقواها في لبنان يدفع أحدهم إلى القول: «إذا كانت القوى الجهادية متورّطة في اغتيال رفيق الحريري فهذا يعني أن ثمة جزءاً من الصورة لا نعرفه، وأن هذه القوى تحفر أعمق مما نتخيل في البلاد».

= منها قائلاً إن أي استطلاع بسيط للمعلومات سيظهر أن لديهم تفوّقاً في المسائل الفقهية، وفقراً كبيراً في الفهم السياسي والقدرة على المتابعة اليومية والتمييز بين الأهداف التكتيكية والإستراتيجية.

(٧) تعرّضت حركة التوحيد الإسلامي في طرابلس لحملة اعتقالات كبيرة بعد قرار السلطات اللبنانية إغلاق إذاعتها غير المرخصة، ورفض أمين عام الحركة الشاب الشيخ بلال شعبان قرار الإغلاق مما دفع بالسلطات إلى حشد عناصر من قوى الأمن الداخلي قامت بإغلاق الإذاعة بقوة السلاح وسقط عدد من الجرحى من الطرفين.

إلا أن أحمد أبو عدس لم يكن يعمل بمفرده، وكانت الأوساط السلفية في لبنان، إضافة إلى العديد من الشبان المنفردين والمجموعات الجهادية غير السلفية، تعمل منذ العام ٢٠٠٣ بحميّة منقطعة النظير من أجل إمداد المقاومة في العراق بالجهاديين. وسبق للنظام السوري، بمشاركة النظام السياسي في لبنان، أن ترك الباب مشرعاً لمن يريد التوجّه إلى العراق، ومنذ ما قبل سقوط بغداد تم إرسال المئات من المقاتلين العرب، وشهدت الحدود اللبنانية عبور قوافل متواضعة، ولكن متعددة، من الشبان المتحمسين للقتال في العراق، ومات هناك العديد من هؤلاء الشبان اليافعين، وعاد البعض منهم إلى أهله، بينما اختفى آخرون، ثم عادوا للظهور هنا وهناك.

ولن يكون حسن نبعة إلا أحد هؤلاء المقاتلين والقادة الميدانيين ومنسّقي المجموعات الجهادية التي عملت في العراق، وقد خاض إلى جانب الكثيرين من الشبان العرب معارك الفلّوجة أثناء الحصار الأميركي الأول الذي ضرب حولها. ويروي من يعرف نبعة جيداً أنه بعد مقتل أحد القادة المباشرين لمعركة الفلّوجة وصل نبعة إلى قيادة القوات الجهادية في المدينة المحاصرة، وتمكن من الخروج منها بعد انتهاء المعارك، وقام بالعديد من العمليات ضد القوات الأميركية في العراق، كما تمكن شخصياً من اختراق القوات الأمنية العراقية بعد أن أوهمها بأنه من أصول غربية بتنكر بسيط.

وسيكشف التحقيق مع ما سيعرف بشبكة الـ ١٣[(٨)]، أي شبكة حسن نبعة،

(٨) يرد في المحفوظات اللبنانية في ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٦ (أرشيف الأحكام القضائية) حول أعضاء شبكة الـ١٣، أن بعضهم تورّط بجرائم مختلفة.
- فؤاد أحمد المصري، والدته سعاد تولّد ١٩٦٩ لبناني، محضر مخفر صوفر رقم ١٦/ ٣٠٢ تاريخ ١٤/ ٢/ ٢٠٠٣: ادعاؤه ضد أكرم عزام بجرم شيك دون رصيد كما يوجد بحقه محضر بادعائه ضد مجهول بجرم سرقة.
- مالك محمد نبعة، والدته صبحية تولّد ١٩٨١ لبناني: توقيفه عام ٢٠٠٠ بجرم حادث سير وتسبب بوفاة محمد ناصر.
- خضر محمد نبعة، والدته صبحية تولّد ١٩٦٩، محضر مفرزة سير بعبدا رقم ٢٠٨/ ٣٠٢ تاريخ ٢٧/ ٧/ ١٩٨٥: توقيفه بحادث سير نتج منه جريح. =

عن ارتباط وثيق لاثنين من أعضائها بأحمد أبو عدس الذي اختفى قبل وصول شريط الفيديو إلى شبكة الجزيرة، وقبل مقتل رفيق الحريري بأشهر قليلة. كما

= – حسن محمد نبعة، والدته صبحية تولّد ١٩٧٤، محضر مخفر شبعا رقم ٨/ ٣٠٢ تاريخ ٢١/ ١/ ٢٠٠٣: عدم تنفيذ مذكرة إلقاء قبض بجناية لعدم العثور عليه ـ تدخل في عصيان مسلح ـ تدخل باعتداء على السلطات ـ اشتراك بعصابة مسلحة وإرهاب ومؤامرة وأسلحة وعدم العثور عليه.

– جهاد أسعد ضاهر، والدته مريم تولّد ١٩٨٢ لبناني، محضر مخفر القرعون رقم ١٠/ ٣٠٢ تاريخ ٢٢/ ١/ ٢٠٠٢: استماعه بجرم سرقة وتخريب في مركب المدعو محمد أبو عسكر، كما يوجد بحقه ملف حول عدم التحاقه بخدمة العلم.

– محمد حسين عبد الرحمن، والدته لطيفة تولّد ١٩٧٥ لبناني فلسطيني، رقم الملف ٩٣٤ والبيان ٢٤٥٤٣: بحقه العديد من معاملات الأنتربول التي تتضمن إدراج اسمه في القائمة السوداء لمدبّري ومنفّذي الأعمال الإرهابية واعتداء على أمن الدولة وتأليف عصابة موضوع محضري مكتب مكافحة الإرهاب والجرائم الهامة الأول برقم ٢٥٤ مكرر/ ٣٠٢ تاريخ ١٦/ ٤/ ٢٠٠٤ ورقم ٩٢٩/ ٣٠٢ تاريخ ٧/ ٦/ ٢٠٠٤ موضوع إيداع شعبة الاتصال الدولي رقم ٧٨٤/ ٢٠٧ ش٨ تاريخ ١٥/ ٦/ ٢٠٠٤ ١١٨٥/ ٢٠٤ تاريخ ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٤ كما ورد اسمه في محضر مكتب مكافحة الجرائم المالية رقم ٦١٨/ ٣٠٢ تاريخ ٧/ ٧/ ٢٠٠٣ إنفاذاً لكتاب مجلس وزراء الداخلية العرب عن شخص سعودي تبيّن أنه شريك له صادر بحقه حكم قيام بأعمال إرهابية وغيرها، وبحقه مذكرة توقيف غيابية بجرم تأليف تنظيم إرهابي والقيام بأعمال إرهابية وعدم العثور عليه، محضر مخفر صيدا رقم ٩٦٣/ ٣٠٢ تاريخ ٢٩/ ٧/ ٢٠٠٣.

– معين حسين عبد الرحمن، والدته لطيفة تولّد ١٩٧٥ فلسطيني، رقم الملف ٩٣٤ والبيان الإحصائي ٢٣٥٤٣ محضر مخفر صيدا القضائية رقم ٣٤٩/ ٣٠٢ تاريخ ١٨/ ٢/ ٢٠٠٣ بجرم إطلاق نار وإصابة محمد مرعي بجروح وتسطير بلاغ بحث وتحرٍّ بحقه.

– محمد أحمد قوجة سوري الجنسية مجهول باقي الهوية، كفّ بحث صادر عن انتربول دمشق والمطلوب للسلطات السورية بجرم قتل وذلك بسبب سقوط الحكم الصادر بحقه بالتقادم الزمني موضوع إيداع شعبة الاتصال الدولي رقم ٢٤٦٣/ ٢٠٧ ش٨ تاريخ ١٤/ ٦/ ١٩٩٥. لا يمكن الجزم بأنه الشخص المقصود.

– أحمد إبراهيم التويجري مطلوب للسلطات اللبنانية بجرم تأليف عصابة بقصد ارتكاب الجنايات على الناس والأموال وحيازة أسلحة ومتفجرات موضوع إيداع شعبة الاتصال الدولي رقم ٥٥٣٢/ ٢٠٧/ ش٨/ ٢ تاريخ ٢/ ١٢/ ٢٠٠٤ وبرقية شعبة الاتصال الدولي الموجهة إلى المكتب العربي للشرطة الجنائية رقم ١٧١١/ ٢٠٥ش٨/ ٢ تاريخ ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٤.

– خالد محمد جاسم سوري مجهول باقي الهوية: بحقه معاملة أنتربول دمشق كونه مطلوباً للسلطات اللبنانية بجرم محاولة قتل وأوقف من قبل السلطات السورية موضوع محضر مفرزة طرابلس القضائية رقم ١٩٥٥/ ٣٠٢ تاريخ ٢٩/ ٩/ ١٩٩٨ ولا يمكن الجزم بأنه الشخص المقصود والباقي لا شيء وعليه دوّنت هذه الملاحظة.

سيكشف التحقيق مع الشبكة عن عمق ودقة العمل الذي تقوم به هذه المجموعة في مساندة المقاومة العراقية. وإذا كان حسن نبعة يرفض الاعتراف بالانتماء إلى تنظيم القاعدة ويكرر بلا ملل خلال التحقيق معه بأنه ينتمي إلى المقاومة العراقية فقط، فإن المقاومة في العراق لا تحتمل جهاديين مثل نبعة ورفاقه اللهم إلا إذا كنا نتحدث عن المجموعات القاعدية.

في التاسع من أيار/ مايو العام ٢٠٠٦ وقّع رئيس فرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي وسام الحسن على محضر التحقيق وحوّله إلى مفوّض الحكومة لدى المحكمة العسكرية، وكان الحسن قد أشرف شخصياً على أجزاء من التحقيق، خاصة تلك المتعلقة بعملية اغتيال الرئيس رفيق الحريري، ولكن الشبكة المتهمة لا تُحاكم بناء على هذا المحضر، بل يُفرد لها محضر منفصل بجرائم لا تتضمن عملية الاغتيال.

وما يهمنا في هذا السياق من كل ما يرد في محضر التحقيق هو إظهار قدرات المجموعات القاعدية في لبنان، وكفاءاتها في العمل السرّي، وفي التعامل مع اللحظة وقدرتها على التماسك، إضافة إلى الكمّ الكبير من المعلومات التي ستقدمها مجموعة الـ١٣ أثناء التحقيق معها، سواء حول حركتها في سوريا، أو لبنان، أو في التعامل مع الواقع العراقي، ورحلات أفرادها من أفغانستان إلى اليمن إلى لبنان وتركيا والعراق وغيرها من الدول. فضلاً عن المعلومات التي تقدمها بوصفها شبكة دعم للمقاومة العراقية حول القدرات الاستنباطية لتطوير عمل المقاومة ضد الأميركيين، من تنكر واختراعات وتطويرات لمكافحة أجهزة التشويش التي تعتمدها القوات الأميركية في العراق.

بدأ التحقيق مع مجموعة الـ١٣ في الثالث من شهر كانون الثاني/ يناير العام ٢٠٠٦، وكان الموقوفون حينذاك هم: حسن النبعة، مالك النبعة، هاني الشنطي، عامر حلاق، فيصل أكبر، طارق الناصر. وقد تم القبض عليهم «بمتابعة التحقيق في قضية اغتيال الرئيس رفيق الحريري وتحديداً حول اختفاء المدعو أحمد أبو عدس قبل حوالى الشهر من ظهوره على شاشات التلفزة وذلك بناءً لإشارة النائب العام التمييزي القاضي سعيد ميرزا». وقد أمر هذا الأخير

بختم محضر سابق[٩] وتنظيم محضر إلحاقي لاستكمال الإجراءات خصوصاً أنه ضُبطت بموجب المحضر المذكورة «كمية من البنادق الحربية والرمّانات اليدوية والذخيرة وصاروخان من طراز لاو وكمية كبيرة من الشرائح الكهربائية المماثلة المجهولة الاستعمال والتي تستعمل كـ Wirless - Relay، وأجهزة لاسلكية للاتصال وأقراص مدمجة وجهازا كمبيوتر وأوراق ومستندات وكتب مختلفة، ومن ثم ضبط مسدس حربي ومستندات هويّة مزوّرة وجهاز كمبيوتر محمول وأقراص مدمجة وفلاشات لذاكرة الكمبيوتر وبطاقات اتصالات متعددة مرمزة ووثائق هويات فلسطينية مزوّرة وملاحظات مدوّنة بخط اليد لأرقام عائدة لأشخاص بألقاب وشيفرات مسجّلة وتعليمات وأوراق مسجّل عليها بخط اليد عن طريقة إعداد المتفجرات والتشريك لأنواع: TNT: Cemtex: c4 ومتفجرات». كما ورد في محضر التحقيق مع الشبكة.

وقد أدلى السعودي فيصل أكبر (فهد اليماني)[١٠] أمام عناصر فرع المعلومات غير المختصين في إجراء التحقيقات بالاعترافات التالية[١١]:

---

(٩) ختم محضر تحقيق سابق كان قد افتتح في عهد النائب التمييزي العام عدنان عضوم الذي تعتبره قوى الأكثرية في لبنان وعلى رأسها تيار المستقبل من المتعاونين مع سوريا خلال حقبة وجودها في لبنان وما تلاها.

(١٠) يعرّف فيصل أكبر عن نفسه في المحضر كالآتي: فيصل أسعد هاشم حسين أكبر والدتي شيخة حسين علي الحسين تولّد المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية بتاريخ ١٣٩٧ هـ. أي ١٩٧٦ م. علماً أنني أستعمل جواز سفر سعودياً مزوّراً باسم فهد محمد حسن الخادم اليماني اسم الوالدة فاطمة، كما أستعمل هوية سورية باسم (فارس وليد) صح عبد الغني وليد فارس اسم الوالدة خلود وتولّد ١٩٧٨ سوري، كما أستعمل بطاقة خاصة بالفلسطينيين عن وزارة الداخلية اللبنانية باسم حسن ناصر عيسى والدتي حميدة تولّد ١٩٧٢ صيدا فلسطيني حالياً من سكان بيروت محلة الرملة البيضاء بناية الشاطئ الذهبي الطابق العاشر، كما أقيم في شقق مختلفة في بيروت: البسطة التحتا وشقتين في طريق الجديدة وعين الرمانة والأوزاعي. أقمت سابقاً في سوريا: دمشق وحمص وحلب على عناوين مختلفة. أما عنواني في المملكة: المنطقة الشرقية مدينة رأس تنورة، غادرت المملكة منذ سبع سنوات سعودي الجنسية، فقدت جواز سفري السعودي في أفغانستان عام ٢٠٠١، متعلّم دراسة جامعية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود في القصيم وعازب: لا مهنة لديّ مجاهد في تنظيم القاعدة.

(١١) سيتم اختصار المعلومات الواردة في التحقيق وإخفاء أسماء الضباط الذين أشرفوا على التحقيقات والذين نفذوا عمليات الدهم، وكذلك أسماء الذين يقول المعتقلون إنهم شاركوا في تعذيبهم.

«خرجت من منزلي في العام ١٩٩٩ من المملكة العربية السعودية قاصداً أفغانستان للجهاد حيث بايعت الشيخ أسامة بن لادن كوني سلفي المعتقد وشاركت بالقتال مع طالبان ضد قوات أحمد شاه مسعود طبعاً بعد خضوعي للعديد من الدورات العسكرية في التنظيم الذي أنتمي إليه». وعن سؤال حول هوية المدعو جميل[١٢] أفاد بالآتي: «شاب سوري عمره حوالى ٢٧ سنة مسؤول

---

(١٢) جميل هو أحد القياديين المفترضين في تنظيم القاعدة في بلاد الشام، وتعتقد القوات السورية أنها تمكنت من قتله في أحد الاشتباكات التي جرت مع التنظيم دون أن يعلن عنها، بينما تشكك مصادر خاصة في القاعدة بأن سوريا تعلم تحديداً من هو جميل، وأنها ربما خلطت بين جميل القيادي في القاعدة الذي سيرد اسمه مراراً في التحقيقات هنا، وبين قيادي آخر في القاعدة.
وسيعرّف هاني الشنطي جميل كالآتي: «أعتقد أنه سوري كونه يتكلم بلهجة حلبية عمره حوالى ٣٠ سنة قوي البنية ذو عضلات طوله حوالى ١٧٥ سنتم أسمر البشرة يشبه طارق لجهة البشرة السمراء. أحياناً يحلق شاربه وأحياناً أخرى يتركه. له لحية خفيفة جداً شعره أسود وسط غير مالس يرتدي سراويل قماش وينتعل أحذية خفيفة تمبرلاند، يرسل رسائله الإلكترونية بالحرف اللاتيني باللغة العربية. لقباه جميل وأسامة، وقد شاهدته لأول مرة في لبنان في شهر آذار/ مارس ٢٠٠٥، ثم شاهدته في نيسان/ أبريل ثم في أيار/ مايو حيث مكث لدي في شقة أبو شاكر لليلة وعدت وشاهدته في شهر ٧ عام ٢٠٠٥ عندما ألقي القبض على السعودي الملقب مصطفى، فحضر جميل لمعرفة ما إذا كان مصطفى ألقي القبض عليه في لبنان ولكنه تبيّن أنه أوقف في سوريا على الحدود. وقد علمت أيضاً أن الأمن السوري حاول استدراج جميل بالاتصال من هاتف السعودي ودعوته للحضور. وعندما حضر الشباب شاهدوا عناصر المخابرات فعلموا بأنه كمين حيث فروا ولم يلق القبض على أي منهم. وأعتقد أن جميل موجود في لبنان بصورة مستمرة وفي أوقات كثيرة لم أكن أعلم أنه موجود فيها وقد سمعت منه مرة أنه كان يعمل في السابق في لبنان قبل التزامه وكان يحرص على أن لا يعلمني بأسباب وجوده في كل مرة أقابله فيها في لبنان. وهو من سكان حمص على ما أعتقد وذلك حسب ما أخبرني به عامر حلاق كونه مكث في حمص لدى جميل حوالى يومين وذلك في شهر ٨ أو ٩ عام ٢٠٠٥».
أما طارق الناصر طبيب المجموعة فيقول عن جميل ما يلي: «جميل هذا لقب لشاب سوري في أواخر العشرينات من العمر طوله ١٧٥ سنتم تقريباً حنطي البشرة يضع نظارات طبية شعره أسود لديه اسمرار في الجبهة نتيجة الصلاة. يحمل مسدس ميغاروف أبيض «نكل» وقد قابلته حوالى ثلاث مرات كانت أولاها في المضافة السرية في حمص حيث جلسنا وحادثني بأنه وراشد والجريح فيصل تابعون لتنظيم القاعدة وأنهم يأتمرون بأمرها وتعليماتها. كما أخبرني أن تنظيمهم يضمّ أشخاصاً من جنسيات متعددة ومهمين مثل شخص يدعى لؤي السقا كان مع أسامة بن لادن والظواهري وأنه كان في سوريا وغادر إلى تركيا لتنفيذ عملية تفجير سفينة أميركية وقد اعتقل هناك وأحاديث أخرى عنه. كما أعلمني عن حدوث عملية انشقاق في تنظيمهم حيث انفصل الملقب =

في تنظيم القاعدة في بلاد الشام. تعرّض للملاحقة لكن لم يعثر عليه، وبقي في سوريا لعدم تفريغ الساحة من التنظيم ومتابعة ترتيب الأمور».

ويحدّد فيصل أكبر مهام رفاقه في التنظيم في لبنان كالآتي: «مروان يعمل بفتح البريد الألكتروني الخاص بتنظيمنا واستئجار بيوت لنا في لبنان. أما نضال فهو مجاهد وقد لوحق وتمكن من الوصول إلى لبنان. وسامر ووسيم مجاهدان من لبنان. أما طبيب الجماعة الذي أوقف معنا فهو طبيب خاص بنا وقد لوحق أيضاً. وقد أوقفتم برفقة الطبيب الشيخ راشد[١٣] وهو مسؤول الجماعة. والباقون أعضاء ملاحقون قمت بإسكانهم في شققنا للحفاظ عليهم. وهناك آخرون لم يلق القبض عليهم وهم موجودون في مناطق أخرى من لبنان كفرج وداني وجلال ونور وجميع المذكورين يستعملون ألقاباً وهذه ليست أسماءهم (...) والطبيب هو طارق الناصر، وجوهر هو فيصل حسن، ونضال هو جمال بابيلي، والشيخ راشد هو حسام منيمنة ومروان هو هاني الشنطي، وسامر هو عامر حلاّق، ووسيم هو سليم حليمة، ونور هو خالد طه، وجلال ومعروف أيضاً باسم رمضان، هو بلال زعرورة، والملقب عبد الله هو زياد رمضان علماً أن هؤلاء سبق أن زوّدتهم الجماعة ببطاقات هوية مزوّرة بواسطة الملقّب بمراد وهو سوري (مجهول باقي الهوية) واختصاصه التزوير والمونتاج».

ويقول أكبر: «إن الشيخ راشد (حسن نبعة) يُبايع وهو معروف أيضاً بالشيخ ومؤيّد وأسماء أخرى استعملها على امتداد ثلاث سنوات أثناء إقامته في سوريا،

= أبو أنس ومجموعة تابعة له عن حسن النبعة ليقوم أبو أنس بتقبّل المبايعة لنفسه من دون راشد والعمل في إطار خط جهادي منفصل عن خط حسن النبعة وتنظيمه. وأضاف جميل أن إصابة فيصل هذه كانت نتيجة لرحلة قام بها فيصل مع ثلاثة كوادر من جماعة حسن النبعة للتفاوض مع أنس المنشق، وفي الطريق انفجرت العبوة وقتل أشخاص وجرح فيصل ومسؤول آخر ملقب بسامي لم يعثر عليه ولم يعرف إن كان قد أوقف أو قتل. كما أخبرني عن استشهاد مسؤول كبير لديهم نسيت لقبه قد استشهد خلال غارة في مدينة القائم العراقية. علمت خلال هذه الليلة أن فيصل وحسن النبعة وجميل وبعض الجرحى وسامر وأبو أحمد تابعون لتنظيم القاعدة ولهم ارتباطات في العراق لإدخال المقاتلين وخاصة الاستشهاديين إليها».

(١٣) وهو حسن نبعة.

ولأن بلاد الشام تعني لبنان وسوريا فكل المجاهدين القادمين من لبنان يجب أن يبايعوا الأمير (حسن نبعة) في الشام. وكان غالبية القادمين من لبنان يقومون بمبايعة الشيخ راشد وفي أحيان أخرى يقومون بمبايعة جميل أو نبيل (...) ولا أعرف مكان وجود جميل الحالي وهو متوار في سوريا وقد حادثته هاتفياً لآخر مرة من هاتف عمومي في محلة فردان (ببيروت) وذلك قبل أن يلقى القبض عليّ بيومين (أي السبت في ٣١/١٢/٢٠٠٥) أما نبيل فقد استشهد في العراق قبل سبعة أشهر في مدينة القائم أثناء تصدّيه لإنزال جوي أميركي هناك، وهو (...) انتقل للقتال في العراق بناءً على طلب أبو مصعب الزرقاوي».

ويتحدث أكبر عن آلية استقبال المجاهدين واستيعابهم: «في العادة يتم استقبال المجاهدين من لبنان بعد تزكيتهم من قِبل أشخاص قد انتسبوا إلى الجماعة، وهم ناشطون وقد بايعوا وهم مصدر ثقة، وبعد وصول أحدهم من لبنان يُستقبل في سوريا ويتم نقله إلى مكان نسمّيه «مضافة» من غير أن يستوضح تفاصيل الطريق والعنوان وتُسمّى هذه الإجراءات الانتقال الآمن ومن ثم يخضع هذا الشخص لدورة أمنية. غالباً وفي حال توافر الأسباب لانتقاله إلى العراق بشكل مباشر يتم نقله وعند عدم انتقاله إلى العراق يبقى في المضافة لحين تصبح الفرصة مؤاتية لإدخاله إلى العراق، وفي هذه الأثناء تتم مبايعته للأمير مما يلزمه بالعمل ضمن الجماعة. وأضيف أن للمجاهد حق الاشتراط على الأمير بالمبايعة على أن يكون مقاتلاً أو استشهادياً أو يشترط قتاله للأميركيين فقط أو بشروط يحددها المجاهد. وفسخ المبايعة (يتم) في حالات معيّنة كعدم تحقق الشرط الذي اشترطه لدى المبايعة، عندها يتحرر المجاهد من عقد المبايعة، وقد حصل هذا الأمر مع سامر ووسيم. والنص الخاص بالمبايعة والمتفق عليه هو: أبايعك على السمع والطاعة في المنبسط والمكره».

وحين يعرض المحقق صوراً أمام أكبر ليتعرف على بعض أعضاء المجموعة يتعرف فيها على «الملقب بنور[١٤] الذي كان يُعرف سابقاً باسم بدر (خالد الطه)

(١٤) هو خالد طه، صديق أحمد أبو عدس، وهو متوارٍ، وتفيد آخر المعلومات التي توافرت عنه بأنه لا يزال يعيش في لبنان ويتنقل بحذر بين لبنان وسوريا.

وهو مَن قام بتزكية العديد من المجاهدين الذين حضروا من لبنان، وكانت آخر مرة قابلته فيها منذ حوالى ثلاثة عشر يوماً في محلة كورنيش المزرعة قرب مسجد عبد الناصر وقد أوصلته أنا إلى مسجد الأوزاعي وسلّمته للملقب علي[15] الذي نقله مع الملقب مراد[16] إلى مخيّم عين الحلوة للاختباء هناك. و(...) خالد الطه كان موجوداً طوال الفترة الأخيرة في سوريا لدى الملقب جميل، وبعد الحملات الأمنية التي قامت بها الأجهزة السورية هرب إلى لبنان مع جلال (بلال زعرورة) في نهاية شهر كانون الأول/ديسمبر من العام ٢٠٠٥ وقد بقي في شقّة عين الرمّانة مع جلال لدى مروان، أي هاني الشنطي، لمدة ثلاثة أيام بعدها تسلّمته من هاني أمام جامع عبد الناصر وسلّمته لعلي مع مراد الذي كان في شقة البسطة. وعمل علي على نقلهما إلى مخيم عين الحلوة وبعدها بحوالى أربعة أيام تسلّمت من هاني الشنطي الملقب جلال، والملقب رمضان أيضاً، أمام جامع عبد الناصر وأوصلته إلى خلدة حيث حضر علي وتسلّم مني بلال زعرورة ونقله مع شخصين سوريين ملقبين بأبو الرؤى وأحمد اللذين مكثا في شقة الأوزاعي لدى نضال، وقد تم نقل الثلاثة بسيارة علي إلى مخيم عين الحلوة للاختفاء هناك وذلك بناءً على تعليمات راشد».

ويؤكد أكبر أنه تلقى «أمراً بإخفاء خالد الطه وبلال زعرورة في مخيم عين الحلوة بناءً على أوامر راشد، وقام جميل بالتنسيق مع معارفه في المخيم بإخفائهما هناك. أما مراد وأبو الرؤى وأحمد فهم مطلوبون في سوريا وقد صدر أمر أيضاً بتخبئتهم في المخيم. وفي العادة تصدر الأوامر للشباب بالاختباء لدى حصول مشكلة أمنية معهم، وفي الوقت الذي كانت الطريق إلى العراق (عبر سوريا)

(١٥) لا يعرف أكبر اسمه الحقيقي ويعرّفه بأنه «شاب فلسطيني عمره حوالى ٢٧ سنة من سكان مخيم عين الحلوة وهو تابع لعصبة الأنصار، وهو بدين وطويل القامة شعره أملس أسود يسرّح للخلف وله لحية وشارب خفيفان، يرتدي لباس سبور جينز وينتعل حذاء رياضياً. وقد شاهدته لأول مرة لدى حضوره لتسلّم خالد الطه وشاهدته ثانية لدى تسلّمه مني بلال زعرورة وأبو رؤى وأحمد، وقد تعرفت إليه للمرة الأولى لدى حضوره بناءً على تعليمات جميل في سوريا وقد زوّدني جميل بأوصافه ومكان حضوره».

(١٦) سوري الجنسية سيبقى مجهول الهوية، وسيرد اسمه تكراراً في التحقيقات.

مفتوحة كان يُطلب من الشباب المذكورين الانتقال إلى العراق، وبعد إقفال الطريق إلى العراق واستمرار الحملات الأمنية في سوريا جرى الانتقال إلى لبنان».

ويتحدث أكبر عن زياد رمضان، الصديق اللصيق بأحمد أبو عدس، فيقول: «لا توجد معرفة بيني وبين زياد رمضان إنما كنت أسمع به لدى حضوري إلى لبنان. وقد علمت أنه كان يلقّب بعبد الله وهو على معرفة بعامر حلاّق وسليم حليمة بحسب ما أخبرني به عامر وسليم وأنه يعرف أيضاً بخالد الطه حسب قولهما. وعلمت من عامر وسليم أنهما مختبئان لكونهما على معرفة بزياد رمضان ويخشيان استدعاءهما للتحقيق وفي سياق هذا الحديث تكلمنا عن التفاصيل. وقد تعرّفت إلى خالد الطه بلقب بدر في البداية وذلك منذ حوالى سنتين لدى حضوره إلى سوريا وتلقيه دورة أمنية قمت أنا بها في مدينة حلب وبعدها التقى نبيل وراشد تباعاً للمبايعة. ومن ثم بدأ خالد طه بتجنيد الإخوة للعمل معنا، فحضر الملقب أبو تراب (أحمد أبو عدس) الذي أخضعته أنا لدورة أمنية كسائر الإخوة، ومن ثم اصطحبه خالد الطه (نور) للمبايعة لدى حسن نبعة (راشد). ومن ثم حضر هاني الشنطي (مروان) بتزكية خالد الطه وقد خضع أيضاً لدورتي الأمنية ومن ثم بايع حسن نبعة (راشد). ثم قام هاني بتزكية عامر حلاق وسليم حليمة اللذين قدِما إلى حلب وخضعا لدورة أمنية ومن ثم بايعا راشد أو نبيل، وقد حضر عامر قبل سليم بحوالى شهرين. آخر شخص قد حضر للمبايعة وللدورة الأمنية كان بلال زعرورة (جلال) وذلك بعد سامر وحليم. بعدها بفترة بدأت الحملات الأمنية في سوريا فانتقلنا إلى لبنان وبقي جميل هناك وكان نبيل قد استشهد في العراق».

ويتحدث أكبر عن أحمد أبو عدس (أبو تراب) كالآتي: «أبو تراب وبعد خضوعه للدورة الأمنية لديّ اصطحبه خالد الطه إلى نبيل وراشد للمبايعة، وهو الشخص نفسه الذي ظهر على التلفزيون في ١٤/٢/٢٠٠٥ وأدلى بالبيان بتبنّي عملية اغتيال رفيق الحريري وقد أعلمني باسمه خالد الطه. وبعد عملية اغتيال (رفيق الحريري) بحوالى أسبوع اختفى خالد الطه ولم يعد يُشاهد كالعادة في المضافات خاصتنا وأعتقد أنه قد أبدل لقبه من بدر إلى نور في تلك الفترة حسب ما أذكر. وكان قد حضر إلى سوريا في الشهر الأول من العام ٢٠٠٥. وقد ذهبت

إلى دمشق حينذاك حيث استقبلته هناك وكان برفقتي خالد الطه، وقد حضر أحمد أبو عدس عن طريق المهرّب الذي نتعامل معه ويدعى أحمد من بلدة مجدل عنجر. وفي العادة لا أتسلّم أي شخص يحضر من لبنان في الشارع والعادة تقضي بأن يُحضر الشخص إلى المضافة الخاصة بإعطاء الدورات. (لكني) تلقيت أوامر من نبيل وراشد بأن أذهب شخصياً وأستقبل أحمد أبو عدس. وفي البداية لم يكن الأمر واضحاً لي. لاحقاً وبعد ظهور أبو عدس على التلفزيون تبيّن لي بأهمية استقباله كونه قد نفّذ العملية».

ويلعب أكبر لعبة طويلة مع المحقق، وهو سوف يعيد تصدير روايات متعددة نافياً في كل واحدة ما سبق وأدلى به، علماً أن من يلتقيه في سجنه سيؤكد بأنه تعرّض للضرب والتعذيب، وخاصة على جرحه الذي أصيب به جرّاء انفجار عبوة ناسفة كانت في سيارة يستقلّها في سوريا. ويروي أكبر أمام مستنطقه التالي: «لم أكن أسمع بأي معلومة عن حضور أحمد أبو عدس إلى سوريا حتى يوم الثلاثاء الذي لا أذكر تاريخه إنما أعتقد أنه ١٨/١/٢٠٠٥ في المساء حين حضر خالد الطه إلى ساحة المرجة في دمشق، وكنت قد تلقيت اتصالاً هاتفياً من جميل على رقمي الخلوي حيث أعلمني جميل بأن خالد الطه سوف يحضر لمكالمتي بموضوع معيّن، وبالفعل حضر خالد الطه إلى ساحة المرجة وكنت بانتظاره وأعلمني بأن جميل يقول بأن علينا في اليوم التالي استقبال شخص قادم من لبنان، على أن أقوم بتدريبه على الدورة الأمنية التي ألقّنها للشباب. اتفقنا على اللقاء ظهر اليوم التالي الأربعاء في ساحة المرجة وغادر على أثرها خالد الطه. وفي اليوم التالي توجهت بالسرفيس إلى قرب فندق الخيّام وقابلت هناك خالد، وأجريت أنا وخالد جولة استطلاع كعادتنا. وحوالى الساعة الخامسة عشرة حضرت سيارة تاكسي سورية وتوقفت قبل أن تصل إلينا وترجّل منها شخصان تقدّما منا حيث فهمت أن الشخص الآخر هو المهرّب الذي نقل أحمد أبو عدس، وعرّفني خالد بالقادم من دون تسميته، على أنه الشخص الذي ينتظره، وكان خالد قد أعلمني بأنه هو مَن زكّى هذا الشخص أي أحمد أبو عدس؛ استقللنا نحن الثلاثة سيارة تاكسي (ووصلنا) إلى حي ركن الدين حيث مكان المضافة وهي في مبنى أبيض

اللون والشقة في الطبقة الثانية، وكانت المرة الأولى التي أتعرّف بها إلى هذه المضافة، وفتح لنا الباب الملقب شاكر، وشاكر معروف من قبلي وهو من يستأجر الشقق ويدير المضافات لنا. وغادرت الشقة المضافة إلى شقتي في المزّة وغادر شاكر أيضاً لاستحضار أغراض للإفطار صباحاً في اليوم التالي ليعود وينام في الشقة على أن أحضر أنا في الصباح للمباشرة بإعطاء الدورة لأحمد أبو عدس الذي لم أكن قد علمت باسمه أو لقبه لحينه».

وفي جلسة تحقيق أخرى يتابع فيصل أكبر سرد معلوماته حول علاقته بعملية اغتيال رفيق الحريري، وبأحمد أبو عدس، فيقول أمام المحقق: «لدى وصول أحمد أبو عدس إلى المضافة في حي ركن الدين وبعد أن تناولنا العشاء في الشقة المضافة أنا وأحمد أبو عدس وخالد الطه وشاكر خرجت للنوم في شقتي وعدت في الصباح حوالى السابعة حيث وجدت شاكر وأحمد أبو عدس وخالد طه. بدأت بتلقين أحمد أبو عدس دروس الدورة الأمنية واستمر ذلك بعد الظهر، بعدها انتهى اليوم الأول للدورة فتناولنا الطعام وجلسنا نتحدث، وكان خالد قد غادر إلى حمص لمقابلة جميل. استمر الحال هكذا لثلاثة أيام أخرى وكنت قد انتقلت للسكن في هذه المضافة. انتهت الدورة بعد أربعة أيام حيث حضر خالد الطه قادماً من حمص وقد أحضر معه لباساً أسود وستارة عليها الكتابة التي ظهرت لاحقاً خلف أحمد أبو عدس في فيلم الفيديو معلناً عملية اغتيال الحريري وتبنّيها كما أحضر كاميرا فيديو نوع سوني حيث اختلى خالد الطه بأحمد أبو عدس وأعتقد أنه كان يجهّزه من أجل تصوير الفيلم نفسياً وتلقينه ماذا سيقول. ثم جلس معنا خالد الطه وأعلمنا بأنه قد صدر الأمر بتنفيذ عملية اغتيال وعلينا تصوير الفيلم بذلك. بدأنا بدرس ترتيب الغرفة لتصوير الشريط واخترنا غرفة مناسبة (...)

«وبتاريخ ٢٤/١/٢٠٠٥ دخلت أنا وخالد وشاكر إلى غرفة الدرس بينما دخل أحمد أبو عدس إلى غرفة أخرى وأعتقد أنه كان يكتب أجزاء من البيان. كنا قد نقلنا طاولة خشبية إلى غرفة الدرس وغطيناها بشرشف أسود وقمنا بوضعها على الحائط بواسطة مسامير سوداء صغيرة من الجهتين اليمنى واليسرى، ثم وضعنا كرسي بلاستيك لونه بنّي خلف الطاولة حيث أصبحت الغرفة جاهزة للتصوير.

أقفلنا باب الغرفة بعد خروجنا منها، ودخلنا غرفة أخرى بينما تسلّم خالد الطه الملابس والعمامة البيضاء وورقة تحتوي على أجزاء من البيان كان قد أحضرها من جميل. لاحقاً ارتدى أحمد أبو عدس الملابس السوداء والعمامة ودخلنا إلى الغرفة حيث جلس خلف الطاولة وعملنا على أداء تجربة وقمنا بتصويرها، فلم يكن التصوير جيداً في أول مرة، ثم أعدنا التجربة مرة ثانية في اليوم التالي حيث وأثناء تصوير الفيلم سعل أحمد أبو عدس، فتقرّر أن لا يُعتمد هذا الفيلم. أوقفنا التصوير لهذا اليوم. ثم في النهار الثالث قمنا بالتصوير وكان شاكر يحمل الكاميرا وأنا وخالد واقفين بجانبه أنا في الجهة اليمنى وخالد في الجهة اليسرى، ووقف شاكر بمواجهة أحمد. نجحت هذه التجربة حيث أعدنا عرضها على شاشة الكاميرا التي تُفتح. واتصل خالد من هاتفه الخلوي بجميل وأعلمه أن الفيلم أصبح جاهزاً.

«في اليوم التالي انتقلنا أنا وأحمد وخالد بسيارة مستأجرة إلى حلب حيث المزرعة، وهي منشأة تابعة لتنظيم القاعدة وبإدارة الملقب سامي وتقع في منطقة طريق الزربة، وهناك استقبلنا الشيخ راشد ونبيل وجميل، أصحّح لكم أن جميل كان قد حضر إلى دمشق ذلك اليوم وهو مَن اصطحبنا بالسيارة، وبوصولنا إلى المزرعة نحن الأربعة جميل وخالد وأنا وأحمد أبو عدس استقبلنا سامي والشيخ راشد. بعد السلام اختلى الشيخ راشد وجميل بأحمد أبو عدس وبقيت في الخارج أنا وخالد وسامي. دام الاجتماع المغلق مع أبو عدس ثلاث ساعات خرجوا بعدها من الغرفة؛ قام الشيخ راشد ونبيل بعرض فيلم تبنّي العملية، ولاقى الشريط استحسان الشيخ راشد. بعدها وبناءً على أمر جميل انتقلنا أنا وأبو عدس وخالد وجميل الذي يقود السيارة إلى حمص حيث المضافة التي يديرها جميل، وهي تقع في منطقة الخالدية قرب جامع النور في حي شعبي، ومكثنا يومين من أجل التحضير لانتقالنا إلى لبنان بغية تنفيذ عملية اغتيال الحريري. وقام جميل بتوزيع مبلغ خمسين ألف دولار كان قد تسلّمها من راشد، فأعطاني عشرة آلاف دولار أميركي من فئة المئة وأعطى خالد عشرة أخرى، واحتفظ بثلاثين ألف دولار وهي مصاريف لتمويل العملية. وفي هذه الأثناء كان جميل

قد استحصل لنا من مراد على هويات سورية بأسماء مزيّفة عليها رسومنا الشمسية وهي أربع هويات سورية، وكان اسمي المزوّر الجديد حسن العيد سوري (الجنسية)، أما أبو عدس وجميل وخالد فلم أعرف أسماءهم المزورة في الهويات المذكورة.

«وبعد انقضاء اليومين وبتاريخ ٢٨/١/٢٠٠٥ انتقلنا من حمص إلى دمشق، وكان جميل يقود السيارة وأبو عدس بجانبه وأنا وخالد في المقعد الخلفي. وصلنا إلى دمشق حوالى العاشرة صباحاً، واستقللنا تاكسي نحن الأربعة، علماً أن الملابس والسيارة والكاميرا والفيلم المسجّل بقيت لدى الشيخ راشد في المزرعة. وقرب حديقة تشرين في الزاوية الشمالية التقينا المهرّب الذي كان بانتظارنا في سيارة تاكسي سورية وهي باص (واتجهنا نحو) جادة يابوس وهناك ترجلنا مع المهرّب. دفعنا مبلغ ثمانين ألف ليرة سورية للمهرّب لقاء تهريبنا عبر الحدود حيث اجتزنا الأراضي السورية بنحو ساعة، بدأنا نزولاً ثم صعوداً بجبل ثم نزولاً علماً أننا كنا قد نقلنا على درّاجة نارية قديمة العهد كانت متوقفة قرب منزل المهرّب. وكان يعمد إلى نقل كل واحد منا بمفرده مسافة ربع ساعة ليعود ويصطحب الآخر. وقد انتقل في البداية جميل، ثم أبو عدس، ثم خالد، وأخيراً أنا. وقد ترك أخيراً الدرّاجة أثناء مرحلة الصعود في الجبل حيث قرية سورية صغيرة أجهل اسمها ولدى المهرّب معارف فيها.

«وبوصولنا للأراضي اللبنانية في مكان ما قرب المصنع سرنا حتى وصلنا إلى الطريق العام عند المصنع واستقللنا سيارة تاكسي إلى مدينة شتورا، ووصلنا بيروت حوالى الثانية بعد الظهر إلى محلة الكولا، واستقللنا سيارة إلى الضاحية الجنوبية في مكان أجهله، يوجد هناك محطة وقود وبنك الجمّال على ما أذكر، دخلنا بناية في سوق شعبي، ثم دخلنا إلى شقة كان جميل قد استأجرها في تاريخ سابق، وفي الشقة التي كانت تحوي أثاثاً بسيطاً: حوالى ست فرشات إسفنجية وخمس مخدات وست بطانيات وهناك حصر على الأرض، وفي اليوم التالي أي في ١/٢/٢٠٠٥، وكان جميل قد أحضر لدى خروجه في الليلة السابقة جهاز هاتف من نوع نوكيا طراز ٣٣٠٠ لونه كحلي ذو خط خلوي لبناني؛ خرج خالد وجميل من الشقة

وبقيت أنا وأبو عدس في الشقة لغاية حضور جميل وخالد ليلاً، وتحادثت أنا وجميل حول فصول العملية حيث أخبرني جميل بأنه يسعى إلى شراء سيارة بيك آب، وأن جماعته تعمل للعثور على سيارة مشابهة، كما أعلمني بوجود فريق مراقبة يرصد ويتتبع حركة تنقلات الهدف قبل ثلاثة أسابيع من وصولنا إلى لبنان، وأنهم لبنانيون وموثوقون ومن عناصر القاعدة وألقابهم فهد وثامر وعدنان وفوّاز وبسّام.

«وفي اليوم التالي (أي في ٢/٢/٢٠٠٥) خرج جميل وخالد وعادا ليلاً متأخرين حوالى الواحدة بعد منتصف الليل، ولم أتكلم معهما. في صباح اليوم الثالث أي في ٢٠٠٥/٢/٣ خرجت مع جميل، بينما بقي أبو عدس وخالد في الشقة، استقللنا سيارة تاكسي من الضاحية باتجاه عين المريسة فوصلنا حوالى الواحدة ظهراً وتمشينا من قرب مطعم الطازج شرقاً مارين بمطعم ماكدونالدز ثم قرب مسجد عين المريسة حيث أصبح ماكدونالدز عن يسارنا، صعدنا في طريق طلعة على اليسار، هناك شركة تأجير سيارات في آخر الطريق، انعطفنا يساراً وسرنا في الطريق باتجاه فندق هوليداي إن، وبوصولنا إلى التقاطع انعطفنا يساراً حيث أصبحت الطريق نزولاً، شاهدت الفينيسيا عن يساري وأمامي، وبمستوى منخفض منظر الشاطئ حيث نادي يخوت وإلى يساره السان جورج. وكان جميل يشير لي إلى الأماكن ويسمّي لي العناوين. وصلنا إلى أمام السان جورج حيث أعلمني جميل أن الموكب يمر إجبارياً أمام السان جورج، وأن أفضل نقطة لتنفيذ العملية هي في بناية تقع ملاصقة للسان جورج إلى الجهة اليمنى من الطريق؛ تشاورنا حول هذه النقطة.

«وأعلمني جميل أن هناك نقطة أخرى هي قرب مكتب الرئيس الحريري يمكن أن تكون صالحة لتنفيذ عملية التفجير، علماً أننا وقرب السان جورج، لم نتوقف وقتاً طويلاً بل كنا نتوقف برهة ومن ثم نتابع السير ومن ثم نتوقف لعدم إثارة أية شبهة. بوصولنا إلى قرب الصيدلية في عين المريسة استقللنا سيارة تاكسي إلى محلة عائشة بكار أو فردان على ما أذكر، وهناك ترجّلنا قبل المكتب عند تقاطع للطرق واتجهنا نزولاً. شاهدت في النزول سلسلة مطاعم إلى جهة اليسار وبنك أيضاً ومحل Adidas ومحلات أزياء نسائية إلى الجهة اليمنى. وصلنا إلى تقاطع

طرق قرب فندق هوليداي إن، وقبالته يوجد عند الزاوية الأخرى بناء قديم تحيط به أشجار كثيرة وصورة كبيرة للرئيس الحريري، في محيط المبنى سرنا على الرصيف المقابل لهذا المبنى، الذي هو مكتب الرئيس، ولم نتوقف بل تابعنا السير ونحن نراقب ونرصد الحركة. وشاهدت من خلال البوابة المفتوحة الحاجز المتحرك للمدخل وفي الداخل سيارات عادية متوقفة. لم يكن هناك من مجال لوضع الشاحنة وتركيزها في ذلك الشارع لكونها ستثير الشبهات في حال أوقفت هناك. فصرفنا النظر عن هذا الاحتمال واستقللنا سيارة تاكسي باتجاه الضاحية وفي هذه الأثناء كان جميل يتلقى اتصالات على هاتفه الخلوي من المراقبين على ما أعتقد.

«وصلنا الشقة مساءً؛ فتحادثت مع جميل عن نتيجة المراقبة على الأرض التي قمنا بها. وفي اليوم التالي أي ٢٠٠٥/٢/٤ خرج خالد وجميل ورجعا مساءً. أعلمني جميل أن هناك سيارة مناسبة في طرابلس من نوع بيك آب كبيرة لونها أبيض وثمنها حوالى سبعة آلاف دولار أميركي يقوم أحد معارفه بتخليص أمرها وشرائها، وأن البضاعة، أي المتفجرات، قد وصلت إلى لبنان من سوريا ومصدرها العراق وهي من نوع TNT وحبال Cortex، وعشرة صواعق كهربائية، وهي الآن في مكان آمن لم يطلعني عليه.

«وفي هذه الليلة شعرت بأن خالد الطه يتصرف على غير عادته فكان صامتاً ولافتاً للنظر، فهو عادة يمازح ويظل مبتسماً. في ٢٠٠٥/٢/٦ أعتقد أن جميل تلقى اتصالاً من جماعته المكلفين شراء السيارة (يفيد) بأن السيارة قد سُوّي أمرها بسبعة آلاف وخمسماية دولار أميركي، وحسب ما أخبرني فإنه اشتراها بطريقة طبيعية، وأنه سوف يغادر مع خالد حوالى يومين لتجهيز السيارة وإعدادها بالمتفجرات، وقد زوّدني برقم هاتفه على أن أتصل به فقط في الحالات الطارئة القصوى وغادر. بقيت مع أبو عدس في الشقة يومين لم نخرج منها ولم يدخل أحد إلينا.

«وعاد خالد وجميل في ٢٠٠٥/٢/٩ وأعلمني جميل أن الشاحنة قد جُهّزت وأن المتفجرات وضّبت فيها بشكل موجّه وقد جهّزت أيضاً الكبسة التي تقوم بدور الصاعق لعملية التفجير. وقد حضر جميل وخالد ظهراً، وأعلمني أيضاً أن المهمة

الحسّاسة الآن هي لشباب المراقبة والرصد، وكان ما يزال يتلقى الاتصالات، علماً أنه كان يطفئ رقمه حوالى منتصف الليل، وعندما كان يحضر للمنزل ليلاً كان يطفئ رقمه في الشارع قبل أن يصعد إلى الشقة، وإذا ما كان في الشقة كان يخرج ليلاً لإطفاء الخط كيلا تتبيّن حركة الهاتف الجغرافية.

«وفي اليوم العاشر خرجت مع جميل وذهبنا إلى محلة السان جورج لتفقّد المكان، ولم نشاهد أي حركة مريبة أو نقاط حراسة أو دوريات. عدنا إلى الشقة مساءً، وتحادثنا عما جرى في مراقبتنا لمحلة السان جورج، واتفقنا على أن النقطة بعد مدخل السان جورج أمام البناية الملاصقة هي النقطة النهائية التي سوف تركن الشاحنة وبداخلها أبو عدس لتنفيذ عملية التفجير لدى مرور الموكب. وفي الأيام الباقية قبل ١٤/٢/٢٠٠٥ أي يوم تنفيذ العملية، كانت متابعة عمليات الرصد والمراقبة هي الناشطة، كما كنا نناقش خطة الانسحاب بعد التنفيذ.

«وفي ١٣/٢/٢٠٠٥ خرج جميل واصطحب أبو عدس معه، حيث أراه سيارة البيك آب والمكان الذي يجب أن تنفّذ العملية فيه، وعادا إلى الشقة مساءً. وكان أبو عدس مرتاحاً ومتشجعاً جداً لتنفيذ العملية، حيث تحادثنا أنا وجميل وخالد بينما دخل أبو عدس إلى الغرفة الأخرى للصلاة والتعبّد، وتحادثنا نحن الثلاثة أنا وجميل وخالد عن خطة الانسحاب وكانت كالآتي: خروج مجموعة الرصد والمراقبة ثم ننسحب نحن باتجاه الجامعة الأميركية الباب البحري.

«واستيقظنا فجراً للصلاة، ثم عدنا إلى النوم، واستيقظنا في العاشرة. خرج أبو عدس بمفرده بعد أن ودّعنا وتعانقنا، بكى خالد. وبعد حوالى نصف ساعة خرجنا نحن الثلاثة جميل وأنا وخالد بعد أن احتفظ جميل بهوية أبو عدس المزوّرة السورية؛ قاد أحدهم البيك آب وأبو عدس إلى جانبه، وهو من فريق الرصد ولا أعرف مَن هو، وبعد خروجنا من الشقة استقللنا تاكسي باتجاه عين المريسة. ترجلنا قرب جامع عين المريسة، وتوقفنا على الكورنيش قبالة الجامع. وكانت الساعة حوالى الثانية عشرة ظهراً حيث توقف أبو عدس بالسيارة وانتظر مرور الموكب ولما مرّ الموكب حصل الانفجار بعد أن فجّر أبو عدس نفسه بالموكب».

هكذا ينتهي أول وصف قدّمه فيصل أكبر لعملية اغتيال الرئيس رفيق الحريري

التي نفّذها بحسب هذه الرواية أحمد أبو عدس. ولما واجهه المحقق بالسؤال عن مصير أحمد أبو عدس وعن عدم قدرته على القيادة، رغم إفادة فيصل أكبر بأن ثمة من قاد السيارة بأحمد أبو عدس، قال أكبر: «الحقيقة أن أحمد أبو عدس قام بتسجيل شريط الفيديو وقد أحضره خالد الطه من بيروت بتاريخ ١٦/١/٢٠٠٥ إلى الشيخ راشد في مقره في حلب. وفي هذه الأثناء كنت أنا في بيروت قبل شهرين مع فريق العمل، وكان معنا جميل وعدنان وفواز وثامر وبسام ومهند، وكنا نقيم في شقة في الضاحية، ولحق بنا بعدها خالد الطه لإكمال عملية المراقبة. علماً أن مَن قام بعملية التفجير هو شاب سعودي حضر من قاعدة الجهاد في بلاد الحرمين، وقد أرسل من قبل أبو هاجر[١٧]، وهو مَن قام بعملية

---

(١٧) أبو هاجر، الوحيد المعروف من تنظيم القاعدة في بلاد الحرمين، هو عبد العزيز بن عيسى بن عبد المحسن المقرن، يبلغ من العمر ٣٣ سنة، متزوج، من مواليد جزيرة العرب عام ١٩٧١، توقفت دراسته عند المرحلة الثانوية بسبب التحاقه بالمجاهدين العرب في أفغانستان. تلقى المقرن تدريبات مكثفة في معسكر «وال» القريب من مدينة خوست الأفغانية قبل أن ينتقل إلى الجزائر في منتصف التسعينيات للقتال إلى جانب المجموعات المسلحة التي أعلنت رفضها تدخّل الجيش الجزائري، وإعلانه إلغاء نتيجة الانتخابات، لكي لا تتمكن الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي فازت بأغلبية الأصوات من تأليف الحكومة. بقي في الجزائر إلى أن استطاعت قوات الأمن الجزائرية القبض عليه في عملية تهريب أسلحة، لكن أتباعه استطاعوا تهريبه خارج الجزائر. عاد المقرن للتنقل بين المملكة العربية السعودية وأفغانستان ومنها انتقل إلى البوسنة والهرسك للمشاركة في عمليات تدريب وقتال ضد القوات الصربية هناك. وشارك في الحرب في البوسنة والهرسك خلال الفترة ١٩٩٢ - ١٩٩٥، ثم عاد إلى بلاد الحرمين. بعد فترة قصيرة استطاع التسلّل إلى الجمهورية اليمنية ومنها إلى الصومال حيث شارك في القتال ضد القوات الإثيوبية في إقليم أوغادين الذي تسكنه أغلبية مسلمة. لكنّه وقع أيضاً ـ كما حدث له من قبل في الجزائر ـ في يد القوات الإثيوبية، التي حبسته لمدة عامين ونصف عام قبل تسليمه إلى سلطات الأمن السعودية عام ١٩٩٨ حيث حكمت عليه محكمة شرعية بالسجن مدة ٤ سنوات، لكنه لم يمض في السجن سوى نصف المدة، إذ أفرج عنه «لحسن أخلاقه وإتمامه حفظ القرآن الكريم». وبعد شهر واحد فقط من إطلاق سراحه، قرر المقرن مغادرة جزيرة العرب متوجهاً إلى أفغانستان، وقد نجح في الوصول إليها عبر عدة عواصم أجنبية عام ٢٠٠١، وهناك انضمّ إلى مجموعة من الشباب السعودي للقتال جنباً إلى جنب مع قوات طالبان والقاعدة ضد الجيش الأميركي، الذي قرر غزو أفغانستان وإسقاط نظام حكم طالبان بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. بعد سقوط نظام حكم طالبان، عاد المقرن إلى منزل أهله في حي السويدي بالرياض ثم اختفى عن أنظار الأمن السعودي قبل ١٣ شهراً. اتّهمه الأمن السعودي بتدريب معارضين للنظام في مناطق وعرة =

اغتيال الحريري بالشاحنة نفسها التي ذكرتها لكم. بعدها أقدمنا على كسر الشرائح العائدة لهواتفنا الخلوية وغادرنا الأمكنة التي كنا فيها ثم عبرنا إلى سوريا عن طريق التهريب وكان الاستشهادي يدعى أبو مقاتل الأسدي علماً أن الشاحنة قد جهّزت في مخيم عين الحلوة من أبو عبيدة[١٨]».

هنا يتراجع فيصل أكبر عن روايته ويبرّر ما قاله كالآتي: «منذ حوالى أسبوعين، وكنا في لبنان في شقة الشاطئ الذهبي، طلب مني (الشيخ راشد) إعلام الشباب بأن الأجهزة الأمنية في لبنان لا تعرف أي معلومة عن موضوع أحمد أبو عدس، وأضاف أن أعلمهم بأنه في حال أوقف أي منهم لدى هذه الأجهزة أن لا يعترف بموضوع أحمد أبو عدس. وعلى هذا الأساس ولمعرفتي وعلاقتي الوطيدة بأميري الشيخ راشد تخيّلت أن تكون التفاصيل كما ذكرت لكم، وقد وضعت نفسي في هذه التفاصيل كوني اعتقدت أنكم لن تصدقوا عدم مشاركتي إذا ما أخبرتكم بهذه التفاصيل من دون وجودي في مراحلها».

ويضيف مخاطباً المحقق: «كذبت عليكم بموضوع مقابلتي لأحمد أبو عدس، أما عن هاني الشنطي (مروان) وبلال زعرورة (جلال) وعامر حلاق

= بالمنطقة الوسطى والمنطقة الغربية في بلاد الحرمين وأعلن عزمه القبض عليه. بدأ اسم عبد العزيز المقرن «قائد تنظيم القاعدة في جزيرة العرب» يلمع في وسائل الإعلام، وخاصة بعد العمليات المسلحة التي استهدفت حياة الأجانب الموجودين على أرض المملكة، ولا سيما الأميركيّين والبريطانيين. ونشط الأمن السعودي في البحث عنه وأصبح محط الاهتمام بعد اختطاف الرهينة الأميركي بول مارشال جونسون، المهندس في فرع شركة لوكهيد مارتن المتخصصة في صناعة طائرات الأباتشي بالرياض. وقد منح تنظيم القاعدة سلطات الأمن السعودي مهلة ٧٢ ساعة للإفراج عن معتقليه في سجون بلاد الحرمين مقابل الإفراج عن الرهينة الأميركي، لكن الحكومة السعودية رفضت هذه الصفقة فنفّذ تنظيم القاعدة وعيده بقتل الأميركي وظهر رأسه المفصول عن جسده. في ١٩ حزيران/يونيو عام ٢٠٠٤ أُعلن مقتل أبو هاجر، أو عبد العزيز المقرن. وعلى رغم هذه الواقعة المسجّلة إعلامياً، يبدو أن المحقق اللبناني لم يلحظ أن الماثل بين يديه يضلله بهذا الاعتراف، هذا إذا كان فيصل أكبر قد أدلى بالاعتراف هنا كما يرد في النص الرسمي لمحضر التحقيق الذي ننشر ملخصاً عنه هنا.

(١٨) إذا صحّت التسمية، فإن الشخص الوحيد المعروف بأبي عُبيدة بين المجموعات الجهادية هو محمود حسني مصطفى مسؤول عسكري في عصبة الأنصار المتمركزة في مخيم عين الحلوة.

(وسيم) وسليم حليمة (سامر) فقد خضعوا لديّ لدورات أمنية ومن ثم قاموا بمبايعة الشيخ راشد (...) وأؤكد لكم أنني لم أر أحمد أبو عدس في دوراتي الأمنية».

ويقول رداً على سؤال حول تخلّيه عن عمله الأمني: «كلاّ لم أترك عملي بإلقاء المحاضرات في الدورات الأمنية سوى لمرة واحدة ولمدة أسبوع في شهر حزيران/يونيو ٢٠٠٥ حيث قصدت العراق لمقابلة الشيخ أبو مصعب الزرقاوي لمناقشته بشأن الحدود السورية العراقية».

وفي نهاية لعبته الطويلة، التي لا يمكن المحقّقين الهواة من غير ذوي الاختصاص تقدير مدى صحّتها، يقول أكبر أمام المحقّق: «أتراجع عن معرفتي ومشاركتي بمراحل اغتيال الحريري في ١٤/٢/٢٠٠٥» متخلياً ببساطة عن كل التفاصيل التي يقول هو إنها انتُزعت منه بالقوة، والتي كانت القوى الأمنية نفسها تحاول إخفاءها في لبنان، وعدم تقديمها أمام المحاكم، كما أن المدّعي العام لم يطلب إحالة المجموعة أمام المحاكم (في لبنان أو في إطار المحكمة الدولية) بناء على ما سجّلته القوى الأمنية من اعترافات.

ويقع المحقق في خطأ كبير حين يسأل: «ذكرت لنا بأنك تتبع وتنظّم بالإضافة إلى آخرين حركة جهادية مقصدها القتال في العراق؛ أما في لبنان فقد ضبطنا من الشقق التي تديرها أسلحة وصواريخ وقنابل وأجهزة اتصال ومسدسات وقناعاً وأحزمة يستدلّ بها أنها أحزمة ناسفة وأدوات لصبغ الشعر وشرائح كهربائية للتفجير وضبطنا أيضاً أجهزة لاسلكية، ومن الموقوفين الذين اتصلوا بك وأوقفناهم ضبطنا برامج قتالية وتدريبية تفوق المستوى الأمني الذي نعرفه نحن؛ أفدنا عن سبب حيازة هذه (المضبوطات) خاصة وأنه قد تبيّن لنا أن الحركة لم تحدث من سوريا للعراق بل من سوريا للبنان، فلماذا هذا الوجود بالشكل الحذر مع تزويد كل فرد منكم أقلّه مستند هوية مزوّراً؟ كما تبيّن أن لكل واحد من رفاقك وأنت ضمناً تحمل عدة بطاقات «تلي كارت» يستعمل كل بطاقة لشخص واحد وقد سُجّل لقبه على ظهر البطاقة؛ إضافة إلى طلبنا منك إفادتنا باسم شخص واحد من الذين تابعوا دورات وبايعوا قد تمكن من الوصول إلى العراق للقتال لتحقيق هدفه؟»

إذ لم يرد في لائحة المضبوطات الطويلة، المنظمة في نهاية التقرير بحسب الأصول القانونية، لم يرد ذكر أحزمة ناسفة أو غير ناسفة، وبالتالي فإن المحقق يسأل عن أمر لم يسجّل بشكل نظامي، هذا إذا ما وجِد! ولو اقتصر الأمر على المحقق لأمكن اعتباره نوعاً من الخداع، إلا أن المحضر يورد إجابة فيصل أكبر عن السؤال حيث يقول: «لقد قدِمنا إلى لبنان هرباً من الحملات الأمنية السورية ومتابعة العمل الجهادي المسلح في لبنان وتوابعها من القنابل والصواريخ، أما بالنسبة للأحزمة الناسفة فهي تدخل في عملنا أيضاً، أما أدوات صباغ الشعر فهي للتنكر ويستعملها الشيخ راشد وليس أنا، أما الشرائح الكهربائية فهي تخص قسم الألكترونيات في الجماعة بإدارة جميل. وأما الدراسات المحفوظة في كمبيوترات الإخوة فهي دراسات قتالية حديثة مثل دورة الشهيد إسماعيل الخطيب لتركيب دوائر ألكترونية على المتفجرات، ودورات صناعة المتفجرات، ودورات في أجهزة الاتصال المتقدم. أما عن الإخوة الذين قاتلوا في العراق وقد قدموا من لبنان فأذكر لكم الشهيد أبو عمر اللبناني أي والد محمد رمضان الذي استشهد ابنه أيضاً في العراق وذلك منذ سنتين أما حالياً فقد أقفلت الحدود منذ حوالى شهر ونصف».

ويقول أكبر إن «خالد (طه) موجود في مخيم عين الحلوة لدى عصبة الأنصار، وهم إخوة لنا وبيننا وبينهم تنسيق، وهم يعتنون به كما كان اتفاق الشيخ راشد مع الملقّب أبو بصير[١٩] وهو مسؤول الجماعة، وأفيدكم بأن خالد الطه قد ترك مسدسه في شقة عين الرمّانة لدى هاني الشنطي لشعوره بالأمان كونه يعلم أنه سينتقل إلى مخيم عصبة الأنصار».

ويسرد أكبر تفاصيل زيارات سابقة له إلى لبنان حيث يقول: «لقد حضرت إلى لبنان في أواسط عام ٢٠٠١ مكلّفاً من قبل أبو مصعب الزرقاوي لقاء جماعة جند الشام الموجودة في مخيّم عين الحلوة، قدمت من تركيا إلى لبنان، ومكثت في فندق وايت هاوس في الحمراء باسمي الحقيقي مدة ساعة فقط، بعدها انتقلت

(١٩) في كل اللوائح الاسمية لا يرد ذكر لاسم أبو بصير.

برفقة الملقب معين[٢٠] إلى مخيم عين الحلوة للتباحث مع جند الشام بموضوع المبايعة والخروج للجهاد في أفغانستان. وبقيت في المخيم حوالى أسبوعين سافرت بعدها إلى تركيا ومن ثم إلى أفغانستان، كما نزلت في العام نفسه من سوريا إلى لبنان عن طريق المصنع باسمي الحقيقي أيضاً وانتقلت مباشرة إلى مخيم عين الحلوة (حيث) التقيت مجدداً الإخوة جند الشام لحوالى أربعة أيام لمراقبة موضوع الخروج للجهاد وتفحّص إمكانية وجهوزية جماعتكم. في ذلك الحين أصبحت مطلوباً في لبنان للقضاء اللبناني لكون معين قد أوقف في سوريا وسُلّم إلى لبنان بجرم تزوير، وكنت ألقّب حينذاك بـ«قويظ» وتمكنت من الخروج إلى سوريا وعدت إلى لبنان بعدها في تواريخ لا أذكرها حوالى ثلاث مرات أيضاً إلى مخيم عين الحلوة. بعد هذه الفترة أصبحت أدخل لبنان بجواز السفر السعودي المزوّر باسم فهد اليماني، وكنت أحضر فقط ليوم أو يومين من أجل الأختام لدى الأمن العام السوري لأظهر أن الجواز عليه أختام وهو المزوّر. وكنت أستخدم لدى حضوري إلى لبنان شققاً مفروشة في الحمراء والروشة كما نزلت في محلة الشويفات في شقة برفقة نبيل الملقب أبو الغادية والذي استشهد في العراق، ومكثت يومين هناك، رجعت بعدها إلى سوريا بينما بقي نبيل هنا وذلك في العام ٢٠٠٣ فأكون قد حضرت إلى لبنان حوالي ثمان مرات».

ويشير أكبر إلى أن الرسائل التي تم العثور عليها مع المجموعة موجّهة «إلى أبو مصعب الزرقاوي من الإخوة في عُصبة الأنصار في مخيّم عين الحلوة من خلال راشد، وإن الرسالة الموجهة إلى «الحجي» وهو لقب أبو مصعب الزرقاوي، ورسالة أبو الليث النجدي الذي استشهد، فهذه الرسائل لراشد، علماً أنني ولدى تلقي أي رسالة وبعد قراءتها أقوم بإحراقها، ولا أعلم لماذا ما يزال راشد يحتفظ بهذه الرسائل». ويضيف متحدّثاً عن البطاقات البلاستيكية أنها من «نوع فيزا بأسماء أشخاص سعوديين وهي لراشد حيث يكون بإمكانه سحب المبالغ منها بعد أن يودع أصحاب البطاقات مبالغ تبرعات للتنظيم. (...) إن

(٢٠) وهو غير معين الفلسطيني الذي سيرد ذكره لاحقاً في إطار التنسيق مع القاعدة في لبنان.

راشد يقوم بإرسال السيوف إلى العراق لأبو مصعب الزرقاوي، ولا علم لي بمَن يحضرها من لبنان من الشباب».

وعندما يسأل المحقق فيصل أكبر عن سبب تراجعه عن إفادته بالضلوع في عملية اغتيال الحريري خاصة بعد أن أدلى بمعلومات دقيقة «ومن ثم أدليت بهذه الإفادة شفوياً أمام المقدّم رئيس الفرع ومن ثم تراجعت عنها»، يجيب أكبر: «لقد ذكرت لكم أموراً ابتكرتها من نسج خيالي ولا تمتّ للواقع بصِلة وهي تقسيم الفيلم إلى أربعة مقاطع وهي المقدمة الشرعية وتتضمن آيات قرآنية ثم حديث شريف، والثالثة وهي الأسباب السياسية التي تتضمن سرقة أموال لبنان وأن الحريري وقّع على إعدامات للشباب المجاهدين في لبنان الذين أقدموا على اغتيال نزار الحلبي وانتقاماً لشهداء الحرمين مثل أبو هاجر عبد العزيز المقرن[21]، والرابعة وهي الوصية لوالدته وللمسلمين عامة. وأؤكد لكم أن جميع هذه التفاصيل قد اعتمدتها من خيالي وليست حقيقية (...) إن السبب الحقيقي الذي ذكرته ومتأكد منه هو أمر عام وشائع بين المجاهدين وهو أمر توقيع الحريري لإعدامات المجاهدين في لبنان، وقد سمعت هذا الأمر من راشد بعد اغتيال الحريري ومتابعتنا الأخبار على التلفزيون في المكتب الأمني في سوريا في النهار نفسه الذي اغتيل فيه الحريري (...) وقد قال راشد حينها بعد عرض الفيلم على قناة الجزيرة «إن الحريري متورّط ومسؤول عن توقيع الإعدامات للمجاهدين في قضية نزار الحلبي»، ولم أكن أعرف هذا الأمر قبل أن يخبرني به راشد».

ويتحدث عن أول لقاء له بحسن نبعة كالآتي: «لقد تعرفت براشد الموقوف لديكم وعلمت الآن أنه يدعى حسن نبعة في أفغانستان خلال العام ٢٠٠٠ في أحد

---

(٢١) مرة أخرى يحاول فيصل أكبر تضليل المحقق حيث يذكر أمامه اسم أبو هاجر ويقول إنه قُتل، وكان قد ذكر سابقاً أمامه العبارة التالية «إن مَن قام بعملية التفجير هو شاب سعودي حضر من قاعدة الجهاد في بلاد الحرمين، وقد أرسل من قبل أبو هاجر، وهو مَن قام بعملية اغتيال الحريري».

معسكرات التدريب وبقينا معاً حوالى خمسة أشهر، ثم أرسله أبو مصعب الزرقاوي إلى لبنان لتنظيم مجموعات لتهيئة الأرضية للجهاد في لبنان فحضر راشد وكان حينها يلقّب بأبو مسلم».

وفي محضر استجواب آخر يقول فيصل أكبر: «لقد تعرفت براشد في منتصف العام ٢٠٠٠ في أفغانستان في معسكر هيرات التابع لأبو مصعب الزرقاوي، المسؤول المباشر للمعسكر، وفي حينه كان أبو مصعب غير منتم إلى تنظيم القاعدة، ومعظم مَن كان داخل المعسكر من الشباب الأردني وكنت في حينه أتلقى مع راشد دورات عسكرية على الأسلحة المختلفة والمتفجرات ودورات على الأجهزة الألكترونية وحرب العصابات. وفي بداية العام ٢٠٠١ وبناءً على أوامر أبو مصعب الزرقاوي قمت بإيصال راشد إلى سوريا عبر إيران بموجب جواز سفر سعودي مزوّر أجهل الاسم المستخدم في حينه، وبوصولنا إلى سوريا توجه راشد بعد عدة أيام إلى لبنان واتصل بي هاتفياً لطمأنتي إلى وصوله. وبعد أن أنجزت المهمة عدت إلى أفغانستان. وفي العام ٢٠٠٣ عدت إلى سوريا عن طريق العراق بناءً على طلب أبو مصعب الزرقاوي وبدأت العمل تحت إمرة راشد للدعم اللوجستي للمجاهدين في العراق».

وبناء على طلب المحقق الذي يبدأ بالتركيز على قصة خروج فيصل أكبر من بلاده، بدلاً من عملية اغتيال رفيق الحريري، يقول فيصل أكبر في جلسة تحقيق ثالثة حول جولاته في عالم الجهاد: «لقد خرجت من بلدي، المملكة العربية السعودية، لأول مرة إلى الكويت من أجل تعزية الملقب أبو أسامة، كويتي الجنسية، الذي استشهد شقيقه في الشيشان وذلك في العام ١٩٩٩. بعدها عدت إلى السعودية، وخرجت مجدداً إلى باكستان عن طريق دُبَي في العام نفسه في شهر ١٢ من أجل الدخول إلى أفغانستان لتلقي التدريب والجهاد والقتال مع طالبان حيث ذهبت إلى معسكر خلون. وكنت قد أخذت من الشيخ حمود العقلة مبلغ ثمانية آلاف ريال سعودي كمصاريف الطريق. وفي المعسكر، وأذكر أنه كان عيد الأضحى، التقيت أمير المعسكر ابن الشيخ الليبي، وكنت ألقّب بأويس (قويظ) القطري. بقيت في مضافة حوالى ستة أيام، وكان معي شباب سعوديون

وشخصان بريطانيان أحدهما نفّذ عملية في القدس تبنّتها كتائب القسام. وفي أفغانستان أيضاً بقيت في معسكر خلون ثلاثة أشهر حيث خضعت لدورة تأسيسية مدتها أسبوعان على يد المدرّب ابن الشيخ الليبي، ثم دورة استخدام متفجرات لأسبوعين على يد عبد الباري السوري، ثم دورة مهارات ميدانية لأسبوع على يد غريب التركستاني، ودورة حرب مدن لثلاثة أسابيع على يد غريب المذكور، علماً أن هذه الدورة تلقيتها في كابول. وأثناء وجودي في معسكر خلون التقيت السعوديين خباب وعداس وأبو نبيل وفيصل خان الذي أرسله وأعدّه الشيخ سفر الحوالي. بعدها ذهبت إلى قندهار لمضافة أبو خلود اليمني ومن ثم نُقلت إلى معسكر الفاروق التابع للشيخ أسامة بن لادن، وكان برفقتي فرقان النمير وسجيع السعودي وهو من المنطقة الشرقية، ولقمان القسيمي من عُنيزة».

«في معسكر الفاروق خضعت أيضاً لدورة تأسيسية مدتها أربعون يوماً تدربت خلالها على الأسلحة والطبوغرافيا والمتفجرات والمهارات الميدانية، وكان المدربون أبو جليل وأبو إبراهيم وسواد وهم من اليمن، ثم دورة أسلحة ثقيلة مدفعية هاون ـ SBG9 ـ ومدافع ٨٥ و٧٢ على يد المدرب أبو إبراهيم النمير الصنعاني، وهو شقيق سواد. ولم أكمل هذه الدورة لكوني ذهبت إلى القتال ضد أحمد شاه مسعود لمدة أسبوعين في شمال كابول عدت بعدها إلى كابول حيث المضافة. وكنت قد التقيت الشيخ أسامة بن لادن بعد الدورة التأسيسية في مقرّه في مجمّع المطار في قندهار وذلك عن طريق أبو خلود اليمني، من أجل تحضيري للمشاركة في عملية ١١ أيلول/ سبتمبر واحتمال مشاركتي فيها وذلك حسب ما اعتقدت في ذلك الوقت. وطلبت من الشيخ أسامة عبر رسالة مكتوبة إخضاعي وخمسة من رفاقي هم أيمن الكردي ومسلم الكردي وسجيع السعودي، ولم أعد أذكر الآخرين، لدورة تدريب على الدبابات حيث قبل طلبي وخضعنا لدورة مدة أسبوع في مجمع المطار على الدبابة ت ٦٢، وكان المدرب أمير المصري. علماً أنني لم أبايع حينذاك الشيخ أسامة بن لادن لدى مقابلتي له، ولم يكن قد كفّر الحكام السعوديين في ذلك الوقت. كما التقيت في كابول الدكتور أيمن الظواهري وبعض الجزائريين إضافة إلىٰ أبو مصعب السوري وشخص

سعودي ملقب بأبو علي في عدة مناسبات لمناقشة أمور شرعية، وكنت أنهل من الدكتور أيمن الظواهري».

ويمضي أكبر قائلاً: «في هذه الأثناء وفي شمال كابول كنت قد قابلت شخصاً أردنياً ملقباً بجلال، وهو سائق أبو مصعب الزرقاوي وقد عرّفني إليه وكانت أول مرة لي أقابل بها أبو مصعب الزرقاوي، والتقينا بالفكر التكفيري الجهادي المشترك بيننا حيث بايعت أبو مصعب الزرقاوي في كابول وذلك في صيف الألفين على ما أذكر، وكان مع أبو مصعب أبو القسّام، وهو أردني، ونائبه ونبيل السوري أي أبو الغادية. وكنت أسكن في كابول، وكان أبو مصعب على طريق غارديز بعيداً عنا بحوالى نصف ساعة حيث مكثت لديه على هذا العنوان لحوالى الأسبوعين. في هذه الأثناء كانت جماعة أبو مصعب تعد حوالى اثني عشر رجلاً من بينهم مغيرة الأردني وأبو أسامة الشامي وعبد العزيز الأردني. بعدها غادرت مع أبو مصعب الزرقاوي وصُهيب الأردني إلى مدينة هيرات قرب الحدود الإيرانية وقابلنا الملاّ عبد الحنّان، أمير تلك المنطقة، حيث ناقش معه أبو مصعب موضوع إقامة معسكر خاص بأبو مصعب في تلك المنطقة، وعدنا أنا وأبو مصعب وصهيب إلى قندهار بعد أن وافق الملا عبد الحنّان على إنشاء المعسكر».

«وبالفعل بدأ أبو مصعب بإرسال الشباب إلى معسكر هيرات للتدريب، بعدها انتقلنا إلى معسكر هيرات أنا وأبو مصعب والبقية، حيث استقر أبو القسّام كمسؤول عن المعسكر، وأصبح أبو مصعب يتردد إلى المعسكر من وقت لآخر لمتابعة شؤون التدريب، حيث تابعت أنا دورات عديدة على أنواع أسلحة وأمور عسكرية. وأصبح معسكر هيرات مقراً ثابتاً لنا، أي لجماعة أبو مصعب. وخلال وجودي في هيرات وبناءً على تعليمات أبو مصعب سافرت إلى البحرين عبر طهران لمدة خمسة أيام حيث أحضرت حوالى خمسة آلاف دولار من شخص سعودي ملقّب بشعيب وجوازي سفر سعوديين، أحضرتهما إلى هيرات، ولاحقاً استخدم أبو مصعب أحد هذين الجوازين والآخر استعمله أبو القسّام».

ويعود أكبر إلى الحديث عن لقائه الأول مع حسن نبعة فيقول: «وتعرفت إلى اللبناني الوحيد في معسكرات التدريب وهو حسن النبعة (الشيخ راشد) الذي كان

يلقب حينها بأبو مسلم، وعلمت منه أنه قد شارك في أحداث الضنّية التي شرح لي تفاصيلها، والحقيقة أنني لم أكن أعلم قبل أن يعلمني حسن النبعة بوجود جماعة مجاهدة في لبنان، وأعلمني أيضاً بأن مجموعة الضنّية كانت بقيادة أبو عائشة الذي كان في أفغانستان في فترة سابقة. مكث حسن هذا في معسكر هيرات وتابع دورات مع باقي الشباب، وكان هذا في أواسط عام ٢٠٠٠ على ما أذكر. وسافرت بعدها إلى تركيا لمقابلة الملقب أبو سعد، أردني الجنسية، وهو مساعد ومن القادة في الشيشان، لإحضاره إلى إيران لمقابلة أبو مصعب الزرقاوي لربط الخطوط بين أبو مصعب وأبو سعد. أحضرت أبو سعد إلى طهران وحضر الزرقاوي إلى هناك، تقابلا واتفقا وكانت الخلاصة أن أبو سعد سوف يدعم نشاط الزرقاوي ومعسكره. ثم سافرت مجدداً - ودائماً بناءً على تعليمات الزرقاوي - إلى سوريا حيث اصطحبت شخصين أردنيين إلى تركيا، وهناك تسلّمت جهاز اتصال مرسلاً من بريطانيا من شخص موجود هناك يدعى محمود، وهذا الجهاز هو هاتف للاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، وهو شبيه بالكمبيوتر المحمول لونه أسود، وعلمت أن الأميركان وإذاعة البي بي سي يستخدمان مثل هذا الجهاز. ولم أتمكن من الاستحصال على تأشيرة دخول للأردنيين اللذين كانا معي فاصطحبتهما إلى نقطة عبور حدودية بين تركيا وإيران في مدينة أرضروم، وتمكنّا نحن الثلاثة من العبور إلى إيران وهناك احتجز الجمرك الإيراني الجهاز وأعلمني أنه لدى مغادرتي إيران باستطاعتي تسلّمه، وأوصلت الشخصين إلى طهران حيث قابلا أبو مصعب في فندق أزادي. وبقينا ثلاثة أيام اصطحبتهم بعدها إلى هيرات حيث المعسكر. وعدت إلى النقطة الحدودية في إيران وتسلّمت الجهاز وعدت إلى تركيا حيث سافرت جواً من مطار أتاتورك إلى مطار طهران وذهبت بجهاز الاتصال بشكل طبيعي وسلمته لأبو مصعب الذي حضر إلى إيران وتسلّمه هناك أيضاً. سافرت إلى البحرين قبل شهر رمضان لعام ١٤٢١ هجرية، وقابلت السعودي شعيب وتسلّمت منه مئة ألف دولار أميركي وعدت بها إلى طهران حيث قابلت أبو سعد الأردني وسلّمت هذا المبلغ لأبو سعد الذي سيسلّمه بدوره لأبو مصعب الزرقاوي».

ويتابع فيصل أكبر إفادته متحدثاً عن سفره إلى لبنان: «بعدها سافرت إلى لبنان عن طريق تركيا بهدف التنسيق مع مجاهدي مخيم عين الحلوة وتحديداً جند الشام بعد أن تم وصلي بهم بواسطة فلسطيني مقيم في تركيا ملقب بأبي قتادة. وفي بيروت نزلت في فندق وايت هاوس في محلة الحمراء حيث حضر بعد ساعة شاب يدعى معين، فلسطيني، اصطحبني إلى منزله في صيدا قرب منازل الضبّاط وبعدها أخذني إلى داخل المخيّم. مكثت هناك عشرة أيام ونقلت رسالة أبو مصعب الزرقاوي وتلوتها لهم ولاقيت جهوزيتهم واستعدادهم لإرسال أشخاص من قبلهم إلى أفغانستان وكان التنسيق بيني وبين اللبناني أبو بكر الميقاتي، علماً أنه في حينه كانت جماعة جند الشام على خلاف عقائدي مع عصبة الأنصار. عدت إلى تركيا ومنها إلى هيرات، وأعلمت الزرقاوي حينها بنتيجة سفري إلى لبنان. بعد هذه الفترة انتقل قسم من معسكر هيرات إلى كابول وكان بينهم حسن النبعة وتركيان اثنان، والباقون أردنيون، حيث خضعوا لدورة حرب عصابات ودورة على المسدس، وذلك حوالى شهر. وبعد انتهاء الدورة وبناءً على تكليف أبو مصعب لي ولحسن النبعة بالانتقال إلى سوريا ومنها إلى لبنان لإكمال ما بدأت به أنا في مخيم عين الحلوة من قبل حسن النبعة، وبعد تزوير الأخير في أفغانستان لجواز سفر سعودي انتقلت من أفغانستان إلى إيران، وبرفقتي حسن النبعة. وصلنا سوريا إلى منطقة المرجة ومكثنا في فندق الروضة مدة أربعة أيام، حيث رتب حسن النبعة اتصالات مع جماعة المخيم في لبنان».

«بعدها انطلق حسن إلى لبنان ثم اتصل بي من لبنان إلى دمشق وطمأنني أنه بخير، وقد وصل إلى لبنان لكونه، وكما ذكرت، مطلوباً ومطارداً بسبب أحداث الضنّية. عندها سافرت عائداً إلى إيران ومنها إلى أفغانستان. وفي الرحلة الأخيرة التي وصلت بها إلى تركيا، على أساس أن أكمل من هناك إلى السعودية بقصد جمع أموال من المشايخ والدعاة في المملكة، ومن أجل هذه السفرة كان عليّ أن أتخلّص من تأشيرة أختام إيران وباكستان، وبغية ذلك كان أبو مصعب قد زوّدني برقم هاتف في تركيا لشخص من الجماعة يدعى لؤي سوري الجنسية، فقام هذا الأخير بمسح أختام الدخول والخروج لإيران وباكستان عن جواز سفري باسمي

الحقيقي فيصل أكبر. وقبل أن أبدأ الرحلة إلى السعودية حدثت عملية ١١ أيلول/ سبتمبر في أميركا وكنت ما أزال في إسطنبول، وعدت إلى إيران ومكثت مدة شهر ودخلت بعدها تهريباً إلى أفغانستان عن طريق زابُل، وهي منطقة حدودية في إيران ومنها إلى هيرات. وكان القصف الأميركي لأفغانستان قد بدأ، وتزايد الضغط في أفغانستان فطلب على أثرها أبو مصعب الزرقاوي مني ومن موفّق الأردني وعبد الرحمن المهندس، وهو أردني أيضاً، الذهاب إلى المناطق الحدودية الإيرانية للبحث عن مخارج بين البلدين حيث وصلت إلى إقليم خورستا، إلى قرية قرب الحدود الأفغانية الإيرانية وبرفقتي المذكوران، وبوصولنا إلى هناك كانت هيرات قد سقطت بيد إسماعيل خان، وانسحبت المجموعة من هيرات بقيادة أبو مصعب الزرقاوي وأبو القسام وأبو عبيدة ونبيل أبو الغادية والآخرين إلى منطقة قندهار، فلم نتمكن نحن من الوصول إليهم في قندهار، وقررنا الدخول إلى إيران فدخلنا تهريباً، وهناك قابلنا أبو عبد الرحمن الشهري، وهو سعودي (الجنسية) ومسؤول في الجماعة، أي القاعدة، وأقمنا لديه في مضافات معدّة لاستقبال الشباب، آملاً في العودة إلى أفغانستان.

«وتمكن أبو مصعب ورفاقه من الدخول إلى إيران وتقابلنا مجدداً في إيران حيث اجتمعنا مع صالح العوفي الملقب بالحكيم، وصقر الجهاد وهو سعودي أيضاً، وأبو مصعب وآخرين. وكان المدعو لؤي السقا، وهو من معارف أبو مصعب الزرقاوي، هو مَن يؤمّن جوازات السفر المزوّرة، حيث استحصلت على جواز سفر مزوّر باسم عبد العزيز الشمّري، وأوقفت في طهران خمسة أشهر لاستعمالي هذا الجواز ودخولي خلسة، ولدى خروجي من السجن سافرت من إيران إلى سوريا بينما بقي أبو مصعب الزرقاوي وأبو القسام وأبو حنظلة وهو أردني الجنسية في إيران».

ويتحدث أكبر عن تدريب المتطوعين وإرسالهم إلى العراق لقتال الجيش الأميركي: «وصلت إلى سوريا في أواسط العام ٢٠٠٢، وأجريت اتصالاتي بإيران بأبو القسام، الذي أمّن لي اتصالاً بنبيل أبو الغادية، وحضر الأخير إلى سوريا، فاتصلت بنبيل واجتمعت به وأخذني إلى شقته في حمص حيث مكثت لديه.

وكان أثناءها نبيل أبو الغادية هو المسؤول عنّا في جماعة أبو مصعب، وكان على اتصال به، علماً أن أبو مصعب قد أصبح في بغداد ويتردد أحياناً إلى إيران؛ وكانت مهمتي هي نقل الرسائل حيناً والمال أحياناً أخرى بين نبيل في سوريا وأبو مصعب الزرقاوي في بغداد في حي الجامعة، ولم يكن النظام قد سقط بعد وكنت أحياناً أمكث في بغداد لدى أبو مصعب الزرقاوي حوالى شهر، وكنت أتلقى الاتصالات الهاتفية كون أبو مصعب لم يعد يستعمل الهاتف، وكنا نقوم بتحضير الخلايا التي ستقاوم الأميركيين في حال دخولهم العراق.

«ولدى اشتداد الحملة (الأميركية) واقتراب موعد الدخول الأميركي انتقلت إلى سوريا، بناءً لتعليمات أبو مصعب، للمتابعة مع نبيل. وصلت سوريا ووجدت هناك حسن النبعة وشخصاً آخر ملقباً بمنذر، وهو سوري وكان معنا في أفغانستان، وقد انضما إلى نبيل وبدأنا بتهيئة الوضع للعمل اللوجستي في العراق، وكنت أنا مسؤولاً أمنياً للتدريب في الدورات الأمنية للشباب، وحسن النبعة الذي أصبحت ألقابه: راشد ومؤيّد وأبو حيدر وميلاد وأوّاب، هو الأمير الذي يبايع، كونه قد بايع أبو مصعب في أفغانستان وصاحب الخبرة في الضنّية، ونبيل أصبح نائب راشد، أما منذر فقد تركنا. وبدأ عندها راشد بتجنيد الشباب من لبنان لكونه لبنانياً، ونبيل بدأ بتجنيد السوريين لكونه سورياً، وحضر من لبنان خالد الطه الملقب بنور وسابقاً ببدر، فأخضعته لدورة أمنية في حلب ومن ثم بايع راشد في حلب أيضاً، علماً أنني كنت قد أقمت دورات للعديد من السوريين وبايعوا راشد أو نبيل أحياناً بناءً على طلب راشد. وحضر جميل الذي لم يخضع لدورة كونه يتمتع بخلفية أمنية أجهل مصدرها، ثم حضر سامي أيضاً ثم أُخضع لدورة، ولاحقاً حضر طارق التركي، الذي دخل العراق للقتال، واستمر حضور الشباب من لبنان ومن بلدان أخرى إلى سوريا، وخضع البعض منهم لدورات أمنية ومن ثم بايعوا، منهم مَن انتقل إلى العراق ورجع ومنهم مَن استشهد هناك مثل أبو عمر اللبناني وولده محمد».

«قبل هذه الفترة كان إسماعيل الخطيب قد حضر إلى سوريا، وعلمت لاحقاً أنه استشهد في لبنان، وأوقف أبو بكر ميقاتي واتهم السعودي أبو جعفر التويجري

لعلاقته بميقاتي والخطيب، وبقي أبو جعفر في سوريا، ومن ثم انتقل إلى العراق. وبعد أن أصبح خالد الطه ضمن الجماعة قام بتجنيد هاني الشنطي، الذي خضع لدورة أمنية لديّ وبايع راشد، ومن ثم قام هاني بتجنيد عامر حلاق، الذي مرّ بالمراحل نفسها دورة ثم مبايعة، ومن ثم سليم حليمة وبلال زعرورة، حيث كان لؤي السقّا قد حضر إلى سوريا ومكث لدى راشد وخضع لعملية تجميل لتغيير شكله لكونه أصبح معروفاً».

ويشير أكبر إلى اسم التنظيم الذي باتت تنتمي إليه الجماعة فيقول: «وكان الاتصال مع الزرقاوي محصوراً براشد لكونه أمير الجماعة، وكنا نُعرف بجماعة التوحيد والجهاد. وأرسلني راشد مرات عدة لمقابلة الزرقاوي في العراق حاملاً رسائل أو ناقلاً أموالاً. وفي العام ٢٠٠٣ قصدت بيروت باسم فهد اليماني المزوّر، حيث قابلت نبيل الذي كان قد سبقنيَ إلى لبنان، واستقررنا في شقة في الشويفات وبقيت معه يومين وغادرت بعدها إلى سوريا، بينما بقي نبيل في لبنان للتنسيق مع عصبة الأنصار الممثلين بأبو محجن وأبو طارق وأبو شريف وأبو عبيدة، وبقي نبيل في لبنان حوالى شهرين وعاد إلى سوريا».

«وكان الاتصال مع الجماعة في لبنان (يتم) بواسطة خالد الطه الذي يتواصل مع جميل في سوريا بأوامر راشد. وكان خالد الطه يتنقل بين لبنان وسوريا إلى أن حدث الانفجار في لبنان في شباط/فبراير ٢٠٠٥، وبقي خالد الطه وبلال زعرورة في مكان أجهله في حمص ولم يعد بيني وبينهما أي اتصال، وكان راشد وجميل يقابلانهما إلى أن ظهر اسم خالد الطه في التقرير[٢٢] فصدر الأمر بشكل قاطع بأن لا تحصل أية اتصالات مع خالد الطه وبلال زعرورة.

«استشهد نبيل أبو الغادية[٢٣] في العراق، فحلّ مكانه سامي وهو شقيق

---

(٢٢) التحقيقات الجارية حول اغتيال الرئيس رفيق الحريري واختفاء أحمد أبو عدس.

(٢٣) يتعرف فيصل أكبر على الصور الشمسية لبعض من يرد ذكرهم في اعترافاته وهم: نبيل الملقب بأبو الغادية ويدعى سليمان درويش سوري الجنسية، وداني المدعو جهاد ضاهر، ومعين المدعو معين حسين عبد الرحمن فلسطيني الجنسية، وأبو بكر ميقاتي المدعو أحمد الميقاتي، وحسن الشاب المرافق للؤي السقا وقد أوقف معه في تركيا.

الموقوف لديكم فرج، فأصبحت القيادة لراشد (حسن نبعة) ثم نائبه سامي وطارق التركي وجميل وأنا ورشاد الفلسطيني وسامر المسؤول الإعلامي. ثم حدث الانشقاق في بداية رمضان ٢٠٠٥ حين انشق زكريا عفش الملقب بأبو أنس عن راشد، وأصبح أميراً وطلب مبايعته وانشق بعض الشباب معه. غضب راشد لذلك وحاول إصلاح الأمر لكن أبو أنس لم يقبل. وراسل راشد الزرقاوي فوعد الأخير بحل المشكلة ثم حدث الانفجار في العبوّة التي كنا ننقلها في سيارة بيجو لونها أبيض في حلب الجديدة وقُتل على أثرها طارق التركي ومهنّد نائب طارق، وأصيب سامي واعتقل، وأصبت أنا فتركت السيارة وهربت إلى مضافة الجرحى في حلب، حيث التقيت الطبيب طارق الناصر الذي عالجني ، وكان راشد موجوداً».

«بدأت الحملات الأمنية والمداهمات في حلب، فبدأ راشد بالتفكير بالانتقال إلى لبنان واستعمال المضافات التي استؤجرت من قبل الشباب في لبنان، وكان راشد وجميل هما المتابعين لأوضاع لبنان من حيث الشقق والسلاح. ولاحقاً وبناءً على أوامر راشد بقطع كل اتصال مع جميل من لبنان أي مع هاني الشنطي، كلّفني راشد متابعة الاتصالات مع هاني وعامر في لبنان. وانتقلنا أنا وراشد تهريباً إلى لبنان ونقلنا المسدسين والقنبلة والكمبيوتر وتوابعه والبطاقات المزوّرة وبطاقات المال البلاستيكية العائدة إلى راشد والذي يعرف أرقامها السرية والأغراض الأخرى، وقام داني بتهريبنا إلى لبنان وحضر طارق الناصر قبلنا. مكثنا أنا وراشد لدى صديقه في المكان الذي ذكرته لكم ومن ثم انتقلنا إلى بناية الشاطئ الذهبي. وأثناء وجودي في لبنان كنت أتلقى الاتصالات من هاني الشنطي، الذي (توقف عن الاتصال) بجميل، ومن عامر وفرج ونضال الذين حضروا إلى لبنان تهريباً أيضاً، وترتب أمر المضافات في بيروت لتوزيع الشباب عليها وأثناء تفقدي هاني الشنطي في شقة البسطة ومن ثم عين الرمانة (تم القبض عليّ)».

ويوضح فيصل أكبر سبب تغيير اسم التنظيم ليصبح «القاعدة في بلاد الشام» ويكشف عن كيفية عمل التنظيم من أجل الحفاظ على سرّيته فيقول: «إن التنظيم الذي نتبع له كنا نطلق عليه اسم جماعة التوحيد والجهاد، وذلك قبل مبايعة أبو

مصعب الزرقاوي للشيخ أسامة بن لادن، أما بعد المبايعة التي حصلت منذ حوالى العام[٢٤] فقد أصبحنا نطلق على تنظيمنا اسم القاعدة في بلاد الشام دون أن نعلن هذا الاسم بسبب الظروف الأمنية (. . .) نحن نعمل كمجموعات منفصلة ولا نعرف أفراد المجموعات الأخرى علماً أن كل المجموعات تكون بقيادة الأمير راشد ومعروفة من قبله. وبغية الحفاظ على سرية النشاطات والعمل والأهداف قد يصدر أمر عن راشد بالإعلان عن بعض نشاطات تنظيمنا باسم جماعة وهمية وذلك حتى لا يعرف أعضاء باقي المجموعات أن التنظيم هو مَن نفّذ هذا النشاط. إن أسلوب العمل كمجموعات منفصلة هو أسلوب متّبع في تنظيم القاعدة عموماً، وكوني أقوم بإعطاء دورات أمنية فإني أعرف هذا الأسلوب وأدرّسه للأعضاء الجدد، علماً أن هذا الدرس معنوَن باسم العمل السري (. . .) ولا علم لي حتى تاريخه بأي نشاط قام به تنظيمنا في بلاد الشام وتم الإعلان عنه تحت اسم تنظيم وهمي (. . .) وبعد أن تسلّمت متابعة الاتصالات مع الشباب في لبنان، بناءً على أوامر راشد، أوعز إليّ بإعلامهم أنه في حال حدوث أي توقيف لأي منهم وسؤالهم عن نشاطهم المفترض أن يردوا بأن هذا النشاط من أجل العراق.

«(. . .) إن جماعتنا بانتمائها الحالي وبأميرنا راشد (حسن النبعة) وتسميتها القاعدة في بلاد الشام هي كالعمل الجهادي في السعودية باسم القاعدة في بلاد الحرمين، وفي العراق باسم القاعدة في بلاد الرافدين، وهي في نهاية التسلسل الهيكلي تتبع لتنظيم القاعدة الأم، وتضم كل قاعدة في كل بلد مجموعات جهادية تعلن ولاءها ومبايعتها للجماعة الأكبر، مثل عصبة الأنصار التي تنضم لتنظيمنا قاعدة الجهاد في بلاد الشام».

الأمير حسن نبعة

في أولى جلسات المحاكمة التي خضع لها حسن نبعة[٢٥] ورفاقه في

---

(٢٤) بدايات العام ٢٠٠٥.

(٢٥) يعرّف حسن نبعة عن نفسه أمام المحقق كالآتي: حسن بن محمد نبعة والدتي صبحية نبعة تولّد كفرشيما في ٢٦/٣/١٩٧٤ ومن سكان بيروت محلة المدينة الرياضية، كنت أقيم في سوريا في =

المحكمة العسكرية في بيروت، كان «أمير الجماعة» يجلس بين أقرانه ورأسه مرفوع عالياً، وحين كان أحد الصحافيين يحاول الإشارة إليه ينظر حوله، مستغرباً التوجه إليه من دون زملائه، ثم يهزّ برأسه إشارة تحية، محافظاً على هيبته بين أقرانه. والواقع أن الشاب حسن نبعة يمتاز بقوة الشخصية، وبكاريزما مكّنته من جمع العديد من الشبان حوله، وإدارة حركتهم بالعمل السرّي، كما مكّنته شخصيته من مواجهة مغريات كبيرة عُرضت عليه، كما نُقل عنه، خلال عمليات التحقيق معه، وبعضها كان يمكنه إغراء أي حرّ طليق، إلا أنه حافظ على توازن نفسي وفكري، وخاض مرحلة سجنه والتحقيقات خلالها قبل أن يدخل إلى المحكمة العسكرية، وقد أضرب عن الطعام من شهر تشرين الأول/ أكتوبر حتى تشرين الثاني/ نوفمبر، إلى أن تحقق البعض من مطالبه ورفاقه عبر إبعاد آمر السجن الذي كان يعتقل فيه إلى مكان آخر.

وخلال إحدى جلسات التحقيق أمام جهاز مخابراتي لبناني مختلف، يرفض نبعة محاولة أحد الضباط تلطيف الأجواء، وينظر باحتقار إلى طعام حاول الضابط تقديمه إلى السجين الجائع، كما يرفض نبعة التعاون في أكثر من طلب قُدّم إليه. وهو وإن أخذه الشك بأن بعض سجّانيه متعاطف معه، يبقى على حذر كبير، ويحافظ على كبرياء عنيدة في السجن، وحين يتم نقله إلى غرفة تضمّ مساجين من عملاء إسرائيل، بغية تهديده بالتصفية الجسدية على أيدي مساجين آخرين، يخوض صراعاً عنيفاً من أجل البقاء دون التراجع عن إضرابه عن الطعام، أو عن موقفه المعاند مع المحققين ومع المحكمة العسكرية.

إلا أن نبعة لا يبدو ممن يرغبون في الكلام عند المستنطق، ويبدو حريصاً على اللعب بأعصاب المحقق، إذ يبقى لوقت طويل شارداً قبل أن يجيب عن أي سؤال، سواء أكان سؤالاً عن اسمه، أو عن دوره في عملية اغتيال رفيق الحريري. يجري بين المحقق وحسن نبعة الحوار الآتي:

= مدينة حلب في حي الإذاعة، عازب، متعلم لمرحلة البكالوريا، خريج جامعة المدينة المنوّرة الإسلامية - شريعة، لبناني رقم سجلي ٤٥٠ شبعا غربي قضاء حاصبيا، ليست لديّ أوراقي الثبوتية الشرعية.

«س: لماذا تستغرق وقتاً طويلاً للإجابة عن سؤال قصير جداً؟

ج: لكي أفكر وأركز على الإجابة.

س: ما الغاية من التركيز والتفكير إن كان الجواب عفوياً صادقاً؟

ج: لكي لا أخطئ بالإجابة.

س: لم تذكر حتى أرقام هواتفك وعناوين منازلك والمرّات التي عملت فيها فكيف تكون إجابتك دون أخطاء؟

ج: أؤكد لكم أنني نسيت ما سألتموني عنه».

وأهمّ المعلومات التي يقدّمها حسن نبعة أمام المحقق خلال جلسات الاستجواب الطويلة هي الآتية: «إن حسام منيمنة[٢٦] هو شخص لبناني قام بتنفيذ عملية استشهادية في العراق منذ حوالى سنة وقد تم تزوير الهوية بواسطة جميل (...) وجميل هو شاب سوري، من سكان حمص في منطقة الخالدية قرب مسجد النور ولا أعرف أي تفاصيل إضافية عنه (...) إننا أنا وجميل والطبيب طارق مرتبطون بعمل للعراق (...) إننا نقوم بإرسال ملابس وأدوية وتبرّعات ونسهّل للناس الدخول إلى العراق للجهاد (...) إن ارتباطنا هذا يسمّى هيئة دعم المجاهدين في العراق (...) إنني أعتاش من التبرّعات التي تأتي إلينا من متبرّعين في السعودية (...) إن السبب الأول لحضوري إلى لبنان متخفياً وعن طريق التهريب هو لتسوية وضعي القانوني، كوني كنت مطلوباً بقضية أحداث الضنّية، والسبب الثاني هو أنه لم يعد عمل الجمعية كالسابق بسبب الضغوط التي تقوم بها السلطات السورية (...) الحملات الأمنية التي قامت بها أجهزة الأمن السورية في سوريا بشكل عام وليس فقط على جمعيتنا».

وينفي نبعة الانتماء إلى تنظيم القاعدة قائلاً: «أنا لا أنتمي إلى تنظيم القاعدة ولست بأمير ولم أبايع من قبل أحد وشخصياً لم أبايع أي أمير».

ويتحدث عن خالد طه وزياد رمضان وأحمد أبو عدس قائلاً: «التقيته (خالد

(٢٦) استخدم حسن نبعة الأوراق الثبوتية الخاصة بحسام منيمنة بعد تعديلها.

طه) في حمص عن طريق جميل وكان خالد الطه ينوي الدخول إلى العراق للالتحاق بالمجاهدين وكان يسكن لدى جميل في حمص، وكان يعمل مع جميل في مجال الألكترونيات بتصنيع دوائر ألكترونية مرسلة للعراق تستعمل في الجهاد وهذه علاقتي به (...) لقد كنت أعرف زياد رمضان سابقاً منذ ١٩٩٨ وكنا نصلّي معاً في مسجد الحوري - الجامعة العربية (...) لا أعرف أحمد أبو عدس غير أنني شاهدته فقط على التلفزيون».

ورداً على سؤال حول إيراد اسمه من قبل شقيقه مالك نبعة والموقوفين الآخرين بأنه أمير التنظيم (القاعدة) في سوريا وأن الأوامر صادرة عنه، يقول حسن نبعة: «لا أعرف ما هي الأسباب التي دفعتهم إلى الزجّ باسمي في نشاطاتهم وأعمالهم التي يقومون بها (...) أنا لا أتنصّل من الجهاد في العراق فقد ساهمت بإرسال المال والدواء والملابس والرجال للجهاد هناك (...) (وقد ساهمت بإرسال) حسام منيمنة الذي استشهد في العراق وقد قدم من لبنان ولا أعلم مَن نقله إلى العراق، وأبو محمد اللبناني ابن مصطفى رمضان وولده محمد اللذين استشهدا في العراق، علماً أن أبو محمد هذا مَن قام بذبح الكوري العميل في العراق والذي ظهر ملثّماً في الفيلم المسجّل».

ويتابع نبعة قائلاً بناء على أسئلة المحقق: «لقد تعرفت بأبو محمد اللبناني (وولده) لدى خروجه من العراق إلى حلب حيث جلست معه وتحادثنا بأمور العراق وطلب مني أن أساعده بما يحتاجه من أمور مادية وشباب وما يلزمه من أمور عسكرية ولم أتمكن من تقديم ما طلبه مني في ذلك الوقت. وقد تعرفت بالمدعو إسماعيل الخطيب عن طريق أبو محمد اللبناني في حلب، وكان إسماعيل قد حضر لرؤية الملقب بأبو وليد حيث اتفقنا أن يقوم إسماعيل المذكور بإرسال احتياجات أبو محمد اللبناني من مال وسلاح عن طريقي أنا، ولم أقم أيضاً بتلبية هذه الحاجة علماً أن إسماعيل الخطيب قد استشهد في لبنان».

ويبرّر نبعة الأمور بتبسيط مبالغ فيه أمام المحقق، فهو يجيب عن رسالة ضُبطت معه وكانت موجّهة من شقيقه مالك نبعة المعتقل معه إلى خالد طه وتتضمن عبارة «هم عرفوا أنك على علاقة بالرجل» بالقول إن الرسالة موجهة إليه

هو، وقد طلبها من شقيقه ليفيده بما جرى معه في مرحلة اعتقال أولى قبل أن يفرج عنه ثم يُعتقل من جديد، وبعد مناورات طويلة يقول نبعة: «لقد فهمت أن الرجل يعني أبو عدس وأن خالد الطه هو على علاقة مع أبو عدس وأن خالد كان من تلامذة أبو عدس (...) لم أعلم من خالد الطه مباشرة بأنه تتلمذ على يد أبو عدس إنما علمت ذلك من جميل كون الأخير كان دائم الوجود مع جميل»،

ويصل الأمر بالمحقق إلى أن يسجّل سؤالاً في المحضر موجّهاً إلى حسن نبعة هذا نصّه: «على امتداد صفحات هذا المحضر يتعذّر وجود إجابة واحدة منك صحيحة وقطعية ومقنعة بالرغم من كل الإفادات التي ضبطت في هذا المحضر وتدحض قولك، فكيف بك تخبر الحقيقة في الأسئلة المحورية الأخيرة في هذا التحقيق؟»، ويضيف المحقق: «سؤال بسيط، هل كنت تنوي إخفاء الشيب بشعرك بصبغة من لون أشقر بحسب إفادتك؟» فيجيبه حسن نبعة «نعم لقد كنت أنوي صبغ شعري بالأشقر ثم الأسود لاختيار لون يعجبني ويناسب شكلي».

ولدى سؤاله عن المضبوطات يقول: «إن المبالغ المالية وهي ألف وخمسماية إلى ألفي دولار أميركي ومبلغ حوالى مئة ألف ليرة سورية مبلغ موزع بيننا الثلاثة أنا وفيصل والطبيب، أما الكمبيوتر الصغير المحمول فهو لجميل، وعدة صبغ الشعر فهي لتجربة الصباغ على الشيب في شعري، أما المسحوق الأبيض فهو حبر سرّي اشتراه الطبيب من سوريا لسبب أجهله وفلاشات الميموري هي توابع للكمبيوتر وبالتالي خاصة جميل».

وينفي حسن نبعة رحلته إلى أفغانستان، ويخبر قصة عن تعرّفه إلى فيصل أكبر مختلفة عن تلك التي يقدّمها أكبر نفسه فيقول: «لم يسبق لي أن ذهبت إلى أفغانستان في أي فترة في حياتي (...) تعرّفت إلى فيصل أكبر في سوريا لأول مرة في بداية العام ٢٠٠٢، في دمشق عن طريق الملقّب بنبيل أبو الغادية وبدأنا في حينها مشوار الجهاد في العراق، وكان فيصل يلقب بصالح ثم سليمان وطارق. وقد استشهد نبيل أبو الغادية في العراق منذ حوالى سنة. (...) إن الأشخاص الذين عملوا معي بالجهاد في العراق والذين قابلتهم في سوريا شخص تركي ملقب طارق، وقُتل في العبوّة مع الملقب مهنّد السوري، واعتقل سامي شقيق الموقوف

لديكم فرج لدى السوريين وذلك بانفجار العبوّة في السيارة التي أصيب فيها أيضاً فيصل أكبر وتمكن من الهرب، وذلك في أواخر رمضان ٢٠٠٥، بالإضافة إلى نبيل أبو الغادية الذي استشهد أيضاً، وجميل الذي لا أعرف مكانه الحالي فقد بقي في حمص قبل مغادرتي سوريا، وشخص ملقب بسامر أعتقد أنه فلسطيني من لبنان بقي أيضاً في دمشق، وشخص سعودي ملقب بعلي بقي في حلب، وشخص سوري ملقب بشاكر بقي في دمشق، وشخص ملقب بجمال بقي في دير الزور، والملقب بأبو أنس الذي حصل خلاف بيني وبينه وبقي في حلب، ولؤي السقّا الذي اعتقل في تركيا وهو ملقب بمعتصم (...) لقد تعرفت بلؤي السقّا عن طريق نبيل أبو الغادية حسب ما أذكر في العام ٢٠٠٣ في سوريا. وقد بدأ لؤي العمل معنا بالجهاد في العراق، وبقي يعمل معنا حتى انتقاله إلى العراق حيث بقي هناك لأكثر من سنة، بعدها عاد إلى سوريا، وعلمت أنه خضع لعملية تجميل وانتقل برفقة مجاهد آخر إلى تركيا لتنفيذ عملية جهادية هناك، حيث اعتقل من قبل الأتراك هو والآخر، علماً أنه أخبرني أنه أثناء وجوده في العراق شارك في معارك الفلّوجة وحصارها وأنه تمكن من الخروج من الفلّوجة بعد دخول الأميركان إليها».

وهنا يضلل حسن نبعة المحقق، رغم أن المحقق اللبناني يعلم تماماً، بفضل وثائق تم عرضها على حسن نبعة لاحقاً ومن خارج التحقيقات المدوّنة، أن الأميركيين قدّموا إلى السلطات الأمنية اللبنانية رسماً تقريبياً وضعوه لأحد الذين آلت إليهم القيادة في معركة الفلّوجة الأولى، وهو يطابق صورة حسن نبعة، الذي وصلت إليه القيادة في معركة الفلّوجة أثناء حصارها بعد مقتل القائد الميداني للمعارك هناك.

وينتقل التحقيق إلى هاني الشنطي[٢٧] الذي يقول: «بايعت الأمير راشد في حلب خلال شهر آب/ أغسطس ٢٠٠٤، وقد اشترطت (على) الشيخ في المبايعة

---

(٢٧) يعرّف عن نفسه كالآتي: هاني بن هاشم الشنطي، والدتي لطيفة العقاد، تولّد الرياض في ١٩/ ١٠/ ١٩٨٠، ومن سكان الرملة البيضاء، ومن سكان شقق أخرى «مضافات» في عين الرمّانة والبسطة التحتا وطريق الجديدة، كما أقيم أحياناً في منزل في محلة خلدة بملك والدي شارع القبّة منزل الصلح سابقاً، متعلم جامعي، اختصاصي هندسة كومبيوتر، عازب، لبناني لا أعمل.

أن أكون استشهادياً في العراق ضد الأميركان، حيث طلب مني الشيخ راشد حينها أن أتسلّم البريد السرّي الألكتروني من العراق ودول أخرى وتحويله إلى بريده في سوريا لكي لا تظهر الرسائل أنها من العراق إلى سوريا، ريثما تسنح الفرصة لإرسالي إلى العراق، واستمررت في هذا العمل. ثم طلب مني الشيخ راشد تزكية مَن أراه مناسباً للجهاد في العراق فكان الأول بلال زعرورة في شهر ١١ عام ٢٠٠٤، حيث بايع الشيخ راشد في حلب، ثم قمت بتزكية عامر حلاق الذي ذهب إلى سوريا وبايع أيضاً الشيخ راشد وذلك في مطلع العام ٢٠٠٥، ثم قمت بتزكية سليم حليمة الذي ذهب إلى حلب وبايع الشيخ راشد في حلب وذلك في شهر ٣ من العام ٢٠٠٥. أما الأعمال الأخرى التي طُلبت مني فكانت بناءً على أوامر جميل وهي نقل السلاح واستئجار المنازل».

وعن علاقته بجميل يجيب في استجواب لاحق: «إن جميل هو نائب الأمير راشد وهو مسؤولي المباشر لجهة مراقبة عامر وسليم بموضوع دراستهما عن الصواريخ التي كلّفهم بها الشيخ راشد، وهو مَن طلب مني استئجار الشقق وشراء الهواتف وتبديلها والاحتفاظ بالأسلحة والأغراض التي معها وإيواء الأشخاص من قبله، وكان يعطيني التعليمات بوجوب التصرّف والتنقل بحذر ضمن تعليمات محددة. (. . .) وكنت أتلقى منه التعليمات بتحويل البريد عن طريق تسلّمه من العراق والسعودية وبعض دول أوروبا وتحويله إلى Email (في) سوريا وهناك البريد المرسل من لبنان بواسطة فلاش ميموري أو Email بواسطة Draft وهي طرق سريّة بالمراسلة، ووجوب الاتصال به من «تلي كارت» فقط واستعمال ألقاب ورموز وشيفرات في التحادث والمراسلة. كما طلب مني في شهر ١٠ عام ٢٠٠٥ أن أرتدي الحزام الناسف كي لا تتمكن الشرطة من توقيفي وأن لا أستسلم لهم، ولكني رفضت ذلك وطلبت منه مجدداً أن يرسلني إلى العراق وأن يذكّر راشد أن مشروعي هو عمل استشهادي في العراق وليس لبنان؛ ولدى توكيل طارق بتسلّم زمام الأمور وحضوره إلى لبنان انقطع اتصالي بجميل لكونه أعلمني بأن طارق هو المسؤول في هذه الفترة، وقد طلب مني طارق أيضاً التصرف والتنقل بحذر خاصة في مناقلات الشباب بين الشقق، كما سلّمته خالد الطه وبلال زعرورة

والملقب بمراد كما سلّمني طارق هوية فلسطينية مزوّرة باسم غسان خليل عليها رسمي».

ويقول الشنطي عن علاقات المجموعة بأعضاء سعوديين: «إنني أعرف سعوديَّيْن غير الموقوف لديكم طارق، وهما على ما أعتقد يعملان معنا في الجهاد، الأول ملقب بمصطفى وقد تعرفت به في بيروت مرسلاً من راشد، وقابلته قرب مسجد الخاشقجي، وبناءً على أوامر مكث في شقتي في أبو شاكر حوالى ثلاثة أسابيع وذلك خلال أواخر حزيران/ يونيو ومطلع تموز/ يوليو ٢٠٠٥، حيث علّمته على برامج في المونتاج وخضع لدورة في التصوير مع سليم حليمة وفرج في معهد مار الياس، وهو بدين طويل القامة عمره حوالى ٢٥ سنة ولدى مغادرته لبنان أوقف لدى الأمن السوري. أما السعودي الآخر فهو ملقب بالأستاذ خالد، قابلته لأول مرة قرب صيدلية الرسول الأعظم في برج البراجنة وكان معي عامر حلاق في مطلع حزيران/ يونيو ٢٠٠٥، وقد قابلناه للطلب منه التنسيق مع معهد مار الياس، ثم قابلته في المعهد المذكور، ثم عرفني إلى هيثم الذي تسلّم مني حقيبة الأجهزة اللاسلكية، على أن الأستاذ خالد هو سعودي عمره ٣٥ سنة نحيل معتدل الطول له لحية طويلة ومعروف لدى راشد باسم سمير».

وحول علاقته بأحمد أبو عدس يقول الشنطي: «لقد تعرفت إلى أحمد أبو عدس (أبو تراب) في مسجد الحوري في الجامعة العربية خلال صيف ٢٠٠٣، وكنت على علم أن أحمد أبو عدس على علاقة وصداقة بخالد الطه. وتكررت المقابلات ولم تكن أية أحاديث بيننا فكانت لقاءاتنا مصادفة في المسجد. علمت أن أحمد يقوم بتدريس الدين في حلقات كان يحضرها خالد الطه وبلال زعرورة وشقيقه عبد السلام وأحمد سعيد، وكانت تعقد هذه الحلقات في منزل أبو عدس وفي محلة برج البراجنة. وخلال شهر تموز/ يوليو من العام ٢٠٠٤ كنت في مسجد الحوري وكان أحمد أبو عدس هناك حيث كانت توجد أعداد من مجلة الرسالة الدينية في المسجد، التقط أحمد أبو عدس أحدها وعليه صورة رفيق الحريري وعرضها عليّ بحزن وقال لي: كيف توجد في المسجد صورة لشخص يحكم بغير ما أنزل الله؟ وتابع حديثه معي. وبعد سؤالي عن كيفية تنقلاتي أجبته

أن لديّ سيارة فأعلمني بأنه لا يجوز دفع الميكانيك للدولة اللبنانية لأنها دولة تحكم بغير ما أنزل الله. وفي لقاء آخر مع أحمد أبو عدس تقريباً في شهر ٩ أو ١٠ عام ٢٠٠٤ شاهدت أحمد أبو عدس قرب موقف الجامعة العربية حيث استوقفني وسألني عما إذا كان خالد الطه فعلاً يعمل في تركيا أم يعمل لمصلحة القاعدة في تركيا، فلم أخبره أنا سوى أن خالد يعمل في وظيفة عادية في تركيا لأنه لا يجب أن يعلم تفاصيل العمل الخاص بجماعتنا. ولدى مشاهدتي لخالد أخبرته عما سألني عنه أحمد أبو عدس فطلب مني عدم إخباره في حال سأل مرة أخرى.

ويتابع: «وفي مرة أخرى طلب مني أحمد أبو عدس توزيع مناشير دينية في الجامعة العربية تتعلق بأمور الحجاب، لكن هذا الأمر لم يحصل بعدها. وأعتقد أن هذه هي المرة الأخيرة التي شاهدته فيها وذلك في شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ إلى أن علمت بأن أحمد أبو عدس قد اختفى عبر سماعي بالأمر من بلال وعبد السلام زعرورة؛ عندها شعرت بالخوف من اعتقال المخابرات اللبنانية أحمد أبو عدس ومن أن نكون بدورنا عرضة للتوقيف، عندها أرسلت رسالة ألكترونية إلى جميل في سوريا أعلمه (بالأمر)، وقد كتبت تفصيلاً «صاحب بدر تراب راح إلى أولاد خالتي واختفى» وأقصد ببدر خالد الطه لأن هذا لقبه وأن صاحبه أي أحمد أبو عدس قد اختفى عند أولاد خالته أي الشرطة. عندها رد عليّ جميل هاتفياً حيث زوّدني بهاتف راشد في حلب للتكلم معه. اتصلت براشد وأعلمته باختفاء أبو عدس أيضاً بواسطة الرموز المعتمدة حيث طلب مني راشد التأكد من موضوع أبو العدس عما إذا كان قد اعتقل أم قد ذهب إلى العراق وطلب مني التأكد من هذا الأمر، وكان ذلك في أواخر الشهر الأول من العام ٢٠٠٥. بعدها تلقيت رسالة ألكترونية من خالد الطه مفادها الاتصال بعمر رمضان شقيق زياد رمضان للاستحصال على رقم هاتف عمر، وحسب علمي للاستفسار من زياد رمضان عن وضع أحمد أبو العدس، علماً أن عمر رمضان هو صديق لي يعمل في مكتبة قرب الجامعة العربية، ولم أتمكن من الاستحصال على الرقم المطلوب كون عمر رمضان قد غادر لبنان في حينها، إلى أن شاهدت أحمد أبو عدس على التلفزيون يعلن تبنّيه لعملية اغتيال الحريري وكنت في منزلي في الجناح».

ويمضي الشنطي قائلاً: «عندها لم أتصل مباشرة براشد بل ذهبت إلى منزل أبو عدس حيث شاهدت رجال الشرطة. ذهبت إلى الإنترنت لمعرفة ما يدور من أخبار ولم أتصل بجميل بواسطة الإنترنت. تلقيت البريد وأرسلته إلى سوريا بواسطة Email وحوالى الثامنة والنصف من ذلك التاريخ ١٤/٢/٢٠٠٥ ليلاً اتصلت هاتفياً بجميل بواسطة تلي كارت من كابين قرب الجامعة حيث سألني جميل «أليس هذا الشخص نفسه صاحب بدر؟» أخبرته بنعم هو، عندها سألني ماذا سأفعل بحال استُدعيت للتحقيق، فأعلمته بأنني صديق خالد ولأني صديق خالد وخالد يعرفه فلا أعلم إذا كنت سأُستدعى للتحقيق، عندها طلب مني الحرص والانتباه إلى نفسي.

أنهيت المخابرة وقصدت بلال زعرورة وبمقابلته سألته عن رأيه بما حصل، وأقصد الاغتيال فاستغرب بلال ما إذا كان أبو عدس قد نفّذها حقاً. عندها بدأت سؤال زعرورة كونه خبيراً في الألكترونيات عما إذا كان بالإمكان اختراق أجهزة التشويش بجهاز لاسلكي أم أنه فعلاً أبو عدس كاستشهادي قام بالعملية، لم يكن لديه الجواب وأخبرني أنه لا يعلم ما إذا كانت هناك أية أجهزة قادرة على اختراق أجهزة التشويش، عندها غادرت إلى منزلي في الجناح (...) لدى مشاهدتي لجميل في بيروت في آذار/مارس ٢٠٠٥ سألته عما إذا كان بالإمكان اختراق الموجات التشويشية في الموكب لكونه خبير ألكترونيات فأخبرني أنه من الممكن حدوث هذا الأمر وأن أي جهاز في الدنيا ممكن اختراقه».

ويقول الشنطي: «علمت من خالد الطه أثناء وجوده في شقة عين الرمّانة أن لؤي السقا الملقّب بأبو ربيع أوقف في تركيا لتخطيطه لمهاجمة السفن الإسرائيلية على سواحل تركيا، وهو شخص مهم جداً في التنظيم حتى أن أبو مصعب الزرقاوي كان يريد أن يبايعه، وهو سوري من حلب وعلى اتصال براشد وطارق حسب علمي».

ويتحدث الشنطي عن بلال زعرورة كالآتي: «إن بلال زعرورة هو مَن طلاب الجامعة العربية وقد تعرفت إليه في العام ٢٠٠١ حسب ما أذكر، بعدها التزم دينياً حوالى العام ٢٠٠٣ وبدأ بالفكر الجهادي. (وذهب بلال إلى سوريا حيث) تلقى

دورة أمنية على ما أعتقد عن طريق طارق ومن ثم بايع الأمير راشد في حلب، وعاد ومن حينها بدأ بلال الاهتمام بالأمور الإعلامية للجهاد وهي برامج المونتاج التي تستخدم في عرض أفلام الجهاد. ولاحقاً اهتم بلال بالأمور الألكترونية كونه مهندس ألكترون متخرج حيث عمل على برامج Math lab وهي تعديل الآي سي IC أي الشرائح الصغيرة والتايمرز أي عدادات الوقت، وذلك للتجهيز للانتقال إلى العراق واستعمال التقنيات التي ذكرتها بعمليات التفجير ضد الاحتلال في العراق».

ويخضع الطبيب السوري طارق الناصر[٢٨] بدوره للتحقيق، ويأتي في إفادته ما يلي: «كنت على معرفة بالملقب بنبيل أبو الغادية من آل درويش وقد قتل منذ حوالى سبعة أشهر في العراق، وذلك عن طريق صديقي الطبيب صلاح الدين الصالح الملقب بأبو أحمد وهو سوري الجنسية. وقد عرض عليّ نبيل هذا الالتزام ضمن جماعته الجهادية في العراق ولم يكن لديّ الوقت الكافي لهذه الفكرة. عدت بعدها إلى السعودية لممارسة مهنتي في مستشفى الرياض المركزي كطبيب وفي شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٥ عدت إلى سوريا وقد حملت معي مبلغ خمسين ألف ريال سعودي من شخص أجهله بناءً على طلب صديقي الدكتور أبو أحمد، وسلمته هذا المبلغ في حلب، حينها طلب مني أبو أحمد معاونته كطبيب لمعالجة جرحى المقاومة في العراق الذين يستحضرون إلى سوريا، حيث بدأت، وبناءً على الطلب، أستقبل حالات جرحى وخلال إحدى هذه المرّات التقيت حسن النبعة وتعرفت عليه بلقب الشيخ راشد، ولاحقاً أحضر لي ليلاً فيصل أكبر وكان قد تعرّض لإصابات في بطنه وصدره علماً أن الإصابات كانت تعود إلى حوالى أسبوع قبل وصوله إليّ، وقد وصل أيام عيد الفطر المنصرم، وعلمت أن لفيصل هذا مركزاً مع راشد. عندها بدأت قوات الأمن السوري القيام بمداهمات واعتقالات للجرحى والناشطين في أعمال مسلحة، وأدركت أن راشد

---

(٢٨) يعرّف عن نفسه كالآتي: طارق بن رجاء الناصر، والدتي عفاف مقصود، تولّد حلب في ٢٠/١٠/١٩٧٦ ومن سكان محلة حلب الجديدة مجمّع جمعية التموين، مهنتي طبيب جراحة أعصاب، متأهل من السورية نور مقصود، سوري الجنسية.

وأبو أحمد وفيصل من ضمن هذه الجماعات حيث شاهدت تنقلاتهم واتصالاتهم الحذرة والسرّية وأنهم مطاردون. وأذكر أنني كنت في إحدى الشقق السرّية التابعة لهذه الجماعة أقوم بمعالجة فيصل أكبر حين طلب مني راشد وفيصل البقاء في الشقة حتى الصباح، وأعتقد (أن ذلك) لعدم افتضاح أمرهم. حينها تعرفت إلى جميل الذي كان في غرفة من غرف الشقة وظهر لاحقاً، وبمحادثتنا علمت من جميل نشاط هذه الجماعة وارتباطاتها وأوضاعها، علماً أن هذه الشقة تقع في حمص في أحياء المدينة القديمة.

«في الصباح ولدى مغادرتي طلبوا مني البقاء معهم لكنني رفضت وعدت إلى منزلي في حلب. وبعدها طالت المداهمات الأمنية مدينة حلب واعتُقل عدد من الجرحى ومن مناصري الشيخ راشد. واتصل بي أبو أحمد وأعلمني بأن أمري قد افتضح لدى الأمن السوري وأنني على الأرجح من المطلوبين ويجب عليّ الاختباء، فلم أعِ كيف أتصرف إزاء هذا الوضع، وعرض عليّ الانتقال إلى حمص وحدد موعِداً لالتقائي في حمص، عندها قدمت إلى بيروت خوفاً من الاعتقال وعبرت الحدود اللبنانية بطريقة شرعية. مكثت حوالى أسبوعين في فندق الوايت هاوس في الحمراء وأرسلت بطلب عائلتي التي حضرت إليّ، وعلمت منها أنني غير ملاحق ولم يُكتشف أمري، فعدت بعدها مع عائلتي إلى سوريا - حلب - وبعد يومين من وصولي اتصل بي راشد وطلب مني الحضور إلى حمص لمعاينة فيصل أكبر مجدداً ففعلت».

ويتابع الطبيب قائلاً: «في أثناء وجودي في حمص، عادت المداهمات في مدينتي حلب وحمص عندها طلب مني راشد النزول إلى بيروت مع عائلة أفهمني أنها عائلة أحد الشهداء في العراق، حيث اصطحبتهم إلى مدينة طرابلس بناءً على تعليمات راشد واستقبلهم هناك أبو أحمد الذي كان قد سبقنا إليها. بقيت معهم في فندق الناعورة مدة أربعة أيام وفي اليوم الرابع أعلمني أبو أحمد أن الأمر قد سُوّي وبأنه سوف يغادر إلى بيروت وزوّدني برقم خلوي عائد إلى جميل في سوريا على أن أتصل به تباعاً لمعرفة حاجاته. عندها تركت الفندق وتوجهت إلى بيروت ومنها فوراً إلى البقاع - المرج - حيث نزلت لدى (أحد معارفي) وهو عمر حرب الذي

استضافني في منزل في المرج لليلة واحدة، وبعدها استضافني في منزله في بيروت محلة المصيطبة بناية الوفاء مع أولاده. وأثناء ذلك كنت أتصل تباعاً بجميل في سوريا وفي آخر اتصال بعد مرور حوالى أسبوع طلب مني جميل ملاقاة سليمان وراشد حسن النبعة عند مسجد الرسول الأعظم في بيروت، وبالفعل توجهت في الموعد المحدد ولدى مقابلتي لهم طلب مني راشد أن أستأجر شقة في بيروت وزوّدني برقمه الخلوي. وبعد أن استأجرت الشقة في الرملة البيضاء تحت اسم عبد السلام خضير، وهي بطاقة هوية مزوّرة زوّدني بها أبو أحمد جميل في حمص ودخلت بها الأراضي اللبنانية، اتصلت براشد وأعلمته بذلك حيث حضر مع سليمان ومكثا في الشقة معي وبعد مرور حوالى العشرين يوماً تم توقيفي».

ويجيب الناصر عن سؤال آخر متابعاً سرد تفاصيل تجنيده: «تلقيت العرض بالعمل مع مجاهدي سوريا في العراق في العام ٢٠٠٣ من قبل صديقي الدكتور أبو أحمد، وقد جمعني بنبيل أبو الغادية ولكنني لم أتمكن من مساعدتهم بأي طلب لأني كنت منشغلاً بعملي في السعودية. ولدى ترددي إلى سوريا في الإجازات قابلت أبو أحمد مرتين، وكرر سؤالي بالعمل معه لكنني أيضاً لم ألبِّ الطلب. وفي شهر أيار/مايو ٢٠٠٤ أنهيت عملي في السعودية وعدت إلى سوريا وبناءً على طلب أبو أحمد لمساعدة جرحى المقاومة في العراق استحسنت الفكرة كوني طبيباً. وعندما عرض عليّ أمر المبايعة رفضت ذلك لعدم اقتناعي وعدم وضوح الأفكار والانتماء وللتطرف المشروط، علماً أن للمبايعة التزاماً فيصبح المبايع ملزماً بتنفيذ أمر الأمير المباشر، ولكوني طبيباً ورب عائلة ومتديّناً ولكنني لست متطرفاً رفضت المبايعة، وقبلت بمساعدة الجرحى. وكنت من وقت لآخر أستقبل حالات جرحى وكنت أعمل في مستشفى والد زوجتي الدكتور مقصود، وهو خالي أيضاً ولكنني وبعد المداهمات الأمنية لا أعلم كيف تورّطت بالانتقال مع راشد وفيصل وجماعتهما (...) إن حسن النبعة هو أمير الجماعة في بلاد الشام يعاونه المسؤول الأمني فيصل أكبر وجميل وسامي الذي جرح مع فيصل وشخص آخر ملقب بسامر، هؤلاء هم مَن سمعت بهم ورأيت المعروفين مني ما عدا سامي الذي أصيب في الانفجار».

ويتحدث الناصر بطلاقة أمام المحقق، بناء على طلبه هو، فيقول: «لقد كنت أسمع من نبيل أبو الغادية بالأفكار التكفيرية، بحيث أن كل مَن لا يؤمن بفرضية وجوب الجهاد في عصرنا هذا يعتبر كافراً، ومَن حكم بغير شرع الإسلام فهو كافر مثل الإخوان المسلمين ومنظمة حماس والرؤساء العرب والشيعة وأجهزة الأمن في الدول العربية التي تعمل لمصلحة حكوماتها. و(سمعت) أفكاراً تكفيرية أخرى، وعدت وسمعت هذه الأفكار لدى وجودي مع جميل وراشد وفيصل، إضافة إلى أمور صغيرة مثل تحريم مشاهدة التلفاز وعدم النزول إلى الشارع تحاشياً لمشاهدة الفساد أي النساء، وقد سبب لي هذا الأمر إحراجاً بينهم. وخلال وجودي في الشقة في الرملة البيضاء تلقى راشد رسالة وأعلمني بوجوب الانتقال إلى شتورة لاستحضار هذه الرسالة كونها مهمة جداً. انتقلت إلى شتورة، وقد زوّدني راشد برقم هاتف لشخص ملقب بداني وأذكر أنها كانت ليلة مثلجة وشاهدت الثلوج ابتداء من صوفر. وبوصولي إلى شتورة اتصلت بالرقم من هاتف أحد الصيارفة فأجابني داني بأنه بالقرب مني وحضر بعد دقيقة وتعرّف إليّ بناءً لأوصاف ملابسنا حيث سلّمني ورقة ملفوفة وعليها شريط لاصق.

«حملت الرسالة وعدت إلى بيروت بالتاكسي ولما صعدت سلّمت حسن النبعة الرسالة، فاختلى بنفسه وقرأ الرسالة، وكان فيصل موجوداً، حيث فضّ اللاصق وقرأها. ولدى انتهائه بدا عليه التأثّر الشديد حتى إنه قام وبدأ الصلاة وعندما انتهى طلب منا عدم التكلم معه وخلد إلى النوم. وفي اليوم التالي استفسرته أنا عن مضمون الرسالة وعن تأثره بها فأعلمني بأنه قد تلقى بنفسه تأنيباً شديداً وأنه قد انتهى، وأنه قد تصرّف بخطأ كبير، وأضاف أنه يحتاج إلى يومين لكتابة الرد على هذه الرسالة. وفي خلال اليومين اصطحبته مع فيصل إلى الروشة (حيث) نزلنا للشاطئ وهناك بدأ بكتابة الرد، ولم أعلم لا أنا ولا فيصل ماذا كان يكتب. عدنا إلى المنزل وأعتقد أنه أرسلها مع فيصل، وعلمت لاحقاً أنها كانت تأنيباً لحسن النبعة من رئيسه بشأن حادثة التفجير في حلب، كونه قد سقط شهداء هم إخوته في التنظيم وأنه ملوم على هذا الأمر.

«وأثناء وجودنا في بيروت ولدى حدوث قصف لإسرائيل بالصواريخ التي لم

يعلن أحد مسؤوليته عنها، كان حسن نبعة يتابع الأخبار، عندما سألته عما إذا كانت هذه العملية للتعويض عن التأنيب، فلم يجب، بل ابتسم فقط. وأذكر أنني وبوجودي في سوريا في شهر آذار/مارس ٢٠٠٥ وبعد مشاهدتي لشخص يعلن على التلفاز تبنّيه عملية اغتيال الرئيس الحريري، سألت نبيل أبو الغادية عما إذا كان هذا الشخص، كونه يبدو من المجاهدين، هو من الجماعة نفسها، فأخبرني بأن الأمور لم تتوضح بعد ولهذه الأسباب حاولت وكما ذكرت لكم مغادرة الجماعة في بيروت».

ولدى سؤاله عما إذا كان لديه ما يضيفه إلى إفادته، يقول الناصر: «في شهر ٨ عام ٢٠٠٥ عرض عليّ راشد فكرة شراء مستشفى واستثمارها في مدينة حلب لاستقبال الجرحى والمصابين، وذلك قبل الحملات الأمنية، وطلب مني البحث عن مستشفى فبدأت البحث ووجدت مستشفى مناسباً ومبنى ذا أربعة طوابق يدعى مستشفى الحكمة في حلب في منطقة الشهباء. اتفقت مع صاحب المستشفى الدكتور صبحي خيّاط على أن نشتري المستشفى بمبلغ مليون وثلاثمئة ألف دولار أميركي، وبعد أن عاينت أنا المستشفى ومعدّاتها أعلمت راشد بأنها مناسبة، وعلى هذا الأساس حضر راشد إلى منطقة حلب الجديدة وقابلني في الشارع الرئيسي قرب نصب الكرة الأرضية بجانب الجسر وسلّمني كيسين من النايلون من الحجم الكبير بداخلهما مبلغ مليون وثلاثمئة ألف دولار أميركي، وكانت من فئة المئة دولار وهي جديدة. كان بمفرده وقد حضر سيراً، ولم أشاهد مع مَن حضر أو بماذا حضر. (وطلب مني أن أتصل به) بعد الانتهاء من شراء المستشفى وإتمام العقد، وأن أعلمه بأن الأمر قد تم، على أن أشتري المستشفى باسمي أنا، وغادرت».

ويتابع الطبيب قائلاً: «أودعت المبلغ لدى منزل أهلي في حلب الجديدة قرب المكتب العقاري الأول، أودعته في خزنة والدي ولم يعلم بالأمر سوى والدي، واتصلت بالدكتور صبحي خيّاط لأعلمه بأن المبلغ جاهز ونقداً، لكنه غيّر رأيه وقد أخبرني بأن زوجته الأجنبية - على ما أعتقد بلغارية أو ألمانية -رفضت موضوع بيع المستشفى كونها تريد الإبقاء عليها لأولادها الذين يدرسون الطب في ألمانيا؛ فأعلمت راشد هاتفياً بأن الأمر لم يتم فطلب مني الاحتفاظ بالمبلغ

كأمانة، واحتفظت به حوالى شهر ونصف بناءً على طلب راشد وسلّمته مجدداً مبلغ مليون ومئة ألف دولار أميركي وبقي لديّ مبلغ مئتي ألف دولار، استبقاه راشد كأمانة لديّ، وأخذ المبلغ وانصرف وكان ذلك في حلب الجديدة. بعدها بدأ راشد يسحب مبالغ مني من المئتي ألف دولار على دفعات، مثل عشرين ألف دولار أو ثلاثين ألف دولار إلى أن أخذ آخر أربعين ألف دولار أميركي في أول شهر ١٢ عام ٢٠٠٥، سلّمتها في حمص لجميل وذلك أثناء مقابلتي ومعاينتي الثانية لفيصل أكبر».

أما عامر الحلاّق[٢٩] فيدلي في إفادته بما يلي: «كنت ألتقي هاني الشنطي الطالب (معي في الجامعة العربية) في العام ٢٠٠١ وكنت ملتزماً لا سلفي المنهج. وبعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر في أميركا بدأ هاني الاحتكاك بي وعرض المنهج السلفي عليّ وذلك بتزويدي بكتب وأقراص مدمجة عن السلفية. وما لبث هاني أن بدأ بعرض قضايا الجهاد السلفي عليّ وأنه يتوجّب على الملتزم أن يؤدي الواجب بالتوجه إلى الثغور للدفاع عن المعتقد (...) وظهرت فكرة كردستان العراق وحاول جاهداً هاني الشنطي لكنه لم يتمكن من الوصول. في هذه الأثناء كان خالد الطه قد دخل أيضاً على الخط وشارك في أحاديثنا هذه (...)

«في أواسط عام ٢٠٠٤ عاد الشنطي إلى الجامعة العربية بعد أن حاول تغيير جامعته ولم يتمكن، حيث عدنا للقاء وعاد هاني الشنطي لتزويدي بالأقراص المدمجة عن الجهاد في العراق والسعودية، وهي العمليات الاستشهادية في العراق، وعن صور لأشخاص كان يعرّفني بهم بواسطة الصور والأفلام مثل أبو محمد اللبناني وهو يقوم بذبح الكوري، وشخص آخر مصري في العراق ثم صورته وهو قتيل، وعن عمليات كتائب الحرمين المتخصصة بتصفية رجال الأمن في السعودية، وأذكر منها بيانات وصوراً عن عملية لقتل ضابط سعودي، وهي

(٢٩) يقدّم عامر الحلاق نفسه كالآتي: «عامر بن عبد الله حلاق، والدتي وفاء حبلي تولّد ١٢/٨/١٩٨٠ في صيدا ومن سكان محلة الأوتوستراد الشرقي، مهندس ميكانيك، عازب لا أعمل، فلسطيني» علماً أن عامر هو ابن عبدالله الحلاق القيادي في الحركة الإسلامية المجاهدة، وعضو تجمّع العلماء المسلمين في لبنان.

صور متتابعة تظهر فيها سيارة الضابط وهي تخرج ومن ثم عملية قتله، وعن عمليات المداهمات في السعودية ضد خلايا تنظيم القاعدة وعن مقتل عبد العزيز المقرن، قائد ميداني للقاعدة في السعودية، هو ورفاقه؛ إلى أن أعلمني هاني أن هناك جماعة جهادية في سوريا تستطيع أن تخرجنا إلى العراق للجهاد، وأعلمني أيضاً أنه عضو فيها وقد بايع أميرها. وفي ٦/١/٢٠٠٥ انتقلت إلى سوريا بعد أن أوصلني هاني الشنطي بواسطة سيارته الهوندا لونها أبيض إلى محطة شارل الحلو وزوّدني برقم هاتف في سوريا لأتصل به. وفعلاً وصلت مدينة حلب حيث خضعت لدورة أمنية لدى طارق مدة ثلاثة أيام ومن ثم قمت بمبايعة راشد، وعدت بعدها إلى بيروت وقد ارتبطت بهذه الجماعة على أساس أن تخرجني إلى العراق. وفي أثنائها كان راشد قد طلب مني دراسة موضوع صناعة طائرة صغيرة كنموذج لاستعمالها في العراق كوني مهندس ميكانيك.

«ثم عدت وذهبت إلى سوريا في أواسط العام ٢٠٠٥ بزيارة لتوصيل فلاش ميموري USB إلى الجماعة حيث سلمته لجميل الذي التقيته لأول مرة وكلّفني دراسة الركيزة للبندقية على نافذة السيارة، ودراسة سيارة صغيرة كنموذج لتحمل ستة كيلوغرامات أيضاً للعمل بهما في العراق، وأيضاً طلب دراسة موضوع صناعة صواريخ مصنّعة يدوياً. عدت إلى بيروت وعملت على هذه الدراسات فتمكنت من وضع دراسة الركيزة وقمت بشراء السيارة وتعديلها نظرياً ودراسة صناعة الصواريخ التي لم أرسلها. وفي هذه الأثناء كان قد طلب مني نقل الأسلحة مع هاني الشنطي من طريق الجديدة إلى شقة البسطة.

«ثم صدر البيان عن تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الشام والذي يتضمن تكفير العلماء والمسؤولين الشيعة في لبنان والتوعد بقتلهم، والذي أثار استيائي، وحاولت استيضاح مروان عما إذا كنا بعملنا هذا مشاركين من ضمن مجموعة البيان المذكور؟ وقد ترافق ذلك مع بيان أبو محمد المقدسي الذي أصدره ويوضح فيه عدم جواز وشرعية أعمال أبو مصعب الزرقاوي في العراق تجاه الشيعة والآخرين المدنيين، والسيف الذي كنت قد شاهدته في شقة الطريق الجديدة وأُعلمت أنه قد أرسل إلى راشد، ووجود الأسلحة في الشقة وعدم اقتناعي بأنها

مرسلة للعراق، (عندئذ) قمت وطالبت هاني بأن يطلب من راشد وجميل إصدار بيان استنكار للبيان الصادر، فرفض ذلك، عندها أعلمته بأنني وسليم حليمة عازمان على فسخ البيعة وبالفعل انتقلت إلى سوريا ولم أتمكن من مقابلة راشد الذي بايعته إنما أرسلوا إليّ شخصاً أفهموني أنه المسؤول الشرعي، الذي حاول تبرير ما يحصل في العراق وأمور أخرى لكنه لم يقنعني».

ويتابع عامر الحلاّق إفادته قائلاً: «عدت إلى بيروت وبناءً للتعليمات الصادرة من جميل انتقلنا إلى شقة في البسطة (بانتظار لو وصلنا الأمر بأن ننتقل إلى العراق) حيث مكثنا مع هاني وثلاثة سوريين لم نتعرف إليهم. ومن ثم انتقلنا إلى شقة جديدة استأجرتها في طريق الجديدة وأُعلمت بوجوب الاتصال بطارق الذي حضر إلى لبنان وعدم الاتصال بجميل أو بهاني، وكنت قبل خروجي من شقة البسطة سلّمت مبلغ ألفين ومئتي دولار أميركي كنت قد تسلّمته من زياد رمضان في شهر ١١ عام ٢٠٠٤ وهي مصاريف للأبحاث الخاصة بالجهاد (في العراق) وقد أعلمت طارق بهذه الأمانة لاحقاً. مكثنا في الشقة في طريق الجديدة أنا وسليم حليمة حوالى أسبوعين. ولدى حضور طارق إلى شقة طريق الجديدة، وإعلامه لنا بأنه سيكلفنا مهام لم يحددها، قمنا بفسخ البيعة وأعلمناه بأننا سنبقى على اتصال به، وغادرنا إلى صيدا أنا وسليم وتركنا الشقة. وصباح اليوم التالي أوقفت من قبلكم بعد أن أعلمت والدي بتفاصيل فسخ البيعة».

ويتحدّث الحلاّق عن أحمد أبو عدس واختفائه قائلاً: «وبعد أن اختفى أحمد أبو عدس في شهر ١ عام ٢٠٠٥ حضر إليّ هاني الشنطي قبل شهر شباط/ فبراير ٢٠٠٥ وسألني عن زياد رمضان، وعما إذا كان يعلم أية تفاصيل عن اختفاء أحمد أبو عدس خاصة وأن أهل الأخير يعتقدون أن أبو تراب، أي أحمد، موجود في العراق وأنه يجب عليّ سؤال زياد عما يعرفه عن هذا الأمر فوعدته خيراً. واختفى زياد ولم أتمكن من سؤاله. وفي ١٤/٢/٢٠٠٥ شاهدنا على التلفاز أبو تراب يعلن العملية. سألت هاني عن هذا الأمر فلم ألقَ منه جواباً. وفي شهر نيسان/ أبريل ٢٠٠٥ وأثناء وجودي في الجامعة قابلت هاني الشنطي وبالحديث أخبرني بأن أبو تراب رجل مهم وقد خسرناه وأن الجماعة في سوريا أي راشد كان ينوي ضم أبو

تراب إلى التنظيم بعد أن سمع من خالد الطه عن أبو تراب. لم أكن سابقاً على علم بأن خالد الطه هو من ضمن الجماعة التي نعمل فيها إنما ولدى وجودي في سوريا سألت جميل عن خالد الطه فأنكر معرفته به، ولكنني واجهت جميل بأن موضوع بحث الطائرة الصغيرة كان قد طلبه مني راشد وفي فترة سابقة كان خالد قد طلبه مني أيضاً بعد زيارته للبنان من تركيا كما كان يدّعي وبالتفاصيل نفسها، عندها ضحك جميل وهزّ رأسه معلناً أن خالد أيضاً من ضمن الجماعة نفسها.

«وكان خالد الطه يذكر أحمد أبو عدس وفي بعض الأحيان (يذكره) بالشيخ أبو تراب في الجلسات التي كانت تجمعني بخالد وبهاني الشنطي وبلال زعرورة وذلك قبل العام ٢٠٠٥. وكان خالد على معرفة وعلاقة بأحمد أبو عدس كما يخبرنا خالد وقد شاهدتهما معاً في مسجد الجامعة العربية يتحادثان بعد الصلاة، وكان الشنطي موجوداً حيث سألته عن الشخص الموجود مع خالد الطه فأعلمني بأنه أبو تراب أحمد أبو عدس، وعلمت أن هذا الشخص هو الذي كان يذكره خالد الطه».

محضر على حِدة

ملاحظة[٣٠]: «أطلع المقدّم رئيس الفرع هاتفياً حضرة النائب العام التمييزي على تفاصيل هذا المحضر، فأشار حضرته بتنظيم محضر على حِدة واستماع الموقوفين حول ضبط الأسلحة والذخائر والوثائق المزوّرة ودخول البلاد خلسة والمضبوطات الأخرى ومراجعة النيابة العامة العسكرية للعمل بإشارتها واستكمال الإجراءات من أبحاث وتحرّيات وجمع معلومات ومراجعته بكل مستجدّ».

وفي الخامس من شهر آذار/ مارس العام ٢٠٠٧ أُحيلت المجموعة، بأعضائها الـ ٣٢ الموقوفين منهم والفارين، أمام المحكمة العسكرية بناء لادّعاء قاضي التحقيق رشيد مزهر، بجرم الانتماء إلى تنظيم القاعدة[٣١] والإقدام «على تأليف عصابة تمهيداً للقيام بأعمال إرهابية وتزوير أوراق رسمية ونقل أسلحة».

---

(٣٠) ملاحظة وردت في ختام محضر التحقيق الأساسي مع مجموعة الـ١٣، والذي كان يتضمّن الاعتراف باغتيال رفيق الحريري.

(٣١) نقلاً عن المحضر الرسمي للادّعاء الذي يقدّمه القاضي رشيد مزهر.

وقد تبيّن، وفقاً للقرار الاتهامي، «أنّ المدّعى عليهم، وعلى رغم اختلاف جنسياتهم، جمعتهم عقيدة واحدة وأفكار هادفة إلى الجهاد لتحرير العراق من الاحتلال الأميركي. وتحقيقاً لرغبتهم هذه، بايعوا أنفسهم لأمراء تنظيم القاعدة، وقد أقدم هؤلاء الأمراء لاحقاً على تعديل وتحويل مهمتهم وتوجيهها إلى الأنظمة العربية لبعض الدول التي كفّروها في العالم العربي والإسلامي وبعض الطوائف اللبنانية».

كما جاء في القرار أنهم «من وجهة نظرهم الشخصية، اتخذوا من سوريا مقرّاً لهم. وتوزعت أدوار أفرادها (أي المجموعة) بين أمير لها تمّت مبايعته والتزام أوامره، وبين مموّل بالمال والسلاح ومزوّر يؤمّن المستندات اللازمة المزيّفة وهويّات من مختلف الجنسيّات لضمان تنقلات الأفراد، وبين آخرين يقومون بتدريبات عسكرية وأمنية بعد الخبرة التي اكتسبوها من اشتراكهم في معارك في أفغانستان، والتوصيات العائدة إلى كيفية التعامل مع المحققين وتضليلهم في حالات التوقيف والتزام السرّية التامة، فيما انحصر نشاط بعض المدّعى عليهم في لبنان بتأمين البريد الإلكتروني واستئجار الشقق لتخزين الأسلحة والعتاد وتخبئة القادمين من سوريا وتجنيد الشباب لصالح تنظيم القاعدة».

ويضيف الادّعاء «وتبيّن أن ارتباط بعض المدّعى عليهم بعلاقة صداقة مع المدعو أحمد أبو عدس، الذي اختفى قبل شهر من ظهوره في تسجيل على شاشات التلفزة متبنياً اغتيال دولة الرئيس الشهيد رفيق الحريري، أدّى إلى كشف هذه المجموعة الإرهابية من جانب الأجهزة الأمنية».

هكذا جاء في قرار الادّعاء من دون الإشارة إلى أي جانب آخر في ما يتعلق باعترافات المجموعة حول مساهمتها في عملية اغتيال الرئيس رفيق الحريري أو تنفيذها للعملية.

وجها الجهاد المعلن والمكتوم:
من الديموقراطية إلى التحريض

لم تلتفت السلطات اللبنانية إلى ما يحصل في شمال لبنان، ولا إلى ما يدور في مناطق أخرى، من العرقوب على الحدود مع فلسطين المحتلة، إلى نهر أبو علي على الحدود مع سوريا شمالاً، ومن بيروت وأحيائها الفقيرة إلى البقاع والحدود اللبنانية السورية أيضاً. فالحكومة اللبنانية منشغلة بصراعات محلية، وبإعادة إنتاج متعثرة للنظام اللبناني بعد فشل اتفاق الطائف في إدارة النزاع والتوازنات بين الطوائف، وبعد مقتل الرئيس رفيق الحريري وسحب التفويض الأميركي بإدارة البلاد من يد سوريا.

خرجت الطبقة السياسية من انتخابات العام ٢٠٠٥ بخلافات أعمق مما شهدته الأشهر الأولى التي أعقبت اغتيال الحريري، فبعد الاغتيال عُقد تحالف ما بين قوى الثامن من آذار/مارس الموالية لسوريا، وقوى الرابع عشر من آذار/مارس الموالية للولايات المتحدة، وضمّ هذا التحالف خليطاً عجيباً من حزب الله إلى تيار المستقبل والقوات اللبنانية والحزب التقدمي الاشتراكي، وواجه التحالف الجنرال الآتي من فرنسا بعد أعوام من النفي، ميشال عون، ورغم ذلك احتل ميشال عون ونوابه مكاناً في البرلمان، ولكن التحالف المذكور أعطى وزناً إضافياً لقوى كان يمكن تفادي وصولها إلى المجلس النيابي في لبنان، وأهمّها القوات اللبنانية واليسار الديموقراطي، وغيرهما. ووصل إلى البرلمان حلفاء الأمس ولكن بصفة خصوم اليوم، وراح حزب الله يتهم القوى الأخرى بطعنه في ظهره، وتردّ هذه بأن ما حصل لم يكن سوى مجرّد تحالف انتخابي انقضت فترة صلاحيته.

وهكذا انفضّ التحالف على خلافات عميقة وصلت حدّ القطيعة السياسية.

وفي هذا الخضمّ تحرّك الشارع السنّي عدّة مرّات على وقع النغمة الطائفية والمذهبية، مقابل الشيعة، ولكنّ الحركة الفعلية كانت تتمّ تحت ركام الخطابات السياسية، إذ بدأت مجموعات قاعدية تعدّ بالعشرات العمل داخل البلاد من دون أن تنتبه الأجهزة الأمنية، أو يراودها الشكّ في أن هذه البلاد المتنوعة مذهبياً قد تحوّلت إلى محطة مفضّلة للحراك القاعدي في المنطقة، ولإمداد وتنسيق وتسفير حركة القاعدة بين الدول العربية والغرب. وهو ما سيرد تفصيله لاحقاً.

وفي شباط/فبراير من العام ٢٠٠٦، قامت ماكينة تيار المستقبل، بالتنسيق مع ما بقي من نفوذ لدار الافتاء السنّية، بحشد الرأي العام السنّي في كل المناطق تحت شعار «إلا رسول الله» اعتراضاً على الرسوم الكاريكاتورية التي نشرتها إحدى الصحف الدانماركية، وكان الصراع الداخلي مع التحالف الجديد المزمع بين ميشال عون الماروني وقائد التيار الوطني الحر، وحزب الله الشيعي قد بلغ مرحلة استدعت حشد الطاقات السنّية وإظهار بعض من عضلات الطائفة التي لطالما تركت أمورها لغيرها.

وفي الخامس من شباط/فبراير تمّ تنظيم تظاهرة اتجهت نحو منطقة التباريس ضمن الأحياء المسيحية شرق بيروت، واصطدمت التظاهرة بقوى الأمن الداخلي، ووقف أحد علماء الدين يومها أمام شاشات التلفزة ليقول إنّ ثمّة افتراقاً وتناقضاً بين السلطات الدينية والسياسية من جهة والسلطات الأمنية من جهة ثانية مختصراً الفخّ الذي وقع فيه الإسلاميون يومها، بعد أن رأوا في موقف دار الافتاء وتيار المستقبل ما يشفي غليلهم بعد طول قمع وكبت. إلا أن الصدام الذي حصل وحالة التعبئة المعنوية العالية للإسلاميين تركت منطقة التباريس المسيحية أقرب إلى ساحة حرب، وشهد العديد من مناطق السنّة، في بيروت وخارجها، وخاصة الأحياء الفقيرة، حملات اعتقال طاولت المئات وجرت معاملتهم بصورة غير إنسانية.

في اليوم التالي وقّع كل من ميشال عون والأمين العام لحزب الله حسن نصرالله وثيقة التفاهم بين الطرفين، وهي ما سيقود تحالفاً مارونياً شيعياً سيصمد في وجه إحدى أعتى الحروب التي تشنّها إسرائيل على لبنان في تموز/ يوليو من

العام ٢٠٠٦، فعلى مدى ٣٣ يوماً منع تحالف عون ونصرالله أي اعتداء وأي خرق يذكر للأمن الداخلي، وعزل الطوائف عن الاحتكاك السلبي بعضها ببعض، مما دفع، على سبيل المزايدة السياسية، كل الأطراف اللبنانية إلى مد يد النجدة لأكثر من مليون نازح من المناطق الجنوبية والضاحية الجنوبية للعاصمة بيروت مع تدمير هذه المناطق من قبل الآلة الحربية الإسرائيلية.

صدر القرار ١٧٠١ عن مجلس الأمن الدولي الذي يكرّس هزيمة سياسية للبنان، بعد أن فرض حزب الله انتصاره العسكري، وأتى القرار الدولي بأكثر من ١٢ ألفاً من الجنود الدوليين إلى لبنان، لحماية منطقة جنوب الليطاني من أي مشكلات أمنية، ولمنع المقاومة اللبنانية من الحراك. وفي ١١ أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٦ كان أيمن الظواهري يطلّ على إحدى القنوات الفضائية داعياً اللبنانيين إلى مواجهة القرار الدولي، وعدم الاستسلام أمام الضغوط الغربية وإلى تنظيم حرب جهادية شعبية ضد الغربيين، قائلاً إن هذا القرار يعلن «وجود دولة عبرية».

حينئذ كانت القوى الإسلامية لا تكاد تلمس في بيئتها ومحيطها حضوراً للتنظيم الجهادي القاعدي، إذ يقول إبراهيم المصري نائب الأمين العام للجماعة الإسلامية في لبنان متحدثاً عن عناصر القاعدة: «ما أراه أنه لا وجود لهم في لبنان»، مضيفاً أن كلام الظواهري مبدئي، ولكنه لا يثير التفاعل بين الناس. بينما يقول حينها الأمين العام لحركة التوحيد الإسلامي بلال شعبان: «أتمنّى على المجتمع الدولي أن يتّعظ (..) أمام هول الدمار وتآمر بعض الدول العربية سيستفيق الناس ليجدوا أن ما يحصل في لبنان بعيد عن المنطق». ويبدي شعبان اقتناعه بأنه «لا وجود للقاعدة في لبنان، إلا أن حال الظلم تؤسّس ليس لقاعدة بل لقواعد عدة، والظلم يصنع العجائب»[1].

ولكن ذلك لا يعكس حقيقة ما كان يجري في العديد من المناطق اللبنانية ولا سيّما طرابلس عاصمة الشمال التي لم تعرف الأضواء ليلاً ولا زينة رمضان التقليدية بعد حرب تموز/يوليو.

(١) من لقاءات خاصة أجراها الكاتب في حينه.

والسمة الأبرز التي يمكن تسجيلها لعاصمة الشمال هي الإهمال الذي يصيب كل مرافقها، وقد تطغى هذه السمة على الهويّة الإسلامية البارزة للمدينة التي تعدّ معقلاً للجماعات المختلفة، من الصوفية إلى السلفية التكفيرية إلى الجهادية إلى الجهادية التكفيرية، وصولاً إلى بقايا فرق المتصوّفة الدراويش وشيوخ ماتوا وبقيت طُرقهم.

خلف كنيسة مار مارون في طرابلس، كان يجلس عبد الله بابتي، أحد قادة الجماعة الإسلامية في الشمال، في مكتبه الهندسي، ويتحدث عن تاريخ الحركات الإسلامية في الشمال عامة وفي طرابلس خاصة. وعنده أن مشاركة طرابلس في الانتصار للقضايا الأساسية كانت دائماً دفاعية، وكانت القوى الإسلامية فيها تعيش عصرها الذهبي في نهاية حقبة الستينيات خاصة، قبل أن تنتقل إلى مرحلة التضعضع ابتداء من عام ١٩٩٢، أي مع نهاية الحرب الأهلية وبداية عهد الانتخابات النيابية. ويرى العديد من الشبان المسلمين الناشطين أن دور عاصمة الشمال تعدّى موقعها الجغرافي. فطرابلس كانت دائماً الرافعة في العمل الإسلامي كما يقول الشيخ محمد خضر الذي اقترب من الاتجاه السلفي وأطلق في العام ٢٠٠٧ مشروعاً للحوار واللقاء بين المجموعات الإسلامية على اختلاف مشاربها الفكرية.

تضعضع القوى الإسلامية الذي يشير إليه بابتي صحيح نسبياً. فالجمعيات الوهّابية تكثر، والسلفيون متعددو الاتجاهات لا يوحّدهم شيء تقريباً إلا الفقه لكنهم يختلفون في التطبيقات والأهواء، وحركة التوحيد الإسلامي انقسمت على ذاتها، والوهابيون يقسمهم خط عريض هو الموقف السياسي، فمنهم من يؤيد المملكة العربية السعودية ومنهم من يؤيد أسامة بن لادن.

السلفيون شأنهم شأن التيارات الإسلامية الأخرى يقول الشيخ محمد خضر «هم أكثر من قسمين بكثير» بحسب عالم الدين الذي لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من العمر، والذي أسس «المنتدى الإسلامي اللبناني للدعوة والحوار». «إذا ضربت الحائط وقمت بفعل (يقولها بالفرنسية) فالحائط سيقوم برد فعل مواز»، ويستخدم الشيخ بلال شعبان البالغ من العمر ٤٢ عاماً قاعدة علمية ليقنعك بأن ما يفعله الشيخ أسامة بن لادن هو ردّ فعل طبيعي على الظلم. وفي المقابل لا يؤيد

الشيخ محمد خضر، الذي يعيش في منطقة القبّة، انتشار ردّ الفعل وإن كان هو أيضاً يرصده: «تراكم الظلم يولّد عند الشباب رغبة في المقاومة والانتقام».

ولا تُعدم في طرابلس أن تجد من يدعو، ومن على منابر المساجد، بطول العمر للشيخ أسامة، «كلما ذكرت الشيخ أسامة أدعو له بطول البقاء» يقول أحد أئمة المساجد، ولا يجد غضاضة في الأمر، لكنه يرفض ذكر اسمه. هل من أنصار للشيخ أسامة في طرابلس وجوارها؟ «بن لادن أرضيته خارج إطار الحركة الإسلامية المعروفة كجماعة أو إخوان» يقول بابتي. هل نجد له أنصاراً في أوساط شبيهة بمن بات يعرف بموقوفي الضنية؟ «لا، معتقلو الضنية اعتزلوا في لحظة إحساس بالظلم والاضطهاد، واستمروا نتيجة حمق، واعتقلوا هدية أمنية للغرب، ولو تأخرت المعركة يوماً واحداً لكنا أقنعناهم بالعودة إلى بلداتهم» يقول إمام مسجد شاب وناشط.

«طبيعة الخلق الدفاع عن النفس» يقول الشيخ بلال شعبان، وهو يجلس في مسجد التوبة الذي يؤمّ الصلاة فيه، والمبنيّ منذ ٧٠٠ عام بحجر رملي وقناطر هندسية في مزيج من البناء الصليبي والبناء الإسلامي، ويضيف: «كل الكلام عن القاعدة وغيرها يدخل في إطار الدفاع عن النفس».

شعبان الذي يجد وسطاً حيوياً له في مناطق شعبيّة كالدبّاغة والزاهرية ذات الكثافة السكانية الكبيرة والقريبة من المدينة العتيقة، يقول: «منع انتشار القاعدة يكون عبر إزالة الأسباب، الظلم، والاحتلال في العراق وأفغانستان وفلسطين، فليتبعوا سياسة نزع الذرائع مع تنظيم القاعدة».

هذا الشاب، شعبان، الذي يمثّل نقطة تقاطع بين السلفية الجهادية وإيران الاسلامية والتكفيريين وحتى الصوفية إلى حد ما، يرى أن «موت الحياة السياسية وتهميش طبقات كاملة من السكان وتحوّل مناطق كاملة إلى مناطق مستضعفة» كل هذا يولّد حلقة رفض للواقع المجحف الذي تتحمّل مسؤوليته قيادات سياسية محلّية، وكذلك الولايات المتحدة، وهناك من يؤسس لحلقات رفض «وهي نفسها سواء لدى المسلمين أو المسيحيين». ولا يرى شعبان فرقاً بين اليسار والقاعدة في خضمّ المعركة التي توحّد الجميع. «لدينا الآن عدوّ خارجي وهذا يريح الجميع

من الصراعات الداخلية» ولكن «إن كان الضوء الأخضر لم يُعط للصراع الإسلامي المسيحي في لبنان فالخشية أن يكون قد أعطي للصراع السنّي الشيعي» يضيف شعبان الذي يرصد كلام الرجل الثاني في تنظيم القاعدة أيمن الظواهري حول القرار ١٧٠١، والذي سرّه شخصياً «دعم المقاومة في لبنان وأطفأ الكثير من عوامل الفتنة».

أما الشيخ خضر الذي يمثل «النهج المنفتح في العقيدة السلفية» فيذهب إلى أن القاعدة «تحوّلت بفضل التوجيه الإعلامي الغربي إلى مفهوم لمواجهة المشروع الأميركي، فأصبح الكل يحمل اسم القاعدة» ويضيف: «يرى كثير من الشبان في ساحتنا الداخلية أن أسامة بن لادن يخاطب مشاعرهم، ويمثّل بالنسبة إليهم منفذاً للخروج من المآزق».

وعلى المستوى الداخلي يقسم خضر نظرة السلفيين إلى آل الحريري وآلية السلطة السنّية في لبنان إلى ثلاثة أقسام: «فريق من السلفيين يعتبر آل الحريري المرجعية المؤهلة للحفاظ على مصالح الطائفة لتحقيق توازن نسبي في لبنان، وفريق آخر يرى أن العائلة بعد رحيل رفيق الحريري فقدت الكثير من دورها، وفريق ثالث يرى أن هذه العائلة مشتبه فيها ولديها اتصالات خارجية» يقول خضر دون أن يوضح ما هو المقصود بالاتصالات الخارجية.

«الظواهري أعلنها حرب مقاومة ضد الحرب الصليبية» يقول عبدالله بابتي، ملاحظاً أن «بوش لم يزلّ لسانه»[٢] ويضيف: «عند الفعل والإساءة فإن ردّ الفعل سيكون مختلفاً في اتجاه دعوات القاعدة. كنا نتمنّى لو أن أسامة بن لادن والظواهري يتّجهان لقتال إسرائيل، لكن في كل الأحوال نحن لا نوافق على قتل الأبرياء»، يختم بابتي السائر على خط واضح بعيد عن دعوات القاعدة إلى المواجهة.

جُلّ ما يريده السلفيون هو تظهير ردّ فعل على ظلم لاحق بالعرب والمسلمين في العالم، والظلم لم يبدأ مع أفغانستان بل مع قضية فلسطين. «فلتأتِ القاعدة»

(٢) إشارة إلى تعليق بوش حول الحرب الصليبية الجديدة، والتي تم التراجع عنها باعتبارها زلة لسان.

يقول أحد القادة العسكريين السابقين لتنظيم إسلامي جهادي في منطقة الشمال، «فلتأتِ القاعدة، فما الخيارات وما البدائل لها اليوم؟ كل هذا الموت في الحياة السياسية، وكل يوم ثمة من يحاول أخذ لبنان إلى المشروع الأميركي، والأميركيون مصرّون على مشروعهم وعلى أخذ البلد»، يقول الرجل الذي عانى ويلات الحرب وشارك في صنع بعض هذه الويلات «لا بديل من القاعدة الآن».

«فلتأت القاعدة»، يقول على افتراض أنها غير موجودة، وفي كل الأحوال من دواعي قدومها وجود قوات دولية زاد عددها عن ١٢ ألف عنصر. «السنّة لا يمكن حشرهم في زواريب العمل السياسي اللبناني، إنهم أكثرية في العالم، وفي كل الدول العربية» يضيف القائد العسكري نفسه وهو يشير إلى تفعيل الشارع السنّي في لبنان نحو القضايا العربية.

تشبه منطقة الزاهرية في طرابلس منطقة الطريق الجديدة في بيروت، كثافة سكانية كبيرة، ومبانٍ شبه عشوائية، وخدمات متدنية للسكان، وشوارع تغصّ بشبّان عاطلين عن العمل يقفون قرب المفارق وأمام دكاكين سمانة تبيعهم العصائر والسجائر. في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٦ التقينا القائد العسكري السابق قرب صيدلية كبيرة في الزاهرية، التي ستشتهر في بداية المعارك ما بين فتح الإسلام والجيش اللبناني، واصطحبنا إلى منزله الواقع في حيّ شعبي آخر: «الموضوع اللبناني دُوّل عبر نشر الجنود الدوليين، وهذا العدد أكبر من حجم لبنان، ولا شكّ في أن القاعدة ستجد فيهم هدفاً لها» يقول الرجل وهو يعلم أنه «رغم دعوة الظواهري إلى إسقاط القرار ١٧٠١ فإن الشيخ أسامة لم يأخذ قراراً نهائياً بعد بالعمل في لبنان ضد القوات الدولية».

«القاعدة ليست موجودة فقط في موقع الحسبة[٣] على الإنترنت، إنها موجودة بين الناس، والخلايا الموجودة اليوم في لبنان هم قاعدة القاعدة» يقول أحد الناشطين العسكريين سابقاً، «هذه الخلايا (النائمة) نواة صلبة يمكن تفعيلها» وهي تنتشر بين طرابلس وصيدا، التي تربطها بعاصمة الشمال أواصر تبدو أشد من تلك

(٣) أحد أهم مواقع السلفية الجهادية على شبكة الإنترنت.

التي تربطها ببيروت. والطريق من صيدا إلى طرابلس ليست طويلة، والخلايا النائمة كما يروي الناشط العسكري، قد لا تربط بعضها ببعض اتصالات مباشرة، وتربطها بقيادتها خيوط الأثير التلفزيوني. ولكن يتضح من كلامه حجم التنسيق بين هذه الخلايا التي تلتقي في النهاية عقائدياً، كما تلتقي تنسيقيّاً حين تدعو الحاجة. ومن أسباب غياب التنسيق معرفة خلايا القاعدة النائمة أن بعضها أو جلّها أو أجزاء منها «مخترقة أمنياً من كل الأطراف الفاعلة في لبنان». هذه المعرفة باختراقات أجهزة أمنيّة محلية وغير محلّية لتلك الخلايا تدفع إلى التساؤل لماذا لا تنظف القاعدة صفوفها؟ ويأتي الجواب: «ربما لم يحن الوقت بعد، أو أن الخلايا نفسها تعدّ اختراقها من قِبل هذه الأجهزة ضمانة لها في زمن السبات الطويل».

على أرض الواقع، وفي مدينة طرابلس والمناطق المحيطة بها وصولاً إلى عكار وأطراف الحدود مع سوريا، انتشرت في نهاية صيف العام ٢٠٠٦، وبعد حرب تموز/يوليو خاصة ثلاثة أنواع من القاعدة بحسب مصادر معلومات متقاطعة:

النوع الأول، ويضمّ خلايا نائمة، تمتد نحو صيدا وتضمّ مقاتلين سابقين ذهبوا إلى العراق وعادوا منه، وبرغم أن أجهزة الدولة اللبنانية اعتقلت هؤلاء عقب عودتهم فإنهم ما زالوا ناشطين في العمل الاسلامي.

النوع الثاني، ويضمّ بعض الجمعيات السلفية التي يتمتع معظمها بوضع شرعي، وبعض الجهاديين الذين ربما كانوا في الماضي القريب من الجماعة الإسلامية أو من حركة التوحيد، وهم اليوم يميل هواهم إلى حيث يشير أسامة بن لادن، وهؤلاء ليسوا بقلّة عدداً ونوعاً.

النوع الثالث، وهو الأكثر انتشاراً، يتشكّل من الفقراء الذين يحملون شعوراً كبيراً بالظلم الاجتماعي والديني حتى، نتيجة الحملات الطويلة لمكافحة التطرّف التي لم تعالج أسباب الظاهرة بل عوارضها الجانبية، والذين يتجمعون في المساجد ويرفعون أصواتهم بالدعاء للشيخ أسامة بطول العمر وبالنصر.

وهذا على صعيد العناصر اللبنانية وحدها، أما العرب والأجانب فلهم شأن آخر ستكشفه معارك نهر البارد.

وفي كل الأحوال فقد انتزع الشبّان دور علماء الدين والمبشّرين والدعاة من أيدي كبار السنّ، وصارت الدعوة الإسلامية في هذا الاتجاه أو ذاك أقرب إلى قلوب الناس، وبات الشيوخ يتبعون الشبّان الناشطين في كل اتجاه.

«الوسط والاعتدال، وفي حال تعرّضنا إلى الهجوم فالدفاع بكل ما نملك»، يقول فيصل المولوي[٤]، الذي يرتاح في الثياب الإسلامية البيضاء، ويشدد على الإسلام المعتدل الذي شق خطاً أفقياً في تاريخ البشرية، ويؤكد أن الجماعة شريكة في المقاومة منذ انطلاقتها بعد الاجتياح الإسرائيلي إلى اليوم، وهي تسعى إلى تقريب وجهات النظر.

وقد طرح المولوي مبادرة حول سلاح المقاومة الذي نشب خلاف داخلي حوله إثر وروده بشكل غير مباشر في قرار الأمم المتحدة الرقم ١٥٥٩، وكان المولوي يرى أن لا بدّ من توافق كل الأطراف اللبنانية على «صيغة للمقاومة، وعدم التوافق على صيغة يؤدّي الى تعميق الانقسام وقد يؤدي إلى فتنة أهلية جديدة»، علماً أن المدخلين اللذين تنفذ منهما القاعدة إلى لبنان هما دور السنّة في النظام الطائفي واحتكار سلاح المقاومة بيد الشيعة، رغم موقف أيمن الظواهري خلال حرب تموز/يوليو المؤيّد لمقاومة حزب الله.

وحول انتشار التطرّف بين المسلمين يقول المولوي: «التطرّف موجود من قديم الزمن وخبا في فترة من الفترات، والآن عاد إلى البروز أولاً لأن الظلم المعادي الأميركي - الصهيوني زاد إلى حدّ غير محتمل، والأمر الثاني لأن هؤلاء الأعداء أنفسهم هم الذين يشجعون المتطرّفين ويعطونهم أحجاماً أكبر من حقيقتهم، ونحن نعتقد بأن الإسلام الوسطي المعتدل هو الإسلام الحقيقي المستمر رغم كل الظروف، وما يظهر على جوانبه أحياناً من تطرّف هنا أو هناك فهذه كلّها أمواج تمرّ وتنتهي ويبقى الإسلام الأصيل المعتدل هو الغالب. والآن رغم كل مظاهر التطرّف لو قمت بإحصاء لما وجدت المتطرّفين يشكلون نسبة

---

(٤) فيصل المولوي الأمين العام للجماعة الإسلامية، وما يرد في السياق مقتبس من جلسة خاصة في بداية تشرين الأول/ أكتوبر من العام ٢٠٠٦.

واحد في المئة، ولكنْ هناك إظهار لهم، وهناك محاولة إشاعة بأن الإسلام كلّه هكذا لتبرير الحرب على الإسلام والمسلمين».

وفي منتصف كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٦ أقرّ أحد علماء الدين السنّة بوجود تنظيم القاعدة في لبنان، قائلاً «مع القاعدة لا مجال للكلام، فهؤلاء يهدرون دمك باعتبارك مرتدّاً عن الدين»(٥)، مؤكداً أن هذا التنظيم «موجود»، مكتفياً بهذا القدر من الكلام في المحظور.

حينها تردّد كلام كثير عن دور مقبل للقاعدة في لبنان. وأكد البريغادير يوسي بيداتس، مدير البحوث في المخابرات الحربية الإسرائيلية(٦) «أن القاعدة عزّزت أخيراً وجودها في لبنان، ويمكن أن تهاجم قوات حفظ السلام الأجنبية المتمركزة في جنوبه». وقال إن «شبكة أسامة بن لادن تجنّد عناصر بصفة رئيسية في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان».

كان رهان بعض السنّة يُختصر بالكلام التالي الذي قاله لنا أحد العلماء السنّة «القاعدة هنا، وليفكّر من تسوّل له نفسه اللعب على الوتر المذهبي ما الذي سيشكله ظهور القاعدة في لبنان، أيّ مصير سيكون للشيعة حين يعمل التنظيم قتلاً في من يكفّرهم سلفاً» وهو من موقعه التنظيمي أشدّ المتضرّرين من التنظيم التكفيري، إلا أن نغمة تهديد كانت تستبطن كلامه علماً أنه كان يعتقد حتى ذلك الحين أن القاعدة يمكن أن تواجه الشيعة أولاً.

وكان العديد من القياديين السنّة يعتقدون بأن القاعدة ستنفّذ أول ما تنفذ عمليات ضدّ الشيعة، ومع وصول المعارضة إلى اعتصام مفتوح ودائم أمام السراي الحكومي، قدّرت أوساط سنّية أن القاعدة ستضرب هناك، في جمهور غالبيته شيعية ومسيحية. وكان تقدير أحد المقرّبين من حزب الله مختلفاً: «من الذي يعتقد أن القاعدة تبقي خلفها أو تذر؟ من الذي يعتقد أن القاعدة في لبنان ستتصرف غير ما اعتادت عليه في كل مكان انتشرت فيه؟». وما يقصده هو ما

---

(٥) لقاء خاص مع عالم الدين هذا الذي طلب عدم ذكر اسمه.

(٦) في تقرير تناقلته وسائل الإعلام في النصف الأول من كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٦.

تقوم به القاعدة من عمليات قتل شبه عشوائية، فالسنّة معرّضون لعنفها كما الشيعة، وكل من هو «مرتدّ» في نظرها محكوم عليه بالموت، وعندها يصبح أهل الكتاب من المسيحيين واليهود في الصف الثاني بانتظار حكم الله عليهم. ويسأل المقرّب من حزب الله عمّن يهدد الآخر بالقاعدة؟ و«من هو الذي يعاني من قِصر نظر إلى الحدّ الذي يستخدم فيه تهديدات مشابهة؟» إلا أن الأمر عند هذا التاريخ قد أصبح أكثر من مجرّد تهويل.

وفي ٢٣ و٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ اشتبكت المعارضة مع الأكثرية وقواها، وزادت حدّة التوتّر المذهبي بين السنّة والشيعة، وأظهر السنّة بعضاً من أسلحتهم الحربية، وأطلقوا النار على من حاول اقتحام مناطقهم السكنية في الطريق الجديدة خاصة. وكانت تلك المرّة الأولى منذ نهاية الحرب الأهلية في العام ١٩٩١ التي يقع فيها صدام بهذا الحجم في العاصمة اللبنانية، وخاصة بين السنّة والشيعة.

ولن يطول الأمر قبل تحويل أفراد شبكة الـ ١٣ أمام المحكمة العسكرية التي اتهمتهم بالانتماء إلى القاعدة، إلا أن المدير العام لقوى الأمن الداخلي اللواء أشرف ريفي أعلن في ٢١ آذار/ مارس ٢٠٠٦ أن «التنظيمات الإرهابية في لبنان تتشبه بتنظيم القاعدة وليست تابعة له»، وكرّر وصفه للتنظيمات الإرهابية في لبنان بأنها «قاعدة مزوّرة». وأكد أن الأجهزة اللبنانية «حققت في الآونة الأخيرة إنجازات نوعية في إحكام وتأمين السيطرة الأمنية».

كان ذلك قبل أن تصل فتح الإسلام إلى لبنان، وقبل أن يعلم القادة الأمنيون بحقائق ستجعل رؤوسهم تنخفض تحت مستوى النجوم على أكتافهم؛ القاعدة هنا ورأس جبل الجليد هو تنظيم «فتح الإسلام» الذي سيعلن عنه رسمياً بعد اشتباك قصير في مخيّم نهر البارد في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٦ ويبقى حيّاً ويتغذّى بهدوء ودون ضجيج حتى ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٧.

السياحة الجهادية في بلاد الأرز

يختفي نبيل رحيم عن الأنظار، بعدما كان قيد أُنمُلة من الوقوع في أيدي

رجال الأمن السعوديين في مطار جدّة بتهمة الانتماء إلى تنظيم «القاعدة». بعدها بأسابيع، وفي منتصف شهر نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٧ كان أهالي عشرات المعتقلين في وزارة الدفاع يعيشون على أمل إطلاق سراح أبنائهم، إلا أن حرب مخيّم نهر البارد تقع وتنسى السلطات الأمنية إطلاق سراح أي من عناصر مجموعة رحيم وحمّود. فبعد اعتقال بسّام حمّود في جدّة شنّت القوى الأمنية اللبنانية من فرع المعلومات وقوى الأمن الداخلي ومخابرات الجيش اللبناني حملة اعتقالات واسعة في الشمال، ليبقى بعضهم في السجون لأشهر طويلة طيّ النسيان، وآخرون يخرجون بعد أسابيع قليلة من الاعتقال.

ويقول أحد المسؤولين الأمنيين خلال لقاء جرى معه في منزله «لنتفق أولاً على تعريف القاعدة: إنها نمط تفكير، وأسلوب عمل، وتمويل كبير»، لافتاً إلى توافر كثير من هذه العناصر في المجموعات التي يتم التعرف إليها أو اعتقالها.

كان بسّام حمّود يتجوّل في السوق الحرّة في مطار جدّة في شهر رمضان الماضي، حين وصل الرجل السعودي الذي كان ينتظره. ولاحظ بسّام تحرّكاً لرجال الأمن فيما كان رفيقه نبيل رحيم يتسوّق في مكان قريب فنظر نحو نبيل وبإشارة خفية تمكن من إيصال الرسالة إليه: «نحن في خطر». وقد اعتقل الأمن السعودي بسّام، وفرّ نبيل ليظهر... في طرابلس، قبل أن يتوارى مجدّداً، ثم يُعتقل بعد نهاية معارك نهر البارد.

وفي منتصف آذار/ مارس تبدأ حملة اعتقالات في عاصمة الشمال، بعد طلب سعودي من الأجهزة الأمنية اللبنانية التي كانت تراقب هواتف نبيل رحيم. وكانت الحصيلة عشرات المعتقلين في مناطق القبّة وباب التبّانة والتل ومحيط البداوي، وداخل أحياء طرابلس ومساجدها.

ويُدهش الأهالي من «تعاون نادر بين استخبارات الجيش وفرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي» وهما جهازان على طرفي نقيض وفي حالة تنافس مجهدة.

وتُدهش الأجهزة الأمنية نفسها لاعتقالها مجموعات أخرى، ولتداخل المجموعات مع «فتح الإسلام»، فيما تجتاح حملة شائعات المدينة من أقصاها إلى أقصاها، وصولاً إلى المناطق المحيطة بها وإلى عكار. وكانت للطرفين

مصلحة في إطلاق الشائعات، إلا أن ما بلغته الحملة أكبر من إرادة الجانبين: أنباء كاذبة عن اعتقالات هنا وهناك، يتصل أحد أئمة المساجد من السلفيين بـ«المعتقلين» المفترضين، فيؤكد هؤلاء أنهم في منازلهم، بينما تتوافد على منزله عائلات تطالبه بالتدخل لإطلاق أبنائها. ويروي الشيخ، الذي طلب عدم ذكر اسمه، ما سمعه بنفسه عن أنه شوهد وهو ينقل نبيل رحيم في سيارته: «طبعاً أعرف نبيل رحيم، لكني لم أشاهده منذ سمعت أنه عاد من المملكة السعودية».

يعتقل الجيش عمر العلي وغيره فيما يجري البحث عن عادل عدنان. وتتعدد الأسماء. هؤلاء كانوا يشترون أسلحة من تاجر أسلحة لا علاقة له بالإسلاميين حين «تعثّرت بهم» الأجهزة الأمنية فاعتُقل بعضهم وفرّ آخرون. كانت الصفقة تمر من مخيم نهر البارد إلى داخل طرابلس.

«لا أحد يمكنه تربية الإسلاميين»، يقول أحد المسؤولين العسكريين السابقين في الشمال وكان في مرحلة ما يقود أكثر من سبعة آلاف عسكري غير نظامي. وهو يستخدم مصطلح «تربية» العامي الذي يعني «تأديباً»، ليضيف أن الإسلاميين «يمكنهم تربية الدولة والأطراف الذين يحاولون استخدامهم»، وأن من السهل على الإسلاميين التقاطع مع سياسات إقليمية والانسحاب منها لاحقاً بعد أن يستفيدوا منها إلى الحد الأقصى.

كان هذا القائد السابق قد فقد من مناصريه الإسلاميين ٦٠٠ شاب دفعة واحدة في إحدى المعارك، شاهدهم يُسحقون تحت جنازير الدبابات السورية ويموتون في مواقع عسكرية مرتجلة، ورأى الطائرات الحربية تنقضّ عليهم وتقصفهم في الجبال المحيطة بطرابلس، وفي الجرود التي هربوا إليها، قبل أن تسلّمه إحدى المجموعات الفلسطينية إلى الجيش السوري حيث أمضى من عمره ما يكفي ليكبر أبناؤه ويشبّوا، فعاد متخلّياً عن النضال من دون أن يتخلّى عن الأصدقاء القدامى.

كيف يمكن تنظيم القاعدة أن يقاوم الإغراء اللبناني؟ يسأل الرجل. وفي سياق النقاش تبرز عشرة إغراءات تجتذب سيّاح القاعدة المحلّيين والعالميين إلى لبنان، وهي الآتية:

١ – لبنان مكشوف أمنياً، فحملة الاغتيالات التي بدأت منذ محاولة اغتيال مروان حمادة ترفع الغطاء الأمني عن كل البلد وأمام كل الأطراف.

٢ – يعيش لبنان في مرحلة صراع تكاد تكون وجودية مع إسرائيل وسط حرب تطاول مناطقه كافّة، ويصبح السلاح متوافراً وحجة اقتنائه مبرّرة.

٣ – يكبّل القرار ١٧٠١ المقاومة، فيما تصل قوات الطوارئ الدولية بأعداد تفوق قدرة البلاد على الاحتمال والاستيعاب، نحو ١٥ ألفاً من القوات الأجنبية ينتشرون براً وبحراً، مع تزايد الحديث عن تكليفهم مراقبة الحدود مع سوريا.

٤ – وضع ملتبس حول قاعدة القليعات العسكرية التي تُوسّع، وتتردد أنباء عن إمكان تحوّلها قاعدة عسكرية أميركية أو استضافتها انتخابات رئاسية تنظمها «الأكثرية».

٥ – يشهد البلد انقساماً سياسياً حادّاً واتهامات متبادلة بالتعاون مع الغرب أو الشرق أو أطراف أخرى من ضمنها إسرائيل.

٦ – توتّر سنّي شيعي، وعمليات إطلاق نار وتسلّح فردي، في الحدّ الأدنى، فيما يلقى مناخ التحريض المذهبي بين السنّة والشيعة رواجاً، لا بل تشجيعاً، من أطراف سنّية منفتحة.

٧ – حالة القمع التي لا تزال ماثلة في ذاكرة أبناء الشمال منذ ما قبل اشتباكات الضنّية وعمليات الاعتقال المتتالية.

٨ – وجود كوادر إسلامية، لبنانية وفلسطينية وسورية، تقاتل في العراق، وبعضهم عاد إلى لبنان في فترات ما بعد سقوط بغداد.

٩ – نزاع سياسي داخلي دائم التوسع والتعمق من دون آفاق واضحة للحل.

١٠ – شعور بالخذلان لدى شبّان السنّة الناشطين منذ الانتخابات النيابية للعام ٢٠٠٥، وصولاً إلى الخامس من شباط/فبراير (غزوة التباريس) وأحداث جبل محسن حيث تم تبادل إطلاق النار بين العلويّين والسنّة في المنطقة القريبة من طرابلس، وتخلّي المرجعية السنّية السياسية عمّن شاركوا في أحداث الأشرفية أو في اشتباكات جبل محسن، وعن المصابين في هذه الأحداث كما عن المعتقلين،

إضافة إلى عدم تسديد مبالغ مالية تعود إلى مرحلة الانتخابات كان قد وُعد بها مفاتيح محلّيون وسائقون عموميون وغيرهم.

كل ما سبق يجعل أي عاقل من قادة تنظيم القاعدة يبحث جدّياً في الاستثمار في لبنان بصفته «أرض الفرص المقبلة للنصرة والجهاد».

ويروي أحد المشايخ في طرابلس كيف انفرط عقد مركزية «القاعدة»: بعد الضربات التي وُجّهت إليها تحركت مفاصل الحركة التنظيمية الهائلة، فشجعت المبادرات الفردية للشبّان وباركتها، وتركت الكوادر الوسطى تعمل على هواها، وتبنّت من الأعمال ما تراه يخدم مصلحتها ويتوافق مع «دفتر شروطها»، فأمدّت الشبّان بأسباب العمل التقني واللوجستي، وحسّنت طرق إيصال الأموال وموّهتها، وتأقلمت مع الظروف، واستعادت كل أدبيات النضال ومقاومة القمع، واستفادت من الفقراء في كل مكان من العالم الإسلامي ذخيرةً للعمليات الاستشهادية والعمل الميداني، وتعايشت مع كل أصناف التقاطعات الصغيرة، مع إيران وسوريا والبعث العراقي والعشائر في العراق (قبل أن تنقضّ عليها هذه الأخيرة)، وحتى مع أجهزة الأمن التي تراقبها.

انتشرت القاعدة في كل بقاع الأرض، وصارت مطابَقةُ أيام غزوات بغداد المغولية و«تعاون الشيعة مع الغزاة» مرادفةً لما يراه أعضاء القاعدة من أحداث اليوم، وفي تبسيط للمشهد السياسي أصبح الشبان يرون في كتب ابن تيميّة مرشداً للحرب العالمية الدائرة ضدهم.

وبعدما كانت أجهزة الأمن اللبنانية تنفي وجود القاعدة على أراضي لبنان، باتت تعتبرها «قاعدة مزيّفة» قبل أن تنعطف وسائل الإعلام التابعة لفريق الأكثرية (المرجعية السياسية لهذه الأجهزة الأمنية) وتبدأ بحملة بحث عن أسباب انتشار القاعدة في لبنان وخلفياته.

وتصل إلى أجهزة الأمن اللبنانية طلبات محدّدة للتعاون من السعودية أو الولايات المتحدة أو غيرهما، في سبيل القبض على مجموعات أصولية يمكن أن تتبع القاعدة أو للتحقيق في أمرها. والقاعدة هي مجموعات الشبّان في الأحياء

الذين يشترون القهوة بـ٢٥٠ ليرة[٧] ويتعاملون مع الجلوس في المقهى الضيق والعابق برائحة السجائر في باب التبانة بصفته الترف الوحيد الممكن. القاعدة هي شابّ يبيع عصير البرتقال في الشارع ويتدرّب على المهارات البدنية والقتالية الصينية أو اليابانية، وهي الشابّ الذي يبيع العطورات الخالية من الكحول ويتعلم القراءة من القرآن وحده، وهي كل من أمكن مدّه ببضعة آلاف من الدولارات ليشتري القليل من التكنولوجيا والسلاح.

يجلس الشبّان الفقراء في أحياء بُنيت عشوائياً، وفي المنازل الفقيرة التي لا ترى في محيطها من يسير وهو يضحك. الأطفال يلعبون الكرة ليلاً وهم متّسخون حدّ المرض، وفي جلسات هؤلاء الشبّان يرتفع السخط على حال لا تتغيّر. فقرهم لا فِكاك منه، وقِلة تعليمهم لا مهرب منها إلا علوم الدين في المساجد، ولباسهم السيّئ حلّه الوحيد العودة إلى اللباس الإسلامي للسلف الصالح، وكثرة مسؤولياتهم في الحياة الدنيا حلّها السحري في الحلم بالشهادة في سبيل الله. يتحلّقون حول شابّ أكثر منهم خبرة وتجربة وأكبر منهم سنّاً، يروي لهم تجاربه في الحرب الأهلية حين قاتل ضمن صفوف حركة التوحيد، وكيف كان الشهداء حين يسقطون يبرز النور من وجوههم، ويروي لهم أعواماً اختفى فيها بعيداً من لبنان، يوم كان مطارداً من قِبل الجيش السوري، ويخبرهم عن أحوال العراق. يبكي الشبان ويضحكون بصمت في مساجد فقيرة، وينزلون إلى طرابلس من مناطقهم المهملة إلى عاصمة شمالية مهملة هي أيضاً ليصلّوا في مساجد يحترمون خطباءها.

ثم تبدأ حملة الاعتقالات، ويختفي الشبان، فيما الأهل لا يعرفون هل هم فارّون أم معتقلون؟ هل عادت موجة الهروب إلى جرود الضنّية أم يعتقلهم الجيش ولا يُقرّ؟ يبقى الأهل في حيرة من أمرهم أكثر من أسبوعين، ثم تكرّ الأيام وتعود حملة اعتقالات أخرى. إذاً، أهي «القاعدة» تدخل إلى لبنان، أم الشبان الذين سئموا حياة الذلّ والفقر والجهل ذهبوا بأنفسهم إلى طريق القاعدة من دون أن

(٧) ١٥ سنتاً أميركياً.

يعرفوا ما إذا كان في نهاية هذه الطريق أي لقاء أو اتصال مع الشيخ أسامة بن لادن والدكتور أيمن الظواهري.

على دفعات تخترق مخابرات الجيش منطقة «أشعب شعيب» في القبّة، وأحياناً بالتنسيق مع فرع المعلومات في قوى الأمن الداخلي. تلتقي شباناً قبل أخذهم إلى التحقيق «لمدة نصف ساعة وشرب فنجان من القهوة»، أو تطلب منهم تسليم حقائب كانت قد وضعت لديهم أمانة وتتركهم ثم تستدعيهم في اليوم التالي ويختفون. والمخبرون الذين تعتمدهم أجهزة الدولة يعرفهم السكان. هم أيضاً أبناء الأحياء الفقيرة، ويشاركون في عمليات التعرّف على المطلوبين.

يختفي الشبان الذين يذهبون لـ«شرب فنجان قهوة»، وبعد عشرين يوماً يعلم الأهالي أن أبناءهم صاروا في وزارة الدفاع في اليرزة. ويتلقّى بعضهم اتصالات هاتفية تسمح لهم بزيارة أبنائهم وجلب الملابس لهم، إلى سجن رومية أو المحكمة العسكرية. إلا أن المسافة الفاصلة بين يوم الاعتقال ولقاء الأهل «من أهوال جهنّم»، بحسب ما يروي المعتقلون.

قبل اعتقال محمود الأسعد (أبو جعفر)، وهو في بداية العقد الرابع، كانت للرجل حياة كاملة، على رغم بؤسها. هو صاحب بسطة لبيع عصير الليمون، يديرها الآن شقيقه الأصغر، فيما يقضي أخوه الأكبر وقته متنقلاً بين منزل أخيه حيث يساعد عائلته الصغيرة على أسباب الحياة، ومكتب محام اختاره مسيحياً من منطقة قريبة.

تزوّج محمود الأسعد في العام ٢٠٠٥، ووضعت زوجته مولودها الأول قبل أربعة أشهر من اعتقاله في شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٧. وهو من ضمن مجموعة شبان يلتقون للصلاة في المسجد نفسه الذي اعتقل مؤذّنه، أو بحسب رواية أخرى طُلب مؤذنه للتحقيق ففرّ من دون أن يترك أثراً. ويعود الخلط إلى ظهور (أو عدم ظهور) الأشخاص في قاعات المقابلات لدى لقاء الأهل.

يتحدث إمام مسجد حمزة الذي فقد مؤذّنه عن الاعتقالات قبل أن تُعلن في الصحف، فيتلقّى اتصالاً من مرجعية دينية تشير عليه بعدم التحدث عن الموضوع

«لكون الحديث في هذا الأمر يُحرج مرجعيتنا السياسية». يصمت إمام المسجد عن الكلام المباح. وتصدر الصحف بعناوين كبيرة عن «القاعدة» وشبكاتها، فيعجب أحد الشبّان من اتهام شقيقه بالإثراء وهو لا يملك سيارة، ويقول آخر إن سيارة شقيقه المعتقل تساوي ١٥٠٠ دولار، بينما يسألنا شقيق أحد المعتقلين كيف يمكن أن يكون شقيقه خبير متفجرات وهو أمّيّ لا يعرف القراءة والكتابة؟

قبل اعتقالهم كان الشبّان من «مجموعة محمود الأسعد» يلتقون يومياً مرّات عدّة للصلاة ولتلقّي دروس دينية. بعد بضعة دروس التزم الشبان، وبات يُنظر إليهم كمتفقّهين في الدين، هم الذين تلقوا علوماً بدائية ومعرفة بسيطة بالقراءة في منطقة يندر فيها أن يتابع شخص تعليمه فوق مستوى الابتدائي. ولا يشذّ أبو جعفر (أسعد) عن هذه الحال، فهو أُمّي، تلقّى علومه من القرآن بمحض جهده الشخصي، وهو الآن من الشبان السلفيين الذي يتدرّبون بين حين وآخر على فنون القتال «كيك بوكسينغ».

«من هم في اعتقادكم؟»

يقوّم الشيخ بلال شعبان المجموعة بالقول إن نبيل رحيم وبسّام حمّود من «الشبّان الأنقياء»، واذا كانت بقية المجموعة صوّتت في الانتخابات النيابية عام ٢٠٠٥ «للمرجعيّة السنّية» بحماسة الانتماء إلى الطائفة فإن حمّود ورحيم بقيا على موقفهما البعيد عن الحريرية و«المستقبل» في طرابلس. ويتفق كل من عرف حمّود ورحيم، كالشيخ هاشم منقارة الذي يتحدث بهدوئه المعهود، على أن الشابّين من العقلاء، وهما على موقفهما الخاص وقناعاتهما العميقة، إلا أنهما، وخصوصاً بسّام حمود، «غير انفعاليين» ويصعب أن يذهبا مذهب «القاعدة» في قتل المدنيين. ويحمّل الشيخ بعض الجهات في دول معيّنة مسؤولية دعم هذه المجموعات مالياً وتقنياً.

في منطقة أبو سمرا حيث مركز الشيخ داعي الإسلام الشهال، يتحدّث ابن مؤسس التيار السلفي في لبنان عن أساليب التعذيب التي علم بها: «المنع من النوم، ضرب على الرأس والجسم والأرجل وغيرها من أساليب التعذيب الشنيعة»

يقول قبل أن يضيف، والكلمات تصدر منه بصعوبة: «السنّة هم مكسر العصا في لبنان، كل الطوائف تتكتّل وتتدرّب على السلاح من الشمال إلى الجنوب، إلا أن الأمر محظور على أهل السنّة». ويحذّر من تراكم الظلم الذي قد يؤدّي إلى ما حصل في الضنّية التي «لم تكن إلا ردّ فعل على الظلم».

وفي قلب طرابلس يجلس أحد أئمة المساجد في مكتبه، وبعد أن يلوم الإعلام، يقول إنه حاول التدخل بعدما زاره أهالي المعتقلين. ويضيف الشيخ السلفي مستنداً الى خبرته الطويلة في هذا المجال: «ستقول لنا مخابرات الجيش إنهم اعترفوا فكيف سنقوم بدعمهم؟ وستقول إنه عُثر على بندقية هنا أو هناك لتثبيت تورّط الشبان. بينما في واقع الحال فإن أكبر خلية للقاعدة في لبنان هي حزب الله نفسه». ويشرح ذلك بالقول إن حزب الله يصرّح بامتلاكه ٣٠ ألف صاروخ «ويصرخ بالموت لأميركا ولإسرائيل»، معتبراً أن مثل هذا الطرح «يقوّي شخصاً مثل سمير جعجع[٨]، وهو أخطر طرح على لبنان»، ويسأل: «لماذا لا يتمّ التعرّض لحزب الله بينما يعتقل هؤلاء الصيصان؟»

ويرى العديد من أعضاء التيار السلفي الجهادي أو السلفي المناصر أن قناعة تكونت لدى الشبّان من أمثال مجموعة بسّام حمّود ونبيل رحيم بأن المشكلة في لبنان تأتي من النفوذ الشيعي، وأن مخابرات الجيش اللبناني والجيش نفسه يؤيد هذا النفوذ السياسي لحزب الله، وهو ما يصرّح به شبّان مراهقون لم تكتمل بعد لحاهم في أحياء طرابلس الأفقر حالاً. كما يعتقد الشبّان الملتزمون دينياً أن قوات اليونيفيل في لبنان ستمنع من يريد قتال إسرائيل منهم من التوجّه إلى قلب المعركة المنتظرة ضد العدو الإسرائيلي، «حيث من واجب كل مسلم الجهاد في سبيل تحرير القدس. عدا عن كون اليونيفيل نفسها جيوشاً أجنبية في لبنان، لن يستقيم وضع المسلمين في لبنان إلا بعد جلائها».

ارتبط محمود الأسعد بمجموعة الشبّان، وكان على رأسها بسّام حمّود المقاتل السابق في صفوف التوحيد، والذي تخلّى عن الحركة وفرّ من ملاحقة

(٨) رئيس الهيئة التنفيذية للقوات اللبنانية التي كانت متحالفة مع إسرائيل خلال الحرب الأهلية.

الجيش السوري لأعوام طويلة، وكان موضع متابعة من الأجهزة الأمنية اللبنانية لفترة طويلة. فيما كان نبيل رحيم يعدّ من القادة المحليين للمجموعة الملتزمة دينياً، وكان ثمة جوّ معاد للشيعة قد بدأ ينضج. «حين يجدون بندقية هنا تداهم كل المخابرات منازلنا وتنتهك حرماتنا، ولكن من يصرّح بأن لديه ٣٠ ألف صاروخ لا يشكل أي مصدر للملاحقة القانونية» يقول أحد الشبّان في الحيّ وهو يروي قصة مجموعة بسّام حمّود.

كان أبو جعفر (محمود أسعد) ينزف من قدميه الموثقتين، ورغم ذلك كان يتوضأ ويصلّي علماً بأن الدم النازف يبطل الوضوء. لم يكن يرى الضوء في وزارة الدفاع، إلا أنه من الصعب إقناعه بأنه متطرّف ومرتبط بتنظيم القاعدة، فيما هو يقوم بما لا يزال يعتقده السبيل الوحيد لتغيير حال ملّ منها، ورأى أخاه الأكبر وأباه وعائلته وكل منطقته وحتى كل الشمال يعانيها: «الحياة في الذلّ، الحياة خارج الحياة»، وهو حين يلتقي زوّاره في سجنه يشدّ من أزرهم.

ما كان يقوم به أبو جعفر من ذهاب إلى الصلاة ضمن مجموعة وتلقّيه تعاليم دينية سلفية هو ما يقوم به كل أبناء المنطقة تقريباً، يجتمعون في حلقات من الأصدقاء ويشتركون في الصلاة وتلقّي الدروس الدينية، والانتماء إلى ما يبرّر لهم تعب الدنيا ويصوّر لهم طرق الخلاص، إن لم يكن في هذه الحياة الدنيا، ففي جنّات تجري من تحتها الأنهار، ولو اقتضى ذلك الانتحار نسفاً بأعداء حقيقيين أو مفترضين.

تستيقظ طرابلس متكاسلة ككل يوم. مدينة من ذهب مغطاة بالغبار والإهمال، تاريخ من الحروب والمقاومة لا يتوقّف. قبل ألف عام حين قاومت غزوات الصليبيين وكانت مدينة علم ورخاء، ثم سقطت وانتفضت وسقطت. السلفيون هنا يستلهمون تاريخ مدينتهم كما يرغبون، وينسون أنه خلال الحروب الصليبية كان العرب يدعونها حروب الفرنجة، وكان العرب يتحالفون مع الفرنجة ضد العرب أحياناً.

يستيقظ الشارع الطرابلسي غير عابئ بالمعتقلين وأهاليهم. ثمة مشهد آخر في الشارع. يبتسم الشيخ هاشم منقارة حين يتحدث عن الجو السياسي العام في

عاصمة الشمال وأطرافه، فحركة «جبهة العمل الإسلامي» التي ينتمي إلى قيادتها أصبحت أسهل، والجو العام لم يعد معادياً بالمطلق ولا أسير تيار المستقبل الذي احتكر الشارع السنّي منذ مقتل رفيق الحريري حتى شهر آذار/ مارس من العام ٢٠٠٧.

بلال شعبان الديناميكي صار أكثر راحة، وهو يعلم أن من تخلّوا عن تيار المستقبل لم ينضمّوا تلقائياً إلى حركة «التوحيد الإسلامي» أو «جبهة العمل الإسلامي»، بل وصلوا إلى حد القرف واعتزلوا في منازلهم. ويعلم الشيخ الشاب جيداً أن لجوء أهالي المعتقلين إليه أتى نتيجة يأسهم من مرجعيتهم الدينية والسياسية، كما يعلم أن الأمور لم تستقم نهائياً لمصلحة وجهته في السياسة، إلا أنه اليوم أشد بأساً من ذي قبل، تماماً كما بات وجود القاعدة أشدّ بأساً وعمقاً من ذي قبل.

تراجع الاهتمام بتيار المستقبل. وصار من الماضي وجود سعد الحريري في الحياة البائسة لسكان القبّة أو أبو سمرا، أو في محالّ الإنترنت ذات الشاشات المستخدمة إلى حد الازرقاق في زواريب طرابلس القديمة، أو في محالّ اللحم والمعجّنات الرخيصة في السوق المغلق في باب التبّانة. صور رفيق الحريري تكاد تصبح من الماضي. ولا يكاد الأهالي يميّزون بين النظام الحالي والنظام الأمني اللبناني السوري المشترك، فالاعتقالات ووطأة التحقيقات العنفية، والاختفاء من العمل والظهور بعد شهر في محكمة عسكرية، أو الفرار إلى الجرود أمور تتكرّر في أحياء الفقراء حيث الأنين يصل من منزل إلى آخر من دون أن تتمكن الجدران القديمة من عزله.

لم يتخلّ كل الشمال عن تأييد تيار المستقبل، ولكنّ التيار «تخلّى عن كل الشمال» كما يقول أحد أهالي المعتقلين. صار يمكن الشيخ محمد خضر أن يعلن من منزله في القبّة أن «الهدف من توزيع المال والسلاح عشوائياً هو إثارة الفوضى» ويضيف: «لا شك في أن أحد الأطراف المحلية لديه مصلحة في دعم هذه المجموعات (الجهادية السلفية). والسؤال هو من ساعد منظمة فتح الإسلام؟ ومن له مصلحة في إطلاق الوعود لـ «مجموعة التعمير» و«عصبة الأنصار» في صيدا؟

ومن الذي تحدث عن وضع احتياط عسكري للسنّة في لبنان من الفلسطينيين؟ ومن عاد وانقلب على هذا الفريق وحرّض عليهم داخلياً وخارجياً وفتح باب الاعتقالات؟».

كذلك يبدو انسحاب ظلّ «المستقبل» عن الشمال واضحاً على مُحيّا الشيخ السلفي داعي الإسلام الشهّال. لا يصرّح الرجل الحريص والمتعب بموقف واضح، لكن يمكن تلمّس تبرّم جليّ من الأحوال، وهي نفسها الأحوال التي دفعت بدعاة مثل بسام حمود ونبيل رحيم وعدنان محمد إلى التحوّل إلى الفعل المباشر، إلى «الجهاد» بعدما كانوا يعملون في «الدعوة والنصرة».

«حين يُعتقل أحد السلفيّين يقرّ أمام قاضي التحقيق بكل شيء، هؤلاء الشبان يتحدّثون بما لهم وما عليهم»، يقول أحد المحامين المسيحيين الموكلين عن المعتقلين، وهو يستغرب إخضاع المعتقلين للتعذيب. إلا أنه يختم بالقول: «على كلٍّ، نحن لسنا غرباء عن أورشليم ونعرف أن هذا (التعذيب) من مسار الأمور».

لقد وضع المعتقل بلال أحمد بدوي السيّد في زنزانة منفردة لفترة طويلة، لم يتعرّض للتعذيب، لكنه أجبر على الوقوف لفترات طويلة. الشاب الذي كان يدرّب رفاقه على قدرات القتال الجسدية (كيك بوكسينغ) كان يعمل طوال النهار محاسباً في مطاحن معروفة في الشمال، ويعود إلى منزله عند العاشرة ليلاً، وبحكم سكنه في منزل مستأجر قرب مسجد حمزة، حيث كانت تجري التدريبات في القاعة السفلى، كان يتردّد إلى المسجد، ويلتقي الشبان من المنطقة، لكنه سيفاجأ في سجنه بأن هؤلاء الشبان متهمون بالانتماء إلى «القاعدة»، وسيُفاجأ أكثر بأنه متهم أيضاً مثلهم.

لم يدر في خلد بلال السيد حين تم الاتصال به وطُلب منه تسليم «الحقيبة الأمانة» التي لديه بأنه سيتعرّض لكل هذه الأهوال. كل ما في الأمر أنه التزم تعليمات دينه حول الوفاء والأمانة عندما ترك أبو بكر (عدنان محمد) لديه أمانة هي عبارة عن حقيبة. وحين استدعاه المخبر إلى الشارع نزل برفقة والده، وأحضر معه الحقيبة، فتحها المخبر في الشارع، وكان فيها خمسة أجهزة «نوكيا» خلوية مستعملة. سلّم الحقيبة وعاد مع والده إلى منزله، وفي اليوم التالي استدعي إلى

مكتب مخابرات الجيش. وبعد أيام أُبلغت العائلة بأن بلال بات في وزارة الدفاع في اليرزة، ومنها إلى قسم الإرهاب في سجن رومية.

بعد ٢٤ يوماً، يلتقي أهالي المعتقلين أبناءهم. بلال السيد متهم بتأليف عصابة مسلحة، ورغم أن «مخابرات الجيش دهمت المنزل ولم تعثر على شيء»، بحسب والد الشاب ووالدته، «اتهموه بالتآمر». كان راتب بلال السيد لا يتجاوز ٥٠٠ ألف ليرة لبنانية[٩]، يعيش منه هو ووالده ووالدته ويدفع منه إيجار منزله (١٧٥ دولاراً). ومن حيث أتى بلال كانت الحياة صعبة بما يكفي. وسيُنسى بلال في السجون مع بداية معارك الجيش اللبناني و«فتح الإسلام» وتغيب قصة مجموعة نبيل رحيم وبسّام حمّود عن الإعلام.

كان عدنان محمد أول المعتقلين. في الماضي القريب التقى عدنان شخصاً سعودياً، ضمن إطار تنسيق العمل في العراق، أبلغه السعودي أن المطلوب من اليوم فصاعداً تدريب المجاهدين قبل إرسالهم إلى العراق، وأن كلفة التدريب والاختفاء في العراق بالغة بشرياً، وعلى المجموعات أن تكون جاهزة قبل الانضمام إلى «النصرة والجهاد»، وهو ما دفع عدنان إلى البدء بتشكيل مجموعته الطرابلسية التي لا يعرف أفرادها بعضهم بعضاً. وكان عدنان قد التقى في وقت سابق قيادة المجموعة الأخرى المعتقلة في طرابلس، أي مجموعة بسّام حمّود، داخل مخيّم البارد وبرعاية «فتح الإسلام». وحاول الاثنان الانضمام إلى «فتح الإسلام» مع مجموعتيهما، إلا أنهما فشلا في التوافق، وأكمل كل منهما دربه منفرداً.

يروي أحد الذين التقوا عدنان أنه اعترف في التحقيقات «التي تخلّلها الكثير من التعذيب» بالعمل على تجنيد الشبان للالتحاق بالجهاد في العراق ضمن مجموعات القاعدة أو ما بات يعرف بـ«هيئة شورى المجاهدين في العراق» ومن بعدها «دولة العراق الإسلامية»[١٠]، وأقرّ بأن الشبان لا يعرف بعضهم بعضاً، ولا

---

(٩) ما يعادل ٣٣٠ دولاراً أميركياً.

(١٠) تمّ الإعلان عن قيام «دولة العراق الإسلامية» في شريط بثه «مجلس شورى المجاهدين» بتاريخ ٢٠٠٦/١/١٥.

يعلمون بما يجري، ولا يعرفون أن التدريبات هي مجرّد تمهيد للالتحاق بالمقاومة في العراق، وكان يخبرهم بأن التدريب هو للدفاع عن النفس في منطقة باتت تخشى «خطر العلويّين» القاطنين في جبل محسن.

كانت «القاعدة» تمتد شمالاً وجنوباً، وتجري تدريبات حثيثة، وتلعب لعبة حرب المخابرات مع كل الأجهزة، اللبنانية والسورية والإيرانية وغيرها، وتتأهب، فالآتي آتٍ، ولم يعد في الوقت متّسع، كما يبدو، للصراع على هويّة طرابلس.

أصوات التدريب في البحر

في نهاية شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٦ بدأت قوات منظّمة التحرير الفلسطينية بالانتشار في محيط مخيّمي نهر البارد والبداوي. وتنصّلت المنظمة من حادث أودى بحياة جندي لبناني في البارد، وردّته إلى مشكلة شخصية وفردية، وتقدّمت باتجاه مداخل المخيّم الذي يعيش فيه ما يقارب ٤٠ ألف إنسان، يثمّن معظمهم «حالة الأمان» التي فرضتها «فتح الإسلام»، إلا أنهم يشكون من إغلاق المخيّم أمام التجارة التي كانت تعيل سكانه.

يبعد مخيّم البدّاوي عن قاعدة القليعات الجوّية (رينيه معوّض) بضعة كيلومترات، ويبعد مخيّم البارد عن القليعات ٩ كيلومترات، وعن الحدود السورية ١٥ كيلومتراً. هي الجغرافيا تشرح الأحداث.

من العراق بدأت المشكلة. فالشبّان العرب باتوا عبئاً على «مجلس شورى المجاهدين» الذي يمثل «القاعدة» في العراق، ويضمّ آلاف المقاتلين العرب، برعاية عدد من العشائر السنّية في أرض الرافدين. وكان مجلس الشورى يستعد لإعلان تحالف واسع مع عدد من القبائل وإطلاق «دولة العراق الإسلامية»، إلا أن عدم الاستقرار الأمني والمشكلات التي تقع بين أفراد من العشائر وعناصر «القاعدة»، أدّت إلى استياء بعض العشائر المختلطة (سنّة وشيعة) من عمليات القتل اليومية وظهور حال من التململ. وقبل حرب تموز/ يوليو كانت «القاعدة» قد قررت نقل المئات من مقاتليها خارج العراق، إلى عدد من الدول ومن بينها لبنان.

وقعت حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦ على لبنان. وحرّك الإسرائيليون معادلات أضخم من حجمهم ومن حجم لبنان نفسه. وكما يروي أحد المتابعين المتصلين بكوادر «القاعدة»، فإنه في نهايات الحرب، وبعد اتضاح صورة الخيارات التي ستأتي بقوات أجنبية، اتخذ «مجلس شورى المجاهدين» قراره بالانتقال إلى لبنان. ولم يكن القرار بنقل بعض المجموعات فقط، وإنما تحويل لبنان من أرض للنصرة إلى أرض للجهاد.

في ٢٨ تموز/ يوليو ٢٠٠٦ (خلال العدوان) خرج الرجل الثاني في «القاعدة» أيمن الظواهري ليعلن أن تنظيمه «سينتقم من الغزاة الصهاينة والصليبيين»، وفي ١٢ أيلول/ سبتمبر يتهم الظواهري كلاً من مصر والسعودية والأردن بدعم العدوان على لبنان، ويهاجم القرار ١٧٠١ ويدعو إلى إسقاطه. وفي ١٤ شباط/ فبراير من العام ٢٠٠٧، يدعو الظواهري في تسجيل آخر «إخوة الإسلام والجهاد في لبنان لئلا يرضخوا للقرار ١٧٠١ وألا يقبلوا بإزاحة حدود لبنان ٣٠ كلم للخلف بوجود القوات الدولية الصليبية في جنوبه... إن المخطط الأميركي في لبنان هو نفسه في العراق وأفغانستان وفلسطين ومصر والسعودية والأردن ودول الخليج والجزائر والصومال»، معتبراً أن «كل من تعاون (مع هذا المخطط) هو خائن». وعلى ذلك فإن ثمة «إخوة للإسلام والجهاد» في لبنان، كما أنه يتعرّض لمخطط شبيه بما خُطّط للعراق، وبالتالي فإن أساليب المواجهة هنا ستكون شبيهة بتلك الناجعة هناك.

حركة الانتقال بين لبنان والعراق والتي تمرّ في سوريا - سواء بالتواطؤ أو غضّ النظر أو من دون علم السلطات - لم تتوقف منذ بداية احتلال أرض الرافدين. وكان الشبّان في الشمال يتحمسون للذهاب إلى الجهاد، يدفعهم إلى ذلك أن شمال لبنان هو «الخزّان البشري والإسلامي»، ومقرّ للقهر والحرمان ولتراكم المشكلات والمطاردات، كما لتراكم أخطاء تيار المستقبل» بحسب أحد المتابعين لحركة «القاعدة» في الشمال. وهو يوضح أن السلفيين في الشمال جزءان: مع النظام السعودي وضده «لكن الكل يتلقّى الدعم من جهات سعودية سواء أكانت رسمية أو معارضة، إذ إن بعض الأمراء والشخصيات يرون أنهم

بدعم القاعدة يجاهدون بأموالهم»، فضلاً عن الدعم الآتي من جهات وشخصيات خليجية.

وبعد قرار «مجلس شورى المجاهدين في العراق» نقل الجهاد إلى لبنان، بدأت حركة هجرة معاكسة: عشرات من المقاتلين السعوديين واللبنانيين والسوريين والفلسطينيين والأردنيين والعرب جاؤوا إلى لبنان، واستقرت غالبيتهم في مخيّم نهر البارد، ووصل بعضهم إلى طرابلس أو البدّاوي، وآخرون إلى البقاع وإلى «نقاط العبور» في قرى قريبة من الحدود. وما لبث «العائدون من العراق» أن صاهروا أبناء مخيم نهر البارد وسكنوا بينهم وحظوا باحترامهم، وعاشوا حياة طبيعية ظاهراً. وأدّى مصرع أحد الذين قتلوا في مشكلة وقعت في البدّاوي في نهاية شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وكان قد حوصر من قبل في كنيسة المهد في فلسطين، إلى حصد المزيد من العطف والاحترام لـ«فتح الإسلام». أما في باطن حركة الهجرة فقد بدأ التدريب والاتصال بمجموعات لبنانية، كمجموعة بسّام حمّود وعدنان محمد وغيرهما، وسط تراجع ملموس لقدرات تيار المستقبل.

اعتقد أبناء الشمال أن إسقاط النظام السوري بات قاب قوسين، عبر الشالات والأغنيات بمكبّر الصوت، والرقص في الاعتصامات[11]. إلا أنهم، مع الوقت، اكتشفوا أن الرقص لم يؤدّ إلا إلى السير وراء جنازات، وأن ارتداء الشال الأحمر والأبيض ينتهي بوضع الشال نفسه فوق نعش أحد القادة السياسيين، واستنتجوا بديهية أن سوريا ممسوكة فوق قدرة مراهقي لبنان على جلب أمن فردي لأنفسهم، وأن اللعب مع الدول الإقليمية عاقبته قاسية، وأن درساً في السياسة كان لا بد أن يتعلمه مسؤولوهم قبلهم: الدول العظمى يمكنها الخسارة إقليمياً، لكن ليس في استطاعة الدول الإقليمية وقف تدخلها في الجوار أو الخسارة في محيطها. وكان لا بد من تراجع عن تكتيك طفولي.

وسط هذه المخاوف وصل مجاهدون لا يهابون الموت، وبدأت التدريبات.

---

(١١) الإشارة هنا إلى حركة ١٤ آذار، التي اعتمدت الأساليب السلمية والتظاهرات الشعبية مطالبة بخروج الجيش السوري من لبنان.

ثمّ وقع إشكال في البدّاوي انتهى بطرد «فتح الإسلام»، إلا أن الحركة استولت، خلال ساعات، على مخيّم نهر البارد، ليطل فجر يوم السابع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر والحركة تمسك بأطراف المخيّم وتبدأ بتخزين السلاح والعتاد داخله. وصارت تُسمع في الليل أصوات التدريبات، وكل ما كان يحصل عليه الإعلام ليس أكثر من صور قديمة وتوقعات وتحليلات حول ما يجري في المخيّم المكتظ. وكانت كثرة الكلام حول ما يجري «أقوى دليل على أن أحداً لا يعرف ما يحصل» بحسب متابع للاتصالات بين المخيّم ومحيطه.

كان العنف يطرق الأبواب. في المخيّم تدريبات حثيثة. وليلاً يخرج المقاتلون إلى الساحل ويتدرّبون بحرياً. فمن الذي سيواجهه «المجاهدون» في بحر يبعد عن شواطئ إسرائيل مئتي كيلومتر، وفي عرضه زوارق عسكرية لقوات الطوارئ الدولية؟

كان «أبو هريرة»، أو شهاب قدّور، المسؤول في «القاعدة»، والذي نظم حركة القادمين من العراق، يتحرك داخل طرابلس، وينتقل منها إلى داخل البارد، حيث تدريبات المقاتلين العرب على قدم وساق. ويؤكد أحد المتابعين لـ«القاعدة» أن من يظهرون في وسائل الإعلام من مسؤولي «فتح الإسلام» هم مجرّد «واجهة»، وأن القيادة الفعلية مختلفة «بعض الشيء».

وقدِم من بغداد أحد قادة «القاعدة» وهو يحمل الجنسية الأردنية، ويعمل على تنظيم القواعد والكوادر. وأخذت «فتح الإسلام» تحتضن هؤلاء الشبان، وتتضخم على نحو لا يمكن كبحه، حتى بلغ عدد المقاتلين في مخيم نهر البارد ٥٠٠ مقاتل. أما تقارير مخابرات الجيش فتحدّثت عن ٣٠٠ مقاتل قبل أيام من المعارك مع المنظمة، والغريب أن مصادر الجيش اللبناني أوردت الرقم نفسه على الرغم من الإعلان عن مقتل وأسر أكثر من ٤٠٠ مقاتل من «فتح الإسلام».

لم تكن التدريبات محصورة في الجانب البحري، إذ ثمة أصحاب خبرات انتقلوا من التجارب العراقية والشيشانية والأفغانية وتوزعوا في الأحياء الفقيرة في طرابلس، حيث نفّذت مخابرات الجيش اللبناني حملة اعتقالات طاولت

مجموعتين (إضافة إلى المجموعة الموقوفة بتهمة السرقة لتمويل نفسها) وكانت بمثابة «ضربة وقائية» من آت أعظم. إلا أن «حرب الأمن» التي وقعت لن تتوقف عند هذا الحد، والمعالجة الأمنية لمشكلة هي في عمقها سياسية واجتماعية واقتصادية ستبقى عاجزة، بينما جذور المشكلات التي تدفع بالشبان إلى خط «الجهاد» تواصل دفعهم نحو التعاون مع «فتح الاسلام» والهرب إليها من ظلم المداهمات والاعتقالات.

وقد انتشر أكثر من ٤٥٠ مقاتلاً في أطراف طرابلس وأحيائها الفقيرة، بعضهم عاد من العراق، وآخرون لم يغادروا البلاد بعد، والبعض الآخر يخضع للتجنيد ضمن خلايا تبدو بريئة حتى في نظرهم هم، وجميعهم يشكون من واقع السنّة المتردي، والذي لا بد من تغييره، والوسيلة الوحيدة المتاحة للتغيير اليوم هي ما يقدّمه «مجلس شورى المجاهدين» والشيخ أُسامة والدكتور أيمن الظواهري: «الجهاد ضد الصهاينة والصليبيين وإسقاط القرار ١٧٠١، وطرد القوات الأجنبية من لبنان». وكان من ضمن هذه الخلايا مجموعات ترصدها المخابرات وتعتقلها، ومجموعات أخرى لم تعلم بها أجهزة المخابرات، وكانت تنتظر الساعة الصفر.

وفي نهاية شهر نيسان/أبريل أبدى عدد من قيادات «فتح الاسلام»[١٢]. وهي رأت في حينه أن رسالة الظواهري «القريب من قلوب المجموعات الموجودة في لبنان وعقولها» هي إشارة تأهّب لهم، وفي حال إغلاق الحدود مع سوريا من قبل قوات دولية أو محلية فإن «القاعدة» تملك الآن ما يمكنها من اجتياز كيلومترات قليلة إلى عرض البحر ونسف السفن الحربية الأجنبية فيه، كما أنها تملك ما يمكنها من الوصول إلى الحدود الدولية وخرق أي وجود أجنبي هناك، وفي حال استخدام قاعدة القليعات مقراً لقوات أجنبية فإن الوصول إليها أمر يسير.

وبعد الضربات الوقائية التي وجّهتها القوى الأمنية لمجموعات الجهاديين في الشمال ارتفعت نسبة احتراف المقاتلين والمجموعات الأمنية العاملة هناك، وتوسّع انتشار مجموعات القاعدة في لبنان.

(١٢) حوارات ومعلومات خاصة أجراها وحصل عليها الكاتب في حينه.

قد أتاكم الزرقاوي

قبل أيام من عملية دهم «مبنى المئتين»[١٣] الشهيرة في ٢٠ من أيار/مايو ٢٠٠٧، كان أحد الكوادر اللبنانيين في «فتح الإسلام» يتحدث، بثقة، عن عدم الوقوع مجدداً في أخطاء أحداث الضنّية، محاولاً إقناع محدّثيه بأن «المجاهدين تعلّموا من أخطائهم، ولا عودة إلى الوراء».

قبل لحظة الانفجار، كانت «فتح الإسلام» قد تعرّضت إلى سلسلة من المغامرات غير المستحبّة: تم ترحيل عدد من الشبان اللبنانيين والعرب من العراق أو ممن لم يتمكّنوا من الوصول إليه عبر الأراضي السورية حيث احتجزتهم سلطاتها، قبل أن ترحّلهم إلى لبنان وتُعدم بعضاً منهم.

لا تختلف الروايات إلا على موقف «فتح الإسلام» من سوريا وموقف الأخيرة من هذه الحركة، وما إذا كان عناصرها، وغالبيتهم عرب ولبنانيون، قد تمكنوا من المشاركة في المعارك ضد الأميركيين في العراق أم أوقفتهم السلطات السورية قبل وصولهم إلى بلاد الرافدين. إلا أن الثابت أن العلاقة التي كان يُعتقد بأنها قائمة مع سوريا «على كثير من السياسة وقليل من المال» قد سقطت بالكامل حين أقدمت القوات السورية على تصفية ١٨ من عناصر «فتح الإسلام» بقيادة أحد رموز مجموعاتها قرب الحدود السورية العراقية، وسلّمت أحد القياديين الذين اعتقلتهم إلى السلطات اللبنانية بشكل سرّي، ليظهر فجأة بيد القوى الأمنية اللبنانية.

قبلها كانت المنظمة المكوّنة من مجموعات صغيرة وغير مركزية قد استشعرت الخطر حين تمّت مطاردة أحد قادتها وقتله عند الحدود السورية اللبنانية، واستشعر الشبّان المتحمّسون للجهاد أن العلاقات مع سوريا ليست في أفضل أحوالها، وهم، على أي حال، لا يكنّون ودّاً لدمشق، إلا أنهم يصنّفون أنفسهم كحركة

(١٣) مداهمة قوى الأمن الداخلي لمبنى عبدو في شارع المئتين في منطقة الزاهرية التي أدّت إلى محاصرة مجموعة للقاعدة في المبنى ومقاومتها للقوى الأمنية، ودفعت بحركة «فتح الإسلام» إلى ضرب مواقع الجيش اللبناني المحيطة بمخيم نهر البارد لعدم خضوع القوى الأمنية لمطالبها بفك الطوق وتسليمها المحاصرين في شارع المئتين.

تحرّر تتعاون من فوق الطاولة أو تحتها مع دول الممانعة. وبدا، عندئذ، أن حادثة الحدود اللبنانية أدّت إلى تفكير آخر.

راكمت مجموعات «فتح الإسلام» المقاتلين، وأقامت علاقات جمعت بعضها ببعض، وهي في كل الأحوال مجموعات متفرّقة، وأسّست لعلاقة مع مجموعات «قاعدية» أخرى في طرابلس، وخلال فترات متقطعة شحنت مخازنها العسكرية بالعتاد والسلاح والذخائر. وبعد مقتل ١٨ من عناصرها على الحدود مع العراق، ومشاهدة قادتها وزير الخارجية السوري وليد المعلّم «يُهدي» قتلاهم إلى نظيرته الأميركية كوندوليزا رايس، أيقنوا أن الأمور لن تكون كما في السابق، وأن لبنان بات «أرضاً للجهاد» بعدما كان منذ غزو العراق عام ٢٠٠٣ «أرضاً للنصرة» وأن قرار تحوّله إلى أرض للجهاد لم يأخذوه هم أنفسهم بل فُرض عليهم فرضاً.

كانت فلسفة العمل في لبنان، بالنسبة إلى هؤلاء المقاتلين المتحمّسين، تقوم على نظرية بسيطة سياسياً إلى حدّ السذاجة، ربّما: احتلال طرابلس، وتشكيل عقبة كبيرة أمام السلطة اللبنانية المركزية، وفتح جبهة في مواجهة قوات الطوارئ الدولية، وإسقاط المؤسّسة العسكرية تحت ضغط الانقسام السياسي ومنعها من استعادة عاصمة الشمال، وضرب الدولة المتحالفة مباشرة مع الأميركيين التي تطالب بتسليم لبنان إلى القوات المتعددة الجنسية، أو الصليبيين الجدد بحسب تعبيراتهم. كل ذلك، في رأيهم، سينزع لبنان من أيدي الأميركيين ومن تحت وصاية الامم المتحدة التي لا يشك هؤلاء الشبان المتعطشون لرؤية سياسية مختلفة بأنها مجرّد أداة في يد الولايات المتحدة الأميركية.

وقد خضع تنظيم «فتح الإسلام» لقيادة أحد الوجوه الأردنية المعروفة في تنظيم «القاعدة»، والذي قدِم من العراق قبل أشهر قليلة، في إطار مناقلات لا تتوقف بين بلاد الرافدين وبلاد الشام، وهو شقيق «أمير بلاد الرافدين» الشهير أبو مصعب الزرقاوي.

وبعد اشتباكات طرابلس التي خاضتها القوى الأمنية اللبنانية عاشت هذه القوى في لعبة متاهة من الأسماء، إذ اعتبرت أنها صفّت عدداً من القياديين في تنظيم «القاعدة» إلا أنهم أصبحوا يظهرون هنا وهناك بلحمهم وشحمهم، ويؤكّد أحد

شهود العيان أن أحد الذين أُعلن مقتلهم في اشتباك «بناية المئتين» ظهر أمامه في أحد أزقّة طرابلس، مصادفة. كما أن أحد الذين ذُكر أنهم قُتلوا في المبنى لم يُعثر على جثته.

وحين سقطت الشقّة التي تمركز فيها عناصر القاعدة، والتي يثار لغط حول مالكها، بيد القوى الأمنية، عُثر داخلها على نحو ١,٢ مليون دولار أميركي نقداً، مما يشير إلى أن عملية سرقة «بنك البحر المتوسط» في أميون، والتي تبنّتها الرواية الرسمية بصفتها السرقة التي أدّت إلى تعقّب مجموعة من «القاعدة» وحاصرتها في شارع المئتين كانت مجرّد حادثة عابرة، كما تقول مصادر متابعة للملفّ، مشيرة إلى أن أكبر مصرف في الشمال لا يحتوي على أكثر من ١٥٠ ألف دولار، فما هي حاجة من يملك كل هذه السيولة إلى سرقة مصرف؟

فجر العشرين من أيار/مايو داهم فرع المعلومات الشقّة، وكانت التقديرات بأن في داخلها مجموعة من ثلاثة أشخاص. ويروي سكان المنطقة، ممن قاتلوا سابقاً في أكثر من إطار، أن غزارة النيران التي أطلقت من الشقة توحي بأن من كانوا فيها أكثر من ٢٠ مقاتلاً مع كمّية ضخمة من الذخائر. ويروي أحدهم أن سيارة إسناد لـ«فتح الإسلام» تقلّ أربعة مقاتلين التفّت على القوى الأمنية وفتحت النار من خلفها، وهي عملية الإسناد الوحيدة التي نفّذتها الحركة خلال الاشتباك الذي استمرّ حتى الثامنة مساء. علماً بأن معلومات أخرى أشارت إلى وجود العديد من المقاتلين خلال فترة الاشتباكات الأولى التي خيضت في شوارع طرابلس، وقد عمل هؤلاء على إلهاء القوى الأمنية والجيش اللبناني وانسحبوا إلى الشوارع الداخلية بعد تخلّصهم من عتادهم وأقنعتهم.

وفي محصّلة الهجوم على «مبنى المئتين» قُتل شخص من «القاعدة» واعتُقل اثنان وفرّ رابع، بينما قُتل أربعة من «فتح الإسلام» الذين تدخّلوا لدعم حلفائهم. إلا أن أحداً لم يؤكّد أسماء القتلى، علما بأن المتابعين يقولون إن من أُعلنت أسماؤهم هم من المطلوبين للسعودية عبر الإنتربول، وأن الإعلان عن مقتلهم قد يكون خطأ في التأكّد من هويّاتهم، كما قد يكون أمراً آخر تماماً.

وتسأل من يحدّثك عن «فتح الإسلام» والمجموعات التي تعمل تحت هذا

الاسم، عن مكان وجود مئات المقاتلين من الحركة في طرابلس والشمال وباقي مناطق لبنان، وماذا يفعلون؟ وهل قرّروا التخلّي عن القتال والجهاد بعد ما كان من أمر «فتح الإسلام»، أم ينتظرون لحظة الانقضاض لمتابعة مشروعهم الجهادي؟

ويجيب من كان بـ«فتح الإسلام» خبيراً[١٤] بأن المعركة وإدارتها ميدانياً تطلّبت أكثر من ٩٠ متخصصاً في الأمور اللوجستية والاتصالات والتنسيق وغرفة العمليات وإخلاء الجرحى وتأمين الإمداد وغيرها، وهو من خلال خبرته يرى أن ما دار في المخيّم القريب من عاصمة الشمال يشير إلى هذه الإمكانات، التي بدا، في اليوم الأول للاشتباكات، أن الجيش اللبناني لم يتمتع بها. وبالتالي، يمكن احتساب أدنى عدد ممكن للمقاتلين اللبنانيين والعرب والفلسطينيين في مخيّم البارد بأكثر من ٥٠٠ مقاتل. أما المجموعات التي قامت بعدد من العمليات في مناطق قريبة من طرابلس ضد الجيش فلا مؤشّرات حقيقية على اعتقالها، ولا على اعتقال أو مقتل من نفّذ عملية «عين علق»، وإن كان معروفاً بالاسم.

عودة إلى الانفجار

الثانية والنصف من فجر يوم الأحد ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٧، رنّ هاتف ضابط كبير في مخابرات الشمال في الجيش اللبناني.

المتصل: وسيط لطالما ساعد الجيش و«فتح الإسلام» على تجاوز مِحن وإشكالات كادت تُشعل الشمال.

الموضوع: عملية دهم وحصار شقة لحلفاء «فتح الإسلام»، ومطالبة من زعيم التنظيم شاكر العبسي بفك الحصار وإلاّ فسيتعرّض الجيش لهجوم.

«لا علاقة لنا بالأمر. ما نعرفه أن الدرك اتصلوا بنا وأبلغونا أنهم يتابعون شقة في شارع المئتين، قد تكون مسألة سرقة أو خلافه»، يردّ الضابطُ على المتصل.

كان الوسيط حريصاً على عدم المبادرة إلى الاتصال بـ«فتح الإسلام»، لأنه يعلم أن هاتفه مراقب. وكان قد كُلّف رسمياً من جانب «جبهة العمل الإسلامي»

---

(١٤) المصدر هو أحد القياديين العسكريين لتنظيم جهادي كان نافذاً خلال الحرب الأهلية رفض الكشف عن اسمه.

فتح قناة اتصال مع التنظيم، بناءً على رغبة لبنانية، وبطلب من قيادة الجيش، وذلك قبل نحو خمسة أشهر مع بدء الأزمة بين «فتح الإسلام» و«فتح» التاريخية.[١٥]

تابع الوسيط الأمر بين التنظيم الفتيّ من جهة ومرجعيته وقيادة الجيش من جهة ثانية، وتطلّب منه الأمر البحث عمّن يعرّفه إلى شاكر العبسي وقادة «فتح الإسلام» في المخيّم إلى أن تمّ اللقاء الأول مع العبسي، وتبعه ١٦ لقاءً آخر قبل بدء المعارك، في حضور أبو مدين[١٦]، وقادة سعوديين وأردنيين، بينهم أبو عبد الرحمن السعودي الشاب الهادئ القليل الكلام والمستمع الجيّد.

ومنذ الجلسة الأولى التي استمرّت خمس ساعات خلص الوسيط إلى أن لا تنظيم فعلياً يدعى «فتح الإسلام»، أو أن لا تنظيم يمسك بقيادته شخص واحد، بل ثمة تركيبات متعددة تشكّل كلّها معاً ما يُعرف خارج المخيّم بـ«فتح الإسلام»، يمثّل شاكر العبسي أحد أبرز قادتها في نهر البارد. وهو محاور شخصي جيد ومقنع وهادئ وقابل للتفاوض والنقاش، على حدّ تعبير الوسيط.

وعلى قدر هدوء العبسي وليونته وسيطرته على أعصابه، يبدو أبو هريرة (شهاب قدّور) صعب المراس من العسير التفاوض معه. وأبو هريرة، الذي ظهر في الشريط الذي بثته الجزيرة خلال المعارك واقفاً خلف العبسي، قدِم إلى طرابلس من عين الحلوة، حيث كان ضمن «عُصبة الأنصار»، ومعروف عنه احترافه قيادة العمليات الحربية رغم أنه لم يتجاوز الـ ٣٥ من العمر، ويتزعم تركيبة من المقاتلين إلى جانب العبسي، ويعدّ أحد أبرز أطراف «فتح الإسلام».

والتركيبة الثالثة يتزعمها «أبو مدين»، وتضمّ بمعظمها مقاتلين من العرب الذين شاركوا في معارك ضد الأميركيين في أفغانستان والعراق وفي مناطق أخرى من العالم ضد قوى مختلفة.

---

(١٥) بعد انتهاء المعارك في نهر البارد، طلب من هذا الوسيط، بناء على توصية غير رسمية، نسيان الملفّ برمّته.

(١٦) أحد القادة اليمنيين في المجموعة.

أما التركيبة الرابعة فهي مجموعات من الإسلاميين الملاحقين في لبنان، معظمهم مطلوبون للتحقيق من دون أن يسبق لهم التورط فعلياً في أيّ من الأعمال الناشطة ضد أيّ جهة. إلا أن هؤلاء، سواء أكانوا متورّطين أم أبرياء، فضّلوا الالتحاق بمخيّم البارد والانخراط في «فتح الإسلام» بدل التعرّض لما سمعوا عنه من صنوف التحقيق والتعذيب.

خلال جلسات الحوار بين الوسيط وقادة التنظيم سمع كلاماً هادئاً: أولاً، لا نيّة لاستهداف الجيش؛ ثانياً، لديهم ملاحظات على السياسة الإيرانية وعلامات استفهام حول «حزب الله»، إلا أنهم يرفضون إطلاق رصاصة واحدة على أي شخص يقاوم إسرائيل. وحين سألهم: «هل تتصلون بالقاعدة؟»، كان الجواب: «لا مشكلة لدينا في الانتماء إلى هذا التنظيم، لكن لا علاقة لنا به حالياً». وفوجئ الوسيط حين سأل عن علاقة «فتح الإسلام» بتفجير عين علق، إذ أتاه الجواب: «رسمياً لم نأخذ قراراً بذلك، لكن قد يكون أحد الإخوان تصرّف بمبادرة خاصة».

رتّب قادة التنظيم جولة للوسيط على مواقعهم قبل المعارك، وخصوصاً تلك التي طالبهم الجيش بإزالتها لكونها خارج المخيّم، فيما اتهموا الجيش بمساعدة «فتح السلطة» بواسطة جرّافاته على إقامة مراكز ومقارّ مقابلة لمواقعهم. وقُبيل نهاية المفاوضات كان الوسيط قد كوّن فكرة عن التنظيم لم تخلُ من اندهاش من الجهوزية القتالية العالية لعناصر التنظيم، وهو يصفهم بأنهم «غريبون، وساعون إلى الشهادة، ويطيعون أمراءهم من دون نقاش، وذوو قدرة قتالية كبيرة جداً».

انتهت الأزمة الأولى قبل أشهُر، وبقي الوسيط، بطلب من قيادة الجيش و«جبهة العمل الإسلامي» على صِلة بـ«فتح الإسلام» التي محضته ثقة كبيرة. وحين نبّه الوسيط شاكر العبسي إلى أن أطرافاً لبنانية تسعى إلى توريطه وتوريط تنظيمه في الصراعات المذهبية في لبنان، أكّد له الأخير أن لا نيّة لدى التنظيم للتورّط في الصراعات الداخلية المذهبية في لبنان. وطرح الوسيط إمكان تشكيل لجنة تنسيق من الجيش و«فتح» السلطة و«فتح الإسلام»، إلا أن الأطراف الثلاثة رفضت الجلوس بعضها مع بعض.

لم يُخف الوسيط على قيادة الجيش ومديرية المخابرات مشاهداته، ونصحهم

بوضع استراتيجية للتعامل مع التنظيم، ليس بالضرورة عبر العنف، مشدداً على ضرورة إيجاد صيغة جدّية وواقعية للتعامل مع تنظيم ناشئ وقوي، إلا أن هذا الكلام ذهب أدراج الرياح. ويضمّ الرجل ساعديه حين يتحدث عن «الفرصة الضائعة»، لتتحوّل الأمور إلى مجزرة ومطالب متبادلة مستحيلة.

وبالعودة إلى ما حدث يوم الأحد ٢٠ أيار/مايو، فقد استيقظ الوسيط في الساعة الثانية فجراً على رنين هاتفه. كان شاكر العبسي على الطرف الآخر. للمرة الأولى لم يُجب الوسيط، وبعد المحاولة الثالثة وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية والنصف فجراً أجاب الوسيط ليسمع العبسي يقول له حرفياً: «لديّ مشكل، هناك مجموعة محاصرة في شارع المئتين، يطوّقها الدرك، وهم إخوة لنا (ما يعني أن الشبان ليسوا من «فتح الإسلام»، إلا أنهم يحظون بحماياتها، بحسب الوسيط) وأريد تأمين وصولهم إلى مخيم البارد. وإذا لم يصلوا فسنتعامل مع الجيش بقسوة».

اتّصل الوسيط بالضابط الكبير في مخابرات الجيش ليبلغه الرسالة. فأجاب الضابط المتمرس بالعلاقة مع «فتح الإسلام» بأن «لا علاقة لنا». إلا أن الوسيط ألحّ، مؤكداً أن العبسي هدّد بتفجير الوضع، فأجاب الضابط: «ماذا يفجّرون؟ لا علاقة لنا ومن يفجّر الأمور سيتحمّل المسؤولية».

على خطّ آخر كان العبسي يبلغ وسيطاً آخر الرسالة نفسها، فأبلغ الأخير، الذي ينكر اليوم أي معرفة بأي من عناصر التنظيم أو قادته، قيادة قوى الأمن الداخلي بما سمعه.

بعد دقائق طويلة أعاد العبسي الاتصال بالوسيط اللبناني قائلاً: «اشتعلت. لقد هاجمنا قوات الجيش وقُضي الأمر». ولما سأل الوسيط بهلع: «ولماذا الجيش؟»، جاءه الجواب: «لأنهم يحاصرون مجموعاتنا، وجرحوا لنا إخوة، ولن نوقف المعركة قبل استعادة الجرحى والأسرى».

بعد الهدنة اتصل العبسي مجدداً. كان يُقدّر أنه وقع في مأزق، وصرّح بأنه لا يريد أي مواجهات إضافية مع الجيش، مضيفاً «نحن لا نستهدف الجيش لكن سعد (الحريري) ووليد (جنبلاط) و(سمير) جعجع هم أصل المشكلة، وهم من

يحرّض ضدنا، نحن منفتحون للملمة المشكلة». وحين نُقل هذا الكلام إلى قيادة الجيش كان الجواب حاسماً: «فليسلّموا أنفسهم والقضاء يحدد مصيرهم ولا حلول أو كلام غير ذلك». ولمّا أوصل الوسيط هذه الرسالة هاتفياً إلى العبسي، القابع تحت قذائف الجيش، سمعه يجيب «الموت أَولى من تسليم أنفسنا».

وفي أجواء المعارك في الشمال كان يمكن سماع أئمة المساجد يقولون: «صار من الصعب ضبط الشبان في طرابلس».

وفي طرابلس تروّج شائعة مفادها أن أحد المعتقلين (بلال رضوان) قُتل تحت التعذيب، لكن أهل المعتقل لم يتسلّموا جثته بعد، ولا يعرفون إذا كان ابنهم قد قتل خلال الاشتباك أم أُسر حيّاً، إذ إن القوى النظامية عمدت إلى عدم تسليم جثث القتلى دفعة واحدة حتى لا تثور ثائرة المواطنين، بعد تحوّل عدد من الجنازات إلى احتفالات من الصخب والغضب السياسيين.

في هذه الأثناء كانت المفاوضات تمضي عسيرة، من طرابلس إلى البارد إلى بيروت إلى صيدا. وفي ليل طرابلس يمضي موظفو وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا» أياماً طيبة في المقاهي وعلى الكورنيش البحري في الميناء، بينما يشاهدون عمليات دكّ المباني الفقيرة في نهر البارد بالمدفعية الثقيلة. وفي المساجد يلتقي العلماء في محاولة لكسر الجدار الصخري بين الجيش و«فتح الإسلام». وفي النهار تدخل شاحنات لقوى الأمن الداخلي إلى قرب مسجد عيسى ابن مريم حيث يستقر الشيخ هاشم منقارة، ويترجّل من الشاحنات ٥٠٠ عنصر، كما يروي منقارة نفسه[١٧]، وينتشرون في المنطقة لهدم مخالفة بناء في المسجد، قبل أن يرحلوا. وفي منزل في حيّ التبّانة تداهم القوى الأمنية شقّة محدثةً حالاً من الهلع بين الناس، فيكتشفون في الشقّة دهّاناً فلسطينياً يعمل، للمرة الأولى، بعد بطالة استمرّت عامين. وتدور القوى الأمنية على نفسها في الشمال وطرابلس وسط معلومات وإشاعات تجعل عملها على حفظ الأمن ومنع امتداد نار مخيّم نهر البارد مهمّة شبه مستحيلة تكلّلها حالة من الهستيريا، وتصل

(١٧) لقاء خاص مع الشيخ هاشم منقارة زعيم أحد جناحي حركة التوحيد الإسلامي وعضو «جبهة العمل الإسلامي».

البلاغات والإشاعات التي تتلقّاها أجهزة المخابرات إلى عدّة مئات يومياً.

كانت المفاوضات تجري على خلفية معلومات تقول إن الاعتقالات في طرابلس والمناطق المحيطة بها شملت حتى نهاية الأسبوع الأول من المعارك ٢٠٠ شاب، وإن معظم هؤلاء لا ينتمون إلى «فتح الإسلام»، ويُفتح باب التفاوض بعد إظهار «فتح الاسلام» لقدراتها القتالية العالية وإمكانية صمودها بوجه قوات الجيش اللبناني النظامية، ولكن الجيش لا يبدي رغبة حقيقية في المفاوضات.

يقول أحد العلماء الشبان الناشطين من خارج التيار السلفي إن «الجنون السياسي هو ما دفع بفريق السلطة إلى الاعتقاد بإمكان الاستفادة من فتح الإسلام في البداية، قبل أن يكتشف أن هؤلاء ليسوا بوارد الانغماس في المشكلة المذهبية». ويوافقه في الرأي أحد العلماء السلفيين، الذي يحمّل المسؤولية مَن يقرع طبول «الأخطار المهدّدة لأهل السنّة في لبنان»، متسائلاً: «إذا كان أهل السُّنة مهدّدين فمن يهدّدهم؟ وبما أن المنطق السائد هو أن السنّة، لا المسلمين، مهدّدون، فإن هذا يعني، بالتالي، أن مذهباً آخر يهددهم أي الشيعة»، ليخلص إلى أن فتح الإسلام «استفادت من هذه الأرضيّة وبنت عليها من دون أن تتورّط فيها».

ويرى العالم الشاب غير السلفي أن ثمة «إمبراطوريتين» على سطح الأرض هما الولايات المتحدة والقاعدة، وكلتاهما «تتجاوزان السيادات الدولية الصغيرة وتعبران القارات في صراعهما، وتطيحان بالدول والبلاد. والآن ثمة من يعتقد أنه بالتحالف مع الولايات المتحدة في لبنان سيحفظ السيادة، علماً بأنه يفتح الباب واسعاً للإمبراطورية الثانية للتدخل في لبنان، بعدما أدخل فتح الإسلام ورعاها».

«القاعدة تخوض حرب حياة أو موت، وشبّان فتح الإسلام يملكون عقلية القاعدة وحتى نمط تدريبها»، يقول متابع يملك أكبر قاعدة بيانات في الشمال عن التنظيمات الإسلامية. ويضيف: «ما الذي أعاد و. ب. (أحد رموز حركة التوحيد سابقاً) من الدانمارك ليتردّد أنه بين القتلى في طرابلس، وما الذي أتى بصدّام ديب وهو شقيق المعتقل في ألمانيا يوسف ديب، بعد الحكم عليه بالإعدام في سوريا وقتله لاثنين من رجال الأمن السوريين، إلى هذه المجموعة؟ وكيف انضمّ حمّود

المتهم في أحداث الضنّية إلى المجموعة؟ وكيف التحق بهم شابان فلسطينيان من مخيّم عين الحلوة ومن آل هياني؟ وكيف انضمّ إليهم أهم رموز القاعدة في بلاد الشام أبو طلحة (السعودي عبد الرحمن يحيى) وقُتل في البارد؟ وأبو يزن (محيي الدين عبدو السوري الجنسية) ليقتل في الاشتباكات أيضاً وهو المتهم في تفجيرات عين علق؟».

ولكن من يعرف مجموعات «فتح الإسلام»، جيداً، يتحدث عن أهداف سياسية استخدمتها الحركة الجهادية للتمكن من النموّ، «لقد استفادوا من مناخ شحن مذهبي»، يقول أحد العلماء الوهّابيين السلفيّين. ويذهب ناشط سياسي طالما خالط قادة «فتح الاسلام» إلى أنّ هؤلاء «أتوا لأربعة أهداف يتحدثون عنها صراحة، وهي: نصرة أهل السنّة في لبنان حيث يعتقدون أن السنّة مظلومون في المنطقة بشكل عام وفي لبنان بشكل خاص، ومحاربة الأميركيين في العراق، وإسقاط المشروع الأميركي في لبنان، ومحاربة القوات الدولية التي أتت إلى لبنان لاحتلاله ووضعه في الفلك الأميركي، إضافةً إلى الهدف المركزي عند كل الحركات الإسلامية ألا وهو المساهمة في تحرير القدس».

طرابلس في تلك الأيام

كل عشر دقائق تمرّ دورية أو قافلة للجيش على طريق المعرض. وعلى مدخل المدينة الجنوبي تسرع سيارتا جيب تحملان مدفعين من عيار ١٠٦ ملم وتدخلان إلى المدينة. وفي أحد فنادق عاصمة الشمال يمكن سماع ضابط برتبة نقيب يصرخ عبر الهاتف: «ليس أسلوباً في العمل هذا». ويقفز جندي من مغاوير البحر من بين الأشجار ملقّماً بندقيته وطالباً من عابر سبيل رفع يديه. وفي أحياء عدة تتم مداهمات واعتقالات لكل من يُعرف عنه بأنه «سلفيّ جهاديّ» احترازاً.

غير بعيد عن طرابلس، وتحديداً في أحراش الكورة، تصطدم دورية للجيش[١٨] قرب نقطة قُتل فيها أربعة من عناصره في أول يوم من الاشتباكات مع

(١٨) في ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٧ تبدأ الاشتباكات، وفي ٢٩ منه تعثر قوة من الجيش على المجموعة المشار إليها.

«فتح الإسلام»، بمسلّحين، فتطوّقهم وتستدعي تعزيزات. يستسلم الشبّان ويخرج من بين الحقول ثلاثة مسلّحين بعتاد كامل ويسلّمون أنفسهم لعناصر الجيش الذين يواصلون البحث عن آخرين يعلمون جيداً أنهم في مكان ما بين المزروعات. هذه حال الخطوط الخلفية، فما بالك بمخيّم نهر البارد.

يصيب الذهول الشيخ محمد الحاج، أحد أعضاء هيئة علماء فلسطين، والمفاوض مع «فتح الإسلام»، حين تمّ إدخاله إلى مخيّم نهر البارد. «لم أتوقّع أن أرى هذا المشهد يوماً» يقول الرجل الذي لم يبلغ الخمسين من العمر، ويضيف «المكان مدمّر، حرائق في كل مكان، البيوت متضررة بشكل كبير، والكثير منها مهدّم. مسجد التقوى حيث أخطب أصيب بأربع قذائف، وكذلك مساجد الجليل وفلسطين وخالد بن الوليد والقدس، وهناك مساجد دمّرت بالكامل»[١٩].

«نسمع تصعيداً في الكلام الحكومي، ونسمع إصراراً من الجيش على تسليم أنفسنا» يقول أبو سليم طه، من داخل المخيّم، عبر الهاتف ويمكن سماع صوت صلية من بندقية «أم ١٦» بفرقعتها المميزة وقد أصابت حائطاً قربه، ثم صوت إطلاق نار من بندقية كلاشينكوف ينطلق قريباً من الرجل الذي يتحدث بصوت هادئ.

«أبلغنا هيئة علماء فلسطين أن طرح القادة السياسيين اللبنانيين الإعلامي بضرورة تسليم أنفسنا مرفوض. لن نسلّم أياً من عناصرنا. كنا قد استقبلنا النقاط التي نقلها إلينا العلماء بإيجابية» يقول طه مضيفاً: «معنوياتنا في أعلى مستوى، والوضع في المخيّم هادئ، هناك مناوشات، لكن المشكلة في الوضع الإنساني لأهل المخيّم».

يومها كان العدد الفعلي لأهل المخيّم المقيمين فيه هو بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف، وتم خفضُ الرقم إعلامياً ما أثار مخاوف لدى «فتح الإسلام» والمفاوضين من هيئة علماء فلسطين، إلا أن هذا الخفض لم يكن إلا من أجل

(١٩) لقاء خاص مع الشيخ محمد الحاج بعد عشرة أيام على بداية المعارك.

السماح للقوات العسكرية النظامية بقصف المخيّم دون احتجاجات هي بغنى عنها، كما أن العديد من أبناء المخيّم فضّلوا، بعد سماعهم ما تعرّض له الخارجون من المخيّم من تفتيش وإهانات، البقاء في مخيمهم تحت القصف إلى حين، فضلاً عن حادثة مقتل ركاب باص في أيام النزوح الأولى والتي أرخت بظلالها على المقيمين، وخصوصاً مع عدم اتضاح الجهة التي قامت بإعدام سائق الباص وإطلاق النار على العائلة بمن فيها الأطفال.

في تلك الفترة كان أبو سليم طه[٢٠] يؤكد عبر الهاتف أن «فتح الإسلام» تعلّق بإيجابية على النقاط المطروحة للتفاوض، إلا أنها ترفض أيّ قوات فصل تعمل على تسلّل القوى الفلسطينية كمقدمة للاشتباك بين الفصائل الفلسطينية والتنظيم. أما الجانب اللبناني فلم يجب عن أي تساؤلات في شأن نقاط التفاوض وما هو المقبول أو المرفوض منها.

وكان شاكر العبسي قد طلب إشراك إحدى الشخصيات السياسية الشمالية في التفاوض، إلا أن الشخصية رفضت الاشتراك إلا بطلب لبناني مباشر وهو ما لم يحصل. وقد أثار عدم توسيع حلقة المفاوضين بعض المخاوف من أن يتحوّل التفاوض إلى عملية كسب للوقت، وخصوصاً مع ريبة «فتح الإسلام» في الطرف اللبناني المصرّ، إعلامياً على الأقل، على رفع سقف مطالبه.

وقد صارح أحد كبار ضباط مخابرات الجيش قادة شماليين إسلاميين بأن الجيش يتعرّض للاستنزاف، ليس مادياً فقط، بل على مستوى الحلول المطروحة، وأن الوضع السياسي الداخلي زاده إرهاقاً.

كان هذا الضابط، الذي يتابع بدقة كمّاً هائلاً من المعلومات، يضع زوّاره في صورة ما يجري. «نتلقّى عدداً هائلاً من الاتصالات حول تحركات مشتبه فيها هنا وهناك، ولا يمكننا أن نغضّ النظر عن أي منها علماً أن أكثرها كاذب». أضف إلى ذلك ما يسبّبه تضارب صلاحيات القوى الأمنية التي كادت تتسبّب في مجزرة

(٢٠) من الأحاديث اليومية التي كان يجريها الكاتب هاتفياً مع قياديين في «فتح الإسلام» خلال حرب مخيم نهر البارد.

إثر حادثة قتل «أبو جندل»[٢١]، عندما اضطر الجيش إلى إجراء وتلقي ما يقارب ٥٠٠ اتصال هاتفي بالإسلاميين ومعهم لضبط وضع كان ينذر بالأسوأ.

أما الشارع الطرابلسي فيتشظّى تماماً. تضمحلّ المرجعية السُّنية كممسكة بزمام الأمور، وتتشعّب المجموعات الإسلامية ، وتترسّخ مواقفها ضد تيار المستقبل، وضد الجيش والقوى الأمنية، وتتحرك الناس عاطفياً ضد القوى الأمنية والمعالجة الوحيدة الجانب للمشكلة الكبيرة القائمة.

اعتقدت «فتح الإسلام» أن الجيش استُنزف، ولذلك بدا أبو سليم طه متحدثاً لبقاً وهادئاً وسعيداً بارتفاع معنويات مقاتلي الحركة المحاصرة. «الوقت يلعب لمصلحة التنظيم، وضد كل الأطراف اللبنانية، كما الأطراف الفلسطينية بعد استقالة أبو طعان الذي أمضى ١٧ عاماً في السجون السورية وكلّف قبل شهور قيادة منظمة التحرير في الشمال».

ولم تقدّم «فتح الإسلام» طرحاً محدداً، بل اكتفت بالاستماع إلى الطروح اللبنانية «فهناك على الساحة (اللبنانية) من يحرص على التخلص من فتح الإسلام، ونحن جاهزون للمعركة، لكن لا نعتبر هذه معركتنا. ليتركونا بحالنا ولن نكون مِعولاً لهدم الاستقرار اللبناني» يقول أبو سليم طه، مؤكداً «أننا قادرون على الصمود أشهراً طويلة» وهو ما سيحصل فعلاً.

في تلك الفترة كان كثير من اللبنانيين يشاهدون، بعضهم بأسف وآخرون بشيء من التشفّي، القصف المدفعي يدكّ مخيّم نهر البارد مباشرة على التلفزيونات. ويتحدث القيادي الفلسطيني من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مروان عبد العال، وهو من أبناء المخيّم وممن فاوضوا «فتح الإسلام» طويلاً حين حطّت رحالها في نهر البارد، بحرقة عن أهل المخيّم الذين نُكبوا مجدداً، مشيراً إلى أنه لم يخلص، من كل أسئلته التي وجهها إلى «فتح الإسلام»، إلى إجابات مرضية عن أسئلة من نوع «لماذا المخيّم؟ ولماذا بين الفلسطينيين؟». إلا أن

(٢١) بلال المحمود (أبو جندل) كان من بين موقوفي الضنّية، وأمضى في السجون اللبنانية مدة خمسة أعوام وسبعة أشهر، قبل خروجه من السجن بموجب قانون العفو الصادر عن مجلس النواب عام ٢٠٠٥.

السيف سبق العذل، فبدأت المعارك قبل التمكن من خوض نقاش سياسي حالت دونه أيضاً الخلافات الفلسطينية الفلسطينية حول أمور كثيرة من بينها الموقف من هذه الحركة. ويرى القيادي الفلسطيني أن تدمير نسيج المخيّم قد حصل مرتين، الأولى حين دخول «فتح الإسلام» إليه، والثانية مع بدء العمليات الحربية وعمليات التهجير ووضع اللاجئين في المخيّم، مضيفاً «أن النسيج الاجتماعي هو ما كان يمكن أن يواجه فتح الإسلام أو أي طرف مشابه».

وفي طرابلس كان ثمة من يعلّق على تحليق المروحيات اللبنانية متجهة لضرب مقاتلي «فتح الإسلام» قائلاً إن «شاي مرجعيون مخصّص للإسرائيليين، أما الشمال فنصيبه مروحيات الغازيل»[(٢٢)]. أمّا شاهين شاهين، المقاتل المقرّب من مسؤول «فتح الإسلام» شاكر العبسي، فيقول عبر الهاتف: «ليتفضل الجيش اللبناني ويصوّر جنوده أين أصبحوا ميدانياً، وليسمح للإعلاميين بالتصوير»[(٢٣)]. ثم يتابع قائلاً: «تعال إلينا في المخيّم، وأنا قد صوّرت لك نتائج القصف وآثار الدمار في المخيّم، هل تريدها على أسطوانة مدمجة أم على ذاكرة (usb)؟».

كانت الوقائع مؤلمة، وقد أسفرت عن مقتل عشرات الجنود اللبنانيين، وعدد كبير من المسلّحين وعن ضحايا داخل المخيّم قضوا من دون إمكان طلب المساعدة أو حتى رفع جثثهم، وجرحى أصيبوا في منازلهم أو ملاجئهم من دون أن تُعرف أماكنهم. والعجز عن تدارك الموقف يدفع بالقوى الفلسطينية إلى الاجتماع المرتجل داخل المخيّم المحاصر والمدمّر، والتعلّق بأي صحافي يتمكن من الاتصال به لتحميله الأمانة: «أوقفوا النار وأعيدوا أهل المخيّم، فبغيرهم يستحيل ضبط حالة فتح الإسلام العبثية والقضاء عليها».

---

(٢٢) إشارة إلى حادثة تقديم الشاي للقوات الإسرائيلية من قبل عناصر القوى الأمنية اللبنانية في ثكنة مرجعيون إبان الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز/ يوليو ٢٠٠٦.

(٢٣) منع الجيش اللبناني التصوير والاقتراب من محيط عملياته طوال فترة الحرب مع «فتح الإسلام» كما منع الصحافيين من الدخول إلى أية مناطق أسقطها، واقتصرت التغطية الإعلامية على تركيز الكاميرات والمصورين على مسافة مئات الأمتار من مكان العمليات، وبقي الجيش اللبناني يمنع الدخول إلى مخيم نهر البارد لوقت طويل بعد انتهاء المعارك.

وحين يخرج أحد المفاوضين السرّيين من المخيّم يقول لكل سائل: «من المستحيل تحديد حجم السكان الباقين في المخيّم. فالتنقل صعب جداً، إضافة إلى تعدّد الملاجئ ونقاط الاحتماء، ولكن لا يزال داخل المخيّم الآلاف، وعلى الأقل ٥ آلاف، وأوضاعهم مأساوية طبعاً». ويتابع وهو لم يغادر بعد المخيّم في ذهنه الشارد: «أكثر ما يلفت هو الحالات العصبية لدى السكان، لقد انتشرت الحالات هذه بكثرة». ويشير إلى أن إصابات المدنيين قد لا تكون كبيرة نسبياً، لكنها تصبح خطرة نظراً لاستحالة التنقل والعلاج. إلا أن العديد من الموجودين داخل المخيّم كانوا يتقنون أساليب التمريض، مما حدّ من حالات الوفاة العرضية.

ومن يحدّثك هاتفياً من داخل المخيّم يرجوك الإسراع بالكلام، فهم قد خبروا عدة مرات تعرّض مكان وجودهم للقصف خلال حديثهم عبر الهاتف الخلوي، ما يعني استهداف القصف للأماكن التي تصدر منها إشارة هاتف خلوي. وعلى نقيض إسراع الفلسطينيين داخل المخيّم في إنهاء مكالماتهم الهاتفية، لا يستعجل أحد قياديي حركة فتح الإسلام الحديث، بل يأخذ وقته في الرد والإجابة عبر جهاز خلوي مراقب من المخابرات اللبنانية. يقول شاهين شاهين وهو يشرب الشاي على أحد محاور المواجهة مع الجيش اللبناني: «الجيش يقاتل وخلال ٣ أيام ليتقدم ٥٠ متراً، وللدقة فإنه تقدم ٢٥ متراً، ومشاركة اليونيفيل في المعارك سمحت له بالتقدم مسافة ٢٥ متراً إضافية». ويعود ليؤكد أن قوات اليونيفيل المقبلة من البحر شاركت في المعارك عبر المدفعية البحرية والمروحيات والزوارق المطاطية، وخصوصاً في الجانب البحري من مخيّم نهر البارد. ويضيف أن قوات اليونيفيل تشارك بعد الغروب في العمليات العسكرية، ويشير إلى نوعية حديثة من الذخائر التي يستخدمها الجيش اللبناني وهي قذائف تسقط بالمظلات وتنفجر على مسافة عالية عن الأرض أولاً ثم تعاود الانفجار مع ملامستها الأرض. ويتوعّد المقاتل رئيس الحكومة اللبنانية فؤاد السنيورة بردّ الكفّ التي حاول توجيهها إلى فتح الإسلام، قائلاً: «نحن لم نأتِ إلى هنا إلا لحماية المسلمين، أمّا أن يقدّم السنيورة فاتورة إلى الأميركيين فهذا سيجعله يدفع الثمن غالياً». كما يهدد شاهين باسم «فتح الإسلام» قوات الطوارئ الدولية العاملة في لبنان قائلاً «إذا ما استمرّت

في العمل ضدّنا فسننقل المعركة إلى عمق الجنوب (اللبناني) حيث ينتشر جنودها». وحين تسأل الشاب عن معنى تهديده للقوات الدولية، وهو المحاصر في مساحة لا تتعدّى مئات الأمتار دون ماء أو طعام في شمال البلاد، يضحك ويقول: «هل تعتقد أن «فتح الإسلام» هي عبارة عن ٥٠٠ مقاتل محاصرين في مخيم نهر البارد؟ إذا تواصلت المعارك، ستعرف خلال الأيام المقبلة من هي فتح الإسلام». إلا أن المعارك تتواصل دون أن تنفّذ «فتح الإسلام» تهديدها ما عدا عمليتين ضد القوات الدولية أهمهما ضرب دورية روتينية للقوات الإسبانية في ٢٤ حزيران/يونيو في منطقة الخيام الحدودية جنوب لبنان.

يقطع أحد القياديين في فتح الإسلام حواره الهاتفي بعد سقوط قذيفة هاوتزر بقربه مكتفياً بالقول: «هذه نتيجة استعمال الموبايل لوقت طويل» ثم يغلق الخط، بينما يتحدث أبو سليم طه مدة سبع دقائق قبل أن يطلب إنهاء المكالمة. وككل يوم يعاود طه الحديث عن مجريات المعارك ويقول إن خسائر الجيش كانت كبيرة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة «ولدينا في المقابل ٥ قتلى بينهم أبو رياض[٢٤] و٧ جرحى» دون أن يدلي بأسماء أو جنسيات القتلى أو مواقع مقتلهم. ويضيف أنه من غير الممكن إحصاء حجم المنازل التي دمّرت بالكامل في المخيّم ولا القتلى هناك، خصوصاً أن العديد من المنازل دمّرت على رؤوس أصحابها، ودفنوا تحت أنقاضها، كما أن القذائف تسقط على الجثث فتبعثرها ولا يعود ممكناً التعرف إلى عددها. ويتابع قائلاً إن «اليونيفيل قصفت من البحر أحد الملاجئ في منطقة الدامون، وبقي من فيه داخله إلى الآن[٢٥]». وحول استنتاجهم بأن اليونيفيل تشارك في العمليات، يقول طه إنّ الدليل على ذلك هو القصف البحري الذي يتعرّضون له، إضافة إلى حجم الدمار الذي تحدثه المروحيات، وهي «ليست مروحيات الجيش اللبناني، فالغازيل التي استقدموها من الإمارات لا

(٢٤) أحد القياديين في تنظيم «جند الشام» في عين الحلوة، قُتل في معارك نهر البارد في بداية شهر حزيران/يونيو، ووقع اشتباك في مخيم عين الحلوة مع الجيش اللبناني أدّى إلى قتل جنديين وذلك إثر ورود المعلومات عن مقتله إلى المخيّم.

(٢٥) جرى الحوار في الرابع من شهر حزيران/يونيو العام ٢٠٠٧.

يمكنها لا تسليحاً ولا عدداً إحداث دمار ومناورات مشابهة، إضافة إلى الزوارق التي تحاول الاقتراب من الشاطئ، إلا أنها تبتعد فور تصدّينا لها».

نهاية المعارك لا التنظيم

من يبحث بين ركام مخيّم نهر البارد وبين ما اختزنته الذاكرة أو الأقراص الإلكترونية، عمّا يحلّ ألغاز «فتح الإسلام» يجد دائماً من ينصحه بترك الأمور تمضي في مسارها الخاص، والذي يوجّه النصائح اليوم يرتدي البزّة المرقطة، ويجلس أمام صور تشير إلى انتصار الجيش، إلا أن هذا البلد الصغير يحتفظ دائماً بمن يسعى خلف الوقائع والمعطيات بغضّ النظر عمّن تفيد ومن تضرّ سياسياً وطائفياً.

قبل أن تنتهي المعارك، يجري إخلاء المخيّم على دفعات، ويطلب الجيش اللبناني من كل الفصائل الفلسطينية الخروج، وتفاوض الفصائل لإخراج سلاحها مع العناصر وتسليم السلاح إلى الجيش، إلا أن الجيش اللبناني يرفض، فتبقى الأسلحة التي تقع طبعاً بيد عناصر فتح الإسلام، الذين يستخدمون صواريخ الغراد والكاتيوشا لضرب معمل دير عمار الكهربائي وعدد من المواقع المدنية والعسكرية الأخرى. ثم تأتي مرحلة أخرى من التفاوض لإخراج نساء من زوجات عناصر «فتح الإسلام» وأطفالهم، فيتمّ إخراجهم يوم ٢٤ آب/أغسطس ٢٠٠٧. بعدها تتواصل المعارك مدة أسبوع، ثم يبدأ فجر الثاني من أيلول/سبتمبر بالبزوغ على عملية الفرار الكبير.

أحد الذين تابعوا الملفّ عن قرب يتحدث عن مرحلة ما قبل إخراج النساء من المخيّم، حين جرت اتصالات بعدد من المفاوضين السابقين ما بين الجيش و«فتح الإسلام»، وطُلب منهم إعادة فتح الخطوط مع التنظيم، بغية إجراء مفاوضات إضافية مع المجموعة. وكانت المعلومات التي تتوافر للأجهزة الأمنية، بحسب المصدر نفسه، تفيد بأن الخلاف بين اتجاهين في «فتح الاسلام» بلغ ذروته داخل المخيّم.

كان شاهين شاهين، الرجل الأقوى في التنظيم حينها، يتصرّف دائماً على قاعدة عدم التضحية برجاله، وحين التقى قبل أكثر من شهر ونصف بأحد الوسطاء، وكان مصاباً في ساقه ويبدو عليه التعب والإرهاق، ترك انطباعاً للزائر

بأنه يرغب في انتهاء المعارك. إلا أن الرجل الذي أعلن الجيش أنه تمّ القضاء عليه، لم يصل إلى حدّ إعلان الانسحاب من المخيّم ومن المعركة الدائرة فيه. وكان يوحي لمفاوضه حينها أن شاكر العبسي «غير متوفر» تاركاً للمفاوض التكهّن بمصير العبسي وفريقه من المقاتلين، هل هم تحت الإقامة الجبرية في مخيّم محاصر أم هم في عِداد الأموات، أم تم إقصاؤهم عن القيادة. عندها كان شاهين يتحدث ضمناً عن صراع قائم بينه وبين العبسي.

طرح شاهين يومها فكرة الـ٤٨ ساعة الشهيرة، وهي هدنة لمدة يومين يتم خلالها تسريب كل المقاتلين العرب إلى خارج المخيّم، ويدخل الجيش منتصراً إلى مخيّم شبه خالٍ، إلا أن قيادة الجيش لم توافق على هذا الطرح. واستمرت المعركة تأكل القتلى والجرحى والمنازل. ثم يُطلب فجأة من مفاوض سابق التدخل في عملية إخلاء النساء للوصول إلى حلّ لهذه النقطة بمفردها، إلا أن المفاوض، على ما يروي المصدر الذي تابع الملفّ من بداياته، ينسحب من التفاوض مشيراً إلى أنه لن يتدخل إن كان التفاوض لإخلاء جزئي وخارج دائرة حلّ سياسي كامل للمخيم.

عندئذ بادرت المراجع الأمنية إلى الاتصال بمن كان موضوعاً في دائرة الاتهام قبل فترة وجيزة، وهو إحدى الشخصيات السلفية المعروفة في الشمال، وكان يُتهم بأنه يقف خلف من حرّض على التعاون مع «فتح الإسلام»، إلا أن القيادة الأمنية تجد فيه لحظتها صِلة وصلٍ مقبولة. وفي ذلك الحين كان الجيش يحرق كل رقم خلوي في المخيّم يُعرف من أكثر من جهة، حاصراً أي اتصال مع المخيّم بجانب يحدّده هو مباشرة.

أدّى التفاوض الذي تمّ حينها إلى إخراج النساء والأطفال. وقبل ذلك أعلنت قيادة الجيش مقتل شاهين شاهين، وعرضت صوراً لم يتم التأكد مما إذا كانت عائدة إلى الشخص المعني، لكنّ ما تسرّب من معلومات من داخل المخيّم، أفاد بأن العبسي تمكن من السيطرة على كل مجموعات «فتح الإسلام»، وبعدما كان يعدّ واجهة لتنظيم معقّد ومتعدد الرؤوس أصبح هو القيادي الميداني، وخاصة بعد مقتل شهاب قدّور بطريقة ملتبسة وغامضة في طرابلس.

بدت جثة شاهين غير واضحة الملامح، والقلّة الذين رأوها رفضوا لأسباب سياسية التعرف إليها على أنها جثته أو جثة غيره من القياديين في «فتح الإسلام»، وأبلغوا من طلب منهم من الأجهزة الأمنية موقفهم هذا.

وبعد خروج النساء، أعلن قائد الجيش العماد ميشال سليمان عن اقتراب مهلة انتهاء المعارك، وكانت المفاوضات تجري خلف الستار لكنها لم تصل إلى نتائج واضحة، فيما خفّت حدة الاشتباكات. وحين كان رئيس الأركان يعرض في المؤتمر الصحافي المراحل العسكرية التي تم خلالها حصر من بقي من «عناصر فتح الإسلام» في بقعة واحدة هي شمال غرب المخيّم القديم، غفل عن التنبيه إلى أن عملية الفرار جرت في الجزء الجنوبي من المخيّم عبر مجرى نهر البارد، حيث أظهرت شاشات التلفزة صور جنود الجيش اللبناني وهم يمشطون ويبحثون بين أوحال النهر عن عناصر مختبئة من «فتح الإسلام».

خلال الساعات التي سبقت عملية الفرار، كانت الأعمال الحربية قليلة في المخيّم الذي عاش لأكثر من ٢٤ ساعة في أجواء تشبه الهدنة، وفجأة خرج المقاتلون من مجرى النهر بشكل أساسي، وقُتل على الأقل أربعون منهم خلال ساعات قليلة، كأنّ الفارّين وقعوا في كمين، وتمكن العشرات منهم من الفرار في اتجاهات مختلفة. ثمّة شيء حصل؛ ثمّة اتفاق لم يُبرم وفرار لم يستكمل، وعملية إنهاء للتنظيم وغياب المسؤولين فيه عن الصورة!

كان شاهين شاهين قبل مقتله المفترض يحاول الاستسلام، بحسب المصدر نفسه الذي يسرد تفاصيل العمليات، أو على الأقلّ كان راغباً في أية تسوية تسمح بالحفاظ على حياة المقاتلين. وحين كان الصحافيون يتصلون بشاهين، كان يشير دائماً إلى أن قوات «فتح الإسلام» تُخلي أحياناً مواقع ضغط عليها الجيش بقوة، لا لعدم القدرة على الدفاع عنها بل لتخفيف حجم العمليات وتكاليفها البشرية على الجيش اللبناني. وحين وصل شاهين إلى قرار عدم التضحية بالمقاتلين الذين يتبعونه قُتل، بحسب المصدر، على يد من أصبح زعيم «فتح الإسلام» دون منازع، شاكر العبسي.

في لقاء جمع مرجعاً عسكرياً كبيراً مع أحد علماء الدين الشماليين قال الأول

«إن لبنان ليس جمهورية أفلاطون» رافضاً الكشف عن كل التحقيقات، حفاظاً على التوازن الداخلي والسلم بين اللبنانيين.

إلا أن من يتابع الملفّ يسأل: أين هي التحقيقات وأين المعطيات ومَن سهّل الفرار ومَن سهّل الدخول؟ ولماذا تمّت تصفية كل قيادة «فتح الإسلام» أو استمرار الإعلان عن مقتلها، ولماذا مات شهاب قدّور[٢٦] بعد اعتقاله؟ ومَن الذي يُخفي المعلومات ولماذا يُرفض طلب تأليف لجنة تحقيق؟ وهل قُتل شاهين شاهين؟

خلال لقاء بين أحد المفاوضين السابقين مع «فتح الإسلام» وأحد كبار ضبّاط الجيش في الشمال، يسأل الضابط محدّثه إن كان يعتقد بأنّ التأزّم السياسي في لبنان يسمح بإعلان أجوبة عن هذه الأسئلة؛ هل يتحمّل الوضع القول إن هناك طرفاً لبنانياً سهّل؟ أو هل لسوريا أية علاقة بما حدث؟ أو إن «فتح الإسلام» موّلتها جهة خليجية؟ أو إن الصراع داخل البيت السعودي انعكس في لبنان بأشكال عدّة؟

انتهت المعارك في نهر البارد. ولم يعد بمقدور أحد حسم العدد النهائي للفارّين من عناصر «فتح الإسلام»، لكنهم بالتأكيد أكثر من عشرة أشخاص كما قيل في اليوم الأول حين الإعلان عن انتهاء المعارك. فقد تبيّن عملياً من خلال الاعترافات المتراكمة أمام محققي مخابرات الجيش اللبناني، أن هذه العناصر تنتمي إلى تنظيم القاعدة، وهي أتت من دول عربية عدّة لتلقّي التدريبات العسكرية التي تؤهّلها للعمل العسكري في العراق أو فلسطين.

وفيما كانت محاولات بعض القوى السياسية اللبنانية تسعى إلى الزجّ بتنظيم «فتح الإسلام» في السياسة المحلية ووضعه في إطار العداء لسوريا، تبيّن أن سوريا نفسها شهدت مجموعة اعتقالات لمن ساعد وسهّل لـ«فتح الإسلام» العبور إلى لبنان، والانقلاب على «فتح الانتفاضة». ويشير المتابعون إلى أن عدد عناصر «فتح الإسلام» يفوق الـ ٦٠٠، وأن الفارّين بالعشرات، وعدد العناصر النائمة من التنظيم تتجاوز المئة، بحسب أكثر التقديرات تفاؤلاً، وهي تنتشر في أكثر من بقعة

---

(٢٦) شهاب قدور أبو هريرة، فر من المخيّم المحاصر وتوجه إلى عين الحلوة ثم تم إطلاق النار عليه على أحد حواجز الدرك اللبناني في طرابلس، وذكر تلفزيون العربية في تقرير خاص أن القوى الأمنية اعتقلت قدور حياً ثم قتل بعد سجنه.

في لبنان، وصولاً إلى بيروت وصيدا وغيرهما من المناطق ذات الغالبية السنّية. وتتكوّن النسبة الأعلى من المقاتلين من سعوديين وصلوا بغالبيتهم عبر مطار بيروت[٢٧]، إضافة إلى آخرين من اليمن والسودان وسوريا وروسيا والشيشان وتركيا والعراق والجزائر وتونس وغيرها، مقابل نسبة أقل من اللبنانيين والفلسطينيين، وإن كانت النسبة الفلسطينية التحقت بمعظمها من خارج مخيّم نهر البارد وبعضها أتى من غزّة.

على أن المجموعة اللبنانية تكوّنت بعد ملاحقة «جند الشام» في محلّة «التعمير» في صيدا، وجرت عملية انتقال هؤلاء إلى نهر البارد بمواكبة عناصر أمنية رسمية. كذلك جرى إسناد المجموعة اللبنانية بوافدين جُدد هربوا من حملة الاعتقالات التي نفّذت في الشمال في شباط/فبراير وآذار/مارس من العام ٢٠٠٧. ولم تُظهر التحقيقات والمعطيات أن مِن بين أعضاء التنظيم مَن كان في إطار ما عُرف بمجموعة الضنّية، ما عدا بلال المحمود المعروف بأبي جندل الذي قتلته عناصر فرع المعلومات في أحد أحياء طرابلس.

أما تسليح هذه المجموعة فقد تبيّن أنه لم يتعدّ البنادق الآليّة الخفيفة والرمّانات اليدوية والبنادق المتوسطة، إضافة إلى بعض الرشاشات الثقيلة التي لم تسمح شراسة المعركة وحدّة القصف المدفعي للجيش اللبناني باستخدامها بكثافة. ولم تلحظ التقارير الجدّية أو الصور التي بُثّت لما تمّت مصادرته وجودَ أنواع من الأسلحة لدى «فتح الإسلام» مختلفة عن تلك التي تمتلكها الفصائل الفلسطينية في لبنان، وخصوصاً الأسلحة المصنوعة في أوروبا الشرقية.

ويصرّ بعض الأجهزة الأمنية، وخاصة فرع المعلومات التابع لقوى الأمن الداخلي، على ربط هذه المجموعة بـ«القاعدة المزوّرة»، وهي النظرية السياسية التي تفيد أن ما يشهده لبنان هو «قاعدة» تابعة للنظام السوري، وأن «فتح الإسلام» كانت «تقدّم أوراق اعتمادها إلى تنظيم القاعدة»، علماً بأن السعوديين الذين كانوا

---

(٢٧) تظهر اللوائح الاسمية المتوافرة للمدّعى عليهم في قضية «فتح الإسلام» أمام المحكمة العسكرية وجود ما يزيد على خمسين موقوفاً أو مدّعى عليه غيابياً من التابعيّة السعودية.

ضمن التنظيم، تبيّن أنهم أفراد من تنظيم «قاعدة الجهاد في بلاد الحرمين». كذلك تشير كل المعلومات الموثّقة وتلك المسجّلة والمتراكمة إلى أن الاتصالات بـ«فتح الإسلام» من أكثر من طرف لبناني أدّت إلى فشل «تصريف» هذه القوة العسكرية في السياسة المحلية الداخلية واجتذابها إلى جانب شعار «أهل السنّة مهددون في لبنان». فقد حافظت «فتح الإسلام» على حياد سلبيّ في الصراع اللبناني، مولية أهمّية قصوى لتدريب عناصرها الأجانب من عرب وباكستانيين وبنغاليين وجزائريين وتونسيين وغيرهم، قبل إعادة تصدير العشرات منهم إلى خارج البلاد. ولم تجرِ عملية أمنية على أي من مجموعات «فتح الإسلام»، داخل المخيّم أو خارجه، ولم يعثر على أيٍّ من الجثث إلا وكان أكثر القتلى والمعتقلين أو الجثث لمقاتلين عرب، إضافة إلى بعض اللبنانيين أو الفلسطينيين.

سقط المخيّم؛ ولاذ من بقي من مقاتلي «فتح الإسلام» بالفرار، فاعتقل بعضهم وتاه آخرون هنا وهناك؛ إلا أننا لن نلبث أن نعلم أن التنظيم امتدّ إلى أرض الرباط في فلسطين، وأن «فتح الإسلام» تملك صواريخ محلية الصنع في الأراضي المحتلة، وأنها تجري تدريبات هناك، وأن شاكر العبسي ما زال حيّاً. وعلى الموقع الرسمي لـ«فتح الإسلام» تظهر البيانات القليلة التي أصدرها التنظيم، ولائحة بأسماء القياديين القتلى من التنظيم خلال عمليات نهر البارد، والعمليات الأمنية السورية ضد التنظيم، ولا تحمل هذه اللوائح اسم شاكر العبسي أو شاهين شاهين الذي ستكون له قصة أخرى.

ما قبل النهاية

تابع الإعلام عبر الفضائيات والمحطات الأرضية ووكالات الأنباء العالمية أحداث مخيّم نهر البارد ومعاركه. وكل ما شاهده العالم من الحرب بين أحد أجنحة القاعدة والجيش اللبناني صار عزيزاً على الوصف، ولم يبقَ من حكايات الجهاديين الكثير ليروى في نظر الإعلام. وفي انتظار انفجار آخر فإن ثمّة من يرتاح إلى انتصارات تمّ تحقيقها، وثمة من يرتاح إلى التخلّص من «فرق جهادية» كان يمكن أن تورّطه في مآزق محلّية وإقليمية ودولية.

في مقابل سعي حثيث لدخول المخيّم المدمّر بعد انتهاء المعارك، يأتي صوت أحد أرفع القياديين العسكريين الرسميين عبر الهاتف محذّراً من مغامرات مشابهة، إذ لدى الجنود النظاميين أوامر بعدم السماح لأي كان بتجاوز المخيّم الحديث من نهر البارد، واعتقال كل من تسوّل له نفسه الاقتراب من حدود المخيّم القديم. ويتواصل هذا القرار العسكري لأشهر طويلة تعمل خلالها جرّافات الجيش اللبناني على محو آثار المعارك من المخيّم، ومنع أية محاولة للتسلّل إلى أرض حرب نهر البارد، ويصبح الاعتقال أهون الشرور.

في التقديم السياسي لما حصل يمتلك العديد من الأطراف اللبنانية التي تابعت المعلومات التي سترد أدناه، قراءة للأحداث أكثر تماسكاً من تلك التي تقدّمها القوى السياسية المتعارضة في لبنان. وبينما تصرّ قوى السلطة أو الموالاة (١٤ آذار/مارس) على أن «فتح الإسلام» هي صناعة سورية ألقت بها دمشق إلى لبنان وأشعلت حرباً ضروساً تشبه حروب الإلياذة، وتصرّ قوى المعارضة في المقابل

على أن تنظيم «فتح الإسلام» وليد ضخّ سعودي للعناصر والكوادر وتشجيع من قِبل بعض القوى الأمنية التابعة للموالاة، تقدّم بعض القوى الأخرى في لبنان رؤية مبنية على مجموعة من المعلومات، لا تخلو من اتهام مبطن لسوريا بتسهيل عمليات العبور القاعدي إلى لبنان وغضّ النظر ودفع المجاهدين إلى ترك دمشق والمحافظات السورية تحت وطأة مطاردة أمنية يومية قاسية.

هذه القراءة التي تنبني على كون التنظيم الجهادي هو خليط من مجموعة كبيرة من المعطيات والعوامل ولا يمكن رؤيته من منظور واحد، تفيد بأنه لم يكن من بدّ أمام فريق القوى الحاكمة في لبنان من الوقوف بوجه ما يسمّيه «المحور الإيراني السوري»، وبالتالي فهو يحتاج إلى أدوات جدّية وقادرة على خوض المواجهات الأمنية والقتالية في البلاد التي تقف على أبواب حرب أهلية، أو على الأقلّ لإيجاد «توازن رعب» مع القوى الممثلة لـ«المحور الإيراني السوري» وعلى رأسها «حزب الله»، فكان اكتشاف الكلمة السحرية «الفتنة» كأكثر ما يخيف «حزب الله».

والواقع أن الفريق الشيعي في لبنان نجح في فرض مفهوم جهادي ضد الأميركيين وضد الإسرائيليين، وكان يمكن له إثارة عواطف الجهاديين السنّة، لا بل تمكن من الدخول إلى قلوب العديد منهم وإلى قلوبهم، وشرع في عمليات تعاون ولا سيّما مع «جبهة العمل الإسلامي»، كما حقّق «تجمّع العلماء المسلمين» نجاحاً في التخاطب مع العلماء السنّة، ولكن في المقابل تمّت الاستفادة من كل ما يمكن أن يفرّق بين السنّة والشيعة، من الرواسب التاريخية إلى العمليات الانتحارية للقاعدة ضد الشيعة، العمليات التي يقوم بها أنصار مقتدى الصدر في العراق، أضف إلى ذلك الصراع العنيف الذي خاضته الولايات المتحدة ضد ما قام به المحور السوري الإيراني، الذي يطلق على نفسه محور الممانعة، من تعميق للمشكلات الأمنية الأميركية ومحاولة فرض فشل عسكري على الوجود الأميركي في العراق.

لا الضغط الأميركي على سوريا ولا الإغراء اليومي لها أفلحا في فكّ تحالفها مع إيران. وقد ضمنت إيران العديد من المكاسب بهذا التحالف، كما أثبتت

سوريا لأعدائها في الولايات المتحدة، وفي لبنان، أن إخراجها من الدولة الصغيرة المجاورة لا يعني إمكانية إسقاط النظام البعثي ببضع تظاهرات وشعارات حديثة. وكان أحد الخيارات الأميركية هو الضغط على القاعدة في العراق لطرد أكبر عدد من كوادرها وإجبارهم على التراجع من مناطق القبائل خاصة والدخول إلى سوريا حيث يمكن للقاعدة أن تمارس أفضل ما يمكنها ممارسته طبعاً: القتال حتى الشهادة.

وفي المقابل كان لبنان يعتبر إحدى الساحات الرئيسية لتنسيق مشروع «ديموقراطي وحضاري وتنموي» بعد فشل مدوٍّ في العراق، حيث يمكن لجورج بوش أن يشير إلى لبنان، وإلى ما يكابده هذا البلد من أجل الوصول إلى حريته، وإلى الديموقراطية، ومواجهة الإرهاب المتمثل بحزب الله، فكيف إذا ما أضيف إلى حزب الله العدو المحبّب أي القاعدة؟ ولسوف يشير الرئيس الأميركي بكل فخر إلى لبنان في عدة خطابات، متناسياً ما يقع في العراق، والتدخل الإيراني والسوري في بلاد الرافدين الذي أدّى إلى فشل التجربة التي دفعت ثمنها الولايات المتحدة ما دفعت، والتي لم تتمكن حتى من إدارة نفسها بنفسها.

إذاً، كان لا بدّ من دفع الشيعة في لبنان إلى التحوّل نحو الإرهاب، ولا بدّ من دخول القاعدة في لبنان على خط الصراعات المذهبية، وخصوصاً أن لا أحد يرغب فعلاً في القتال في لبنان، لا الشيعة ولا السنّة، ولا تيار المستقبل وشركات الأمن المقرّبة منه. ومن كان متحمساً للحرب الأهلية لم يكن يملك من المقاتلين ما يكفي ليحملوا البنادق الموضوعة في تصرّفه.

بالنسبة إلى القاعدة لا يشكل لبنان أرضاً ذات بعد مهمّ، وهي تعلم أن حجم لبنان وعدد سكانه وتوزّعه الجغرافي والحدود حوله، وعدد المرافئ، والعلاقات الاجتماعية الداخلية والتنوع الثقافي ونمط الحياة، كلها عوامل لا تسمح لها بالعمل انطلاقاً من هذا البلد، كما فعلت في أفغانستان والشيشان والعراق والسودان وغيرها؛ لبنان بالنسبة إلى القاعدة ممر وحديقة خلفية، والشيعة فيه - صدّقْ أو لا تُصدّق - مقاتلون ضد عدوّ مشترك، وما يغريها في لبنان هو تحديداً ما أثبته الشيعة: قدرات عالية على تحقيق النصر، وإذا تمكن المقاتلون الشيعة في

حزب الله من فعل ذلك فما الضير من استخدام لبنان كمقرّ خلفيّ، وفي حال الاشتباك يمكن دائماً ضرب إسرائيل، وتوريط كل الأطراف في نزاع مشترك. وبالتالي وصلت القاعدة إلى لبنان وهي في حالة أقرب إلى الاستجمام وكان مقاتلوها يشبهون المسافرين الذين يحطّون في مطارات فاخرة ويبدأون بالتبضع يساراً ويميناً، وفي مثال القاعدة كان المجاهدون يتدرّبون على خبرات قتالية وعلى أعمال أمنية مستفيدين من خبرات متراكمة في لبنان.

وكان ثمّة من يطمح في الغرب، وفي لبنان، إلى أن يؤدّي تمركز القاعدة في لبنان إلى ولادة نسق إسلامي امتداده الطبيعي هو سوريا، وبالتالي يمكن أن يستعيد تجربة العام ١٩٨١ حين انتفض الإسلاميون على النظام في سوريا، فما كان منه إلا أن سحقهم بالطائرات الحربية. وتوافرت المعلومات في مراحل لاحقة، أي مع بدايات العام ٢٠٠٧، لتشير إلى أن القاعدة تحاول تجميع قواها في مناطق شمالية لتنظيم العمل الجهادي في لبنان. إلا أن القوى الأمنية اللبنانية كانت أكثر انشغالاً بالهمّ السياسي اليومي، وملاحقة تفجيرات واغتيالات متنقلة، وربما كانت ببساطة بعيدة عن المتابعة، ففاتها ما فاتها من قراءة سياسية ومن متابعة معلوماتية.

في الأشهر الأولى من العام ٢٠٠٧، عقدت القاعدة العديد من الاجتماعات التحضيرية وأرسلت وفوداً إلى لبنان لتجميع كل القوى تحت عنوان واحد: «فتح الإسلام». ووضِع برنامج عمل لهذه القوى الجهادية يتضمّن الآتي:

- تزخيم ودعم العمل ضد الأميركيين في العراق.
- العمل ضد قوات الطوارئ الدولية في لبنان.
- العمل على ضرب عدد من السفارات العربية والغربية.
- العمل على توجيه ضربات إلى حلفاء الأميركيين في لبنان.

على أن هذه الأهداف لم تعنِ للقاعدة كسرَ القرار الرئيسي بعدم تحويل لبنان إلى ساحة من ساحاتها، وكانت هذه الأهداف أقرب إلى «سيناريوهات أسوأ الأحوال»، التي يتم التدريب على أساسها ويجري إعداد الطاقات وتخزين الإمكانيات دون تحديد ساعة الصفر، ولا دفع الأمور نحو الانفجار.

وجرى حشد عدد من الكوادر اللبنانية، من خارج تنظيم «فتح الإسلام»، ولكن هذه المرة حشدتهم المخابرات السعودية، لمصلحة دعم القوى الجهادية في لبنان، والانخراط في حركتها، على افتراض إمكانية تعاون بين القوى الإسلامية الجهادية والكوادر اللبنانية، إلا أن عدداً من الأسماء اللبنانية[١]، إضافة إلى خمسة من السعوديين، كانوا أصحاب توجّه مطلق في العداء للشيعة في لبنان، و يبدو أن هذا الامر لم يناسب منطق «فتح الإسلام». كذلك جرت عدة محاولات لجرّ «فتح الإسلام» نحو معركة غير متوقعة مع أطراف لبنانية أخرى، أي العلويين، وبقي التحريض متواصلاً ضد الشيعة، إلا أن كل فريق كان يملك أهدافاً مختلفة.

واصطدم مشروع جرّ «فتح الإسلام» إلى المعركة المذهبية بعقبتين: أولاهما رفض التنظيم بأكثر قيادييه وقواعده مواجهة الشيعة ممثّلين بحزب الله الذي «يقاتل إسرائيل ويبلي البلاء الحسن في قتالها»، وهو بالتالي يتقاطع مع أهداف «فتح الإسلام» في مجاهدة الصهيونية والغرب. والعقبة الثانية كانت المنطلقات الإسلامية للتنظيم، واحتكامه إلى ضوابط للتكفير.

خلال المراحل الأخيرة من تشجيع الكوادر اللبنانية[٢] لـ«فتح الإسلام» على التدخل في السياسة المحلية اللبنانية، توصّلت هذه الكوادر إلى قناعة بأن التنظيم بعيد عن التورّط في الداخل المحلّي، وفي صراعات شبيهة بتلك التي وقعت في العراق. وكانت الخلاصات النهائية المتعلّقة بالفشل في الاستفادة من تنظيم «فتح الإسلام» قد بدأت تتأكد قبل أشهر من حرب نهر البارد. وتلاشت حصة الأجهزة اللبنانية والأجهزة السعودية في التنظيم الجهادي لمصلحة تماسك تنظيمي داخلي، ومجموعات جهادية محددة، مما أوحى لمن يملك القدرة على المتابعة اليومية بأن الثقل الأكبر للحركة الجهادية في «فتح الإسلام» قد طغى على ما عداه.

وصار من الواضح أن «فتح الإسلام» تحضّر لعمليات ضد قوات الطوارئ

---

(١) ثلاثة من الكوادر السلفية المعروفة نتحفظ عن ذكر أسمائهم.

(٢) على الأقل، يمكن إثبات تورّط ثلاث شخصيات شمالية في هذه المحادثات والمفاوضات وإن كنا نحتفظ بالأسماء لأنفسنا.

الدولية العاملة في جنوب لبنان، وعدد من السفارات العربية الخليجية والغربية، عندما اشتعلت المعركة في مخيّم نهر البارد.

ونقتبس من روايات الناجين من حرب البارد على خطّي الداخل المجاهد، والخارج النظامي والرسمي، شهادات تفيد بأن شاكر العبسي أبلغ شهاب قدّور (أبو هريرة) بضرورة تجنّب قوات الجيش اللبناني في لحظات الجنون الأولى حين كان المخيّم لا يزال خارج دائرة الاشتباك، وأن من قام بقتل عناصر الجيش هو شهاب قدّور ومجموعاته. كما تؤكد مجموعات أدلت بشهاداتها في أماكن خاصة أنها أثناء اقتحامها لبعض المواضع في المخيّم المحاصر كانت تجد وجبات ساخنة من أحد أشهر مطاعم المأكولات في طرابلس.

أشهر من العمل السرّي

أعلنت السلطات الأمنية اللبنانية اكتشافها خلية للقاعدة في لبنان في بداية شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ٢٠٠٣، واعتقال مجموعة من ٢٠ شخصاً بينهم لبنانيون وسعوديون ويمنيون وأردنيون وفلسطينيون وأتراك وسوريون، بتهمة إنشاء تنظيم للقاعدة في لبنان عبر خلايا نائمة في المناطق وهيكلية معلنة في مخيم عين الحلوة. وفي ٢١ أيلول/ سبتمبر من العام ٢٠٠٤ يُعلن إحباط هجوم إرهابي على سفارتي إيطاليا وأوكرانيا في بيروت، بالتنسيق مع المخابرات اللبنانية والإيطالية، ويشيد وزير الدفاع الإيطالي أنطونيو مارتينو بجهاز المخابرات العسكرية الإيطالية للعملية الناجحة التي قام بها في لبنان، كما يوجّه شكره إلى الأجهزة الأمنية السورية واللبنانية لتعاونها في إحباط الهجوم، وأعلنت وزارة الداخلية اللبنانية إلقاء القبض على شبكتين من تنظيم القاعدة واحدة برئاسة أحمد سليم الميقاتي وأخرى برئاسة إسماعيل محمد الخطيب.

بعد عام تماماً، وفي خريف العام ٢٠٠٥، اتخذت قيادة القاعدة في العراق ودول الجوار قراراً باستخدام لبنان كأرضية لعقد اللقاءات والاجتماعات وتسهيل النشاطات الجهادية في المنطقة والعالم، على أن يُستخدم كغطاء للحركة عدد من الجمعيات والتنظيمات الحليفة والمخلصة للجهاد في لبنان، وأن يبقى هذا القرار

طيّ الكتمان، والعمل بشكل فائق السرّية، منعاً لإثارة ردود فعل طائفية، مسيحية أو شيعية، تُحبط عمل القاعدة وحركتها من لبنان وإليه.

التنوّع الذي يمكن أن يُحبط حركة القاعدة حال انفضاحها، هو نفسه الذي أغرى قيادة القاعدة بالعمل من هذا البلد الصغير، إذ إن الحركة من لبنان وإليه سفراً وحصولاً على التأشيرات وممارسة شعائر دينية متنوعة وقدرة على التجوّل وسهولة الوصول إلى الحدود الدولية، إضافة إلى ترك السلطات اللبنانية وقبلها السورية، للمخيمات الفلسطينية جزراً مسلّحة ومعزولة، محاصرة وعلى تماسّ في الوقت عينه مع جسم البلد، فضلاً عن وجود روابط مقبولة مع السلفيين خارج المخيّمات، كما أن حركة السلفيين في لبنان كانت مريحة بصفتهم يمارسون شعائرهم الدينية ولا ضوابط قانونية أو أمنية على من لا أحكام أو شبهات عليهم، كل هذه العوامل شكّلت أرضيّة ملائمة لحركة مجموعات الجهاديين العابرين إلى لبنان، ومنه نحو الغرب أو الشرق.

في تلك المرحلة كان المسؤول المالي للقاعدة في الدول العربية الفلسطيني أمين أنيس ديب(٣) يقوم بإرسال الحوالات والمساعدات المالية إلى أحد قياديي الحركات الجهادية في مخيم عين الحلوة، وهو يتكفل بتوزيعها وفق خريطة متفق عليها سلفاً لاعباً دور المسؤول المالي للتنظيم الدولي في لبنان، كما يرعى العديد من المشاريع الخيرية والتعليمية في عدد من المخيّمات الفلسطينية في لبنان، ويقدم مساعدات لمجموعات جهادية متحالفة مع / ومدعومة من القاعدة، من بينها تنظيم «جند الشام» و«عُصبة الأنصار» ومجموعات أخرى، ويدعم معهد «مرشد» الإسلامي الذي يديره الشيخ عبد الله حلاق(٤). وهذا المعهد يتولّى إعطاء الدروس الفقهية الإسلامية والجهادية، وهو يتعاون مع معهد «مؤمن الديني» في إندونيسيا برئاسة الشيخ الإندونيسي وحي الدين الذي يعتبر الرجل الثاني في

---

(٣) أوقف غيابياً من قِبل السلطات اللبنانية بتاريخ ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٣ بتهمة تمويل عملية تفجير مطعم الماكدونالدز في منطقة الدورة في بيروت بتاريخ ٥/ ٤/ ٢٠٠٣.

(٤) والد أحد المعتقلين في شبكة الـ ١٣، وعضو تجمّع العلماء المسلمين، وقد شكّك في دقّة المعلومات السابقة.

مجلس المجاهدين الإندونيسيين ونائب الزعيم الإسلامي أبو بكر باعشير.

حتى ذلك الحين كان ما هو متوافر من معلومات يشير إلى أن تنظيم القاعدة في لبنان والمنطقة العربية يقوم على بناء هرمي وعنقودي، ورغم أن العديد من المجموعات الجهادية تبدي اعتقادها بأن لا شيء يُدعى «تنظيم القاعدة» بالمعنى التنظيمي الكلاسيكي، فإن المتابعات اليومية والمعلومات المتاحة ميدانياً تؤكد وجود هذا التنظيم بهرمية أمنية صارمة، تتعاون أو تتقاطع أو تستفيد من وجود مجموعات متحمسة ومن خدمات هذه المجموعات. ويزرع التنظيم أو يختار في كل دولة مشرفاً على الأنشطة ومنسقاً لها، وتحته عدة مسؤولين محليين في المناطق مهمتهم تأمين الاتصال بين مختلف الخلايا وتنسيق جهودها وتنظيم أعمالها والإشراف على حُسن سير الأوامر العليا.

ولا تشذّ تركيبة تنظيم القاعدة في الدول عن أية تركيبة أمنية جدّية وفاعلة، فمجموعاتها صغيرة العدد، لا تتعدى الستة أشخاص للمجموعة الواحدة، أو الخلية، وتتوزع المسؤوليات على الأعضاء من عسكرية إلى أمنية، وكل عنصر يتولّى مسؤولية معيّنة، وتضمّ المجموعات دائماً عنصراً مهمته رفدها بالوثائق والمستندات المزوّرة من البطاقات الشخصية وأوراق السيارات إلى جوازات السفر.

في لبنان يُصنف العديدُ من الأوساط تنظيمَ «جند الشام» من ضمن مداخل القاعدة إلى البلاد، ويتزعم التنظيم المحصور في منطقة تدعى حي التعمير على طرف مخيم عين الحلوة الشيخ أسامة الشهابي[٥]، أما المسؤول العسكري لهذا التنظيم فهو الفلسطيني عماد ياسين، الذي يحمل ألقاباً عدّة منها «أبو الوفا» و«عماد اللحبكي». كما يتزعم اللبناني غاندي السحمراني[٦] مجموعة جهادية شبه مستقلة ومعظم عناصرها من شمال لبنان.

(٥) فلسطيني من مواليد ١٩٧١.

(٦) لبناني من مواليد عكار عام ١٩٦٤، لقبه أبو رامز الطرابلسي، من المسؤولين العسكريين في تنظيم «جند الشام»، مطلوب من السلطات اللبنانية بموجب مذكرات توقيف عدة بتهم الإرهاب والقتل وتهريب الأسلحة والمتفجرات وحيازتها.

على مستوى المنطقة العربية وخصوصاً ما يعرف من أجنحة عربية للتنظيم في لبنان، فإن المجموعات المحيطة بلبنان هي الخاضعة مباشرة لأوامر الدكتور أيمن الظواهري، ومن أبرز هؤلاء:

أحمد التويجري: سعودي الجنسية، من مواليد ١٩٧٩، لقبه أبو جعفر.

علي ح.: لبناني، من مواليد القرعون في البقاع الغربي عام ١٩٦٨، لقبه أبو بكر، موقوف غيابياً لدى السلطات اللبنانية بموجب دعوى النيابة العامة رقم ٥٠٤٢/٢٠٠٣.

أحمد ع.: فلسطيني من مواليد ١٩٧٢، مطلوب للسلطات اللبنانية وأوقف غيابياً بتاريخ ١٥/١٠/٢٠٠٣.

الشيخ محمد ع.: مغربي الجنسية، من مواليد ١٩٦٠، موجود في أفغانستان، وهو معروف باسم الشيخ ظافر فرج الله آغا.

أحمد عبد الكريم السعدي: أبو مِحجن، فلسطيني من مواليد ١٩٦٧، وهو أمير تنظيم «عصبة الأنصار» في مخيم عين الحلوة، مطلوب للسلطات اللبنانية بموجب عدة مذكرات توقيف بتهم إرهابية متنوّعة من بينها اغتيال رئيس جمعية المشاريع الخيرية في لبنان الشيخ نزار الحلبي في بيروت بتاريخ ٣١/٨/١٩٩٥. ترك لبنان إلى العراق كما يُحكى ويشاع، وسلّم قيادة العصبة إلى شقيقه أبو طارق السعدي والشيخ أبو شريف[٧].

خالد س.: سعودي.

سلطان ش.: سعودي.

وتعمل القاعدة في لبنان في العديد من المناطق ذات الكثافة السنّية حيث تتاح لها حرية كبيرة في الحركة والتنقل والتدريب والاتصال والتعبّد. وتنتشر في بيروت خلايا للقاعدة في مناطق قصقص، وبرج أبي حيدر والطريق الجديدة، وفي إقليم الخروب وصيدا والبقاع الغربي والشمال.

(٧) أبو شريف هو وفيق شريف عقل من مواليد ١٩٦٨، من مخيم المية ومية في لبنان. يرد اسمه في العديد من التحقيقات مع شبكات اتهمت بالانتماء إلى تنظيم القاعدة في لبنان.

في نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ٢٠٠٦ وصل إلى مخيّم عين الحلوة ممدوح أ.[٨] أحد كوادر تنظيم القاعدة وعقد عدداً من اللقاءات في مكتب «عصبة الأنصار» مع المسؤول العسكري أبو عبيدة وبعض كوادر العصبة، وأبلغهم أن تنظيم القاعدة قد عيّن الشيخ جمال بن مكتوم الرفاعي[٩] لتولّي مسؤولية التنظيم في الشرق الأوسط وأنه يدرس القيام بزيارة إلى لبنان بهدف العمل على جمع التنظيمات الإسلامية السلفية تحت لواء تنظيم القاعدة، كما أبلغهم بتحبيذ الرفاعي إشهار الولاء علناً للتنظيم وقائده الشيخ أسامة بن لادن وأمير البلاد المعيّن حديثاً، وذلك خلال خطب الجمعة في المساجد التي تشرف عليها المجموعات الجهادية الموالية للقاعدة.

وفي خريف العام ٢٠٠٦، وكانت البلاد قد انتهت للتوّ من حرب تموز/ يوليو، أخذ النشاط الجهادي يظهر بوضوح، وبدأت ترد المعلومات عن تجهيز مئات المجاهدين العرب لأنفسهم للالتحاق بحرب اعتقدوها طويلة. ومع نهاية الخريف بدأ النشاط الجهادي يتركز في مخيمي نهر البارد والبدّاوي في شمال لبنان لعدة اعتبارات، من بينها خوف الأصوليين من هجمة عسكرية تقوم بها حركة فتح والتنظيمات المتحالفة معها، بالتنسيق مع الدولة اللبنانية وبغطاء عربي وغربي، للقضاء على الجهاديين في مخيم عين الحلوة ونشر الجيش في منطقة التعمير وإدخال الواقع الأمني للمخيمات في الجنوب تحت غطاء القرار ١٧٠١.

وقد اعتبر الجهاديون أن منطقة الشمال اللبناني هي الأكثر أماناً لهم حيث يتوافر مناخ أوسع لأنشطتهم بفضل البيئة المذهبية السنّية السائدة فيها.

وخلال الشهر الأخير من العام ٢٠٠٦ زار الفلسطيني عبد الله خ.[١٠] مخيم

(٨) أردني الجنسية، من كوادر تنظيم القاعدة، يتنقل بهويات وأوراق فلسطينية مزيّفة.

(٩) سعودي الجنسية، تسلّم مسؤولياته في قيادة المنطقة في نهاية شهر أيلول/ سبتمبر من العام ٢٠٠٦.

(١٠) عبد الله خ.، من مواليد سوريا ١٩٧٤. كان من أبرز كوادر حركة فتح - المجلس الثوري قبل أن يتركها، وسبق أن خضع لدورات أمنية وعسكرية في ألمانيا الشرقية في الثمانينات لدى الشتازي.

نهر البارد يرافقه عدد من القياديين الجهاديين من تنظيم القاعدة، وضمت المجموعة: قاسم د.، محمد د.، عبد الله د.، خالد ب.، عارف م.، إبراهيم هـ. وبعد هذه الزيارة انطلق كل من أفراد هذه المجموعة القيادية إلى أحد المخيّمات الفلسطينية حيث عمل على تشكيل خليته الخاصة في إطار حركة جهادية أشمل في لبنان وعدد من الدول العربية والأوروبية.

وفي كانون الثاني/ يناير من العام ٢٠٠٧، عمدت «مجموعة الشمال»[١١] الجهادية، وهي مجموعة سبق لها أن فرّت من شمال لبنان في العام ٢٠٠٠ إلى مخيم عين الحلوة، إلى الانتقال من هذا المخيّم الجنوبي إلى مخيم نهر البارد في الشمال، وذلك تنفيذاً لتعليمات مسؤولين في القاعدة.

وبدأت هذه المجموعة اللبنانية بالعمل على توسيع النشاط الإسلامي الجهادي في نهر البارد من ناحية، والابتعاد عن مخيم عين الحلوة من ناحية ثانية، وخصوصاً مع بروز كلام سياسي وإعلامي وأمني عن عزم الجيش اللبناني الانتشار في منطقة التعمير في عين الحلوة التي تعتبر معقلاً لهذه المجموعة الجهادية.

«مجموعة الشمال» هذه التي لطالما كانت تشكل جزءاً من تركيبة «جند الشام»، انتقلت في حينه إلى مخيّم نهر البارد لدعم الانتفاضة التي قام بها ٧٠ عنصراً انشقوا عن حركة «فتح الانتفاضة» بتاريخ ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٦ واحتلوا عدداً من المواقع وأعلنوا تنظيمهم الجديد باسم «فتح الإسلام» واتخذوا من مؤسسة صامد في المخيّم مركزاً رئيسياً لهم. حدث ذلك في أعقاب اشتباك وقع في مخيّم البدّاوي القريب في ٢٣ من الشهر نفسه وقرّرت المجموعات الجهادية على أثره الانكفاء إلى مخيّم نهر البارد وإعلان انطلاقة «فتح الإسلام».

ويعتبر تنظيم «جند الشام» برئاسة الشيخ الفلسطيني أسامة الشهابي، من أبرز التنظيمات التي تنسق مع تنظيم القاعدة وتتلقى منها الدعم والتمويل، ولجند الشام مجموعات وخلايا أصولية في سوريا تتوزع بين حماه وإدلب وحلب والسلمية

(١١) تعمّد الكاتب تحوير أسماء المجموعات الجهادية، علماً بأنها لا تستخدم أسماء محددة بل تعمل تحت مسمّيات متعددة.

وتدمر، ويشرف عليها السوري مروان ك. (أبو الستار) وهو يقيم في إحدى قرى حماه، ويتردد إلى دمشق باستمرار ولديه اتصالات مع علماء الدين السلفيين في البقاع الغربي في لبنان.

في نهر البارد أعلنت مجموعة الشمال ولاءها لمسؤول حركة «فتح الإسلام» شاكر عبسي، ولمعاونه اللبناني شهاب خضر قدّور، وكان هذا يعمل في تلك الفترة على نقل متفجرات من نوع C4 وذخائر متنوعة إلى مخيم البارد.

وإضافة إلى مجموعة الشمال، تحركت فجأة مجموعة من ٥٠ عنصراً من مخيّم برج البراجنة في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت وانتقلت إلى مخيم نهر البارد في الشمال.

في تلك المرحلة بدأت تظهر لدى «فتح الإسلام» إمكانيات مالية معتبرة، ونوع من التسلّح الفردي الخفيف والذخائر الحديثة، ما أخذ يشي بهوية هذا التنظيم، أو على الأقلّ بعلاقاته خارج لبنان، وكانت المعلومات المتداولة في شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٧ تؤكد أن تنظيم «فتح الإسلام» هو أحد فروع القاعدة في لبنان.

تكاثرت الجهات الداعمة لحركة «فتح الإسلام»، وبدأ يظهر اسم الشيخ ج. خ.، أحد مسؤولي الحركة الإسلامية المجاهدة في عين الحلوة، الذي قدّم دعماً مالياً لـ«فتح الإسلام» من خلال بعض مسؤولي القاعدة في الخارج[١٢]. بينما تولّى تدريب عناصر «فتح الإسلام» المحدثين في العمل القتالي المسؤول العسكري لتنظيم «جند الشام» الفلسطيني عماد ياسين.

ولم يكن مطار بيروت الدولي وحده من يستقبل القادمين لمشاركة «فتح الإسلام» جهادها، بل تم دخول العشرات من المقاتلين وبعض المجموعات الجهادية بكامل عناصرها من سوريا عبر طرق فرعية غير شرعية للانضواء تحت لواء التنظيم الجهادي الحديث النشأة في نهر البارد.

كما وصل إلى لبنان التونسي أحمد ر.، وهو أحد كوادر تنظيم القاعدة،

---

(١٢) ينفي الشيخ المذكور في لقاءات خاصة مع الكاتب صحّة المعلومات المتداولة عنه.

ودخل بمجموعته من الحدود اللبنانية السورية، واستقر في عين الحلوة في مركز لتنظيم جند الشام في ضيافة اللبناني غاندي السحمراني[١٣].

في غضون ذلك كانت المجموعات الجهادية لا تزال تتلقى إشارات متنوّعة من قياداتها، وتضع أحياناً خططها الخاصة متأثرة بالأجواء والأهواء السياسية المحلية. وبدأت إحدى المجموعات تخطط من مخيم عين الحلوة لتنفيذ عملية انتحارية في بيروت ضد التجمعات المعتصمة في ساحتي رياض الصلح والشهداء، بغية إشعال الفتنة بين السنّة والشيعة. إلا أن الأمر لم يصل حد محاولة التنفيذ، ولا حتى التخطيط الجدي، وبقي في إطار الأفكار التي يتم تداولها.

وإلى البقاع وصل فهد المغامس المعروف باسمه الحركي أحمد إبراهيم التويجري (أبو جعفر)[١٤]، القيادي في تنظيم القاعدة، وشرع في عقد سلسلة من اللقاءات في مناطق شتورا في البقاع الأوسط ضمّت مجاهدين لبنانيين وفلسطينيين، في سعدنايل، كما عقد اجتماعات في قرية لوسي في البقاع الغربي، شارك فيها علي ب.[١٥]، وجهاد ض.[١٦] (أبو الدحداح)، ومعين ع.[١٧]، وغازي ط.[١٨] (أبو قسْوَرة).

خلال هذه الاجتماعات جرى البحث في نقل العمل الجهادي إلى لبنان، وخصوصاً مع ارتفاع عدد عناصر قوات الطوارئ الدولية، إضافة إلى تكليف المجموعة التي يلتقيها التويجري بالعديد من المهام منها: شراء الأسلحة والذخائر

---

(١٣) سبق التعريف به.

(١٤) التويجري مطلوب في عدة قضايا في لبنان من ضمنها شبكة الـ١٣، وتابع نشاطه إلى حين إلقاء القبض عليه وإحالته أمام المحاكم في وقت لاحق من العام ٢٠٠٧.

(١٥) علي ب.، لبناني، من مواليد ١٩٧٩، متهم في قضية إسماعيل الخطيب مع التويجري.

(١٦) جهاد ض.، لبناني، من مواليد ١٩٨٢، ملقب بـ«أبو الدحداح»، متهم في قضية إسماعيل الخطيب مع التويجري. كما أنه متهم بالمشاركة مع مجموعة الـ١٣ بأعمالها، ولم تتمكن القوى الأمنية اللبنانية من إلقاء القبض عليه.

(١٧) معين ع.، فلسطيني، من مواليد ١٩٧٥، متهم مع التويجري بقضية إسماعيل الخطيب، كما يرد اسم معين خلال التحقيقات مع شبكة الـ١٣ من دون التأكيد أنه الشخص نفسه.

(١٨) غازي ط.، سوري الجنسية، من مواليد حلب، ملقّب بأبو قسورة، لا معلومات إضافية عنه.

والمتفجرات وتهريبها إلى العراق، والتنسيق مع عدد من المجموعات الجهادية السورية والعراقية لتأمين ممرات لنقل المجاهدين والعتاد والأسلحة إلى العراق ولا سيما تأمين وصولها إلى المناطق التي يسيطر عليها المجاهدون في العراق.

وفي تلك المرحلة بدأت التدريبات على الأسلحة الخفيفة، وعلى أعمال التفخيخ وحلقات التدريب النظرية الأمنية والعسكرية، واعتُمد عدد من المنازل التي تستخدمها القاعدة لأغراض التدريبات في مناطق القرعون وبرّ الياس ومجدل عنجر في البقاع اللبناني، وساعد على أعمال التدريب مدرّبون فلسطينيون ولبنانيون، بقيادة السوري عرفان ياسين[١٩].

على أن التويجري المطلوب للأجهزة الأمنية اللبنانية لم يطل الإقامة في لبنان، بل كان دائم التنقل، مستخدماً جوازات سفر مزوّرة، ويتنقل بين بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا، لمتابعة شؤون المجاهدين.

شكّل مخيّم عين الحلوة لمدّة طويلة غرفة العمليات للقاعدة في لبنان، على الأقل على مستوى الاتصالات الخارجية، وكان يتسلّم الرسائل المشفرة في لبنان عبر أحد السنترالات، وهي تصل عبر البريد الإلكتروني من مسؤولين في الخارج إلى تنظيم الحركة الإسلامية المجاهدة في مخيم عين الحلوة، وإلى مسؤولين في عصبة الأنصار.

وعلى الرغم من محاولات وعمليات أمنية عدّة ضد السنترالات بقيت الاتصالات متواصلة حيث كانت أعمال الاتصالات الإلكترونية تتم وفق نظام اتصالات إلكتروني دقيق وُضِع بإشراف خبراء اختصاصيين في علم الاتصالات، ومن بينهم المهندس المغربي محمد بورويس، وهو يقطن خارج المخيّم، ولكنه يزوره بشكل دائم للتأكد من صلاحية جميع الاجراءات التقنية وتحديثها.

وكانت الرسائل تصل من رجل ثقة سبق أن كان له باع في العمليات اللوجستية في لبنان والخارج وهو بلال سعد الله خزعل (أبو صهيب) المقيم في

(١٩) يرجّح أن يكون الاسم مستعاراً، وإن كان يتشابه مع اسم عماد ياسين.

أستراليا، ومن مدير المرصد الإسلامي في لندن المصري ياسر السري[٢٠]، ومن قياديين في القاعدة في ألمانيا، مدينة آخن، وفي هولندا.

وفي خريف العام ٢٠٠٦، تولّى عماد ياسين إخضاع المجموعة التونسية التي يقودها عبد الرحيم خ. إلى دورات تدريبية، وكانت المجموعة تضم تونسيين وسودانيين وجزائريين، كما وصلت بعض الأموال للدعم والتأهيل إلى ياسين نفسه من أحد القياديين الجهاديين في بريطانيا ويعمل باسم أحمد علي.

في بداية شتاء العام ٢٠٠٦ كانت التيارات السلفية اللبنانية، وخصوصاً تلك المدعومة من هيئات وجمعيات سعودية وكويتية، تعيد هيكلة عملها للتأقلم مع تطوّرات لم يكن العديد من الجمعيات اللبنانية يعلم إلى أين تؤدي، إلا أنها اقتربت بعضها من بعض في تنسيق عال، وبطلب من مموّليها. وكانت الأجواء السياسية المحمومة وحدها كفيلة بتجميع القوى السنّية، دونما حاجة إلى طلب من المموّلين.

وفي تلك الفترة أيضاً نشط «اللقاء الإسلامي المستقل» الذي أسّسه النائب السابق خالد الضاهر لضمّ مختلف الشخصيات الإسلامية في كل لبنان، إلا أن أطرافاً عدّة ما لبثت أن تخلّت عن هذا اللقاء واقتصر في النهاية على مجموعة محدودة من الشخصيات من ضمنها الشيخ بلال بارودي والشيخ زكريا المصري والشيخ فواز الآغا، وأحد قياديي حركة التوحيد الإسلامية السابقين الشيخ كنعان ناجي. وظهرت لافتات في الشوارع الشمالية خاصة موقّعة باسم تيار المستقبل تهاجم المعارضة اللبنانية المتشكلة من حزب الله وحركة أمل والتيار الوطني الحر المسيحي وعدد من المجموعات الإسلامية السنّية الأقلّ طاقة وقدرة وانتشاراً بين الناس.

وكان من يتحرّك في مخيم عين الحلوة في ذاك الخريف التالي على حرب تموز/يوليو بين لبنان وإسرائيل يمكنه تجميع العديد من المعطيات عن

(٢٠) لاجئ إلى بريطانيا حالياً ومتهم سابق بالمشاركة في عملية اغتيال أحمد شاه مسعود في أفغانستان، ومتهم دائم بتمويل عمليات القاعدة حول العالم.

المجموعات الجهادية التي تتحرك سرّاً، وتكثيفها لنشاطاتها في لبنان، وخصوصاً مجموعة «جند الشام».

وكان من شأن الأجواء السياسية المتأزمة بين المعارضة بأكثريتها الشيعية والمسيحية والموالاة بأغلبيتها السنّية أن دفعت في ذلك الحين إلى رفع مستوى التحريض الطائفي، وانخرط الجميع في هذه اللعبة، بتعاون عشرات الجمعيات السنّية، وعدد من مفتيي المناطق. وبلغ الأمر حدّ إصدار نشرات مموّلة مباشرة أو بالواسطة من قِبل بعض التيارات السياسية، أو من مجموعات إسلامية، تمارس التحريض السياسي والطائفي، وعلى الرغم من بُعد العديد من هذه المجموعات والنشرات والمفتين عن المشارب السلفية والجهادية، فقد كان الجهاديون هناك يعملون بهدوء وسط عاصفة التحريض والتحريض المضادّ.

حينذاك وفي بدايات شهر شباط/فبراير من العام ٢٠٠٧ باتت المعلومات ترد إلى الأطراف المختلفة عن نشاط التسلّح والتدريبات العسكرية، وثمّة من خرج باستنتاج مفاده ضرورة تسلّح السنّة في مواجهة الشيعة، لخلق توازن رعب بين الطرفين يمنع الشيعة المدجّجين بالسلاح، تحت شعار مقاومة الاحتلال والاعتداءات الإسرائيلية، من استخدام أسلحتهم في النزاع السياسي المحلّي، وعدم السماح بتحوّل سلاح المقاومة إلى أداة ضغط سياسية. ويلعب اثنان من علماء الدين دوراً مركزياً في عملية التجنيد هذه، الأول هو كنعان ناجي، المولود في طرابلس، والذي كان على رأس «جند الله» ثم انخرط في حركة التوحيد الإسلامي في بداياتها، قبل أن ينفصل عنها، ويخوض من بعدها «مقاومة شعبية ضد الجيش السوري» في طرابلس فيعتقل في سجون دمشق.

وعالم الدين الآخر هو الشيخ سيف الدين علي الحسيني[٢١]، وهو لبناني أيضاً، يتولّى التنسيق بين كنعان ناجي ومجموعاته شبه العسكرية من جهة وقصر قريطم من جهة ثانية.

---

(٢١) سيف الدين الحسامي سيقوم بعملية انشقاق مفتعلة عن «جبهة العمل الإسلامي» في الثامن من آذار/مارس ٢٠٠٨، قبل أن يتبيّن أن الانشقاق مدبّر وموجّه سياسياً.

وعبر شبكة التنسيق هذه تردّدت معلومات متقاطعة عن إرسال العشرات من الشبان الشماليين إلى الأردنّ لتلقّي التدريبات العسكرية في معسكرات يشرف عليها الجيش الأردني في منطقة جرش.

أثار هذا النشاط العديد من أجهزة المخابرات، سواء المحلية أو الإقليمية، وبدأت عمليات الاختراق التي تستهدف شبكات الجهاديين والسنّة بشكل عام، وكان ما يحصل يثير شهيّة الأجهزة ليس على سبيل المراقبة والمتابعة فقط، بل أيضاً على مستوى فتح المجال لها للتدخل في أرض الصراع، وتمرير رسائل، أو إشعال معارك جانبية قد تفيدها ودولها في هذا الحين أو ذاك. ولم تكن إسرائيل بعيدة عن محاولات الاختراق كما يفيد أحد المتابعين للأوضاع الأمنية والاستخبارية.

مجموعات ومهمّات

مع بداية شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠٧ كانت «الحرب على الإرهاب» في أوجها في العراق خاصة، وكانت الولايات المتحدة تطالب سوريا بضبط الحدود مع العراق شأنها منذ احتلت بلاد الرافدين، وفي هذا الوقت وصل مَن يبلغ بحركة الدكتور أيمن الظواهري، فالرجل الثاني في تنظيم القاعدة انتقل في أواخر العام ٢٠٠٦ إلى المناطق الشمالية على الحدود السورية العراقية، حيث أخذ الأمان من قبائل سورية عراقية، احتضنته وأخفته عن أعين المخابرات الأميركية والسورية على السواء. وراح الرجل الذي سبق أن انشقّ عن الإخوان في مصر، وصار يقود عملياً أقوى تنظيم دولي، يتنقل بين المناطق الحدودية السورية والعراقية، ويحرّك مجموعات القاعدة في البلاد المحيطة عبر أمراء ثقات ومندوبين أشدّاء، ومحنّكين، ومنهم المندوب التونسي مصطفى ب.، الذي تردد إلى لبنان عدة مرّات بجواز سفر مزوّر، والتقى على دفعات جهاديين في مخيّمات برج البراجنة ومار الياس وعين الحلوة والبدّاوي، كما التقى شخصيات فلسطينية معروفة في عين الحلوة.

ولم يكن مصطفى ب. وحده الذي أتى موفداً من قيادة القاعدة إلى لبنان

وناقلاً تلك الأخبار عن تحرّكات الظواهري، بل وصل أيضاً إلى لبنان الجهادي السوري الأصل عمّار هـ.، الملقب بعمّار فرج أبو جبل[22]، والذي زار لبنان في عمل تنسيقي مدة يومين قبل أن يغادره، ليعود مراراً بداية العام ٢٠٠٧، وكان في كل مرّة ينقل السلاح والذخائر إلى مخيمي نهر البارد والبداوي، ويمدّ المجموعات الجهادية بالوثائق المزورة، وأحياناً بدعم مالي مباشر.

كما قدِم إلى لبنان في بداية العام ٢٠٠٧ القيادي المصري في تنظيم القاعدة حسين مصطفى الملقب بأبو الوليد، الذي تتلخص مهمته في التنظيم بتنسيق النشاطات العسكرية، وعمل عدة أسابيع في مخيّم نهر البارد حيث عُرف بصفته تونسياً لتحركه بجواز سفر تونسي باسم رجب ط. كما نظم أبو الوليد عدة أعمال في مناطق تمتد من الطريق الجديدة في بيروت وصولاً إلى إقليم الخروب وامتداداً إلى البقاع الغربي وعكار وعين الحلوة، واستمر في جولاته التنسيقية عدة أشهر واختفى مع بداية حرب مخيم نهر البارد.

كان المسؤول في القاعدة أحمد التويجري، الذي عاش الأشهر الأولى من العام ٢٠٠٧ في لبنان، قد شعر بمراقبة يتعرّض لها في تلك المرحلة، واكتشف أن مسؤول المخابرات في السفارة السعودية في بيروت عبد المنعم ي. يضعه تحت مراقبة دقيقة، ففرّ من لبنان نحو إحدى المدن الألمانية حيث عاش ويتنقل منها إلى دول أخرى بجوازات سفر مزيّفة، إلى أن قُبض عليه في لبنان لاحقاً.

بدأ نشاط القاعدة يتبلور حينها في لبنان، وتسارعت وتيرة حركة المجموعات، وخلال أشهر قليلة مرّت على لبنان المجموعات الآتية:

١- **المجموعة الجزائرية**: وهي وصلت في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ٢٠٠٦ وأشرف على تدريبها عسكرياً شحادة ج.، الجهادي المعروف الذي كان ينتمي إلى «عصبة الأنصار» ومن بعدها إلى «جند الشام». وتمركزت المجموعة في نفق حيّ الصفصاف في عين الحلوة، وضمّت كلاً من الجزائريين:

(٢٢) من مواليد العام ١٩٦٨.

مصطفى ع.، مصطفى س.، عبد الهادي خ.، مصطفى ج.، محمد ب. وبعد أيام من نهاية تدريباتها غادرت المجموعة لبنان.

٢- **المجموعة السعودية**: وتضمّ فارّين من المملكة العربية السعودية لاتهامهم بالمشاركة في عمليات ضد مراكز وهيئات سعودية، في البلاد والخارج. وتتألّف المجموعة من: سعد ج.، محمد ر.، عثمان ز.، فايز أ.، محمد ض.، سلطان ض.، عبد الله ولد س.، محمد ع.، محمد ح.، عبد الله ف.

وبعد أن تلقّت هذه المجموعة بعض التدريبات العسكرية وأمضت أياماً للراحة والاستجمام، غادر بعض أفرادها لبنان بينما انتشر البعض الآخر في المخيّمات الفلسطينية وبعض مدن الشمال اللبناني.

٣- **مجموعة الكوادر**: وهي تتألّف من كوادر ومسؤولين في تنظيم القاعدة، وصلوا إلى لبنان في بدايات العام ٢٠٠٧، ودخلوا أولاً إلى مخيم نهر البارد، يرافقهم الفلسطيني عبد الله خ.، الذي كان سابقاً من كوادر فتح - المجلس الثوري. وقد ضمّت المجموعة: قاسم د.، محمد د.، عبد الله د.، خالد ب.، عارف م.، إبراهيم هـ.

وبعد إقامة قصيرة في مخيم نهر البارد توزّع أفراد المجموعة على المخيّمات، حيث عمل كل منهم على تأسيس مجموعته الخاصة للعمل في لبنان وبعض الدول العربية والغربية.

٤- **مجموعة الحركة الإسلامية الجماهيرية**: وهي المجموعة التي اكتشفها القنصل في السفارة المصرية في بيروت طلال ف.، والتي أبلغ عنها السفارة الكويتية، وكانت تتلقى تدريبات في منطقة الجورة في مخيم عين الحلوة، وتلقّت تمويلاً من كويتي مقيم بين ألمانيا وهولندا وبريطانيا. وبعد أن أنهت المجموعة تدريباتها، وربما بعد اكتشافها أنها تحت المراقبة، انتقلت بكامل أعضائها إلى عدد من الدول الأوروبية.

٥- **مجموعة القرعون**: وهي مجموعة جهادية من أبناء المنطقة الفلسطينيين

واللبنانيين، يشكلون تركيبة تنظيمية خاصة منفصلة عن القاعدة، ولها امتدادها في فنزويلا والبرازيل عبر الجاليات اللبنانية هناك. وقد تلقّت هذه المجموعة في نهاية العام ٢٠٠٦ زيارة من القيادي الجهادي السعودي عبد العزيز ب. الذي التقى أعضاءها في لوسي، ولالا، في البقاع الغربي، كما عقد لقاءات في بلدة القرعون، قبل أن يغادر لبنان واعداً بالعودة إليه في منتصف شهر أيار/مايو من العام ٢٠٠٧.

٦- **المجموعة الكويتية**: وهي مجموعة من المتموّلين والشخصيات الكويتية الأصل، زارت لبنان في نهاية العام ٢٠٠٦، برئاسة الشيخ عبد الله ف.، وجالت في مناطق البقاع الغربي حيث قدّمت مساعدات لمشاريع وجمعيات سلفية متعددة، ثم غادرت لبنان بعد حوالى أسبوع على وصولها.

٧- **المجموعة الفلسطينية**: وهي تضمّ عدداً من الفلسطينيين اختيروا بعناية وجرى تدريبهم في مخيم عين الحلوة على أيدي مدربين من تنظيم القاعدة، ومهمتهم الانتقال إلى عدد من الدول الأوروبية بوثائق مزوّرة من دول عربية مثل ليبيا والجزائر والمغرب، والعمل من الغرب. وتم تأمين الجوازات المزوّرة من قبل فلسطيني يدعى محمد م.، مقيم في تركيا، وأرسلها من منطقة أزمير مع المسؤول الجهادي اللبناني علي ح.، الذي يتجوّل بجواز سفر مزوّر باسم كارلوس جمعة. ويترأس هذه المجموعة عامر خ.، وتضم كلاً من: نمر ع.، نمر ج.، حسين م.، حسن م.

٨- **مجموعة تل كلخ**: وهي مجموعة تتكون من ستة أفراد، وتابعة مباشرة لتنظيم القاعدة، وكانت تقيم في منطقة تل كلخ السورية غرب مدينة حمص، وتضم: عبد الله س. الملقّب بأبو عمايرة (فلسطيني) ومصطفى ج. (تونسي) ومحمد ب. (فلسطيني) وعبود ش. وأبو إسراء ونظير ن. (مصريون)، وكان هذا الأخير مدرّباً عسكرياً في أفغانستان حيث شارك في القتال ضد الجيش الروسي، ويحمل عدة جوازات سفر مزوّرة. وقد أقامت المجموعة في مخيم نهر البارد فترة من الزمن، ثم انتقلت إلى مخيم عين الحلوة بواسطة مركب بحري أمّن الحصول عليه تنظيم عصبة الأنصار نقلها إلى صيدا ومنها تسلّلت إلى المخيّم. وتلقت

المجموعة تدريبات على الألغام الفردية والصواريخ الحديثة، بمساعدة الفلسطيني شحادة ج.، قبل أن يتوزع أفرادها على عدد من الدول الغربية والعربية، تحت إشراف المسؤول الفلسطيني في القاعدة أمين د. (أبو عبد الله)[٢٣].

٩- **المجموعة العراقية**: وهي مجموعة تدرّبت في لبنان بُغية الانضمام إلى الجهاد في العراق، وتلقّت تدريباتها على يد المدرّب الفلسطيني إسماعيل خ. في عين الحلوة. وهي تضمّ كلاً من: وليد ل. (سوري)، رشيد ي. (سوري)، محمد س. (سوري)، درويش ر. (لبناني)، أحمد أ. (لبناني)، وسام م. (لبناني)، محمد ك. (فلسطيني). وزوّد الفلسطيني إبراهيم ح. هذه المجموعة بوثائقها الثبوتية المزوّرة، بينما عمل أحد علماء الدين على تأمين انتقال هذه المجموعة إلى العراق عبر الأراضي السورية، بالتعاون مع مجاهدين مختصين من سوريا والعراق.

١٠- **مجموعة بيضون**: وهي مجموعة بقيادة السوري رياض بيضون، وتعمل بإمرة تنظيم القاعدة مباشرة، وتضم أفراداً من جنسيات متعددة، وصلت إلى منطقة بر الياس في البقاع عبر أحد المعابر غير الشرعية بين لبنان وسوريا، وتولّى الفلسطيني حسن ش. نقل أفرادها من البقاع إلى مخيم عين الحلوة، قبل أن يتوزع أعضاء المجموعة على منطقة برج أبي حيدر والمخيّمات الفلسطينية في بيروت.

١١- **كوادر التدريب**: وتضمّ مدرّبين هما المصري نصر م. الملقب بأبو المتوكل[٢٤]، والجزائري فتحي آ. الملقّب بأبو خالد الجزائري، وكان نصر قد شارك في حرب أفغانستان، وهو من قدامى المقاتلين العرب بدأ العمل الجهادي هناك في العام ١٩٨٦، وسبق أن كان من كوادر جماعة التكفير والهجرة، قبل أن ينضمّ إلى مجموعات الدكتور أيمن الظواهري.

---

(٢٣) من مواليد ١٩٧٢، أقام فترة في السعودية ويتنقل بين عدة دول أوروبية وعربية، كان مسؤولاً في السابق عن تمويل عدة أنشطة جرت في لبنان، من بينها تفجير مطعم الماكدونالدز في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ في الدورة. بيروت، وهو مطلوب للسلطات اللبنانية.

(٢٤) من مواليد العام ١٩٥٢.

١٢- **المجموعة العراقية الثانية**: وهي تضمّ عدداً من العراقيين وآخرين من جنسيات عربية، وقد دخلت إلى لبنان حيث خضعت لعمليات تدريب نوعية في حي الصفصاف في مخيم عين الحلوة، قبل أن تنتقل إلى العراق عبر الأردن. واختصت هذه المجموعة بأنواع التفجير وأساليبه، والصواريخ المضادة للدروع من طرازي ميلان واللاو. وضمّت كلاً من: سامي ن.، محمد س.، حبيب ت. (عراقيون)، غزوان ح. (أردني)، نصير ق.، مسعد خ. (تونسيان)، محمد ن. (مصري).

١٣- **مجموعة الـ١٢**: وهي مجموعة متنوّعة الانتماءات يتزعّمها المصري محمد ك.، وتتشكل من ١٢ عنصراً، وصلت إلى نهر البارد، عبر معبر العبودية في الشمال، بتسهيل من أحد المسؤولين السلفيين السوريين عبد الله د. وقد استقبلت هذه المجموعة ضمن تنظيم فتح الإسلام، في حين واصل مسؤولها زياراته إلى طرابلس والشمال للقاء سلفيين لبنانيين والتنسيق معهم.

١٤- **مجموعة العمليات الخارجية**: وهي مجموعة مكوّنة بأكثريتها من فلسطينيين على صِلة مباشرة بتنظيم القاعدة - قسم العمليات الخارجية، خضعوا لتدريبات مكثفة في منطقة الجورة في مخيم عين الحلوة بمساعدة وإشراف من عدد من مدرّبي إحدى القوى الجهادية، وعلى رأسهم المدرّب الفلسطيني جمال ف. وتضم المجموعة: مسعود غ.، ناصر ك.، خالد ح.، وائل د. ثم انتقلت المجموعة من لبنان إلى ألمانيا ومنها إلى فرنسا حيث وضعت تحت إشراف وقيادة مجموعة أمنية جهادية تعمل على الأراضي الفرنسية.

١٥- **المجموعة الليبية**: وهي مجموعة من الجهاديين تحمل جوازات سفر ليبية مزيّفة، وتلقت تدريباتها في مخيم عين الحلوة، في مركز تدريب تابع لجند الشام ضمن أحد أنفاق منطقة الجورة في المخيّم، وتولّى تدريبها عماد ياسين. وضمّت كلاً من: محمد ش. ويحمل جواز سفر ليبي مزوّراً باسم عبد الرحمن ش. محمد ر.، مصري ويحمل جواز سفر ليبياً مزوّراً باسم أحمد ر. محمد ب. ويحمل جواز سفر ليبياً مزوّراً باسم خليفة ب. محمد ف. ويحمل جواز سفر ليبياً مزوّراً باسم سالم ب. وبعد انتهائها من التدريب غادرت المجموعة لبنان

إلى عدد من الدول الأوروبية منها المملكة المتحدة وإيطاليا والدانمارك. وتلقت هذه المجموعة تمويلاً سمح لها بمغادرة لبنان عبر أحد القياديين الجهاديين في المخيّم، من حساب سري في أحد المصارف اللبنانية.

١٦- **المجموعة المصرية**: وهي مجموعة كشفت عن وجودها السفارة المصرية في لبنان، وأبلغت السلطات المختصة بها فتسرّب الخبر بين عدد من الأجهزة الأمنية حولها. وهي بقيادة مصطفى أ.، المقرّب من الدكتور أيمن الظواهري والمعروف في لبنان باسم الشيخ محمد بدرخان، أو أبو هاجر، وقد أقام مع مجموعته في حي بستان اليهودي في مخيم عين الحلوة. ووصلت المجموعة إلى لبنان من عدة دول منها: تركيا وسوريا والأردن وبعض الدول الأفريقية.

١٧- **مجموعة المجلس الثوري**: وهي مجموعة أسّسها الفلسطيني الأردني ناجي م. وهو من الكوادر السابقة في المجلس الثوري، وقد تخلّى عن موقعه في المجلس ليلتحق بالقوى الجهادية. وكان قد انتقل من السودان إلى مصر ثم لبنان، لتنفيذ مهمة لمصلحة تنظيم القاعدة تقضي باستيعاب عدد من الكوادر والقياديين السابقين في المجلس الثوري لاستثمار قدراتهم وخبراتهم العسكرية والأمنية، على أن يتم استعمال لبنان كموقع للنشاطات القتالية.

١٨- **مجموعة تل البيرة**: وهي مجموعة جهادية تابعة مباشرة للقاعدة، ويتزعمها المصري محمود ن.، وقد اجتازت الحدود اللبنانية السورية عبر ممرات غير شرعية من منطقة تل بيرة المسعودية في شمال لبنان. ثم غادر بعض أفراد المجموعة لبنان إلى جهات مجهولة، وبقي عدد منهم في مخيم نهر البارد تحت إشراف شهاب قدّور.

١٩- **جماعة الجوارح**: وهي مجموعة جهادية تابعة مباشرة لتنظيم القاعدة بقيادة الفلسطيني مصطفى د. وقد عملت هذه المجموعة طوال أشهر منذ بداية العام ٢٠٠٧ على مراقبة سفارات خليجية وأجنبية في بيروت. وضمّت كلاً من: سميح م. (فلسطيني)، ربيع م. (فلسطيني)، محمود ش. الملقّب أبو دمدم

(فلسطيني)، بهاء ب. (لبناني). وفتحت هذه الجماعة قنوات الاتصال مع مسؤولين في «فتح الإسلام» ومسؤولين جهاديين في مخيم مار الياس أهمهم المعروف باسمه الحركي أحمد كايد. كما أنها تلقّت تدريبات في مخيّم نهر البارد على أساليب التفخيخ والتفجير بإشراف مدرب عسكري فلسطيني يدعى وليد ح.، أبو هاشم.

٢٠- **المجموعة الأردنية**: وهي مجموعة تابعة مباشرة لتنظيم القاعدة، وتم رصدها من قبل أجهزة المخابرات الأردنية، وقد وصلت إلى مخيم عين الحلوة واستقرت في حي الصفصاف، وحي الذيب، حيث تلقت تدريبات لدى عصبة الأنصار. وهي بقيادة الأردني ناصر ح.، وحافظت على حركة دخول وخروج من لبنان وإليه عبر سوريا. وقد ضمّت هذه المجموعة لاحقاً جهاديين شيشان إضافة إلى الأردنيين، ومنهم: أحمد ح. (أردني)، محمود د. (أردني)، رياض ص. (أردني)، عبد الرحيم خ. (أردني)، محمد ح. (أردني شيشاني)، محمود غ. (أردني شيشاني)، عبد الرؤوف ب. (أردني شيشاني)، إسماعيل م. (أردني شيشاني)، محمد ب. (أردني شيشاني). وتكفل سليمان أ.، وهو مسؤول جهادي أردني يقيم منذ زمن في مخيّم عين الحلوة، بتأمين انتقال المجموعة الأردنية إلى المخيّم والإشراف عليها داخله، بينما تولّى الفلسطيني محمد أ. تدريب المجموعة على الصواريخ المضادّة للدروع وعلى طرق التفخيخ والتفجير.

تمويل وتدريب

كانت المجموعات الجهادية في لبنان، إضافة إلى تحرّكها في لبنان، تلقى دائماً من يموّل نشاطاتها، وكان أحد المموّلين هو السوري سليمان د.، الملقب بأبو الغضية، الذي ساعد مالياً تنظيمات جهادية في لبنان.

وفي شهر كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٥ أصدرت السلطات الأميركية تعميماً على المصارف بتجميد أموال المتموّل السوري أبو الغضية، بعد اكتشاف مدى الدعم الذي يقدّمه إلى أبو مصعب الزرقاوي وتنظيم القاعدة، إلا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة مسيرته والانتقال من بلد إلى آخر، والتقاء المسؤولين الأمنيين

في تنظيم القاعدة، مثل السعودي مرزوق الغامدي الذي يستخدم هو أيضاً جواز سفر سورياً مزوّراً في تنقلاته. كما لم تمنع مصادرة الأموال والمطاردة أبو الغضية من الاستمرار في تحويل الأموال إلى المجاهدين في العديد من الدول ومن بينها لبنان، وكان يرسل إلى حركات جهادية إسلامية مبالغ مالية على اسم الفلسطيني ياسر محمود الشمعة، وهو اسم مستعار للفلسطيني بلال العرقوب، قبل أن تتحول هذه المبالغ إلى عدد من الجهات الجهادية في عين الحلوة وخارجها[٢٥].

ويعتبر أبو الغضية من الشخصيات المتعددة المهام في العمل الجهادي، فهو إضافة إلى كونه متموّلاً، يتقن عدداً من الفنون الحربية والمهارات القتالية، من علوم الأسلحة والطوبوغرافيا والمدفعية والإلكترونيات، وتدرّب في أفغانستان وإيران وتركيا ولبنان على تزوير المستندات، وهو أحد الخبراء الذين يستخدمهم تنظيم القاعدة لتأمين الأوراق الثبوتية المزوّرة. ولعب دوراً أساسياً في تجنيد المجاهدين وتوجيههم للعمل في الأردن والعراق، وتكفّل بتجميع الأفغان العرب، الذين غادروا أفغانستان وتفرّقوا في العديد من الدول، ونسّق أعمالهم في مجموعات قاعدية في العراق وحول العالم. كما أشرف أبو الغضية على تدريب عناصر من عصبة الأنصار[٢٦] في مخيم عين الحلوة على تزوير المستندات.

وبشكل عام فإن عصبة الأنصار تتموّل من التبرّعات الخارجية، ويشرف على وصول التبرعات إلى العصبة فيّاض ع. الموجود في الدانمارك، والذي يرسل التبرعات على حسابات سرّية إلى لبنان. أما التمويل الداخلي فيأتي من جمع التبرّعات داخل المخيّم ومن أموال الزكاة.

وتنظيم جند الشام هو عبارة عن ثلاث مجموعات قتالية تابعة لكل من أسامة الشهابي، وعماد ياسين، وغاندي السحمراني. وبعد مقتل ابن مؤسّس عصبة

---

(٢٥) يؤكّد أحد القياديين في الحركة الإسلامية المجاهدة في لقاء خاص أن السلطات اللبنانية برّأت العرقوب بعد القبض عليه ومحاكمته.

(٢٦) يؤكّد أبو شريف في لقاء خاص أن عصبة الأنصار لا تعتمد أية تقنيات في التزوير، وأنها تعتمد الوثائق الشرعية حتى في أعمال نصرة الجهاد، وانتقال المجاهدين بين سوريا ولبنان، وهم يدخلون إلى العراق تهريباً عبر الحدود.

الأنصار، عبدالله هشام الشريدي، انطلق الشبان الثلاثة في عملية تأسيس «جند الشام»، وخصوصاً أن تنظيم الشريدي «عصبة النور»، انتهى مع مقتله.

وكان تنظيم جند الشام دائماً مصدر توتّر في حيّ التعمير على طرف مخيم عين الحلوة، ولطالما وقعت اشتباكات بينه وبين الجيش اللبناني، أو التنظيم الشعبي الناصري، التابع لأسامة سعد، أو حركة فتح.

ويحافظ تنظيم جند الشام على اتصالات مقبولة نسبياً مع تنظيم القاعدة في لبنان، كما كانت لأسامة الشهابي اتصالات مع شهاب قدّور (أبو هريرة)، سواء حين كان قدّور يعمل ضمن عصبة الأنصار أو حتى بعد انتقاله إلى تنظيم فتح الإسلام. وكان قدّور قد أرسل إلى أسامة الشهابي مبلغ عشرة آلاف دولار أميركي، لتحسين وضعه المادي. وتسرّبت هذه المعلومات إلى منير المقدح الذي علم أن مصدر هذ الأموال هو المدعو شاكر العبسي في الشمال، والغاية منها تقوية فتح الإسلام في عين الحلوة. عندها حذّرهم المقدح بأنه لن يسمح لفتح الإسلام بالانتشار في مخيم عين الحلوة. وكان أحد أسباب هذا التمويل هو التحضير لضرب قوات الطوارئ الدولية في الجنوب.

وبعد انتشار الخبر عبر وزير الدفاع اللبناني الياس المر، الذي أعلن توافر معلومات تتعلق بتخطيط مجموعات في مخيم عين الحلوة لضرب القوات الدولية في الجنوب، اتصل شاكر العبسي بأسامة الشهابي وأنّبه على تسريب هذه المعلومات، وخصوصاً بعد تداول معلومات تفيد أن الشهابي سبق أن رصد تحركات القوات الدولية في الجنوب. وكان ذلك قبل شهرين فقط من معركة نهر البارد.

في غضون ذلك كان شهاب قدّور يستقبل العديد من المجموعات الوافدة من سوريا ومن مطار بيروت والمرافئ، ويؤمّن نقلها إلى مخيم نهر البارد، حيث تقيم في محيط منزل الفلسطيني أحمد ل.، الذي يقع في حي لوبي داخل المخيّم، بينما يتم رصد المنطقة من منزل أحمد ل.، المزوّد بأجهزة اتصالات دولية متطورة من نظام راكيل البريطاني الصنع وبكاميرات مراقبة وأجهزة تنصّت وتشويش. وكان هذا المنزل يستخدم لإجراء الاتصالات مع مسؤولين من القاعدة

في سوريا ولبنان والأردن والعراق، وهو محطة لمنتصر ن. أحد القياديين في القاعدة المولود في الأردن والمقاتل السابق في أفغانستان والذي يتردد إلى المنزل حين عودته من رحلاته إلى بريطانيا وفرنسا للتنسيق مع القيادي الجهادي في باريس خاصة السوري إياد ج.

وتحوّل شهاب قدّور إلى مدير شبكة دعم كبيرة مع التطورات التي كانت تعيشها فتح الإسلام في منتصف آذار/ مارس، وصولاً إلى نيسان/ أبريل من العام ٢٠٠٧، حيث كان يدير أيضاً عمل الفلسطيني عمر س.، المقيم في مخيم البارد، في تأمين الأسلحة والذخائر لمصلحة فتح الإسلام. وكان عمر س. يعمل على تهريب الأسلحة من الداخل السوري عبر الطرقات والمعابر غير الشرعية إلى لبنان، وذلك بالتعاون مع الجهادي السوري محمود أ. الذي يعرف المناطق اللبنانية جيداً، ويتردد دائماً إلى القرى والبلدات السورية الحدودية في الشمال وعلى اتصال دائم مع مجموعات وخلايا فلسطينية داخل مخيم البارد، وهو من أنصار الشيخ الجهادي السوري الكردي محمود غول أغاسي[٢٧]، الملقّب بأبو القعقاع.

كما أشرف قدّور على عمل الجهادي اللبناني أحمد أ. الساكن في وادي خالد في عكار، والذي نفّذ عمليات تهريب لمقاتلين من الحدود السورية نحو لبنان عبر طرقات فرعية غير شرعية، وتأمين نقلهم إلى مخيمات البارد والبداوي وعين الحلوة وبرج البراجنة.

وكان قدّور بداية هو من تابع العمل مع ناصر إ.، الذي سيكتسب لاحقاً ثقة شاهين شاهين، ويعمل عبره. وفي المرحلة الأولى أمّن ناصر إ. العديد من شحنات الأسلحة، ثم تحوّل في وقت لاحق إلى العمل على تأمين زوارق مطاطية وزوارق من نوع زودياك لمصلحة فتح الإسلام، وتم وضعها في استراحة البارد التي يملكها الفلسطيني خالد ل. الملقّب بخالد الوحش. وكان وضع هذه الزوارق

(٢٧) اغتيل أبو القعقاع على باب مسجد الإيمان في حلب في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٨/ أي بعد ٢٦ يوماً من نهاية حرب البارد في لبنان.

في عهدة خالد الوحش لتجنّب أعين الفضوليين، فمن المعروف أن مخيم نهر البارد يعيش على تجارة التهريب، وأن الوحش نفسه أحد أهم المهرّبين هناك، ومن الطبيعي لمهرّب معروف امتلاك الزوارق، وهو يعمل في تهريب الدخان بشكل علني، إلا أن تعاونه مع فتح الإسلام أدّى أيضاً إلى تسهيل دخول الجهاديين إلى المخيّم عبر البحر، كما تكفّل بنقل العديد من المتطوعين من مخيم البارد إلى مخيم عين الحلوة عبر صيدا حيث خضعوا لدورات قتالية تدريبية.

في منتصف نيسان/ أبريل من العام ٢٠٠٧ وصلت إلى مخيم عين الحلوة مجموعة لوجستية من تنظيم القاعدة، تنحصر مهمتها في إدارة الموارد البشرية، وتنظيم دورات تدريبية على فنون التزوير والتزييف، بعد أن أصبحت عملية نقل الوثائق المزوّرة عبر الحدود محفوفة بالمخاطر. وكانت المجموعة اللوجستية تعمل على إدارة الخلايا القاعدية في لبنان وعدد من الدول في المنطقة، وقامت بتدريب عدد من المتخصصين اللبنانيين والفلسطينيين على فنون تزوير الهويّات وجوازات السفر.

وقد ضمّت هذه المجموعة: الفلسطيني بلال ز.، الملقّب بأبو الفاروق، وهو قائد المجموعة؛ اللبناني جهاد ض.، شارك في أحداث الضنّية كما شارك في معارك أفغانستان إلى جانب حركة طالبان، وتلقى دورات أمنية في مزرعة في منطقة القريتين قرب حمص في سوريا على أيدي مسؤولين في تنظيم القاعدة؛ سليم ح.، وهو يتنقل بجواز سفر سعودي مزوّر باسم فهد محمد حسن الخادم اليماني[٢٨]، ويحمل هويّة مزوّرة خاصة باللاجئين الفلسطينيين في لبنان باسم حسن ع.، زار سوريا عدة مرات والتقى في تركيا المسؤول الأصولي في القاعدة علي ح.، الملقب بأبو بكر عقيدة؛ والسوري أحمد ع.

ويشرف على عمليات التواصل بين هذه المجموعة والتنظيم مهندس الكومبيوتر والاتصالات السوري فيصل ع.، الذي يتحرك بأسماء مستعارة منها

(٢٨) فهد اليماني هو أيضاً اسم مزيّف استخدمه في وثائقه المزوّرة السعودي المسجون ضمن شبكة الـ١٣ فيصل أكبر.

أحمد خالد السباعي (أبو جميل) وهو من وضع أنظمة اتصالات مشفّرة لضمان سرّية الاتصال بين المجموعة والتنظيم الأم. ويتلقى فيصل ع. الرسائل الإلكترونية التي تصل من خلال مجموعات القاعدة في العراق والأردن والسعودية والكويت والدانمارك وألمانيا والسويد، ويقوم بتحويل الرسائل إلى الجهات المحددة وفق ألقاب وعناوين وهمية مشفّرة واستخدام لغات ولهجات ومصطلحات متعارف عليها. كما زوّد التنظيم المجموعات المتدرّبة على التزوير بمعدّات تقنية متقدمة وأجهزة طباعة ليزر، لتمكينها من القيام بمهماتها دون الحاجة إلى مساعدة خارجية، وعُززت جميع الوحدات بالأجهزة اللازمة من أجل تمكين كل خليّة قاعدية من التصرّف وتأمين أوراقها المزيّفة بمفردها.

وقبل شهر واحد من معارك مخيم نهر البارد كان تنظيم القاعدة قد استأجر العديد من الشقق السكنية في عدد من المناطق في بيروت وضواحيها، وخصوصاً في المناطق المسيحية، لإبعاد الشبهات، كما راكم الخلايا اللبنانية في بلدات البقاع الغربي، والشمال، وإقليم الخروب، البقاع الشمالي، وعزز مجموعاته بالأسلحة الرشاشة، والقنابل اليدوية والمتفجرات وصواريخ اللاو المضادة للدروع.

وتكفّل القيادي الفلسطيني في تنظيم القاعدة، والمعروف باسمه المستعار جلال أحمد، بعملية توزيع الأموال على مسؤولي خلايا القاعدة في لبنان بعد تسلّمها من أحد علماء الدين في عين الحلوة، واعتمد أسلوب سحب الأموال من بطاقات «الماستر كارد» من قبل عناصر القاعدة من الصرّافات الآليّة أمام المصارف وبمبالغ صغيرة كل مرة تجنّباً للفت الأنظار.

وتولّى عدد من القياديين اللبنانيين في التنظيم الدولي شراء أسلحة وذخائر ابتداءً من شهر آذار/ مارس، من تجار سلاح لبنانيين وخصوصاً في منطقة بريتال، في البقاع، ومن تجار السلاح في بلدة طاريّا، وغيرها، وكانت إحدى المجموعات التي تسلّحت بهذه الطريقة هي تلك التي أعلن أنها نفّذت عملية تفجير باصات «عين علق» في ١٣ شباط/ فبراير ٢٠٠٧.

كان يجب الانتظار حتى بداية شهر أيار/ مايو من العام ٢٠٠٧ لمعرفة ما الذي

يحصل في الشمال[٢٩]. إذ على الرغم من كل المؤشرات لم تكن السلطات الأمنية تدرك ما يجري حولها، وقلة هم الذين علموا حينها بما حصل، وبما كان يتم الإعداد له، حيث انتشرت مجموعات جهادية في عدد من المناطق الشمالية بغية التدريب بين شهرَي شباط/ فبراير وآذار/ مارس من العام ٢٠٠٧، وخصوصاً في منطقة الضنية الجبلية الوعرة والمشرفة على الساحل الشمالي وصولاً إلى المناطق الساحلية السورية. وأقامت هذه المجموعات معسكرات في منطقة جبال الأربعين في الضنّية، ووادي الإجاص شرق إيزال، واستمرت المعسكرات مدة أسبوعين أو أكثر. وكانت هذه المجموعات قد استصدرت تراخيص من الهيئات المدنية المشرفة على تنظيم المنطقة، مما يعيدنا مجدداً إلى حكاية الغطاء السياسي الذي كانت تتمتع به هذه المجموعات الجهادية، وخصوصاً أن التراخيص أتت تحت مسمّى معسكرات كشفية، وأن المنطقة في آخر فصل الشتاء يستحيل الإقامة فيها من قبل مجموعات كشفية، فهي شديدة البرودة، ومغطاة بالثلوج، وشديدة الوعورة، وتتطلب تجهيزات خاصة، وكمّيات كبيرة من المحروقات لوسائل النقل ووسائل التدفئة، ونوعيات خاصة من الأغذية.

وبدأت تظهر أيضاً مجموعات جهادية في مناطق المنية وعكار إضافة إلى الضنّية وبرقايل، وعزاقير، وهي بقيادة اللبناني جميل س.، الذي يعمل بإشراف اللبناني علي ح.، الملقب بأبو بكر عقيدة، وهو من أبرز قياديي القاعدة في لبنان.

وفي منطقة البقاع الغربي تصاعد نشاط الجهاديين في بلدات: لالا، المرج، كامد اللوز، مجدل عنجر، حيث كان يقود الخلايا وينسق أعمالها اللبناني أحمد ص. وكانت هذه المجموعات تتحرك بكثير من الحرية، وتعقد اجتماعاتها في المساجد في المناطق التي تعيش فيها، وتنسّق نشاطها مع مساجد في المنطقة، كما أقامت هذه المجموعات عبر منسّقها علاقات عمل ونشاط مع مجموعات

(٢٩) سبق للكاتب أن نشر في صحيفة «الأخبار» في نهاية شهر نيسان/ أبريل من العام ٢٠٠٤ تحقيقاً في أربع حلقات تضمّن استعدادات فتح الإسلام العسكرية.

جهادية داخل سوريا، معروفة تحت مسمى «جند الشام»[٣٠]، وكان الصانع يزور سوريا للقاء أحد القياديين في «جند الشام» السوري وهو من أصل عراقي ويُدعى سميح ن. الملقب بالشيخ أبو همدر.

وأنشأ الجهاديون في البقاع شبكة واسعة، وخزنوا السلاح والذخائر في جرود منطقة السلطان يعقوب، في مخابئ خاصة وسرّية.

ونشط في تلك الفترة أيضاً خط التهريب من سوريا إلى لبنان، حيث بدأت عناصر من حركة الإخوان السورية ومن قوى جهادية سلفية تدخل إلى لبنان بمعيّة أو بتسهيل من اللبناني عبد الله ح.، الذي أمّن دخول جهاديين من مختلف الجنسيات إلى مخيمات في الشمال والجنوب، وتم تدريب العناصر السورية خاصة في مخيم عين الحلوة.

وتولّى عبد اللّه ح. السلفي الانتماء والذي تربطه علاقات واضحة بتنظيم القاعدة، التنسيق مع المجموعات القتالية القريبة من الإخوان المسلمين في سوريا، كما ساعد هذه المجموعات على تأمين وثائق وجوازات سفر مزوّرة وتأمين إقامة لهم في لبنان.

علاقات وروابط خطرة

تصل سيدة غير محجّبة إلى مطار بيروت الدولي، وهي تحمل جواز سفر سعودياً عليه اسم كافٍ لإثارة الرعب في عناصر الأمن العام: «بن لادن»، إنها إحدى شقيقات الشيخ أسامة بن لادن، إلا أن القوى الأمنية اللبنانية تدع السيدة تدخل الأراضي اللبنانية، إذ لا شبهات حولها، ولا مذكرات بحث وتحرّ ضدها. وتدخل السيدة إلى البلاد، حيث تتردد إلى مالك صيدلية لبيع الأدوات الزراعية من جنوب لبنان، وتقضي فترة في البلاد قبل أن تغادر لبنان بطريقة شرعية كما دخلت، وهي بكل الأحوال ليست المرة الأولى التي تدخل فيها السيدة بن لادن إلى لبنان لزيارة أصدقاء لها تعرفت عليهم من جولاتها حول العالم.

(٣٠) وهي المجموعات التي اعتقل جزء منها في عملية الضنّية على الجانب السوري في العام ٢٠٠٠، ولا علاقة لها بتنظيم جند الشام الموجود في مخيم عين الحلوة.

وقبل أيام من معارك مخيم نهر البارد كان تنظيم القاعدة قد بدأ العمل على حصد استثماراته في لبنان، ليس على مستوى العمل في أوروبا ومناطق مختلفة من العالم فحسب، بل على صعيد نقل المقاتلين الذين حصلوا على تدريبات عالية المستوى إلى الجبهة المشتعلة في العراق. ووصل إلى لبنان القيادي السعودي في تنظيم القاعدة، خالد ح.(٣١)، وكان قد أنهى زيارته إلى سوريا حيث التقى عدداً من القياديين الجهاديين في منطقة الرقّة، قبل أن يدخل لبنان بجواز سفر سوري مزوّر باسم الأرمني جورج آرتين أتاميونيان.

وفور وصول خالد ح. إلى لبنان، بدأ بعقد لقاءات واجتماعات مع خلايا ومجموعات جهادية في مخيمات عين الحلوة، ونهر البارد، وبرج البراجنة، كما التقى بعض القياديين اللبنانيين في عدد من المناطق اللبنانية. وكانت نتيجة زيارته إلى لبنان تجنيد عدد من المجموعات والمقاتلين للانتقال نحو العراق وإلى دول أخرى.

وفي ذاك التاريخ غادر لبنان القيادي في القاعدة نور الدين ط.(٣٢)، في مهمة أمنية تشمل كلاً من بريطانيا وألمانيا وإيطاليا، بعد أن وعد بالعودة إلى لبنان في وقت لاحق. إلا أن معارك نهر البارد غيّرت مشاريع نور الدين الذي كان قد زار المخيّم قبل أسبوع من المعارك، كما تجول في مناطق الضنّية، والتقى عدداً من القياديين الجهاديين في مخيم عين الحلوة، وبرج البراجنة، وكان برفقة القيادي التونسي عبد المؤمن م. الذي بقي في مخيم نهر البارد مع بداية المعارك. وتكفل نور الدين قبل مغادرته لبنان، وبصفته أحد الممولين للجهاديين في لبنان، بدراسة مشاريع صحية وثقافية في مخيم عين الحلوة على أن يتابع سير إنشائها بعد عودته، حيث يمكن لتنظيم القاعدة الاستفادة من هذه المراكز على المستويات التأهيلية التدريبية والأمنية على السواء. علماً أن نور الدين من الممولين لخلايا ومجموعات للقاعدة في دول أوروبية وأميركية، ولديه أرصدة مالية باسمه في المصارف الأجنبية واللبنانية والعربية.

---

(٣١) من مواليد العام ١٩٦٣ ومن المقرّبين من أسامة بن لادن شخصياً.

(٣٢) من مواليد تونس ١٩٦٩، ويحمل جواز سفر نمساوياً.

بعد ذلك وصلت إلى لبنان مجموعة من القياديين في القاعدة من قسم العمليات الخارجية في التنظيم الدولي، وذلك في زيارة إطارها البحث عن الكفاءات المحلية لإرسالها إلى عدد من الدول الغربية، لتكون بمثابة خلايا نائمة هناك. وكان الواصلون يحملون كالعادة جوازات سفر مزوّرة، وهم: محمد م. (يمني) بجواز سفر نمساوي؛ وعبد الله م.، من مواليد النمسا، بجواز سفر تركي؛ وعبد الرحمن ح.، من مواليد النمسا، بجواز سفر نمساوي.

وعقد هؤلاء اجتماعاً هاماً في مخيم عين الحلوة ضمّ إليهم عدداً من القياديين الجهاديين، والشيخ الجزائري فتحي آ.، والمصري مصطفى إ.

وتقرّر في هذا الاجتماع دعم المنظمات الجهادية الفلسطينية بالمال والعتاد، وفتح حسابات مصرفية سرّية في عدد من المصارف، تُستخدم للتحويلات المالية التي تجري باسم أشخاص ومؤسسات تجارية وهمية، وتكثيف دورات التدريب لمجموعات وخلايا جهادية بإشراف مدرّبين من عصبة الأنصار وفق برامج تدريب عسكرية حديثة أعدّها مدرّبون واختصاصيون عسكريون في تنظيم القاعدة، وإنشاء خلايا ومجموعات جهادية تابعة لتنظيم القاعدة وفق نظام عمل القاعدة وخصوصاً لناحية البناء الهرمي العنقودي مع الحفاظ على أشد تدابير السرّية في العمل، وإيجاد شقق وأماكن للخلايا الجهادية في مناطق لبنانية مسيحية على سبيل التمويه، وتزويد المجموعات الجهادية بآلات طباعة حديثة تعمل باللايزر لتزوير أوراق ثبوتية وجوازات سفر لاستخدامها في العمل.

وكانت عصبة الأنصار قد بدأت منذ شهر نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٧ بتطوير قدراتها على هذا الصعيد وكرّست عدداً من مجاهديها لتعلّم الطرق الحديثة في التزوير بإشراف خبراء منهم: مزعل ع. (أردني)، وعبد السلام ف. (باكستاني)، وإبراهيم ح. (فلسطيني)، وحسن ج. الملقب بحسن حكيم، وهو من أشهر المزوّرين (فلسطيني).

ومع بدء المعارك في مخيّم نهر البارد تكثفت حركة وصول المجاهدين إلى لبنان، وسجّل في يوم واحد وصول ثلاثين عنصراً من جنسيات سودانية،

وعراقية، وأردنية، ومصرية، دخلت البلاد عبر التهريب من الحدود السورية اللبنانية والتحقت هذه العناصر بتنظيم «فتح الإسلام».

وتخلّى العشرات من أتباع الجمعيات الدينية السلفية عن قياداتهم، أو تواطأوا معها والتحقوا بالمحاصرين داخل المخيّم، أو جنّدوا أنفسهم خارجه في مواقع سرّية في محيط مدينة طرابلس وداخل أحيائها الفقيرة، وانتظروا ساعة التمكن من الانقضاض على القوى الأمنية، إلا أن ما كانوا بانتظاره لم يحصل، إذ اعتقدوا أن قوات الجيش اللبناني ستنشغل من ناحية في معارك مخيم نهر البارد وستعطي ظهرها للمدينة، ومن ناحية ثانية ستحاول قوات الجيش اقتحام المخيّم ضربة واحدة. ومع إجراءات المداهمات والتدابير الأمنية المكثفة التي شملت كل الشمال وطول المعارك التي لم يبد فيها الانزعاج على المحاصرين داخل مخيم نهر البارد، خفّت حدّة استنفار المجموعات الجهادية في أنحاء الشمال، ووقع بعضها في يد الجيش اللبناني والقوى الأمنية، بينما نجح معظمها في فك استنفاره والعودة إلى الحياة الطبيعية والنشاط السلمي مع انقضاء الأسابيع الأولى من المعارك.

وفي بدايات المعارك أيضاً شرعت أكثر من اثنتي عشرة خلية نظامية تابعة لتنظيم القاعدة، أو من خلايا فتح الإسلام، تتحرك في طرابلس بانتظار ساعة الصفر لمؤازرة المحاصرين في نهر البارد وذلك من خارج المخيّم. ونصح بعض القادة الأمنيين مسؤوليهم السياسيين بالبحث عن تسوية ما تحفظ للجيش ولقوى الأمن الداخلي هيبتهما.

وخلال الثماني والأربعين ساعة الأولى من المعارك كان الأردني محمد نزّال الخلايلة، وهو شقيق فضل نزّال الخلايلة (أبو مصعب الزرقاوي)، قد دخل إلى مخيم نهر البارد وسبق لهذا القيادي في تنظيم القاعدة أن انتقل من العراق عبر سوريا إلى لبنان مع مجموعة تضمّ ١٢ عنصراً من جنسيات مختلفة في منتصف شهر نيسان/ أبريل من العام ٢٠٠٧.

وكان الخلايلة قد التحق بتنظيم القاعدة بعد مقتل شقيقه، والتقى الدكتور أيمن الظواهري عدة مرات، بناء على طلب الأخير، الذي أقنعه بمتابعة طريق شقيقه أبو مصعب الزرقاوي، وأرسله لهذه الغاية إلى باكستان للخضوع لدورات عسكرية

مكثفة في مناطق جبلية ، على أن يتابع دورات في التفجير وحرب العصابات في المخيّمات الفلسطينية في لبنان، قبل تكليفه مهام خاصة في الأردن.

ولكن مع بدء الاشتباكات كان شقيق الزرقاوي، قد أصبح في مخيم نهر البارد للمشاركة في العمليات الحربية الدائرة ما بين الجيش اللبناني وفتح الإسلام. وسيكون إلى جانب أحد أهم الشخصيات التي ستتصل في مرحلة لاحقة إلى المخيّم.

ولم يكن الخلايلة أهم الشخصيات التي دخلت إلى المخيّم، بل برزت خلال تلك الحقبة عدة شخصيات على درجة رفيعة من الاحترام بين الجهاديين، ويمكن سماع أنبائها تتردد هنا وهناك حتى اليوم. وكان أحد الشخصيات التي ظهرت فجأة من العدم تقريباً في مخيم نهر البارد شاهين شاهين، الشاب المتواضع، الذي كان يجيب في البداية على رقم شاكر العبسي الشخصي.

في أحد الاتصالات التي أجريت مع رقم شاكر العبسي ردّ علينا هذا الشاب، بصوت تشوبه بعض العبارات العراقية، ولا يمكن إخفاء لكنته الخليجية أيضاً، ومقدّماً نفسه على أنه «مرافق الأخ أبو حسين» وأنه جاهز لمساعدتنا ما أمكنه ذلك.

كان شاهين شاهين يحرص دائماً على التحدث بهدوء، ويدعو محدثه للدخول إلى المخيّم، وسبق أن وعد بتأمين مجموعة واسعة من الصور من داخل المخيّم، إلا أن ظروف الحصار لم تسمح باخراج هذه الصور. وشاهين دقيق في حساب زمن المخابرات الهاتفية، يعلم يقيناً عدد الدقائق اللازمة لإنهاء المكالمة قبل أن يتمكن الجيش اللبناني من تحديد مصدر الإشارة الخلوية الصادرة عن جهازه وتوجيه نيران مدفعية الهاوتزر تجاه الموقع الذي يتحدث منه. ويحرص شاهين على إعطاء معلومات دقيقة، ويعدّد القتلى من فتح الإسلام بحيادية، ويعطي أرقاماً تقريبية للجرحى، كما يتوخّى أقصى ما أمكنه من الدقة في تعداد قتلى القوى اللبنانية، ويرفض إعطاء تفاصيل عن نفسه لمحدّثه.

وحين يدخل أحد المفاوضين إلى مخيم نهر البارد، كان يجلس وينتظر حتى يدخل عليه شاب والتعب باد على محياه، وعلى ساقه رباط يضمّد جرحه، ويقول

«أنا شاهين شاهين»، ويعلن أمام المفاوض «أن تنظيم القاعدة يعتبر أنه تم توريطه في هذه المعركة». ويستند الداعية فتحي يكن حينها إلى هذه العبارة ليقول إن من يواجههم الجيش اللبناني هم تنظيم القاعدة ولا أحد آخر.

ومنذ برز اسم شاهين شاهين كأحد المسؤولين عن إدارة العمليات العسكرية لـ«فتح الإسلام» في مخيم نهر البارد، وتولّيه مهمّة التحدّث باسم التنظيم والتفاوض مع لجنة علماء فلسطين ومع غيرها، انشغلت الأجهزة الأمنية اللبنانية في محاولة اكتشاف هوية هذا الرجل، الذي ظهر على حين غرّة ومن العدم، وصار متصدراً العمليات العسكرية والتفاوضية على السواء. وتوارى حينها ذكر شاكر العبسي وشهاب قدّور وأبو سليم طه.

وأرسلت إحدى الجهات الأمنية اللبنانية برقية عاجلة في منتصف شهر حزيران/ يونيو من العام ٢٠٠٧ عُمّمت على عدد من الأجهزة الأمنية والمقرّات العسكرية وعلى بعض المسؤولين الأمنيين، لمعرفة هويّة هذا الرجل. وبعد طول تدقيق تأكدت الجهات الأمنية اللبنانية أن شاهين شاهين هو ابن الشيخ أسامة بن لادن، وأن الشاب تمكن من الدخول إلى المخيّم المحاصر بعد أيام من بداية المعارك والهدف من دخوله إلى المخيّم هو إدارة العمليات العسكرية.

ابن أسامة بن لادن هذا هو سعد أسامة بن لادن، وكان قد وصل إلى لبنان في شهر نيسان/ أبريل من العام ٢٠٠٧، عبر الحدود السورية اللبنانية تهريباً بمساعدة أحد القياديين الجهاديين اللبنانيين علي ح.[٣٣] الذي تولّى تأمين انتقاله إلى مخيّم نهر البارد.

وكان سعد بن لادن قد أمضى عقب وصوله إلى لبنان فترة في منطقة البقاع الغربي لدى أحد الناشطين الجهاديين، وانتقل بعدها إلى إحدى البلدات الشمالية في منطقة عكار. وقد جاء إلى لبنان مكلّفاً من القيادي في القاعدة أبو مصطفى اليزيد[٣٤] بالإشراف على الخلايا النائمة التابعة للتنظيم الدولي للقاعدة في لبنان،

---

(٣٣) من مواليد القرعون، ومطلوب للسلطات اللبنانية بتهمة المشاركة في أحداث الضنّية عام ٢٠٠٠، يقيم في منطقة جبلية في تركيا.

(٣٤) كان من أبرز مسؤولي المحاسبة والشؤون المالية في إحدى شركات أسامة بن لادن في السودان.

وخصوصاً بعد أن تحوّل سعد بن لادن إلى أحد أبرز المسؤولين التنفيذيين في فرع العمليات والأنشطة الخارجية للقاعدة.

وقد شرع سعد بن لادن فور وصوله إلى لبنان بتركيب وتنظيم خلايا أمنية للقاعدة بالتنسيق مع شهاب قدور (أبو هريرة)، ومع عدد آخر من المسؤولين الجهاديين، والمتحالفين مع القاعدة في لبنان، كما أشرف سعد بن لادن على عمليات نقل الذخائر إلى مخيم نهر البارد، وخصوصاً تلك الصفقات التي كان يجريها الفلسطيني ناصر إ.، وهو من تجار السلاح ومن أبرز الناشطين الجهاديين.

وكانت قيادة الجيش قد أعلنت مقتل شاهين شاهين، إلا أنه لم يتم التأكد من الخبر من مصدر مستقل، كما لم يتم نعي الشاب الذي دخل المخيّم تسلّلاً والأرجح أنه إما قُتل في نزاع بينه وبين شاكر العبسي، أو تمكّن من الفرار مع المجموعات التي انسحبت في نهاية المعارك.

ولم ينقض شهر حزيران/ يونيو من العام ٢٠٠٧ من دون انكشاف مجموعة أخرى من مجموعات القاعدة في لبنان، إذ ألقت القوى الأمنية اللبنانية القبض على زوجة كمال ط.، الملقب بأبو عمر، والمقيم في دوحة عرمون، والمتأهل من شقيقة أمير تنظيم القاعدة في منطقة الموصل في العراق. وتم التحقيق مع زوجته مدة أسبوعين قبل أن يطلق سراحها.

ويعتبر كمال ط. من القياديين في تنظيم القاعدة في العراق، ويتم الاتصال به عادة بإجراءات أمنية خاصة عبر استخدام خطوط خلوية لفترات قصيرة قبل حرقها. وهو يساهم في إمداد بعض المنظمات في لبنان بالأسلحة والعتاد والمعدات التقنية المتطورة، وكان من الذين عمدوا إلى وضع بنك للأهداف بغية توجيه ضربات لها إذا ما قررت القاعدة تنفيذ عمليات في لبنان، إلا أن معارك نهر البارد والتسرّب المعلوماتي الطبيعي بعد أحداث مشابهة، أدّت إلى اعتقال زوجته. وربما كان كمال ط. أحد المساهمين في عمليات ضرب اليونفيل، كما في تفجيرات حصلت في مناطق مختلفة من لبنان.

قبل سجن شاكر العبسي في سوريا مدة ثلاثة أعوام حاول تجنيد بعض العناصر داخل حركة فتح وخارجها واستطاع إقناعهم بالعمل معه شخصياً. وبعد

خروجه من السجن وإبعاده استقر فترة في معسكرات البقاع الغربي وتعرّف إلى مخازن الأسلحة هناك ثم انتقل إلى مخيم عين الحلوة، ثم إلى مخيم نهر البارد بعد أن وجد أن فكره ينمو هناك بسبب المحيط السلفي السنّي في طرابلس وسيطرة «فتح الانتفاضة» على المخيّم حيث كان لديه أنصار ومؤيدون في هذه الحركة. وكان العبسي قد بدأ يعيش التحول نحو الفكر السلفي الجهادي عملياً داخل السجن في سوريا.

وبعد وصول العبسي إلى مخيم نهر البارد أتته زيارة مفاجئة، لم تكن بلا تمهيد، ولكن لم تكن أيضاً من ضمن يوميات المخيّم أو العبسي نفسه الذي لطالما كان مطارداً في المرحلة الأخيرة من حياته، والمطلوب للسلطات الأمنية بعد مقتل جندي من الجيش اللبناني في البقاع، إذ استقبل العبسي أحد نوّاب الشمال الذي دخل إلى المخيّم للقائه. وقال النائب لأبو حسين: «إن لدى حزب الله نيّة لضرب السنّة في لبنان ونحن مستعدون لمساعدتكم شرط الوقوف مع السنّة والدفاع عنهم»، فأجاب العبسي: «أنا لا أريد أن أقاتل حزب الله طالما أنه يقاتل إسرائيل، لكن إذا تعرّض للسنّة فسأقاتله»، فقال النائب: «هذا ما نريده». وتم الاتفاق بينهما وكان ضمن بنوده حصول تنظيم فتح الإسلام على موازنة شهرية وبطاقات خاصة من بعض الأجهزة الأمنية لتسهيل تنقّلات عناصره مع أسلحتهم.

في نيسان/أبريل من العام ٢٠٠٦ فرضت السلطات السورية الإقامة الجبرية على القيادي في حركة «فتح الانتفاضة» أبو خالد العملة، ومنذ ذلك الحين بدأت السلطات السورية الأمنية العمل على قناتين، الأولى هي محاولة التخلّص من عناصر فتح الانتفاضة الذين تحولوا بولائهم إلى شاكر العبسي ومن خلفه، والقناة الثانية هي محاولة اختراق تنظيم شاكر العبسي نفسه، لسبر أغوار هؤلاء الغرباء المرتبطين بالقاعدة. وأدّت العمليات الأمنية على القناة الأولى إلى وصول المجموعات المرتبطة بفتح الإسلام، ومجموعات قاعدية بكثافة إلى الأراضي اللبنانية. وأما على القناة الثانية فلم تصل الأجهزة الأمنية السورية إلى تحقيق إنجازات عدا عن الاطلاع عن كثب على ما تقوم به مجموعات شاكر العبسي.

وكان من شأن التركيب المعقد لتنظيم فتح الإسلام، والمجموعات القاعدية

المرتبطة به والمتحالفة معه، إفشال قدرة أي جهاز أمني، لبناني أو سوري، على تكوين صورة متكاملة لما تقوم به المجموعات المختلفة في التنظيم، ولكن التركيبة المعقدة نفسها أدّت في لحظة خلل واحدة إلى انفجار الوضع في مخيم نهر البارد وخروج الأمور عن سيطرة تنظيم القاعدة الأم وعن رغبته.

كان شاكر العبسي قد تسلّم في العام ٢٠٠٢ قيادة القطاع الغربي في تنظيم «فتح الانتفاضة»، وهو القطاع الذي يشمل الداخل الفلسطيني المحتل في محور الجليل، واتخذ من منطقة حلوى في البقاع قاعدة لتجميع القوات والعتاد. وكان العبسي مقرّباً من أبو خالد العملة، وخصوصاً أنه كان من أوائل الضباط الذين تخلوا عن حركة «فتح» وانضموا إلى «فتح الانتفاضة» بقيادة أبو موسى سياسياً وأبو خالد العملة عسكرياً.

هذا الواقع سمح لشاكر العبسي بالتفرد في العمل في موقع حلوى، إلى حين وقوع الاشتباك مع الجيش اللبناني ومقتل رقيب في الجيش على أيدي عناصر الموقع. وكان سبق ذلك صدور حكم قضائي أمام المحاكم العسكرية السورية بحق شاكر العبسي في ٢٧ كانون الأول/ديسمبر العام ٢٠٠٢، قضى بسجنه ثلاثة أعوام مع الأشغال الشاقة، نظراً لارتباط العبسي بتنظيم القاعدة. وبعد إخلاء سبيل العبسي عاود ممارسة مهامه في فتح الانتفاضة، إلا أن أموراً كثيرة قد تغيّرت، وصار العبسي يمدّ أبو خالد العملة بالمال لقاء تسهيلات يقدّمها العملة لمصلحة عناصر كان يعتبرهم من فتح الانتفاضة أو مقاتلين عرب يرغبون في القتال في العراق، وكان العملة يردّد أمام من يسأله عن نشاطات العبسي «إن العبسي زلمتنا»، بينما كان العبسي يتموّل من القاعدة لتسهيل حركة الجهاديين في عدة اتجاهات داخل سوريا وعبرها.

وفي تحقيقات أجرتها سلطات الأمن السورية مع موقوفين من القاعدة اكتشفت هذه السلطات أن العبسي لا يزال يمارس نشاطاته على العكس مما كان يشاع، فهو قد طوّر علاقاته مع تنظيم القاعدة في المنطقة، ويعمل على تدريب وتجهيز وتسهيل حركة الجهاديين من التنظيم الدولي، ويستفيد من التسهيلات الممنوحة لتنظيم فتح الانتفاضة وأبو خالد العملة شخصياً لمصلحة القاعدة

وعناصرها بمن فيهم المتطوّعون السوريون. وصدرت بحق العبسي مذكرة توقيف سورية مرة ثانية في ٢٨ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٧، إلا أن العبسي كان قد فرّ من سوريا، وأصبح في لبنان على رأس مجموعات من تنظيم فتح الإسلام.

ولا يخفى أن ثمّة وجهة نظر لا تستند إلى الكثير من المعلومات وتنصّ على أن حركة فتح الإسلام تلقت الدعم المعنوي والحماية من النظام السوري، استناداً إلى أن العديد من عناصر فتح الإسلام سبق أن عملوا ضمن تنظيم فتح الانتفاضة.

كان أبو خالد العملة في تلك المرحلة يعيش أوضاعاً صعبة إذ تم تجميد نشاطه ومصادرة كل أملاكه من أبنية وشقق سكنية في سوريا قبل اعتقاله، ثم وضع في السجن فترة قصيرة، قبل أن يفرج عنه نتيجة إصابته بأزمة قلبية، ويوضع في الإقامة الجبرية، كما تم تجريد كل الكوادر المرتبطة بأبو خالد العملة من مسؤولياتهم ومن بينهم أبو فادي نمر حمّاد مسؤول لبنان في فتح الانتفاضة، وتم تعيين أبو خالد نمر في منصبه.

وكانت منظمة فتح الإسلام في المقابل تعيش ازدهاراً جعلها تؤلف مجلس شورى، وتضع خريطة من الأهداف أهمها: الإمساك بالساحة الفلسطينية والسيطرة على القرار الفلسطيني في لبنان، وتنفيذ مهمات أمنية ضد القوات الدولية والمؤسسات والسفارات الأجنبية وفق تعليمات القاعدة. وكشف شاكر العبسي عن دوره الماضي في العراق، حيث أتيحت له الفرصة للقتال مع الجيش الإسلامي قبل أن يتوجه نهائياً إلى لبنان.

وكانت الأجهزة الأمنية اللبنانية في تلك الفترة تواجه أوضاعاً صعبة ومعقّدة في ضبط أعمال العنف الأهلي، وأعمال الاغتيال والتفجيرات التي كانت تتمّ في العديد من المناطق اللبنانية، وفي هذا السياق جاءت مداهمة شقة شارع المئتين في طرابلس، والتي أدّت إلى انفجار المعركة في مخيم نهر البارد. كان الضابط في فرع المعلومات التابع لقوى الأمن الداخلي وسام عيد[٣٥] مزوّداً عند مداهمة الشقّة

(٣٥) قُتل في تفجير سيارة مفخّخة بـ ٦٠ كيلوغراماً من الـ«تي أن تي» يوم ٢٥ كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠٨ في منطقة الحازمية شرق بيروت.

بأجهزة تنصّت متطوّرة سمحت له برصد مكان وجود المجموعة المطلوبة، وهي مجموعة دعم للقاعدة في لبنان، وتعمل بحماية فتح الإسلام وبالتنسيق مع أحد أطراف التنظيم الجهادي، وكان ضمن هذه المجموعة أفراد مطلوبون للمملكة العربية السعودية بعد اعتقال بسّام حمّود في المملكة. وفي الاشتباك الأول مع المجموعة المحاصرة في شارع المئتين أصيب الضابط عيد في ساقه دون الإعلان عن إصابته في حينه.

وعلى حين غرّة تعرّضت قوى الأمن والجيش الذي يساندها لعمليات إطلاق النار من الخلف، حيث انتشر أكثر من دزينتين من المقاتلين الملثمين في منطقة الزاهرية، لتخفيف الطوق عن المجموعة المحاصرة، إلا أن معظم المقاتلين انسحبوا، وبقي أربعة فقط ليقاتلوا حتى الموت إلى مساء اليوم التالي في شوارع طرابلس. ثم انفجر الوضع في مخيم نهر البارد بعد قيام عناصر من «فتح الإسلام» بمهاجمة الجنود النائمين في مواقع يفترض أنها تطوّق المخيّم الفلسطيني، ويتم قتل ٢٧ جندياً من الجيش اللبناني، وهكذا اندلعت معارك نهر البارد التي استمرّت ١٠٦ أيام، وقُتل فيها ١٧٠ جندياً لبنانياً، و٤٧ مدنياً فلسطينياً، و٢٠٠ من عناصر «فتح الإسلام»[٣٦]، وجرى تدمير نسبة ٨٠ في المئة من منازل ٤٠ ألف لاجئ فلسطيني في المخيّم.

وبحسب المصادر التي تابعت العمليات العسكرية، والذين لعبوا دوراً في المفاوضات، فإن «فتح الإسلام» لم تنقطع يوماً عن الاتصال بالخارج برغم الحصار الذي فرضه الجيش اللبناني على المخيّم، كما أن التنظيم الأصولي تمكن من تهريب عدد من عناصره إلى الخارج وإدخال بعض العناصر والمعدّات إلى المخيّم. ولكن «فتح الإسلام» لم تحصل على صواريخ «غراد» إلا بعد طلب الجيش اللبناني من المنظمات الفلسطينية الانسحاب كلياً من المخيّم، وعدم موافقة الجيش اللبناني على سحب المنظمات الفلسطينية لأسلحتها، مما ترك هذه الأسلحة بيد عناصر «فتح الإسلام» الذين لم يوفّروا فرصة لاستخدامها.

(٣٦) نَعَتْ فتح الإسلام رسمياً ٩٨ من مقاتليها معلنة أنهم كل مَن سقط في حرب البارد.

من بغداد إلى بيروت

غروب العاشر من أيار/مايو العام ٢٠٠٧ توقّفت عربة هامفي أميركية وسط الطريق السريع الذي يربط بغداد بمطارها الدولي، واستدار البرج الصغير فوق العربة ليواجهنا ونحن على مسافة أقل من مئة متر عن العربة التي أخذت تتحرك وتقطع الطريق عرضاً وبات رشاشها من عيار ١٢,٧ يواجه سيارتنا، التي توقفت بعنف لحظة توقف العربة الأميركية.

«لا يمكننا العبور» قال السائق الذي يقلّنا من المطار دون مواكبة على سبيل عدم لفت الأنظار. سألته: «هل يمكننا العودة أو المرور ببطء قربها؟» فأجاب: «سيقتلوننا إذا ما تحركنا، سننتظر إلى أن يرحلوا». نسمع دوي انفجار، «هذه في المنطقة الخضراء» يقول السائق لبعث الطمأنينة في أنفسنا، ثم يشير إلى دخان يتصاعد من أمامنا، «هذه هي المنطقة الخضراء». وتتحرك عربة الهامفي من أمامنا فينطلق السائق بأقصى سرعة، فقد تجاوزنا المغرب والمجانين وحدهم يتحركون في وقت مشابه، المجانين والكلاب الشاردة التي تمر بقربنا ونحن ننزل أحمالنا على مدخل فندق فلسطين، هذه الكلاب التي تنظر نحونا باستغراب وكأنها تقول «ماذا تفعلون في الخارج بوقتنا الطبيعي؟»

ولكن لساعة خلت وضعنا ضبّاط الأمن العام العراقي على متن طائرة لترحيلنا من حيث أتينا، ثم أُفرج عنا وأنزلنا من على متن الطائرة، فاستقللنا سيارة أجرة متّجهين نحو فندق فلسطين لنمضي أول ليلة لنا في بغداد.

حين انفتحت أمامنا أبواب مطار بغداد الدولي وتُركنا لندخل إلى أرض العاصمة العراقية بعد ظهر ذلك اليوم القائظ كان في الذهن عام من العمل بين المجموعات الإسلامية اللبنانية، وهدوئها، ودرايتها بأنها إنما تخوض حرباً عالمية دفاعاً عن وجودها نفسه، ولكن شوارع بغداد، والغبار المتراكم، والدوريات المتنقلة بسرعة وعلى آخر عرباتها عبارة أصبحت شهيرة «خطر لا تقترب أكثر من مئة متر وإلا سنطلق النار»، هذه المشاهد الأولية، مضافاً إليها مشاهد حريق في أفق المغيب البغدادي، وأصوات انفجارات يقول سائقنا العراقي بأنها «عملية ما»،

كل ذلك يُنبئ بأن ما سيحصل في لبنان، عند أول منعطف، لن يكون بعيداً عن هذه الصورة.

في قاعة الانتظار قبيل الترحيل كان حمّال الحقائب يتحدث عن الإرهابيين العرب، ولا يستثنينا منهم «لطالما وصل إلى هذا المطار شبان عرب مثلكم، ودخلوا إلى بغداد، وبعد أيام فجّروا أنفسهم، العرب كلّهم إرهابيون»، ويوافق الحارس من شركة غلوبال البريطانية التي تلتزم أمن المطار، «أعرف العديد من العرب الذين وصلوا إلى العراق وفجروا أنفسهم ضد الشيعة».

العرب ممنوعون من نعمة دخول أرض العراق، ولا تغيّر السِّمة على جواز السفر من الأمر شيئاً، والدخول إلى العراق يتطلب موافقة وزير الداخلية إضافة إلى سمة الدخول. إلا أن حظنا الحسن وحده أنقذنا من العودة من حيث أتينا بخُفّي حُنين، وسمح لنا بالوصول إلى مقر الصحافيين الرئيسي في بغداد «فندق فلسطين» ومن هناك كان يمكن التحرك لعدة أيام، حيث أمكن التعرف إلى «نعيم» القاعدة في العراق، عبر المرافق اللطيف والمهذب، والذي يخبرك عن «شقيقه اللبناني».

الشقيق اللبناني لمرافقنا، أبو جواد، ترك العراق في العام ٢٠٠٤، وتوجّه إلى لبنان، حيث دخل خلسة، وعمل في تصفيف الشعر في أحد صالونات التزيين الرجالي في بيروت، ولمدّة عامين أقام في لبنان وتجول في مناطقه، وقد صبغ شعره باللون الأصفر ووضع عدسات لاصقة زرقاء، تماماً كما كان يفعل حسن نبعة، وابيضّت بشرته نسبياً، وهو من أبناء بغداد الأصليين، الذين لا يندر أن تلحظ أن لون بشرتهم يساعدهم على الاندماج والذوبان بين اللبنانيين، وحين عاد إلى بغداد لم يغيّر من مظهره، إلا أن القوات الأميركية داهمت منزله بحثاً عنه، ولكنه كان أسرع فاختفى قبل ساعات من عملية المداهمة، ولا يزال مختفياً.

يبتّسم مرافقنا اللطيف حين نسأله إن كان على اتصال بشقيقه اللبناني دون أن يجيب. ومع انقضاء الأيام في العراق، وتوطد الثقة بدأ المرافق يتحدث بوضوح: كان الشاب يقاتل ضمن مجموعات الأحياء في منطقة سكنه، حيث تساعد قوات القاعدة بتسليح السكان وتنسيق انتشاراتهم في مواجهة هجمات الميليشيات

الشيعية، وحين تسأل المرافق عن دور شقيقه في لبنان، يجيبك بغموض إنه كان ناشطاً في لبنان أيضاً.

ومن العراق تأتي المعلومات الأوّلية عن التعاون مع لبنانيين، يقدّمون خدمات رئيسية في عالم التقنيات، والأمن، والنقل، والتكنولوجيات. ويعلم أي مجاهد عراقي بأن التكنولوجيات التي يتم من خلالها تجاوز تشويش عربات الهامفي على الإرسال إنما يتم صنعها في لبنان، فهذا البلد مختبر إلكتروني للمجموعات الجهادية في العراق. وسيترابط هذا الكلام مع اعترافات الموقوفين في شبكة الـ١٣، التي يتزعّمها شاب لبناني قاتل في الفلّوجة أثناء حصارها الأول، ونجح في الفرار قبل أن يشكّل إحدى شبكات الدعم والإسناد التقني والمادي لقوات المقاومة العراقية. هذا الشاب هو حسن نبعة، الذي يرسم الأميركيون صورة تقريبية له عبر استنطاق معتقلين في سجونهم تعرّفوا إلى نبعة حين كان يقاتل بين صفوفهم وقبل أن يقع في قبضة فرع المعلومات اللبناني.

وقبل اكتمال الصورة العراقية والدخول إلى عالم الجهاديين هناك لمعرفة ارتباطه بلبنان، نضطر إلى الفرار والعودة إلى لبنان تحت ضغط محاولتي اختطاف، واحدة من أحد أجنحة تنظيم القاعدة نفسه، والثانية من قبل موظف في شركة أمنية كان يخطط لبيعنا إلى إحدى الميليشيات الشيعية. كما أن انفجار الوضع في مخيم نهر البارد شجعنا على مغادرة العراق نهائياً بدل تدبّر سكن بديل أكثر أمناً من فندق فلسطين وطرقاته المرصودة من قبل موظفي الامن الذين يفضّلون جني بضع مئات من الدولارات الإضافية على حماية مجموعات الصحافيين الذين لا يرون فيهم إلا راقصين فوق مأساة بلدهم.

أكثر من رابط يجمع ما بين العراق ولبنان، ولكن ليس في لبنان من يرغب في سماع الرواية الكاملة لما يحصل، والكل يفضّل ركوب موجة أسطورته المؤسّسة الخاصة، والبقاء ما حييَ مستلقياً فوق هذه الموجة التي تتكسر على الدوام بحاملها على صخور حروب أهلية ونزاعات محلية لا تتوقف في البلد إلا لتكرّر نفسها. وهذه المرة عندما يحين أوان انكسارها ستكون القاعدة إحدى التنظيمات الرئيسية اللاعبة بين أمواج وزبد الحطام اللبناني.

حين وصلت أولى مجموعات فتح الإسلام إلى مخيم نهر البارد، استشعرت الشخصيات الفلسطينية في المخيّم خطراً قادماً إليها مع عشرات الشبان الذين قطنوا أطراف المخيّم. لم تكن هذه القيادات تعرف الكثير عن شاكر العبسي أو أبو ليث أو غيرهما من الشبّان الصامتين الذين يتجوّلون في محيط المخيّم حاملين السلاح، وينتقلون أحياناً بين البارد ومخيّم البدّاوي، ويتلقّون زيارات من شخصيات دينية وسياسية طرابلسية من تيارات سلفية وسنّية معيّنة.

والقلق الذي ساور عدداً من القيادات الفلسطينية ما لبث أن نضج بعد أسابيع من وصول هذه المجموعات العربية واللبنانية التي تبدي لطفاً تجاه أطفال المخيّم، وحرصاً في التعامل مع الفلسطينيين من أهل البارد. فطلبت القيادات الفلسطينية في المخيّم الاجتماع مع قيادة المجموعات، ولبّى الدعوة شاكر العبسي ومعه بعض القياديين الشبان من حركته، يرافقهم عشرات من المسلحين الذين بقوا خارج مبنى الاجتماع.

خلال اللقاء الذي استمر ساعات، كان العبسي يقدّم نفسه بصفته مقاتلاً من حركة فتح، خدم في ليبيا كضابط طيّار إلى أن برز انشقاق داخل فتح، فاختار الانضمام إلى «فتح الانتفاضة»، وتابع مسيرته العسكرية فيها. وبعد أن لاحت أمارات الحرب الأميركية على العراق عام ٢٠٠٣، «وبعد سماعنا الخطب الحماسية التي كنتم تتفوّهون بها ودعواتكم للأمّة العربية إلى نجدة العراق، ومتأثّرين بكل الحماسة التي ضمّنتموها خطاباتكم»، توجّه العبسي إلى العراق من ضمن آلاف المقاتلين العرب الذين هبّوا لنجدة بلاد الرافدين، ليكتشفوا أنّ تنظيم القاعدة هو آخر ملاذ لهم، على ما رواه العبسي خلال لقائه أحد القياديّين اليساريين في مخيم البارد.

ويرى أحد علماء الدين الناشطين في طرابلس أن تسمية «القاعدة» ما هي إلا ترجمة عربية لكلمة «الأصل» في الإنكليزية. «وهي ضمّت هؤلاء العرب واللبنانيين ضمن صفوفها، إلى أن قرّرت التخلّص من ثقلهم، فأرسلتهم إلى لبنان، وإن حملت الصلات التحالفية العديد من التقاطعات مع الأجهزة الأمنية والقوى السياسية اللبنانية». وحين اشتدّ القتال في نهر البارد، وبدأت التغييرات

على مستوى قيادة فتح الإسلام، نطق شاهين شاهين باعترافه بالانتماء إلى القاعدة قبل أن يدرك أحد أن شاهين هو ابن الشيخ أسامة بن لادن نفسه. أما شاكر العبسي وعدد من القياديين في فتح الإسلام، فـ «لا شك أنّ في خلفية ذهنهم صورة المناضل غيفارا، وهم يسعون إلى التشبّه به»، كما يؤكد أحد علماء الدين الذين خبروا التجربة الماركسية قبل التحوّل إلى الإسلام الثوري والإيمان بأنّ الإسلام يمكنه تغيير المجتمعات وتحرير شعوبها.

العالم الدائريّ

يتوه مقاتلو القاعدة في دائرية العالم. يرسلهم التنظيم من مكان إلى آخر للشهادة والجهاد ضد أعداء الدين والأمّة، أي ضدّ «أعداء الله». ويمتلك الأميركيون آلاف الأسباب للوقوف في وجه القاعدة، ويكتفي كثير من اللبنانيين كعادتهم بتقليد ببّغائي لمسمّيات مجهولة: من «الاقتصاد الحرّ» الذي أوقع البلاد في إعاقات حُمِّلت حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦ كل نتائجها، إلى «مكافحة الإرهاب» التي ستزيد عدد الطائرات المحمّلة بالعتاد والسلاح وقذائف ١٥٥ملم العالية التفجير (بعد القذائف الكلاسيكية التي كانت بحوزة الجيش) والمترافقة مع مزيد من رغبات المتطوعين القاعديين في المجيء إلى لبنان للجهاد، رغم القرار الرسمي لقيادة القاعدة بالحفاظ على لبنان كمركز دعم خلفي إلى حين.

لم يعد هناك من مشاريع سياسية لتستوعب المناضلين العرب والكوادر التي صارت ترغب في الموت أكثر من رغبتها في تحرير شعوبها. ولم يعد هناك من مشاريع سياسية يمكنها الحياة إلا خلف بنادق الجنود اللبنانيين الذين مات منهم العشرات دفاعاً عن أخطاء كارثية سياسية وأمنية.

ويرى مراقب متابع لحركة القاعدة أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تطلّ القاعدة مجدّداً في لبنان(٣٧)، وقبل أن تخوض ما تفضّله هي من عمليات،

---

(٣٧) هو ما يحصل جزئياً في الإجابات التي يقدّمها الدكتور أيمن الظواهري على الإنترنت لجمهوره، حيث يقول في ٢٢ نيسان/ أبريل العام ٢٠٠٨ إن «للبنان دوراً محورياً في المعارك مع الصليبيين واليهود» داعياً الجهاديين إلى ضرب قوات الطوارئ الدولية وإسرائيل.

وبتوقيت يناسبها هي. ويضيف أن تنظيم القاعدة في لبنان لا يتحرك على وقع الثأر، بل يتحرك وفق حاجات موضوعية وجدول زمني يعنيه في صراعه الكوني ضد «الصليبية والصهيونية». وإن كان التنظيم قد غرق وأغرق معه الجيش اللبناني ونصف البلاد في حرب مخيم نهر البارد ففي المرة المقبلة سيثبت أن التنظيم تعلّم الدرس جيداً.

لقد تورّط تنظيم القاعدة في لبنان، ولكن من الذي لم يتورّط في لبنان؟ إلا أن هذا التنظيم الحديث تمكن من الصمود لأكثر من مئة يوم، في معارك نهر البارد وخاض قتالاً شرساً على مدار الساعات مع الجيش اللبناني قبل سقوط المخيّم على النحو المعروف.

إلا أن تاريخاً طويلاً من وجود عناصر القاعدة وعملهم في لبنان يقف في خلفية الصورة، وهو تاريخ لم ينقطع مع نهاية تنظيم فتح الإسلام وهروب من بقي من عناصره، ولا يبدأ من اللحظة التي اعترفت فيها السلطة اللبنانية على لسان مدير عام قوى الأمن الداخلي (الشرطة اللبنانية) اللواء أشرف ريفي في تصريح أدلى به في ٢٢ آذار/ مارس ٢٠٠٧ بأن القاعدة الموجودة في لبنان هي «قاعدة مزوّرة»، في إشارة إلى أنها من صنع سوريا، الجارة اللدود التي يرى الفريق الأكثري الذي ينتمي ريفي إليه أنها تقف خلف كل الشرور التي تصيب بلاده، وهو حتماً لا يبدأ من اللحظة التي اعترف فيها مدير المخابرات في الجيش اللبناني العميد جورج خوري في الرابع من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧ (بعد يومين من سقوط مخيم نهر البارد بأيدي الجيش) أن مَن واجههم الجيش اللبناني في المخيّم هم من عناصر القاعدة، بل يعود تاريخ هذه المنظمة في لبنان إلى زمن أبعد، ومنذ التسعينيات كانت تصدر قرارات وأحكام قضائية في لبنان بحق «أعضاء وسلفيين لتشكيلهم خلايا تابعة لتنظيم القاعدة الإرهابي» بحسب ما تذهب إليه الأحكام القضائية.

في ٣١ آب/ أغسطس من العام ١٩٩٥ اغتالت مجموعة سلفيّة الشيخ نزار الحلبي رئيس جمعية المشاريع، وشكل ذلك الحدث مفاجأة للقوى الأمنية والإسلامية إذ كانت المرة الأولى التي تقوم فيها مجموعة سلفية بعملية اغتيال في وضح النهار لأحد أعدائها، وعلى الرغم من اعتراف المجموعة بشكل واضح

وأمام حبل المشنقة أنّها مسؤولة وحدها عن الاغتيال، ربطت المعلومات بين هذه المجموعة الصغيرة، وعبد الكريم السعدي (أبو مِحجن) الفلسطيني الذي يتزعّم «عصبة الأنصار» في مخيم عين الحلوة شرقي مدينة صيدا الجنوبية.

ومنذ منتصف التسعينيات صار للقاعدة والمجموعات السلفية وجود في خلفية المشهد اللبناني، على الرغم من أن القوى السياسية المتعاقبة على الحكم والبرلمان، فضلاً عن القوات السورية، والتي كانت تدير الحياة السياسية في البلاد، كانت ترفض الاعتراف بوجود مجموعات قاعدية في لبنان. وكان على القاعدة أن تنتظر العام ٢٠٠٣، بعد اجتياح العراق، لكي تُنشئ مجموعات دعم وإسناد تقنية ولوجستية في لبنان.

ومع بداية الألفية الثالثة كان لبنان قد تجاوز لتوّه أزمة مجموعة الضنّية السنّية ذات الصلة بمجموعات جهادية خارج لبنان. وفي نهاية العام ٢٠٠٥ تمكّنت السلطات اللبنانية من اعتقال أول أفراد من سيعرف بشبكة الـ١٣، وعلى رأسها اللبناني حسن نبعة، وهي مجموعة تضمّ سعوديين وسوريين وفلسطينيين، وتعمل كشبكة دعم لتنظيم القاعدة والمقاومة العراقية، وتتحرك في لبنان وسوريا، وقد خاضت عدداً من المواجهات ضد المخابرات السورية في عدة مناطق حدودية في سوريا، حيث يروى أنها تمكنت من إسقاط مروحية سورية أثناء إحدى المواجهات.

وقد أثار اعتقال السلطات اللبنانية لهذه المجموعة وإخضاعها للتحقيق جدلاً كبيراً وخصوصاً أنها تدافع عن نفسها بأنها تنتمي إلى المقاومة العراقية، بينما ترِد في سجلّ اعترافاتها تفاصيل كثيرة لضلوعها في عملية اغتيال الرئيس رفيق الحريري، علماً بأن ثمة نقاطاً يمكن ان تبقى مدار نقاش حول دور هذه المجموعة في اغتيال الحريري، وكيفية انتزاع الاعتراف منها بهذا الشأن، وعلاقتها بشاب فلسطيني يدعى أحمد أبو عدس، ظهر على شريط فيديو معلناً أنه انتحاري نفّذ عملية اغتيال الحريري انتقاماً لتوقيعه على وثيقة إعدام من نفّذ اغتيال نزار الحلبي ولدوره في العراق.

وفي العام ٢٠٠٦ كان تنظيم «فتح الإسلام» لا يزال في بداياته حين تبنّاه قيادي في «الحركة الإسلامية المجاهدة» في مخيم عين الحلوة، وبدأ بالحصول على الدعم المالي من القاعدة لمصلحة «فتح الإسلام». كما درّب عناصر فتح الإسلام مسؤول التدريب في تنظيم «جند الشام» الذي يتمركز أيضاً في مخيم عين الحلوة. وبدأ العديد من العناصر الجهادية بالالتفاف حول «فتح الإسلام»، سواء من داخل لبنان أو تسللاً من سوريا.

وفي هذه الأثناء وقعت حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ في لبنان بين حزب الله وإسرائيل، واستغلّت المجموعات الجهادية الفرصة لكي تحشد القوى تحت شعار مقاتلة الصهاينة من ناحية، ولكي تستفيد من حالة الفوضى للعمل وتأسيس وجودها بحرية من جهة ثانية، كما أنها استوعبت قرار «الدولة الإسلامية في العراق» القاضي بترحيل المجاهدين الذين لا يملكون خبرات وقدرات عسكرية خاصة، ولا يجيدون الاختفاء في الأرض العراقية وبين السكان المحليين هناك، فاستقطبت «فتح الإسلام» العديد من هذه العناصر غير المرغوب فيها في العراق، ولكنها اضطرت إلى الانتقال نحو الشمال، وخصوصاً نحو مخيم نهر البارد، إذ كانت منظمة فتح في مخيم عين الحلوة تستعدّ «لتنظيف» المخيّم بالتعاون مع بعض الفصائل، أضف إلى ذلك وصول معلومات إلى عدد من المجموعات الجهادية في المخيّم مثل «عصبة الأنصار» تفيد بأن الجيش اللبناني سيوفّر الغطاء المحلي والإقليمي لحركة فتح لحظة بدء تنظيف المخيّم من المجموعات الجهادية، وكان الجيش في نهاية حرب تموز/يوليو قد نفّذ انتشاراً واسعاً في جنوب لبنان، وخصوصاً جنوبي نهر الليطاني، تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدولي الرقم ١٧٠١. وكان مما يثير قلق الجيش اللبناني وجود الجهاديين في مخيم عين الحلوة، على بعد كيلومترات قليلة من الاثني عشر ألف جندي من قوات الطوارئ الدولية في جنوب لبنان، وهم الذين وصلوا إلى البلاد للإشراف على تطبيق القرار الدولي سالف الذكر.

أضف إلى ذلك أن «فتح الإسلام» صنّفت شمال لبنان كمنطقة صديقة نتيجة عوامل طائفية، وبعد اللقاءات التي تمّت مع إسلاميين سلفيين رحّبوا بوجود

الحركة في الشمال، ومع بعض النواب الذين يمثلون تياراً سياسياً سنّياً واسعاً.

ومع تمركز فتح الإسلام في شمال لبنان وقع أول اشتباك بينها وبين حركة فتح في مخيم البدّاوي، فانسحبت نحو مخيم نهر البارد بشكل كامل، وأعلنت عن وجودها رسمياً في بيان إعلامي أطلقته في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر العام ٢٠٠٦، موضحة أنها انتفاضة على «فتح الانتفاضة»، لكن الأمر كان أبعد من ذلك بكثير إذ كانت عشرات المجموعات الصغيرة من تنظيم القاعدة تتحرك وصولاً ومغادرة للبنان، سواء من المعابر الشرعية أو تسللاً عبر الحدود اللبنانية السورية. وأهمّ هذه المجموعات هي مجموعة عبدالله خ. التي ضمّت كوادر من تنظيم القاعدة، دخلوا لأيام إلى مخيم نهر البارد قبل أن ينتشروا في لبنان منشئين شبكاتهم الخاصة الصغيرة والمتغلغلة في كل منطقة تضمّ كثافة سكانية سنّية.

وفي نهاية العام ٢٠٠٦ وصل إلى لبنان الكادر في تنظيم القاعدة أحمد التويجري واسمه الحقيقي فهد المغامس وهو سعودي الجنسية حيث عقد العديد من اللقاءات مع كوادر فتح الإسلام ومع المجموعات السلفية اللبنانية، ولم تقتصر لقاءاته على شمال لبنان بل شملت كل المناطق اللبنانية، قبل أن يغادر البلاد.

وفي هذا الوقت كانت عمليات رفد «فتح الإسلام» بالعناصر لا تزال متواصلة، وتزايد عدد أعضاء التنظيم من جميع الجنسيات العربية تقريباً، وبعض الروس والشيشان والأتراك وغيرهم.

وكان العديد من الجمعيات السلفية في لبنان يحصل آنذاك على مساعدات من الكويت والسعودية خاصة، سواء من الجهات الحكومية أو من «المجاهدين بأموالهم» أي المتبرعين الداعمين للجهاد. وعملت الجمعيات السلفية، بتشجيع من ممموليها ومن تنظيم القاعدة، على اللقاء لمواجهة المدّ الشيعي، في ظلّ تأزّم سياسي لبناني داخلي، تحت وطأة اشتباكات عابرة حصلت بين بعض السنّة والشيعة كما بين المعارضة والموالاة. وبرز في هذه الفترة بشكل خاص نشاط لجمعيات مثل: الاتحاد الإسلامي، وقف التراث الإسلامي في طرابلس، وقف الأحياء الإسلامي في طرابلس، وقف النور الخيري في شبعا والعرقوب، وقف البر الخيري في الضنّية، وقف المركز الإسلامي ومسجد عبد الرحمن بن عوف

في البقاع، جمعية الإرشاد ومدرسة الإبداع في عكار، ويظهر من أسماء هذه الجمعيات أنها تنتشر على الأراضي اللبنانية كافة.

وأغمضت سوريا عينيها عن حركة تنظيم القاعدة، تاركة أعداءها السياسيين في لبنان، من تيار المستقبل إلى الجهاديين اللبنانيين، يغرقون في خياراتهم، كما أنها أحكمت الطوق على القوى الجهادية السورية التي كانت تعبر من لبنان إلى سوريا ومنها إلى العراق وبالعكس، فتخلصت من العديد من هذه القوى والمجموعات التي فضلت حرية الحركة في لبنان على الموت المجّاني على الحدود السورية العراقية أو السورية اللبنانية.

وفي بداية شهر أيار/ مايو العام ٢٠٠٧ كانت مجموعات فتح الإسلام قد بدأت بالتدريب في المنية وعكّار والضنّية وغيرها من المناطق الشمالية، وكانت هذه المجموعات قد تمددت خارج المخيّم الذي يقطنه ٤٠ ألف فلسطيني، لتحتل كل البقاع المعزولة في شمال البلاد والتي يمكنها أن تتدرب فيها بعيداً عن أعين الفضوليين، إلى أن انفجر كل شيء ليلة ١٩- ٢٠ من شهر أيار/ مايو.

وقبل الانفجار كان يمكن تسجيل وجود ٢٤ مجموعة لتنظيم القاعدة في لبنان: من بداية العام ٢٠٠٦ وحتى ٢٠ أيار/ مايو ٢٠٠٧، سجّلت زيارات لكوادر، ودخول مجموعات مقاتلة، ومغادرة مجموعات قاعدية بعد تلقيها التدريبات نحو دول أوروبية من فرنسا إلى بريطانيا إلى هولندا وألمانيا. وكان تنظيم القاعدة قد أنشأ بالتعاون مع فتح الإسلام شبكة ضخمة لن يتم ضربها في حرب نهر البارد. وكانت عمليات استيراد السلاح من سوريا تهريباً ومن تجار محليين قد اكتملت، إضافة إلى وضع يد «فتح الإسلام» على مخزون «فتح الانتفاضة» في مخيم نهر البارد.

وما ذكرته قيادة الجيش في مؤتمرها الصحافي في ٤ أيلول/ سبتمبر عن أعمال قامت بها فتح الإسلام من تفجيرات في بيروت وضد قوات الطوارئ الدولية وصولاً إلى اغتيالات لشخصيات سياسية، إضافة إلى النتائج التي توصلت إليها التحقيقات مع أكثر من ٢٠٠ موقوف من التنظيم ومن السلفيين والجهاديين، كل ذلك يؤكّد الدور الكبير الذي لعبه التنظيم بصفته جزءاً من القاعدة في لبنان.

إلا أن ذلك يثير لدى المتابعين سؤالاً حول عدم إشارة الرجل الثاني في تنظيم القاعدة الدكتور أيمن الظواهري إلى ما يجري في شمال لبنان من أعمال عسكرية، بينما يشير بالمباركة إلى عملية تفجير جنود من القوات الإسبانية العاملة في إطار القوات الدولية في جنوب لبنان قامت بها مجموعة قريبة من «فتح الإسلام». ولعلّ تفسير هذا التجاهل يتمثّل في ما قاله شاهين شاهين: «لقد تم توريطنا في معركة ليست لنا...»، وكان التنظيم ينظر بغير عين الرضا إلى تورط أكبر تجمّع لعناصر موالين له ومناصرين لقضيته، بعد تجمّعاته في العراق، في حرب ضمن دائرة مغلقة في مخيم معزول، ودون آمال كبيرة بالانتشار في كل المناطق. ويبدو أن تنظيم «فتح الإسلام» شكّل في نظر القاعدة فرصة ضائعة، وأضاع معه حرية حركة تمتعت بها في لبنان، وسمح للجيش بالقيام بمئات عمليات المداهمة والمطاردة والاعتقال.

أضف إلى ذلك أنه منذ لحظة اشتعال المعارك العسكرية تخلّت كل القوى السياسية، وتلك السلفية، عن أنصارها من «فتح الإسلام» وقياداته، وبات حتى الجهاديون في جنوب لبنان ومخيم عين الحلوة في حال الخطر. إلا أن ذلك لم يمنع كوادر القاعدة من التحرك وإن بصعوبة، كما لم يمنع السلفيين من ترداد عبارات الثناء على الصامدين في مخيم نهر البارد وإن كان هذا الثناء لا يتم إلا في المجالس الخاصة والمغلقة.

انتهت حرب نهر البارد بعد تمكن أكثر من ١٥٠ عنصراً وقيادياً في فتح الإسلام من الفرار بحسب ما ذكر أحد الذين تمكّنوا من الفرار، وبسطت السيطرة العسكرية على المخيّم، ومُنعت الهيئات المدنية والإنسانية من دخول المخيّم الفارغ، كما منع التصوير في محيطه وعملت جرّافات الجيش اللبناني على إزالة آثار المعارك فيه.

وعلى عكس ما هو متوقّع بعد ضربات عسكرية مشابهة، فالقاعدة التي لم ترضَ بتوريطها في مواجهة مباشرة مع القوى الأمنية اللبنانية، لم تخفف من نشاطها بعد انهيار الهيكل الصلب لها في لبنان أي تنظيم «فتح الإسلام»، بل نشطت في العديد من المناطق وخاصّة في مخيّم عين الحلوة وفي بعض مناطق

البقاع السنية، وفي بيروت في أحياء شعبية وفقيرة. وساهم في تطور نشاطها اليومي استمرار التأزّم السياسي في البلاد، وارتفاع حركة التسلّح بين الأطراف اللبنانية، وتدريب عناصر قتالية تابعة لكل مجموعات الأزمة اللبنانية.

بعد انتهاء فصول «فتح الإسلام» لم يتراجع التيار السلفي عملياً، بل عزّز من انتشاره، ولم تنته مغامرة القاعدة في لبنان، وصار العديد من المواقع الإسلامية السنّية في معظم المناطق اللبنانية يعمل على تعبئة الرأي العام الإسلامي تحت شعارات مثل احتجاج على المسّ بالمعتقدات والاعتداء على الحرمات. وتمّ تجنيد عشرات من المناصرين المستعدين لمغامرات أخرى، وإن كان تنظيم القاعدة فضّل هذه المرة إعادة بناء مجموعاته بعيداً عن الأضواء، ومتجاوزاً ما كان يزعجه من علانية مارسها تنظيم «فتح الإسلام». ولا يخفى تعاطف المتعلمين والطبقة الوسطى السلفية مع القاعدة في لبنان، كما لا يخفى تأييد السلفيين الفقراء، والذين يتم التعرّض لهم من قبل القوى الأمنية بشكل دائم، إضافة إلى تأييد كبير تحظى به القاعدة من قبل أبناء الطائفة السنّية الراغبين في الجهاد ضد أميركا في العراق وضد إسرائيل، بعد أن تعرّضوا للقمع أعواماً طويلة من قبل السلطات اللبنانية والجيش السوري الذي حكم لبنان.

ومهما يكن من أمر فإن عنوانين يجذبان القاعدة في لبنان، ويشكلان مدخلاً لها إلى الصراع الكوني، أولهما تصاعد المطالبة بتسليم سلاح المقاومة الذي تصوّره غالبية الأطراف السنّية بأنه سلاح الشيعة في لبنان وسلاح المحور الإيراني السوري الذي يرتبط به حزب الله عضوياً، والمدخل الثاني هو دور الطائفة السنّية في لبنان، حيث تنازع هذه الطائفة اليوم لتأخذ موقعاً في المعادلة السياسية يفوق موقع الموارنة في البلد المحكوم من رئيس ماروني، ويعادل أو يفوق موقع الشيعة الذين كرّس الجيش السوري انتصارهم عبر إمساك حركة أمل ورئيسها نبيه بري بمواقع وظيفية مهمّة في السلطات الرسمية، والدعم الذي تلقاه من النظام السوري.

وبعد معارك البارد صار يمكن رصد مواقع متعددة على شبكة الإنترنت، تعلن تأييدها لتنظيم القاعدة، وتنعى «شهداء فتح الإسلام» وتعلن وجود تنظيم القاعدة

في لبنان، وبعضها يبشر بأن القاعدة ستعمل بثقل في لبنان كما هي في العراق، ويورد أحد المواقع العبارة التالية «صبراً يا أهل التوحيد فالقاعدة قادمة إلى لبنان: نهاية البارد.. بداية القاعدة». كما ظهر موقع رسمي لحركة فتح الإسلام، وأعلن انتقال شاكر العبسي من لبنان إلى العراق، ونعى عدداً من القياديين في قيادة فتح الإسلام خلال معارك نهر البارد، ونشر البيانات الثلاثة اليتيمة للتنظيم الذي قرر الانتقال من لبنان كما يبدو، وعرض بعض الصور والمواد الأرشيفية. وأعلن هذا الموقع الرسمي لفتح الإسلام عمل التنظيم في «أرض الرباط» أي فلسطين، مظهراً قدرة صاروخية محلية الصنع يملكها التنظيم هناك وبعض الصور البسيطة لتدريبات تجري قرب بحر غزّة.

إلا أن كل الرصد والتحليل الممكن تقديمه لا يزال يشير إلى أن الطبقة السياسية في لبنان وبخاصة السنّية منها فهمت درس نهر البارد، وأن التعاون مع المجموعات الجهادية كلفتُه باهظة، وأن القاعدة تحفر بنى تحتية أعمق بما لا يقاس مما قد تتطلّبه مناورات سياسية محدودة، كما أن القاعدة أو الجهاديين لا يمكن ضمان توجهاتهم السياسية بل يمكن فقط التعاون معهم على نقطة محددة، بينما تحتاج القاعدة إلى لبنان كقاعدة خلفية، وكمراكز للتدريب والإعداد وربما كممرّ آمن لعناصرها من الدول العربية إلى العراق، ومن العراق، كما من لبنان، إلى أوروبا. كذلك ترغب القاعدة في جعل لبنان مركزاً لتطوير تقنياتها وتعمل فيه خلاياها على اختراعات خاصة بالتنظيم، كمثل طائرات مسيّرة لاسلكياً يمكنها حمل ٣٠ كيلوغراماً من المتفجرات، أو أجهزة تفجير لاسلكية قادرة على تجاوز التشويش الذي تبثه عربات الهامفي الأميركية في العراق، أو برامج كومبيوتر تمكن قياديي القاعدة من الارتباط بعضهم ببعض في الدول المختلفة عبر الإنترنت دون الخضوع لمراقبة وكالات المخابرات المحلية، ولا حتى وكالة الأمن القومي الأميركية.

وتتفرّع التنظيمات الجهادية في لبنان إلى العشرات، وبعضها لا يعلم حتى بأنه يتلقى الدعم المالي من القاعدة بصورة غير مباشرة، إلا أن معظمها يعمل في سياق مرتبط مباشرة بالتنظيم الدولي. ولا يضير هذه المجموعات بعض التمويه

الذي تمارسه، وهي لا تنفكّ تتوسّع بين الناس مستقطبة الآلاف من الشبان المتعبين من صراع سياسي محلّي مسدود الأفق، ومن صراع سياسي مع إسرائيل لم يتقدم لحظة لمصلحة العرب، كما يأكلهم الحسد من الشيعة الذين تمكنوا من السيطرة على المقاومة ضد إسرائيل، ويغذّيهم الفرح بضربات القاعدة للغرب، ونجاحها المحدود في المقاومة في العراق. ويتّجه جيل شاب نحو المساجد حيث تتمّ تعبئته بالفكر السلفي الجهادي، وسط شلل واهتراء تعيشه هيكلية الطائفة السنّية الرسمية في لبنان، هذا فضلاً عن انعدام أفق تسوية ما مع إسرائيل، أو تراجع أميركي عن كمّ كبير من الإهانات الموجّهة إلى المسلمين في العالم، كل ذلك يدفع بالجيل الشاب إلى الدخول للصلاة في المساجد والخروج منها مقتنعين بأن الحل هو الإسلام والطريق هي القاعدة، ويساعدهم على السير في هذه الطريق دعم مالي كبير تقدّمه دول تعتمد السلفية كفكر رسمي من السعودية إلى قطر.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

يكشف هذا الكتاب للمرّة الأولى عن التاريخ المكتوم للحركات السلفية والجهادية في لبنان وارتباطاتها في الخارج، ماضياً وحاضراً.

فالحرب التي جرت في مخيّم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان بين الجيش اللبناني ومنظّمة فتح الإسلام، فتحت الباب على مصراعيه أمام أسئلة حاول الكاتب الإجابة عنها: من هم هؤلاء الجهاديون؟ من أين أتوا؟ ما الذي أتى بهم إلى لبنان؟ ماذا يريدون؟ وماذا بعد نهر البارد؟

يتوغّل الكاتب في كل الملابسات والخلفيّات والتورّطات التي سبقت وواكبت وتلت ما حدث فعلاً في نهر البارد. ويُدرج الأحداث في سياق طويل ومتداخل العناصر وبالغ التعقيد لتنامي الحركات الإسلامية السلفية والجهادية في لبنان، منذ أواسط القرن الماضي، مروراً بمرحلة الجهاد ضدّ الاحتلال الإسرائيلي وتعقيدات الوضع اللبناني الداخلي واغتيال الرئيس رفيق الحريري، وصولاً، وليس انتهاءً، إلى زمن القاعدة وارتداداته على الساحة اللبنانية.

فداء عيتاني: صحافي ومحقّق في جريدة "الأخبار" اللبنانية. شارك في تغطية الحروب والعمليات الحربية الإسرائيلية ضدّ لبنان منذ العام ١٩٩٣. صدرت له مجموعة قصصية "نهاية الروح الحزينة" ورواية "عن حياة لا تغادرنا".






ISBN 978-1-85516-027-9